كتاب

التاج

في

أخلاق الملوك

للجاحظ

تحقيق
الأستاذ أحمد زكي باشا

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

كتاب

التاج

كتاب التاج

فى

أخلاق الملوك

للجاحظ

بتحقيق
الأستاذ أحمد زكى باشا
كاتب أسرار مجلس النظار

(الطبعة الأولى)
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

كتاب التاج

للجاحظ

بتحقيق أحمد زكى باشا

فذلكة المضامين

١ — فهرس التصدير

لأحمد زكى باشا محقق هذا الكتاب

(أرقام هذا الفهرس موضوعة فى أسفل الصفحات)

صفحة

(يليه فهرس كتاب "التاج")

٢ — فهرس كتاب "التاج"
للجاحظ

صفحة

بابٌ فى المنادمة

باب فى صفة ندماء الملك

صفحة

خاتمـــــة الكتاب

(يليه "الملحقات")

٣ — ملحقات الكتاب

٤ — الفهارس الأبجدية لكتاب "التاج"

٥

تصدير

لكتاب "التاج"

بقلم محققه

الأستاذ أحمد زكى باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لمحقق هذا الكتاب

"واجبٌ على كلّ ذى مقالة أن يبتدئ بالحمد قبل آستفتاحها، كما بُدئ بالنعمة قبل آستحقاقها"(1).

نظرة عامة في الكتاب ومؤلفه.

وبعدُ، فهذا الكتاب، كتاب "التاج". وهو المشهور أيضا بكتاب "أخلاق الملوك".

هذا الكتاب: وضعه الجاحظ أيامَ كانت بَغدادُ دارَ السلام، وقُبّة الإسلام، ومركز الخلافة، وجنّة الأرض، وقطب العالَم، ومعدن الظرائف، ومنشأ أرباب الغايات، أيامَ كان العراق بستانا زاهرا بأنوار المعارف والمعالى. وكانت أمصارُه وقُراه مناهلَ عذبةً يزدحم عليها طُلّاب العلوم والآداب.

هذا الكتاب: قد ضمّنه الجاحظ طائفة كبيرة من نظامات الدولة العباسية على عهده، مما تقرّاه هو بنفسه أو كان متعارفًا فى عصره. ولقد أودعه ماوصل إليه علمُه مما يندمج تحت هذا الباب من الرسوم والاصطلاحات التى كانت فاشية بين العرب أو شائعة فى صدر دولتهم، على مابلغ المؤلِّفَ بالسند المتصل عن الحجة الصادق والثقة الأمين.

---

(1) هكذا صدَّر سهلُ بن هارون أحد كتبه، وكان معاصرا للجاحظ. أُنظر "البيان والتبيين" (ج 1 ص 188).

هذا الكتاب: قد جعله الجاحظ مرآةً تتجلى فيها مشاهد الخلفاء والأكابر في حفلاتهم الرسمية وحشودهم العامة، إلى ما هنالك من طرائق ملوكية[1] وترتيباتٍ سياسيةٍ اقتبس العربُ بعضَها من الفُرْس حينما دالت الدولة إلى الإسلام، واجتمعتِ الكلمة في العرب الكرام: لا سيّما بعد ما سادت المسوِّدة[2] من آل عبّاس، وخفقت على رؤوسهم البنود والأعلام، وجلس على سرير الخلافة سابعهم، الميمون النقيبة، المبارك الناصية، وأعني به المأمون بن هارون. وكان ذلك بفضل أشياعه وأوليائه من أهل خُراسان وما والاها، على ما هو معلوم.

هذا الكتاب: نتعرّف به مقدار التأثير الكبير الذى كان للحضارة الفارسية فى الحضارة الإسلامية على عهد العباسيين، حتّى لقد ينسى الجاحظ خُطّته ومِنهاجه فيسْرُدَ بعض عاداتِ الفُرْس ورسومَهم القديمة، كأنها مألوفةٌ فى تلك الأيام، وهى مما لا يمكن أن يكون تحت حكم الإسلام[3].

(١) هذه النسبة قد استعملها كثير من فحول البلغاء. قال الجاحظ: "ولو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية، لقلنا. ولو كان خلاف ذلك ألذّ، لكانت الملوك بذلك أولى". أُنظر كتاب الحيوان. (ج ١ ص ١٣٧). وقال الهمْدانى فى "صفة جزيرة العرب": وبها آلة الحرير النفيسة الملوكية (ص ٢٠٢) — ومعلوم أن الإمام ابن جنى ألف كتابا سماه "التصريف الملوكىّ".

(٢) كان السواد شعاراً لبنى العباس، وكان أشياعهم يرتدُون به. ولذلك سماهم التاريخ "المسوِّدة" [بكسر الواو المشدّدة]. أما بنو أُمية فكان شعارهم البياض، وذووهم والمنتصرون لهم يسمون "المبيِّضة" [بكسر الياء المشدّدة]. وقد اصطلح الكتّاب والمؤرّخون على أن يقولوا: "سوَّد أهل المدينة الفلانية" أو "بيَّضوا" دليلا على انضوائهم تحت لواء العباسيين أو انضمامهم إلى بنى أمية.

(٣) أُنظر حاشيتَى (رقم ٤ من ص ١٤٦)، ثم (س ١١ من ص ١٦٠) من كتاب "التاج". وفيه مواضع أخرى كثيرة من هذا القبيل.

هذا الكتاب : شرح لنا فيه الجاحظ أحوال أمراء المؤمنين، وسادات المسلمين في أَخْوِيَتِهِمْ (1) الخصوصية، وفي أنديتهم العمومية، ووقفنا فيه على سَمَرِهم في سَهَرِهم، وقَصَفِهم في ليالي أنسهم، إلى ما كانوا يصنعون في مجالي حظّهم، ومسارح لهوهم، ومراتع طربهم. وناهيك بمجالسهم في الأغاني والمنادمة، ومجامعهم في الملاعبة والمداعبة، ومشاهدهم في المسايرة والمباسطة !

هذا الكتاب : فيه تبصرةٌ لنا بأساليب القوم في اللّبس والطّيب وغير ذلك من الرسوم والآداب التي كانت معتبرةً لدى السَّراة والأماثل في أيام العرب، وفيما بعد الإسلام.

هذا الكتاب : تدلُّنا عباراته على أن الجاحظ استخدم بعض التصانيف التي وضعها الفُرْس في هذا المعنى (2). بل نراه قد انساق بعامل الاستمرار في النقل عنها إلى إيراد بعض السُّنن التي قلنا إنها لم يبق لها مجالٌ بعد ظهور الإسلام (3). لذلك يغلب على ظني أن المؤلف استعان بالكتب التي نقلها المترجمون من الفارسية إلى العربية في أيام

(1) مفرده "خِبَاء" وزان كتاب. وهي جماعة البيوت المتدانية. وقد استعمل الجاحظ "الأخوية والأندية" في كتاب "البخلاء" (ص 235)، فقال: "إن صاحب المأدبة وولىّ الدعوة إذا جاء رسولُه — والقومُ في أخويتهم وأنديتهم — فقال: أجيبوا إلى طعام فلان. فجعلهم جَفَلَةً واحدة — وهي الجُفالة — فذلك هو المحمود. وإذا انتقر، فقال: قم أنت، يافلان، وقم أنت، يافلان. فدعا بعضا وترك بعضا، فقد انتقر". [والنَّقَرَى هي المذمومة]. وقد ورد في طبعة العلامة فان فلوتن "أخويتهم" بالخاء المعجمة. ولا وجه للإعجام في هذا المقام، والإهمال هو المتعين في هذه الحال.

(2) أُنظر (ص 19 و 23) من كتاب التاج.

(3) نقل الجاحظ صفحات كاملة من آيين الفرس وتواقيعهم. [أُنظر (ص 145 — 150) من كتاب التاج، وانظر أيضا (ص 158 و 159 — 163 ثم ص 173)]. فقد توسل بهذين الاستطرادين الطويلين العريضين لإيراد ثلاثة سطور ثم سطرين.

أبى جعفر المنصور، ومَن كان قبله من بنى مَرْوان، ومَن أتىٰ بعده من سُلالة هاشم .

ولعلّه يكون قد آعتمد أيضا علىٰ كتاب "التاج" المصنَّف بآسم كسرىٰ أنوشروان ، ذلك الكتاب الذى فسّره آبن المقفّع ،وهو لا يزال إلىٰ الآن سرًّا مكتوما فى ضمير الزمان .

هذا الكتاب : يتضمن من أساليب التعبير والتفكير مالا يكاد يجرى به قلمٌ غير قلم الجاحظ ،أو يرتع فيه رجل سوىٰ شيخ الأدب ،أو يتجمع فيه غير ذلك العميد لكلّ مفيد ومستفيد .

✣ ✣ ✣

النسخة الأولىٰ هذا الكتاب

ظَفِرْتُ بنسخةٍ مخطوطة منه فى خزانة طُوبْ قَپُو (١) بمدينة القُسطنطينية فى مجلّدةٍ ـ هى لعمرى! ـ من أنفس الذخائر التى خلّفها الأوائل للأواخر. ذلك بأنها تحوى ثلاثة كتب قيّمة :

١ ـ كتاب الآداب (٢) ، لآبن المقفع ؛

٢ ـ الأدب الصغير (٣) ، له أيضا ؛

٣ ـ التاج ، للجاحظ .

---

(١) تحت (رقم ٢٤١٧ ورقم ١٣٣ أدب) .

(٢) وقد حققنا أنه " الأدب الكبير " بعينه ، كما أشرنا إليه فى طبعتنا الأولىٰ وكما بيناه فى التصدير الذى وضعناه فى مقدمة طبعتنا الثانية التى شرعت جمعية العروة الوثقىٰ بالاسكندرية فى إصدارها فى هذه السنة (١٩١٤) .

(٣) وفى آخر صفحة منه ما نصه : " يتلوه كتاب " التاج " للإمام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ورحم جميع المسلمين ! " .

فسرعانَ ماتجرّدتُ لنقل هذه المجلّدة من أولها إلىٰ آخرها بالتصوير الشمسيّ! وقد أحضرتُها معي ـ إلىٰ مقرّها الأصيل علىٰ ضِفاف النيل ـ في جملة ماتصيّدتُهُ من مفاخر العرب وكنوز الإسلام : من غُرر التصانيف وروائع الأسفار .

غير أن هذه المجلّدة لاتحتوى ـ لا فى أولها ولا فى آخرها ـ علىٰ شيء من البيانات التاريخية التى توجد عادة فى الكتب المخطوطة . فهى خِلْوٌ من كلِّ أثر للمعلومات التى تدل الباحث علىٰ آسم الخزانة التى كُتبتْ برسمها، أو علىٰ آسم مالك هـذه النسخة، أو علىٰ الذين آلت إليهم، أو علىٰ كاتبها، أو علىٰ سنة نَسْخِها وموضع كتابتها، أو علىٰ مقابلتها بنسخة أخرىٰ، ونحو ذلك من التفاصيل الجزئيـة أو العرضية التى قد يكون من ورائها فائدة كلية أو جوهرية فى معرفة تاريخ الكتاب وهويّته وماهيّته .

وغاية ما يوجد فيها من هذا القبيل هو تعليقة مكتوبة فى أسفل طرّة المجموعة ، تفيد أن رجلا آسمه "يوسف الحلبي" قرأها من أولها إلىٰ آخرها، وأن ذلك كان فى سـنة ٨٩٤ هـ . فيجوز أن تكون هـذه النسخة مكتوبة فى حلب نفسها أو فى القاهرة .

وهذه المجموعة مشكولةٌ من أولها إلىٰ آخرها بالحركات . علىٰ أنّ هذا الضبط مما لايصح الآعتداد به أو الآعتماد عليه فى كثير من الأحيان، إن لم نقل فى أغلب الأحوال .

ولكنها ـ مهما كان الأمر ـ من ذخائر مصر . إذْ أن حَلَب كانت فى ذلك الوقت عُمالة تابعة لسلطان مصر (وهو السلطان قايتباى المحموديّ المشهور) . وبقيت فى حوزة خلفائه إلىٰ أن آنتزعها السلطان سليم العثمانى من السلطان قانصوه الغورى فى سنة ٩٢٢ للهجرة . فلا بدّ أن تكون هذه المجموعة قد وصلت إلىٰ القسطنطينية

فى ضمن الغنائم التى آستولى عليها السلطان العثمانى ، فإنه نقل خزائن الكتب فى جملة[1] ما انتقل إلى ضفاف البوسفور من ذخائر وطننا وتحفه وطرائفه .

فاما "الأدبان" لابن المقفع ، فقد أكملت طبعهما على مايليق بمكانتهما فى عالم الأدب والتصنيف ، و بمقام مؤلفهما المنقطع النظير[2] . وكان ذلك بالإسكندرية : مدينتى التى بها درجتُ ، وفيها ترعرعتُ ، وإليها آنتسبتُ . قدمتهما هدية لجمعية " العروة الوثقى " القائمة بنشر العلم والتهذيب فى أرض أحنّ إليها وأحنو عليها .

أما "التاج" وهو هذا ، فإنه يقع فى ١٥٨ صفحة بخط نسخى من النوع المصرى الذى كان مستعملا فى القرن التاسع للهجرة . وكل صفحة منه تتألف من ١٥ سطرا . وليس على طرّته أوعلى خاتمته بيانٌ من البيانات التى توجد عادة فى أوائل المخطوطات وأواخرها سوى ماعلى طرّة المجلدة التى هو فى ضمنها مما يدل على قراءة هذا الكتاب فى سنة ٨٩٤ وأن القارئ له هو "يوسف الحلبى" الذى سبق لنا الكلام عليه .

اعتمدتُ هذه النسخة وآنقطعتُ إلى تحقيقها حولين كاملين حتى وصلتُ بها إلى الغاية التى جعلتُها نُصب عينى بما آنتهى إليه وُسْعى و بلغه مدى جَهدى . و يعلم الله ـ ويشهد الكثير من أخصّائى الذين كانوا يترددون علىّ بمصيفى برمل الإسكندرية

---

(١) أنظر مقالتنا باللغة الفرنسية على الفنون الإسلامية والسبيل إلى إحيائها على ضفاف النيل :

Le Passé et l'Avenir de l'Art Musulman en Egypte (**Mémoire** sur la genèse et la floraison de l'art musulman et sur les moyens propres à le faire revivre en Egypte), par **Ahmed Zéki Pacha.**

Le Caire 1913, p. 15.

(٢) وقد قررتْ نظارة المعارف العمومية آستعمالهما فى مدارسها ، ونالا من فضل الشيوع والآنتشار ماهو خليق بفضل مؤلفهما القدير .

أو "بخزانتى الزكية" فى القاهرة ـ أننى راجعتُ فى هـذه السبيل أكثر من خمسمائة ديوان فى اللغة والأدب والتاريخ، وأننى كنتُ فى بعض الأحوال أفوز بنيل الأمل[1]، ولكننى فى أكثر الأحيان كنتُ أرضىٰ "من الغنيمة بعد الكدّ بالقفَل!".

✣

تحقيق بشأن هذا الكتاب

الجاحظ هو صاحب تلك البـدائع الروائع التى يتطلع إليها أهل الأدب من العرب ومن غير العرب. ولقد آمتاز هذا النابغة بمزيّة لم يَشْرَكْهُ فيها إلىٰ اليوم أحَدٌ غيره من المتقدمين والمتأخرين: بين الشرقيين أو الغربيين. تلك المِيزة ـ ولا أدرى أهذه التسمية مطابقة لمرادى أم لا ـ هى أن نَفَثاتِ صدره ونَفَحاتِ قلمه ماعتّمتْ أنْ أصبحتْ مَتاعا مُشاعا ونَهْبًا مُقَسَّما بين فُرسان الكتابة وقُرصان الأدب. فقديمًا سطا عليها المتقدمون من أرباب الأقلام، ثم هذه بقاياها التى وصلتْ إلينا: لاتزال ملكا مُباحا لكل مَن يتعاطَوْن الإنشاء، يرونها طُرْفة لكل خاطف، وثمرة لكل قاطف.

قاعدةٌ قررها القاضى الفاضل، وناهيك بمكانته التى لم يصل إليها أحد من بعده! أفما تراه قد سجّل آعترافه علىٰ نفسه، وشَرَعَ هذا المورد لمن آقتدىٰ به أوحاول الجرى علىٰ سَنَنِه، منذ قال كلمته المأثورة: "وأما الجاحظ، فما منا معاشر الكُتّاب إلا مَن دخل داره، أو شنَّ علىٰ كلامه الغاره، وخرج وعلىٰ كتفه منه الكارَه"[2]؟

(١) لذلك آقتصرتُ فى الفهرس الأبجدىّ الأوّل من الفهارس الملحقة بهذا الكتاب علىٰ سرد المصنفات التى آنتفعتُ بها أو نقلتُ عنها أو أشرتُ إليها فى الحواشى وفى تكميل الروايات.

(٢) روىٰ هـذه الكلمة آبن فضل الله العمرى صاحب "مسالك الأبصار" والصفدىّ صاحب "الوافى بالوفيات" وآبن شاكر صاحب "عيون التواريخ" فى ترجمتهم لجاحظ. [والكارة: ما يحمله الرجُل علىٰ ظهره من الثياب. وهى تقارب التى نسميها الآن فى مصر "بُقْجة". كلمة تركية. وعربيتها الفصحىٰ "عُكْمَة"].

حُكْمٌ اعتمدته الجماعة، وقابلته بالسمع والطاعة، وما زالت تدأبُ فى تنفيذه إلىٰ هذه الساعة ! حتى إن المتصفِّح لدواوين الأدب لَيرَىٰ كثيرا من المتقدمين والمتأخرين ينقلون عبارة الجاحظ برُمّتها فينسخونها نسخا، وآخرين يبترونها بترا أو يمسخونها مسخا. وكأنّى بهم قد تمالؤُوا كلهم علىٰ عدم الإشارة إليه، اللهم إلا فى النادر.

أمرٌ يراه الناظر فى تضاعيف هذا الكتاب وأعطافه، وفيما علّقتُهُ عليه من الحواشى والشروح، وفيما أضفتُهُ إليه فى "تكميل الروايات"[1].

✦ ✦ ✦

ما آسم هذا الكتاب ؟

لكنّ العجب العُجاب، أنه مع كثرة الناقلين عن هذا الكتاب، لم يُشر إليه واحدٌ منهم علىٰ الإطلاق ! بل إننى لم أعثر علىٰ آسمه فى كل ما وقفتُ عليه من أسفار المتقدمين والمتأخرين، مع شدّة التنقيب والبحث، ومداومة التقليب والحرث[2].

زد علىٰ ذلك أن التاريخيين الذين كتبوا لنا سيرة الجاحظ، وأن الأخباريين الذين أفادونا بعض ما له من الكتب والرسائل، لم يشيروا قطُّ إلىٰ هذا الكتاب بآسم "كتاب التاج"[3].

(١) وآنظر أيضا الجدول المتضمن للكتب الناقلة عن "التاج" فى ص ٦٩ التالية.

(٢) فى "أساس البلاغة": "حرث القرآن: أطال دراسته وتدبُّره". وفى "تاج العروس": "الحرث تفتيش الكتاب وتدبره ... وفى حديث عبدالله: أُحرثوا هذا القرآن، أى فتّشوه وثوّروه". ومثل هذا فى لغة الفرنسيين لحرث الأرض ولحرث العلم، فيقولون: Cultiver une terre وCultiver une science

(٣) مع أنه هو المكتوب علىٰ طرّة النسخة المحفوظة بخزانة طوب قبو، كما تراه فى أحد الرواميز الفتوغرافية التالية لهذا التصدير (ص ٧٣). ومع أنه مكتوب أيضا بطريق العرض علىٰ نسخة آيا صوفيا كما تراه فى الراموز المطبوع (ص ٧٥) التالية. [وهو مكتوب أيضا فى آخر نسخة "الأدب الصغير" الموجودة فى ضمن المجموعة المخطوطة بطوب قبو].

فكان من الواجب أن أتوفر على تحقيق هذه النقطة لإظهار غامضها وإيضاح مُشكلها .

* * *

تحقيق فى اسم "التاج"

فزِعتُ حينئذ إلى الجاحظ نفسه . فقد نوه ببعض مصنفاته فى مقدّمة مصحفه الكبير المعروف بكتاب "الحيوان"[1] وفى تضاعيفه أيضا، وكذلك فعل فى "البيان والتبيين" . ثم رجعتُ إلى ثبت مصنفاته فى "معجم الأدباء" لياقوت الحموى[2]، وراجعتُ ما كتبه عنه الصفدى فى "الوافى بالوفيات"[3] وما أورده ابن شاكر صاحب "عيون التواريخ"[4]، ونظرتُ فيما أورده كاتب چلبي صاحب "كشف الظنون" .

فلم أرَ فى كل ذلك أثرًا لكتابٍ اسمه "كتاب التاج" منسوبًا إلى الجاحظ . ولكننى وجدتُ ياقوت والصفدى وابن شاكر وكاتب چلبي يذكرون كلهم لصاحبنا كتابا عنوانه "أخلاق الملوك" . فتخيلتُ أن الكتاب واحدٌ، وله اسمان .

النسخة الثانية لهذا الكتاب

أكّد ذلك الظنّ عندى وجعله عين اليقين أن النسخة المخطوطة الثانية الباقية من هذا الكتاب لا تزال محفوظة فى خزانة آيا صوفيا بالقسطنطينية ، وعنوانها "كتاب أخلاق الملوك" .

---

(١) طبع بالقاهرة . ومنه نسخة مخطوطة فى مجموعة الإمام الشيخ محمد محمود الشنقيطى بدار الكتب الخديوية . تغلب الصحة على الجزء الأول منها ، وأما الثانى فشأنه كالنسخة المطبوعة .

(٢) فى الجزء السادس الذى تم طبعه أخيرا بالقاهرة بعناية صديق الأستاذ مرجوليوث ، المستشرق الإنكليزى .

(٣) وقد استحضرت القطعة المتعلقة بترجمة الجاحظ من نسخة "الوافى بالوفيات" من مجموعة كتب الطيب الذكر العلامة جيانجوس Gayangos . وهذه المجموعة النفيسة موجودة الآن (تحت رقم ٩٢) بخزانة جمعية التاريخ الملوكية بمدريد عاصمة إسبانيا . نقلها لى بالفتوغرافية صديق الشيخ فرنسكو قُداره D. Francisco Codera المستشرق الإسبانى الشهير . فله مزيد الشكر على هذه المعونة الأدبيّة .

(٤) فى حوادث سنة ٢٥٠ هجرية . وقد تفضل الأب شابو (L'abbé Chabot) المستشرق الفرنسى ، فأتحفنى بصورة فتوغرافية منقولة عن النسخة المحفوظة بمكتبة باريس الأهلية (تحت رقم ١٥٨٨) . فله مزيد الشكر على هذه المعونة الأدبية .

وقد وضع بعضهم فى طرّتها فوق حرف الباء من لفظة "كتاب" كلمة "التاج" مكتوبة بخط غير الخط الأصلى، وكذلك تحت كلمة "كتاب" وضع قوله "فى أمور الرياسة"[1].

وقد حَصَلْتُ، بحمد الله، على صورتها الفتوغرافية فى الوقت المناسب. وهى التى رمزت لها بحرف (صـ) وتمكنتُ من آستخدامها بكل دقة فى تحقيق هذه الطبعة، على ما يراه الناظر فى كل صفحة.

وهذه النسخة تقع فى ١٦٦ صفحة. وكل صفحة تحتوى على ١٣ سطرا. وهى مجرّدة من البيانات التاريخية التى قد تكون لها علاقة بأصلها وما هيتها. وغاية ما فيها أن ناسخها وضع فى آخرها حاشية مختصرة هذا نصها: "وكان فى المنقول عنها سقامة".

فلا غرو أن جاءت السقامة فيها مزدوجة.

عود إلى التحقيق فى آسم "التاج"

والراجح عندى أن آسم "التاج" قد صار إطلاقه على هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه بزمان. أعنى فيما وراء القرن الثامن للهجرة، أى بعد عصر ياقوت والصفدى وآبن شاكر الكتبى. على أنى لا يتسنّى لى أن أعيّن — ولو بطريق التقريب أو التخمين — الوقتَ الذى أطلقوا فيه آسم "التاج" على كتاب "أخلاق الملوك".

هذا. وأنا أستبعد كلَّ البعد أن يكون ذاك المجهول الذى كتب لفظة "التاج" على طرّة النسخة الموجودة فى آيا صوفيا قد آستمدّ ذلك من النسخة الموجودة فى خزانة طوب قپو. فإن هذه الخزانة كانت لاتزال موصَدة الأبواب إلى سنة ١٩٠٨ للميلاد.

(١) أنظر هذا العنوان فى الراموز الثانى من الرواميز الفتوغرافية (*Fac-simile*) التالية لهذا التصدير (ص ٧٥).

وفوق ذلك، فهذا فهرسها خِلْوٌ من العنوانين : "التاج" و"أخلاق الملوك". بل يسوغ لى أن أحكم بأنّ واضع ذلك الفهرس لم يعرِف عن كلّ من العنوانين شيئا علىٰ الإطلاق . لأن القرائن كلها ـ فيما يتعلق بهذا الكتاب وبغيره ـ تدلنا علىٰ أن واضع ذلك الفهرس إنما اكتفىٰ بأخذ العنوان الموجود فى الورقة الأولىٰ من كل مجلّد، دون أن يتصفّح المجلد بأكمله، ليرىٰ ما إذا كان فى تضاعيفه وثناياه كتبٌ أُخرىٰ : كما هى العادة فى كثير من كتب المشارقة، وكما هو حاصلٌ بالفعل فى تلك الخِزانة نفسها .

لذلك أجزمُ أن واضع الفهرس الخاصّ بطوب قپو، قد اقتصر علىٰ ما رآه فى صدر الورقة الأولىٰ ، وقد فعل .

وكيف لا ، ونحن إنما نرىٰ فى الفهرس قوله : "كتاب الآداب للشيخ الإمام العالم العلامة عبد الله بن المقفع رحمة الله عليه" دون أن تكون هنا لك أدنىٰ إشارة إلىٰ "الأدب الصغير" أو إلىٰ "كتاب التاج" ، مع أن الثلاثة موجودة بين الدفّتين .

لا يصحُّ القول بأن ذلك العنوانَ جامعٌ يشمل الكتب الثلاثة معا . وذلك لأنه لم يرد فى طرّة الكتاب الأوّل وهو "الأدب الكبير" عنوانٌ خاصٌّ له ، وذلك بخلاف ما حصل فى طرّة الكتاب الثانى حيث أورد عنوانه هكذا "آداب عبد الله بن المقفع الصغرى" وكما حصل فى الكتاب الثالث حيث أورد عنوانه هكذا : "كتاب التاج تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رحمة الله عليه" .

فيكون من الصعب ـ والحالة هذه ـ أن يطّلع علىٰ كتاب "التاج" إنسان آخر ، اللهم إلا أن يكون قد صادف ما وفقنى الله إليه من تقرّى الكتب التاريخية والأدبية كلها فى طوب قپو، واحدًا واحدًا، كما أُتيح لى منذ بضع سنين . وذلك أمرٌ تحققتُ من رب الدار أنه ما كان .

عود الكلام على اسم التاج والكتب المسماة بهذا الاسم

وهناك باب للتظنى. ذلك أن المتقدمين كثيرا مايسمون كتبهم بأسماء متعددة[1]. وها هى كتب الجاحظ نفسه، نرى لبعضها عنوانات مختلفة. بل هو نفسه يسميها بأسماء، بعضها مختصر وبعضها فيه شىء من التطويل[2].

وبعدُ، فنحن نعلم أن الجاحظ كان مُولَعا بابن المقفع، ومُعْجَبًا به وبآثاره. أفلا يصح القول بأنه اختار فى بعض الأحيان اسم "التاج" متابعةً لذلك الكتاب العظيم، صاحب كتاب "التاج فى سيرة كسرى أنوشروان"[3]؟

ومن جهة أخرى نرى هذا العنوان "التاج" قد استهام به كثير من أكابر المصنفين فاختاره نفرٌ من صدور الصدر الأول، وعنونوا به بعض كتبهم، مجاراةً لما وصلهم عن أهل فارس الذين سبقوا العرب بتأليف "كتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم". وهو الذى ذكره ابن النديم فى ضمن الكتب التى "ألفها الفرس فى السِّيَر والأسمار الصحيحة التى لملوكهم"[4].

(١) نكتفى بذكر "معجم الأدباء" لياقوت. فإنه مشهور أيضا باسم "إرشاد الأريب"، وباسم "طبقات الأدباء". ومثل ذلك كتاب المقريزى، فإن اسمه "المواعظ والاعتبار"، وهو مشهور باسم "الخطط". أوليس القليلون هم الذين يعرفون العنوان الأصلى لتاريخ ابن خلدون؟ وأشباه ذلك كثيرة جدًا يعرفها الذين يعانون هذا النوع من الأبحاث، أو كما يقول الجاحظ: "كل من كان كلفا بتعرافها وكان له فى العلم أصل وكان بينه وبين التبيين نصيب". أنظر كتاب الحيوان (ج ٣ ص ٧٣).

(٢) وانظر الرسالة التى كتبتها بعنوان: "مَن هو الجاحظ، وما هى مصنفاته"؟ وسأنشرها فيما بعد.

(٣) من مؤلفات ابن المقفع أو من ترجمته عن الفارسية. وذكره صاحب كتاب الفهرست. وعليه بحثٌ مفيد وضعه باللغة الروسية الأستاذ إينوسترانسف C. Inostrancew فى كتاب "المباحث الساسانية" المطبوع فى بطرسبورج سنة ١٩٠٩ (ص ٢٨ ـ ٣٢).

(٤) كتاب الفهرست (ص ٣٠٥).

فمما ظهر من المصنفات فى اللغة العربية بهذا العنوان، مرتبا على حسب تواريخ وفيات المؤلفين :

١ ـ كتاب التاج[1] فى سيرة أنوشروان ، لعبد الله بن المقفع (وهو أول كتاب صدر بالعربية بهذا العنوان) .

٢ ـ كتاب التاج[2]، لأبى عُبيدة، المتوفَّى فيما بين سنتى ٢٠٧ و ٢١٣ للهجرة .

---

(١) كتاب الفهرست (ص ١١٨) . [ولعله هو الذى نقل عنه صاحب العقد الفريد ـ لأنى لم أجد فى كتاب الجاحظ الذى أقدّمه اليوم للقراء ما أورده ابن عبد ربه عن كتاب "التاج" ـ فى الجزء الأول من العقد الفريد (ج ١ ص ١١، ٢٦ وغيرهما)، ولا ما أورده ابن قتيبة فى كتاب "عيون الأخبار"] .

(٢) ذكر القفطىّ فى كتاب "إنباه الرواه على أنباه النحاه" كتابين لأبى عبيدة أحدهما باسم "التاج" والثانى باسم "الديباج" (أُنظر النسخة المنقولة بالفتوغرافية الموجودة بدار الكتب الخديوية) . كذلك فعل ابن خلكان فى ترجمة أبى عبيدة (أُنظر طبع بولاق وطبع باريس والترجمة الانكليزية) . ولم يذكر هذين الكتابين ابن الأنبارى فى "نزهة الألباء" ولا السيوطى فى "بغية الوعاة" . وقد نقل ابن عبد ربّه فى العقد الفريد عن "كتاب التاج" الذى لأبى عبيدة (أُنظر ج ٢ ص ٥٣ و ٥٥ و ٦٩) . ولكن ابن النديم (ص ٥٢) وابن خير الأندلسىّ (ص ٣٦١) وصاحب "تاج العروس" فى مادة (ج م ر) لم يذكروا له غير كتاب الديباج . ومما ينبغى التنبيه إليه أن العبارة التى نقلها صاحب "تاج العروس" عن جمرات العرب (وقال إنها عن أبى عبيدة فى كتاب الديباج) نراها واردة بنصها تقريبا عن "كتاب الديباج" أيضا فى كتاب "الكامل" للمبرد (ص ٣٧٢ من طبعة ليبسك وص ١١ من ج ٢ طبعة القاهرة) . وهى واردة أيضا مع زيادة ونقص طفيفين فى الألفاظ فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٦٩) وصاحبه يقول بأنه نقلها عن كتاب "التاج" لأبى عبيدة . نعم إن التحريف كثير فى العقد الفريد المطبوع فى بولاق ، ولكنه ذكر هذا "التاج" ثلاث مرات وقد شهد القفطى وابن خلكان بأن لأبى عبيدة هذا كتابين أحدهما "التاج" وثانيهما "الديباج" . فهل هما كتاب واحد؟ ربما يكون ذلك كان . ولعل الرجل سمى كتابه بالديباج ثم لقبه هو أو غيره بالتاج . وذلك لأن النقول التى أوردها صاحب العقد الفريد تدل على أنه موضوع فى بيان مفاخر العرب و بيوتاتها ، وذلك مما يحمل على الظن بأن صاحبه أراد أن يضاهى به كتاب التاج الذى ألفه الفرس . على أن المعلوم أن أبا عبيدة كان من الشعوبية وكان يكره العرب ، وقد ألف كثيرا فى مثالبهم .

٣ ـ كتاب التاج[1]، لابن الراوندى، المتوفى سنة ٣٠١ . [ونقضه أبو سهل إسماعيل النوبختى فى كتاب سماه "السبك"[2]].

٤ ـ كتاب التاج[3]، للصابى، المتوفى سنة ٣٨٤ . ويسمى "التاجى" ويسمى "المتوج فى العدل والسياسة"[4].

٥ ـ كتاب التاج[5]، لابن فارس، صاحب "مجمل اللغة"، المتوفى سنة ٣٩٥ .

٦ ـ التاج[6] فى زوائد الروضة على المنهاج، فى الفقه، لأحد علماء القرن التاسع .

هذه هى بعض الكتب التى عرفناها بهذا الاسم، فيما قبل الجاحظ وبعده، مما قد بلغنا خبره وإن لم يصلنا أثره[7].

---

(١) ذكره فى كشف الظنون، ولم يعرّفنا بموضوعه .

(٢) أنظر كتاب "الفهرست" (ص ١٧٧).

(٣) ذكره فى كتاب "الفهرست" . ونقل عنه البيرونى فى الآثار الباقية (ص ٣٨).

(٤) ذكره فى كتاب الفهرست (ص ١٣٤)، وذكره ابن خلكان فى ترجمة الصابى .

(٥) عرّفنا به ابن خير الأندلسى فى جملة الكتب التى رواها عن أشياخه بالسند المتصل إلى مؤلفيها، فى كتابه المطبوع بمدينة سرقسطة Saragosse من أعمال إسبانيا سنة ١٨٩٥ (ص ٣٧٤).

(٦) ذكره صاحب "كشف الظنون" فى حرف التاء ثم فى حرف الراء والميم (وانظر أعداد ٢٠٦٠، ٦٦٦٦، ١٣٢٤٢ من طبعة العلامة فلوجل).

(٧) ثم إن العرب أضافوا هذا الاسم إلى غيره . فألفوا : تاج الأسماء، تاج الأنساب، تاج التراجم فى طبقات الحنفية، تاج الحرة للمعرى، تاج السلاطين فى معرفة الأباليس والشياطين، تاج العارفين، تاج العروس فى الزهد، تاج المداخل، تاج المذكرين، تاج المصادر، تاج المعانى، تاج الملل، تاج المفرق، تاج النسرين . [ذكرها كلها صاحب كشف الظنون . وقد أهملتُ مما أورده ما هو بالتركية أو الفارسية]. ثم تاج الحلية ذكره ابن خير الأندلسى، التاج فى كيفية العلاج، تاج المجاميع، التاج المرصع فى شرح رجز أبى مقرع، تاج المعارف وتاريخ الخلائف، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، وهذه الكتب موجودة بخزانة باريس الأهلية . ثم تاج العروس فى شرح القاموس للزبيدى، الخ الخ .

إلىٰ هنا آنتهينا من أنه لا مانع أن يكون الكتاب الذى بين أيدينا قد سماه صاحبه أو الذين جاؤوا من بعده بآسم "التاج" . ولا شك عندنا ولا عند غيرنا فى أنه هو كتاب "أخلاق الملوك" .

ولكن ...

✦ ✦ ✦

من هو المؤلف لهذا الكتاب ؟

بقى علينا أمرٌ آخر، وهو من الجلالة بمكان .

فمن هو المؤلف لهذا الكتاب ؟ ... آلجاحظ أم غيره ؟

إن الجاحظ ترك نحواً من ٣٦٠ مؤلَّفا، رآها سبط آبن الجوزى كلَّها تقريبا فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد، وإن كان لم يذكر لنا شيئا من أسمائها فى "مرآة الزمان" .

ولما كان الجاحظ لم يُشر فى مقدّمة كتاب "الحيوان" إلا لشىء يسير جدًا من تآليفه (وليس فيها كتاب "التاج" ولا كتاب "أخلاق الملوك") وكذلك الحال فيما وقفنا عليه من أسفاره الأخرىٰ، فقد بقينا من ذلك الأمر فى شكٍّ مُريب .

نظرة فى أسلوب الكتاب من حيث الإنشاء

ويزداد هذا الشكُّ متىٰ قلنا بأنّ أُسلوب الكتاب فى مجموعه قد لا يوافق ما هو معهود من كتابة الجاحظ وظرافته ومجانته، أو ما هو معروف عنه من التمسك بأوهىٰ الأسباب للتلاعب بالألباب .

ذلك لأننا نراه قد خالف هنا عادته فى الآستطراد والآسترسال، والتنقل من حال إلىٰ حال، اللهم إلا فيما لا يُؤْبَهُ به ولا يمكن آتخاذه حجة فيما نحن بصدده من الأبحاث .

لكننا إذا قررنا أن هذا الكتابَ سِفْرُ آدابٍ وأخلاقٍ لا دفتر تبيين وبيان، وأنه خاصٌّ بموضوع معين محصور فى أمر واحد معلوم، فقد يزول ذلك الآرتياب الذى ربما يعلق ببعض الأذهان .

نعم ، فلقد كانت وظيفة الجاحظ فى هذا الكتاب أن ينقل ماراقه من الآداب التى دونها الفرس فى آيينهم وقوانينهم[1] ، وأن يسطّر ما تلقّاه عن شيوخه أو سمعه من أقرانه أو تلقفه عن صحابته مما يتعلق بأحوال الخلفاء والسادات . فكان عمله قاصرا على ربط الأفكار بعضها ببعض ، ولم يكن له مجالٌ يتبسّط فيه ويسرح ، أو ميدانٌ يتنشّط فيه ويمرح . كذلك كان شأنه فى طائفة من مقالاته التى قصر فيها الكلام على موضوع واحد ، كما فعل فى "مقالة الشيعة" وفى غيرها من رسائله العـديدة وفصوله الكثيرة التى وصلتنا .

على أننا مع ذلك نراه فى " التـاج " ـ كلمـا تراءت له سانحة أو هزّته نشوة ـ قد يغلبه طبعه فيستطرد ويستدرك ثم يعود أدراجه ، ولكنْ فى المعنى الواحد وفى البـابة[2] الواحدة .

(١) أُنظر شرح هذه الكلمة فى كتاب التاج ، فى حاشية (ص ١٩) .

(٢) البابة معناها : الحدّ ، الوجه ، الخصلة ، الشرط ، القبيل ، النوع . وآستعمالنا لها هنا هو بالمعنيين الأخيرين . قال الجاحظ فى الحيوان (ج ٢ ص ٤٥) : " فليس الديك من بابة الكلب ، لأنه إن ساوره قتله قتلا ذريعا " . وقال أيضا (ج ٧ ص ٤٣) : " وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته " . ثم روى أيضا (ج ٧ ص ٣٦) أبياتا لتميم بن مقبل ، هذا محلّ الشاهد منها :

بنى عامرٍ ، ما تأمُرونَ بشاعرٍ * تخيّرَ باباتِ الكتاب هجائيَا ؟ ...

نعم إن طابع "الحيوان" صحف الكلمتين الأوليين من الشطر الثانى من البيت الأول (كما صحف وحرف ومسخ وشوّه فى كثير من المواضع التى لا تعدّ ولا تحصر) فأوردهما هكذا " يحبر آيات " ولكن الصحيح ما أوردته هنا . ويؤيد ذلك أن صاحب تاج العروس روى البيت الأول فى مادة (ب و ب) مثل روايتى وقد فسره بقوله : معناه تخيّر هجائى من بابات الكتاب .

وقال الجاحظ أيضا فى كتاب البخلاء : "أنت من ذى البابة ... ، وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة" (ص ٤٥ ، ١٤٣) =

وإذا نظرنا بعد ذلك إلىٰ ما تضمنه "التاج" من بعض العبارات[1]، نرىٰ أسلوبه يتجلىٰ فيها علىٰ أحسن مثال. فبينا هو ينقل عن آداب الفرس وأحوال ملوكهم، إذا به قد أخذته النعرة العربية فعقّب بما يماثل هذه الأحوال أو ما يجانسها مما كان قد وقع للعرب قبل الإسلام أو بعد الإسلام. وذلك كله علىٰ سبيل الاستطراد والاسترسال، اللذين هما من أخص سجاياه.

= ومثل ذلك (فى نفح الطيب، ج ١ ص ٥٥٩ طبعة ليدن؛ ج ١ ص ٣٩٨ طبعة بولاق سنة ١٢٧٩ هـ) قول القاضى محمد بن بشير الأندلسىّ :

إنما أزرىٰ بقدرى أننى ٭ لستُ من "بابة" أهل البلدِ ...

وفى "تاج العروس" ما خلاصته : "هذا بابته أى شرطه؛ وإذا قال الناس : من بابتى، فمعناه من الوجه الذى أُريده ويصلح . ...

والبابة فى الحساب والحدود ونحوه الغاية" .

وقال البيرونىّ فى كتاب "تحقيق ما للهند" : وبسببه أقول فيما هو بابتى منهم ... (ص ١٢) .

وفى "شفاء الغليل" انهم يقولون للعب خيال الظلّ بابة [أى لكل نوع وقسم من أنواع التمثيل وأقسامه التى نسميها الآن فصول الرواية = Scène] فيقولون بابات خيال الظل . وقد أورد الخفاجى هناك تفصيلا لطيفا وتورية بديعة فى أشعار رائقة . فانظرها .

وعلىٰ ذلك قول ابن إياس المؤرّخ المصرى : "فكانوا مثل بابات خيال الظلّ : فشىءٌ يجىء، وشىءٌ يروح" (بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ٣٤٧) .

(١) أُنظر ص ٢، ٤، ٥، ٨، ١٥، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٣٠، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٥٠، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧ .

ولنا دليل آخر ، وهو أننا نرىٰ الكتاب ينمُّ علىٰ مؤلفه . ذلك لأن الجاحظ مشهور بالتكرار والترداد والتكثير حتّى لقد عابه النقّادة من أهل زمانه ، بل أشار هو فى مقدّمة كتاب الحيوان[1] إلىٰ تلك الزراية علىٰ طبعه ونَحِيزَته .

ولكنه مع هذا التكرار الذى نراه فاشيا فى كتبه ، ومع هذا الانتقاد الذى عابه به قوم من أهل زمانه ، لم يرجع عن دينه وديدنه وعادته فى نفس كتاب "الحيوان" ثم فى كتاب "البيان والتبيين" . فقد نراه فى تضاعيفهما يذكر الحكمة التى تدعوه إلىٰ ذلك ، وقد يكرر فصولا من الكلام ومقطّعات من الأشعار ، كلما حانت له نُهْزة أو تجدّدت لديه الفُرْصة ، بل كلما تراءى له شِقٌّ ضئيل يفضى به إلىٰ ميدان فسيح يسمح له بالتوسع فى التعبير .

ثم هو فوق ذلك ينقل فى بعض كتبه ما قد تقدّم له فى بعضها الآخر .

فإذا علمنا ذلك كلّه ، فلننظر فى كتابه هذا لنتبيّن منه أهذه السليقة موجودة فيه أم لا .

نحن نجد ذلك ، بلْهَ نجد ما هو أبلغ .

أفما تراه ينقل فى "التاج" شيئا كثيرا مما أورده فى "البيان والتبيين"[2] ؟ وهذا أيضا كتاب "الحيوان" قد نقل عنه فى "التاج" فى موضع واحد[3] . ومثلهما كتاب "البخلاء" فى موضع واحد[4] أيضا .

(١) أُنظر مقدّمة "الحيوان" (ص ٣ س ٤) .

(٢) أُنظر (ج ٣ ص ١٢ ؛ ج ٣ ص ٥١ ؛ ج ١ ص ٦٩ ؛ ج ٣ ص ١٠٩) . وٱنظر ما أوردته فى تكميل الروايات فى (ص ١٩٢ عن ص ٢٠) و (ص ١٩٦ عن ح ٤ ص ٤٧) وفى (ص ١٩٧ عن ص ٥٣ ، ٥٤) و (ص ٢٠٣ عن ح ٤ ص ٨١) .

(٣) أُنظر فى تكميل الروايات فى (ص ٢٠٣ عن ح ١ ص ٨٩) .

(٤) فإن الحكاية التى أوردها فى "التاج" (ص ٢٠) عن الجارود بن أبى سبرة وعبد الأعلى ، نراها بنصها وحرفها تقريبا فى كتاب "البخلاء" (ص ١٩٣) . وقد رواها فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٣٢) .

فلو كان المؤلف رجلا غير الجاحظ، لكان قد أشار ـ ولو عَرَضا أو مرَّة واحدة ـ إلىٰ المنقول عنه بطريقة التصريح أو التلميح، أو كان ٱستعمل عبارة مبهمة تفيد النقل علىٰ أى وجه كان .

الناقلون السارقون

وإذا نظرنا الآن من جهة أخرىٰ، رأينا أن جماعة من المؤلفين قد سطوا علىٰ هذا الكتاب ، كما أغار غيرهم علىٰ كثير من بقيّة الآثار التى دبجها بنان الجاحظ . وقد أشرتُ إلىٰ شىء كثير من هذا القبيل فى الحواشى التى حَلَّيْتُ بها صفحات هذه الطبعة، ولكننى رأيت ـ لزيادة الفائدة ولتمحيص الحقيقة ـ أن أجمع ذلك كلَّه فى جدول خاصّ فى آخر هذا التصدير[١] .

فعلينا أن نبحث فيما إذا كان القلم قد خان بعض الناقلين فتركوا أثرا محسوسا ملموسا نستدل به تصريحا أو تلميحا علىٰ أن كتابنا هذا إنما هو من نفثات يراع الجاحظ .

فهذا المسعودىّ، قد ٱستحوذ علىٰ حديث يزيد بن شجرة مع معاوية . ولما ٱضْطرّ لنقل حُكْم الجاحظ، حاسب ذمته وراجع ضميره فلم ينسبه لنفسه بل ٱكتفىٰ بقوله : "قال بعض أهل المعرفة والأدب ممن صنف الكتب فى هذا المعنىٰ وغيره[٢]" .

وهذا البيهقىّ، حذا حذو المسعودىّ . ولكنّه تخبَّط عند ما نقل حُكْم الجاحظ والحديث الذى يرويه عمن ألقاه إليه[٣] .

(١) فى (ص ٦٩) التالية .

(٢) أنظر (ص ٥٧) من التاج و (ح ٤) فيها .

(٣) أنظر (ص ١٧٠) من التاج و (ح ٣ و ٤) فيها ، وأنظر أيضا (ص ١٧١) و (حواشى ٢ و ٣ و ٤) فيها .

وهذا صاحب "محاسن الملوك". سطا على "التاج" فنقله كله تقريبا: تارة بالحرف وغالبا بالاختصار. وكأنه قد عاهد نفسه أن لا يذكر الجاحظ قط، غير أنه سها فى آخر الأمر فذكره وسماه باسمه مرتين وأورد ألفاظه بمعناها[1].

على أن هذه الشواهد — وإن كان التدليل بها، كما يقول الجاحظ، قائما فى العقل مُطَّرِدًا فى الرأى غير مستحيل فى النظر[2] — فإنها، والحق يقال، لم تصل بنا إلى حدّ اليقين الذى يحسن التسليم به والسكوت عنده، لأنها لا تتضمن القول المقنع ولا الدليل الذى تثلج به الصدور. ونحن إنما نتلمّس البرهانات النيّرة الناصعة، والحجج الظاهرة الساطعة، والشهادات القائمة اللامعة، التى ينتهى إليها العلم، ويقف عندها البيان.

مراجعة العيون التاريخية

وحينئذ فلا سبيل لإزالة الإبهام واستجلاء الحقيقة بطريقة حاسمة إلا إذا استفتينا رجلين هما عمدة التحقيق فى هذا الباب، لأن قولهما هو الفصل الذى لا نقض فيه ولا إبرام. أعنى بهما: محمد بن إسحاق النديم، وأبا حيّان التوحيدى الكتبى الشهير.

فكان حقا علينا أن نسائلهما، فعند جهينة الخبر اليقين.

استفتاء ابن النديم وتحقيق بشأن المطبوع من كتابه

١ — إن "كتاب الفهرست" الذى ألّفه العلامة ابن النديم، قد طبعه الأستاذ فلوجل (Flügel) سنة ١٨٧١ فى ليبسك، مدينة العلم بألمانيا. ولكننا لا نرى فيه شيئا عن الجاحظ، إلا من طريق العَرَض ومن باب الاستطراد.

---

(١) أنظر (ص ١٤٠) من التاج و(ح ٢) فيها.

(٢) كتاب "الحيوان" (ج ٣ ص ١١٧).

فهل يُعقل أن ذلك العلامة الأختصاصىّ[1]، الواسع الأطلاع، المنقطع لمثل هذا الشأن، يهمل رجلا كالجاحظ ؟

اللهم لا ! وكيف وقد ذكر كثيرا من العلماء والمصنفين الذين هم أقل من صاحبنا بدرجات كثيرة !

بيد أن الحق الصُّراح هو أن النسخة المطبوعة مبتورةٌ . وقد ثبت ذلك مثل وَضَح النهار، بأُمور ثلاثة :

أولها — أن ياقوت يذكر فى "معجم الأدباء" أسماء كثير من العلماء ، ويورد عنهم تفصيلاتٍ متعدّدة ، ويذكر لهم تصانيف متنوعة ، ثم يصرح بنقله عن كتاب الفهرست لأبن النديم[2] . فإذا ما رجعنا إلىٰ النسخة المطبوعة (أو إلىٰ تلك الفصول التى عثر عليها الأُستاذ هوتسما كما سيجىء قريبا) لا نجد لذلك أثرا علىٰ الإطلاق . ومعلومٌ أن ياقوت حجة فى النقل وأهل للتصديق فيما يتعلق بالكتب والتعريف بها .

(١) ولا أقول الإخصائى ، لما فى هذه اللفظة من الخلط الذى يتبادر إلىٰ الأذهان ، ولأنها غير واردة بالنص . وكان حقا علىٰ الذين آختاروها أن يقولوا "اخُصّى" وينظروا بعد ذلك إن كانوا يريدون الإصرار على آسم الفاعل ، وهو كما يرون . فغاية ما فى شرح القاموس أنهم يقولون : "أخصىٰ الرجل تعلّم علما واحدا . نقله الصاغانىّ . وهو مجاز" . ولكنا نحن نريد بالأختصاصىّ الذى يبرع فى الأختصاص والأنفراد بعلم واحد ويكون مع ذلك قد شدا بعضا من المعارف المتعلقة به . هــذا فضلا عن أننا نريد الحقيقة لا المجاز . ولذلك ننسبه إلىٰ كلمة الأختصاص ، ويكون اللفظ بالمعنىٰ الشائع فى هذه الأيام من المولّدات . وقد قال فى تاج العروس : "اِختص فلان بالأمر وتخصص له إذا آنفرد" . فإن كان أخصّاء الإخصاء يريدون النسبة إلى المصدر، فقد جاريناهم ؛ ولكننا دفعنا اللبس العالق بآختيارهم .

(٢) أُنظر (ج ١) حواشى (ص ٤٦ و ١٢٧ و ١٤١ و ١٤٣ و ٣١٥) ؛ ثم (ج ٢) حواشى (ص ٨ و ١٧ و ٣٧ و ٤٧ و ١٣١ و ٢٢٢ و ٢٢٦ و ٢٣٥ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٣٥٠ و ٣٨٨ و ٣٩٦ و ٤٠٠ و ٤١٩ و ٥٢٥) ؛ ثم (ج ٣) حواشى (ص ١٣ و ٨٦ و ١٤٠) ؛ ثم (ج ٥) حواشى (ص ٥٦ و ٢٢١ و ٢٧٠ و ٢٧٦ و ٤٣٢ و ٤٣٥) ؛ ثم (ج ٦) حواشى (ص ٤٩ و ١٤١ و ١٩٧ و ١٩٨ و ٢٠٤) .

ثانيا ــ أن الأستاذ هوتسما Houtsma عثر على جملة تراجم[1] مما كتبه آبن النديم (وهى غير واردة فى النسخة المطبوعة) فنشرها فى المجلة النمساوية للعلوم الشرقية[2] بنصها العربى، مع خلاصة عليها باللغة الألمانية. وكلُّ ماجاء فيها عن الجاحظ لا يزيد على أحد عشر سطرا، مبتورة من الأول ومن الوسط ومن الآخر. وما هى إلا نُتْفة من رسالته إلى محمد بن عبد الملك الزيات، الوزير العباسى المشهور. ولا مُشاحّة فى أنها كانت مبثوثة فى فصل كبير طويل.

ثالثا ــ (وهو أبلغها) أن ياقوت قد أورد ترجمة الجاحظ فى الجزء السادس من "معجم الأُدباء" ونقل فيها عن كتاب الفهرست أن صاحبه يقول إنه رأى كتابين من كتب الجاحظ بخط ورّاقه[3]. ونحن نبحث على غير طائل عن هذه العبارة فى النسخة المطبوعة من كتاب آبن النديم!

فلم يبقَ بعد ذلك أدنى ريب فى أن آبن النديم ترجم للجاحظ، وعرّف به تعريفا وافيا، وأفاض فى سرد أسماء كتبه، وشرح أحوالها كلّها أو بعضها.

لذلك تعلّقتْ همتى بمواصلة البحث وآستقصائه فيما أعلمه من النسخ المخطوطة التى لا تزال محفوظة ببعض الخزائن المعروفة لنا.

---

(١) عن: واصل بن عطاء، العلاف، النظّام، ثُمامة بن أشرس، الجاحظ، آبن دؤاد، آبن الراوندى، الناشى، أبو على الجُبّائى، الرُّمّانى، آبن زُبْر، هشام بن الحَكَم، شيطان الطاق.

(٢) راجع (ص ٢١٨ ــ ٢٣٥ من ج ٣) ن المجلة المذكورة (WZKM) الصادر فى سنة ١٨٨٩.

(٣) أُنظر معجم الأدباء (ج ٦ ص ٧٥)، وهذا نصه: قال آبن النديم: "ورأيتُ أنا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى، ويكنى أبا يحيى، ورّاق الجاحظ".

فكان أوَّل ما باشرتُ البحث فيه (بالواسطة) هو النسخة الباقية من ذلك الكتاب النفيس بمكتبة المرحوم عارف حكمت[1] بالمدينة المنورة . ولكننى تحققتُ أنها لا تتضمن الضالّة المنشودة .

كذلك كان الشأن فى النسخ الثلاث الباقية بالقسطنطينية ، والأُولىٰ منها محفوظة بخزانة يكى جامع[2] ، والثانيتان فى مكتبة الكوپريلى[3] .

ولكنّ هذه النتيجة السلبية لم تُثبط همتى ولم تُقعد عزيمتى . بل واصلتُ البحث والتنقيب حتى عثرتُ فى خزانة الشهيد على باشا بالقسطنطينية[4] علىٰ النصف الثانى من كتاب " الفهرست " ، وعليه أماراتٌ ربما يؤخذ منها أنه بخط المصنف نفسه . وهى نسخة جليلة جدًّا ، وبخط واضح فى غاية الصحة والضبط[5] . فنقلتها بالفتوغرافية وضممتُها دُرّة فاخرة إلىٰ خزانة كتبى بالقاهرة . غير أن سوء الحظ قضىٰ أنْ لا تتحقق فيها الأُمنية ، وأن يبقىٰ الظلام حائلا دون بلوغ المرام . فإن هذا النصف يبتدئ من الكلام علىٰ «الواسطى» المعتزلى ، وينتهى إلىٰ آخر الكتاب .

وهــذا الاسم واردٌ فى النسخة المطبوعة[6] تحت عنوان المقالة الخامسة ، مباشرة[7] . ولكنّه جاء فى نسختنا فى رأس الصفحة ، بما يدل علىٰ أنه تالٍ لكلامٍ آخر تقدّم عليه

(١) تحت رقم (٤٤٧) بعنوان " فهرست العلوم القديمة " .

(٢) تحت رقم (٨١٥) وعنوانها " أسامى الكتب المسمّى بالتذكار الجامع للآثار " .

(٣) تحت رقمى (١١٣٤ ، ١١٣٥) ، وكل منهما عنوانه " فهرس العلوم " .

(٤) وفهرسها غير مطبوع للآن .

(٥) محفوظة تحت رقم (١٩٣٤) .

(٦) ص ١٧٢ .

(٧) وقد نبّه الطابع فى تعليقاته باللغة الألمانية علىٰ سقوط بعض الفصول التى يجب أنها كانت تكون واردة فى هذه المقالة قبل الكلام علىٰ " الواسطى " .

تحت عنوان تلك المقالة التي يدور فيها الكلام على المعتزلة. وبديهي أن القسم الذي عثر عليه العلامة هوتسما هو متقدم أيضا على الواسطي المذكور: لأنه يشتمل على أسماء كثير من كبار المعتزلة، وفي جملتهم الجاحظ.

فلا بد أن يكون الكلام على الجاحظ قد جاء في ختام النصف الأول بَلْهَ في رأس النصف الثاني من هذه النسخة الثمينة. ولكنْ أين هي تلك الورقات التي تزيل الشك المريب، وتقول لأهل البحث والتنقيب: "قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ"؟

فلم يكن لي مناصٌ بعد جميع هذه النتائج السلبية سوى أن أحتسب على الله ما تجشمته من العناء، وأن أتربّص إلى أن تُتيح لنا الأقدار نسخة كاملة صحيحة من كتاب "الفهرست" فنقف منها على ما قاله صاحبه عن الجاحظ ونعرف ما أورده له من أسماء الكتب والمصنفات، وهل فيها إشارة إلى "التاج" أم لا.

استفتاء أبي حيان التوحيدي

٢ – أبو حيّان التوحيدي الكاتب الطويل النفَس، ألف كتابا في "تقريظ الجاحظ". وقد رآه ياقوت الحموي ونقل عنه فصولا كثيرة في "معجم الأدباء" وأفادنا أنه نقل مانقل من خط أبي حيّان (١). ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا أيضا. غير أن الذي نقله عنه ياقوت يدلُّ على أن الرجل قد آستوعب فيه الكلام عن الجاحظ، ولا بدّ أن يكون قد آستوفى فيه التعريف بكتبه أيضا. وأين "أين السُّها من كفّ المتطاول"؟ بل أين "أَيْنَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدِ المُتَنَاوِلِ"؟

(١) أنظر معجم الأدباء (ج ٦ ص ٥٨ – ٦٩) في ترجمة الجاحظ.

* * *

بحث عن الكتب المسماة بأخلاق الملوك

حينئذ لم يبق لدينا سندٌ صحيح، ولا نصٌّ صريح — قبل ياقوت — على أن الجاحظ هو صاحب كتاب "أخلاق الملوك".

فكان حقا علينا أن نقف هُنَيهة لنرى هل هذا النقل صادق وهل هذا الخبر مطابق للواقع.

نترك جانبا ما لنا من الثقة التامة فى أمانة ياقوت الذى كان من أعرف الناس بالكتب ومصنفيها، ونقول:

إذا ما نظرنا فيما وصل إلينا عن الكتب المسماة بـ"أخلاق الملوك" نرى أن الأمر لايتعدّى ثلاثة من الناس، وهم: الفتح بن خاقان، ومحمد بن الحارث التغلبى (أو الثعلبى)، والجاحظ.

فلننظر أيُّهم هو صاحب كتابنا هذا!

التعريف بالفتح ابن خاقان

١ — الفتح بن خاقان. هذا الوزير كان من المغرمين بالكتب غراما شديدا. وكانت له خِزانة حكمة لم يرَ الناس أعظم منها: كثرةً وحسنا. جمعها له علىّ بن يحيى المنجم من كتبه ومما استكتبه الفتح نفسه[1].

وقد كان يشمل برعايته كثيرا من أكابر العلماء[2]، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة[3]. وممن كان فى جملته المفضّل بن سَلَمَة اللغوىّ المعروف[4].

---

(١) أنظر كتاب الفهرست، والوافى بالوفيات (عن القطعة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الخديوية: فى ترجمة الفتح بن خاقان).

(٢) أنظر كتاب الفهرست فى ترجمته.

(٣) الوافى بالوفيات (عن القطعة السابق ذكرها قبلُ).

(٤) أنظر كتاب الفهرست (ص ٧٣).

وكان الفتح يَتَبَارىٰ فى تفسير الآيات مع المبرد وأمثاله[1] . وللبحترى فيه مدائح كثيرة ، هى من غُرر ديوانه[2] . وصنف جماعة منهم كتبا بآسمه ـ أى قدموها إليه ـ ومن جملتهم الجاحظ ، وكذلك العلّامة الشهير أبوجعفر محمد بن حبيب الذى صنف بآسمه "كتاب القبائل الكبير"[3] . ومثلهما صاحبنا محمد بن الحارث ، صاحب الكتاب المسمّى "أخلاق الملوك" الذى سيأتى الكلام عليه عما قريب .

فلا غرابة أن رجلا مثل الفتح فى محبته للكتب وآجتماعه بالعلماء ومشاركته لهم فى المباحث الدقيقة يكون هو أيضا من جملة المصنفين . فقد روىٰ له صاحب "الفهرست" أربعة كتب ، وهى :

(١) كتاب الصيد والجوارح ،

(٢) كتاب الروضة والزهر ،

(٣) كتاب البستان ،

(٤) كتاب آختلاف الملوك . (هكذا بالتاء والفاء)

---

(١) أُنظر مروج الذهب (ج ٧ ص ١٩٧) .

(٢) يوجد منه ثلاث نسخ مخطوطة بدار الكتب الخديوية ، ثنتان واسعتان متشابهتان ، والثالثة مختصرة . (أُنظر الفهرس فى قسم الأدب) . وذلك خلاف النسخة المطبوعة فى "الجوائب" وفيها أغلاط مطبعية كثيرة . وليست المخطوطات من الطراز الأوّل من حيث الصحة والضبط .

(٣) كتاب الفهرست (ص ١٠٧) .

فأما الكتاب الأول، فهو خارج عن موضوعنا وعن دائرة "آختصاصنا" وبحثنا. ولا شبهة لنا فى أنه من تصنيف هذا الوزير، لاسيما أنه يتعلق بأمور، يألفها الملوك والأمراء والوزراء والسادات. ونحن نعلم أنه كان فارسا مِقْداما وأنه قَتَل أسدا، علىٰ ما تشهد به إحدىٰ القصائد الطنانة التى مدحه بها البحترى.

أما الكتاب الثانى، فسيأتى الكلام عليه عند ذكر محمد بن الحارث.

وأما الثالث (وهو كتاب البستان) فقد صرّح المسعودى بأنه ألفه فى أنواع من الأدب[(1)]. ولكن آبن النديم (الذى هو أعرف بهذه الشؤون) نفىٰ ذلك وأكد لنا أنه "منسوب إليه والذى ألفه رجل يعرف بمحمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل"[(2)].

وهكذا الصفدى، فإنه لم يذكر للفتح سوىٰ الكتاب الأول (الصيد والجوارح) ثم كتاب البستان هذا، وقد قال عنه: "صنفه رجل يعرف بمحمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل، ونسبه إليه"[(3)].

فهذه أول شبهة يصح لنا أن نستنبط منها أنّ من الكتب المصنفة برسمه، ما قد آشتهر بعده بآسمه، حتىٰ قال الناس إنه من وضعه.

وأما الكتاب الرابع، فالظاهر أن آسمه ورد محرّفا عن "أخلاق الملوك". ولا نستشهد بأن صاحب "معجم الأدباء" ولا صاحب "كشف الظنون" ولا صاحب

(١) مروج الذهب (ج ٧ ص ١٩٢).

(٢) أنظر ترجمته فى كتاب الفهرست.

(٣) فى ترجمته فى الوافى بالوفيات (عن القطعة السابق ذكرها قبل).

"الوافى بالوفيات" لم يذكروا أن للوزير كتابا باسم "آختلاف الملوك" أو "أخلاق الملوك" . لأنه ربما يكون قد فاتهم، هذا إن كان. ولكننا نقول هنا إنه يجوز أن يكون هذا الكتاب للفتح، أو لمحمد بن الحارث، أو للجاحظ .

فإن كان للفتح كتاب بآسم "أخلاق الملوك" أو "آختلاف الملوك" فهو على كل حال ليس الذى بأيدينا. لأن كتاب "التاج" يتضمن فى أوله وفى آخره مدحا للفتح آبن خاقان وتنويها بذكره، وينادى صاحبه بأعلى عقيرته أنه قدمه للفتح بن خاقان (١) .

ولنا أن نتوهم أن صاحب "الفهرست" إنما أراد ـ عند الكلام على الفتح ـ أن يشير إلى الكتاب المترجم بأخلاق الملوك الذى ألفه محمد بن الحارث أو الجاحظ بآسم الفتح، ثم نتوسع فنقول إن آبن النديم لم يذكر لنا مؤلفه الأصلى كما فعل عند كلامه على "كتاب البستان" . ولسنا نبحث عما إذا كان الإهمال حصل من نفس آبن النديم، أو حدث بسبب النقص الكثير الموجود فى النسخة المطبوعة (٢) .

وعلى كل حال فليس للفتح بن خاقان شأن فيما نحن بصدده .

كلام عن محمد آبن الحارث

بقى علينا أن نبحث عما يتعلق بابن الحارث التغلبى (أو الثعلبى) الذى يؤكد لنا آبن النديم بأنه ألف كتابا بآسم "أخلاق الملوك" (٣) .

أنا لا أمنع أن يكون هذا الرجل ألف كتابا بهذا الآسم وقدمه إلى ذلك الوزير . وإنما أقول إن ذلك لا يعارض أن يكون الجاحظ أيضا قد ألف كتابا آخر وترجمه

(١) أنظر (ص ٤ و ١٨٦) من كتاب التاج .

(٢) ففى نسخة كتاب الفهرست مواضع كثيرة لأهل النقد والنظر . مثال ذلك أنها نسبت إلى حسن بن محبوب ثمانية عشر كتابا من الكتب التى ثبت أنها من تآليف الكوفى . أنظر معجم الأدباء (ج ٢ ص ١٣) .

(٣) كتاب الفهرست (ص ١٤٨) .

بنفس ذلك العنوان ثم قدمه إلى الوزير نفسه. فكثيرا مانرى المتعاصرين يؤلفون كتبا بعنوان واحد و يقدمونها إلى سرى واحد[1].

ولكننى أرى هنالك شبهة قوية تمنع أن يكون الكتاب الذى بأيدينا هو من تأليف محمد بن الحارث.

بيان ذلك :

إن هذا الرجل ألف كتابين آخرين بشهادة ابن النديم. أحدهما كتاب رسائله، والثانى كتاب "الروضة".

نقف قليلا عند هذا الكتاب الثانى، مترددين فى شأنه. أفلا يكون هو نفس الكتاب الذى نسبه ابن النديم للفتح بعنوان "الروضة والزهر"؟ فيكون شأنه حينئذ شأن كتاب "البستان" الذى ألفه رأس البغل ونسبه الناس للفتح!

ولكننا نرجع مسرعين إلى كتاب "أخلاق الملوك" المنسوب لابن الحارث، ونأتى بما عندنا من الدلائل على أنه إذا صح وجوده، فهو غير الذى بأيدينا.

نعم إن "مروج الذهب" المطبوع فى باريس أشار إلى "محمد بن الحارث الثعلبى صاحب الكتاب المعروف بأخلاق الملوك المؤلف للفتح بن خاقان"[2]. ولكن النسخة المطبوعة فى بولاق تسميه "أخبار الملوك"[3] ومثلها نسخة أخرى مخطوطة فى "خزانتى الزكية".

---

(١) أنظر كتاب الفهرست، ومعجم الأدباء، وكشف الظنون (فى غير ما موضع).

(٢) طبعة باريس (ج ٢ ص ١٢).

(٣) طبعة بولاق (ج ١ ص ٥ س ١).

فلِمَ لا يكون ذلك الرجل كتب كتابه وترجمه "أخبار الملوك" ثم تصحفت الكلمة فى النسخة أو النسخ التى كانت أصلا لما اعتمدوه فى طبع "المروج" بباريس ؟ ولم لا يكون حصل مثل ذلك عند طبع "الفهرست" فى ليبسك[1] ؟

ولكن ذلك – والحق يقال – لا نعتبره برهانا حاسما فى أن هذا الكتاب الذى بأيدينا ليس لابن الحارث .

لذلك كله لم يبق لدينا سوى وسيلة واحدة لاستطلاع الحقيقة من الكتاب نفسه .

* * *

استفتاء الكتاب نفسه لمعرفة مؤلفه

فتعالوا بنا نسائله ليخبرنا هو عن مؤلفه الحقيق بما يزول معه كل ارتياب وتتجلّى به الحقيقة ناصعة دون حجاب .

الكتاب يُدلى بحجة صاحبه وينادى على رؤوس الأشهاد بأنه من تأليف الجاحظ .

أسلوب الجاحظ

أوّلا – إن الجاحظ قد امتاز بأسلوب مخصوص من الكتابة والتعبير : أسلوبٍ فيه حلاوة ، وعليه طلاوة ، وله رشاقة ؛ أسلوبٍ تتجلّى فيه الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، والطبع المتمكّن ، والمعانى التى إذا طرقت الصدور عمرتها ، وإذا صارت إلى القلوب أصلحتها من الفساد القديم ، وإذا جرت على الألسنة فتحت لها أبواب البلاغة .

وها هو "التاج" إذا أجلنا النظر فى تضاعيفه وثناياه وأعطافه ، وجدناه حاليا بعيون الكلم الروائع والفقر الحسان ، والنتف الجياد ، مما ينادى بأن صانعه الماهر ، وصائغه الحاذق ، هو هو "الجاحظ" صاحب السبك الجيد ، وربّ الكلام الذى له ماء

(١) وقد ثبت لنا عن ياقوت أن فيها تحريفا كثيرا ، كما أشرنا إليه فى إحدى الحواشى المتقدمة (ص ٤٣) .

ورونق، وفيه قرّة العين وجلاء الصـدور . تلك الصنعة عليها طابَع الجاحظ كما هو معهود عند نُقّاد الألفاظ وصيارفة النثار والنظام وجهابذة المعانى .

والشاهد الصادق والحجة القاطعة على ما نقول يتجليـان فى أجمل حُلّة عند ما ينظر القارئ فى الصفحات التى سبقت الإشارة إلى أرقامها[1] .

هنـالك يشنف القارئ سمعـه بالألفاظ المستحسنة فى الآذان، التى تدخل على الأذهان بغير آستئذان . هنالك يذوق فى كل سطر تلك الحلاوة و يبتهج فؤاده حيال تلك الطلاوة وهاتيك الرشاقة التى آختص بها "الجاحظ"، إلى ما هو معروف عنه من السهولة والعـذوبة التى تحببـه إلى النفوس . هنالك نجد المعنى يسابق اللفظ، ونشهد اللفظ يجارى المعنى : بطريقة تَهَشُّ لهـا الأسماع، وتلتحم بالعقول، وترتاح إليها القلوب . هنالك نجد اللفظ كريما فى نفسه، متحيزا إلى جنسه، متخيَّرا فى نوعه . هنالك نرى الكلام سليما من الفضول، بريئا من التعقيد .

وإليك أمثلةً نؤيد بهـا قولنا، وننقلها هنا حجة على صدق رأينا، ونترك للقـارئ مراجعة الباقى فى سائر المواطن التى نبهناه إليها . أمثلة من صياغته

قال صاحب "التاج" فى صفحة ٢١ :

فإنا قد نرى الملك يحتاج إلى الوضيع للهوه، كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه؛ ويحتاج إلى المضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لعفته؛ ويحتاج إلى أهل الهزل، كما يحتاج إلى أهل الجدّ والعقل؛ ويحتاج إلى الزامر المطرب، كما يحتاج إلى العالم المُتْقِن .

---

(١) فى (ح ١ ص ٣٩) من هذا التصدير .

وفى صفحة ٢٤ :

لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقِصَر ولا مؤوف ولا مرمىّ بأُبنة ، ولا مجهول الأبوين ، ولا ٱبن صناعة دنيئة كٱبن حائك أو حجّام ، ولو كان يعلم الغيب مثلا .

وفى صفحة ٤٥ :

وللسكرحة إذا بلغه نديم الملك ، فأجمل الأمور وأحراها بأخلاقه أن لا يؤاخذه بزلة إن سبته ، ولا بلفظة إن غلبت لسانه ، ولا بهفوة كانت إحدىٰ خواطره .

والحدّ فى ذلك أن لا يعقل ما يقول ولا ما يقال له ، و إن خُلّيَ ونفسه رمىٰ بها فى مهواة ، و إن أراد أحد أخذ ثيابه لم يمانعه .

فأما إذا كان ممن يعرف ما يأتى وما يذر ، وكان إذا رام أحد أخذ ما معه ، قاتله دونه ؛ وكان إذا شتم ، غضب وٱنتصر ؛ و إذا تكلم ، أفصح وقل سَقَطُه : فإذا كانت هذه صفته ثم جاءت منه زلة ، فعلىٰ عمد أتاها و بقصد فعلها . فالملك جدير أن يعاقبه بقدر ذنبه . فإنّ ترك عقوبة هذا ومن أشبهه ، قدح فى عزه وسلطانه .

وفى صفحة ٤٨ :

وهذا إبراهيم بن المهدىّ بالأمس . دخل علىٰ (أحمد) بن أبى دؤاد (بن علىّ) وعليه مبطنة ملوّنة من أحسن ثوب فى الأرض ، وقد ٱعتم علىٰ رأسه رصافية بعمامة خز سوداء لها طرفان خلفه وأمامه ، وعليه خف أصفر ، وفى يده عكازة آبنوس ملوّح بذهب ، وفى أصبعه فص ياقوت تضىء يده منه . فنظر إلىٰ هيئة ملأت قلبه ، وكان جسيما ، فقال : "يا إبراهيم ! لقد جئتنى فى لبسة وهيئة ما تصلح إلا لواحد من الخلق" . فٱنصرف فلم يأته حتّى مات .

وفى صفحة ٦١ :

ألا ترىٰ أن الملك قد يغضب علىٰ الرجل من حُمّاته ، والرجل من حامته وبطانته : إما لجناية فى صلب مال ، أو لخيانة حرمة الملك ، فيؤخر عقوبته دهرا طويلا ، ثم لا يظهر له ما يوحشه ، حتّى يتّق ذلك فى اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك .

وليست هذه أخلاق سائر الناس ، إذ كنا نعلم أن طبائع الناس الٱنتصار فى أوّل أوقات الجنايات وعند أوّل بوادر الغضب .

فأما الملوك وأبناؤهم ، فليست تقاس أخلاقهم ولا يعاير عليها . اذ كان أحدهم يضع أعدىٰ خلق الله له بين أذنه وعاتقه ، و بين سحره ونحره . فتطول بذلك المدّة وتمرّ به الأزمنة ، وهو لو قتله فى أوّل حادثة تكون وعند أوّل عثرة يعثر ، لم يكن بين هـذه القتلة و بين الأخرىٰ بعدها بعشرين سـنة فرق . إذ كان لايخاف ثأرا ، ولا فى الملك وهنا .

وفى صفحة ٦٦ – ٦٨ :

ومن حق الملك أن لا يرفع أحد من خاصته و بطانته رأسـه إلىٰ حرمة له ، صغرت أم كبرت . فكم من قبل قد وطئ هامة عظيم و بطنه حتّى بدت أمعاؤه ، وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقته السباع وتمششته ، وكم من جارية كانت كريمة علىٰ قومها ، عزيزة فى ناديها قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء ، وكم من جمجمة كانت تصان وتعلّ بالمسك والبان ، قد ألقيت بالعراء ، وغيبت جثتها فى الثرىٰ بسبب الحرم ، والنساء ، والخدم ، والأولياء ! ولم يأت الشـيطان أحدا من باب قط حتّى يراه بحيث يهوى منقسم اللحم والأعضاء ، هو أبلغ فى مكيدته وأحرىٰ أن يرىٰ فيه أمنيته من هـذا الباب ، إذ كان من ألطف مكايده وأدق وساوسه وأحلىٰ تزيينه !

فعلىٰ الحكيم المحب لبقاء هذا النسيم الدقيق ، وهذا المـاء الرقيق ، أن يطلب دوامهما لنفسه بكل حيلة يجد إليها سبيلا ، ويدفع مفارقتها لكل شيء يقع فيه التأويل بين أمرين من سلامة تحيى أو عطب يتلف . ولا يتكل علىٰ خيانة خفيت أو بجرة حظى بها أحد من أهل الســفه والبطالة . فإن تلك لاتسمى سلامة ، بل إنما هى حسرة وندامة يوم القيامة . وكم من فعلة قد ظهر عليها بعـد مرور الأيام وطول الأزمنة بها ، فردّت من كان قد أحسن بها الظن حتّى تركته كأمس الذاهب كأن لم يكن فى العالم !

وفى صفحة ٧١ :

ومن حق الملك — إذا زامله بعض بطانته — أن يكون عارفا بمنازل الطريق وقطع المسافة ، دليلا بهدايته وأعلامه ومياهه ، قليل التثاؤب والنعاس ، قليل السعال والعطاس ، معتدل المزاج ، صحيح البنية ، طيب المفاكهة والمحادثة ، قصير المياومة والملايلة ، عالما بأيام الناس ومكارم أخلاقهم ، عالما بالنادر من الشـعر والسائر من المثل ، متطرّفا من كل فن ، آخذا من الخير والشر بنصيب . إن ذكر الآخرة ونعيم أهل الجنة ، حدّثه بما أعدّ الله تعالىٰ لأهل طاعته من الثواب فرغبه فيما عنده ؛ وإن ذكر النـار ، حذّره ماقرّب إليها . فزهده مرة ، ورغبه أخرىٰ . فإن بالملك أعظم الحاجة إلىٰ من كانت هذه صفاته . و بالحرىٰ إذا أصاب هذا ، أن لا يفارقه إلا عن أمر تنقطع به العصمة وتجب به التتمة .

ومن حق الملك ، إذا خرج لسفر أو نزهة ، أن لا يفارقه خلع الكساء ، وأموال للصلات ، وسياط للآداب ، وقيود للعصاة ، وسلاح للأعداء ، وحماة يكونون من ورائه و بين يديه ، ومؤنس يفضى إليه بسره ، وعالم يسأله عن حوادث أمره وسنة شريعته ، ومُلَه يقصر ليله و يكثر فوائده .

وفى صفحة ١٠٢ :

والعامة تضع هذا وما أشبهه فى غير موضعه . وإنما هو شىء ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه على ألسنتهم ، حتى قالوا فى نحو من هذا فى البائع والمشترى : ''المغبون لا محمود ولا مأجور'' . فحملوا الجهلة على المنازعة للبلغة ، والمشاتمة للسفلة والسوقة ، والمقاذفة للرعاع والوضعاء ، والنظر فى قيمة حبة ، والأطلاع فى لسان الميزان ، وأخذ المعاير بالأيدى .

و بالحرى أن يكون المغبون محمودا ومأجورا . اللهم إلا أن يكون قال له : آغبنى . بل لو قالها ، كانت أكرومة وفضيلة ، وفعلة جميلة تدل على كرم عنصر القائل وطيب مركبه .

ولذلك قالت العرب : ''السَّرْوُ التغافُلُ !'' .

وأنت لا تجد أبدا أحدا يتغافل عن ماله إذا خرج ، وعن مبايعته إذا غبن ، وعن التقصى إذا بخس ، إلا وجدتَ له فى قلبك فضيلة وجلالة ما تقدر على دفعها .

وقال فى ص ١٤٣ ، عند ردّه على من وصف أبا جعفر المنصور بالبخل ، بعد أن أورد الدلائل والشواهد :

''فهل سمع هذا الجاهل الخائن بمثل هذه المكارم لعربىّ أو عجمىّ ؟ ولو أردنا أن نذكر محاسن المنصور''
''على التفصيل والتقصى لطال بها الكتاب وكثرت فيه الأخبار'' .

''وقلما آستعملت العامة وكثير من الخاصة التمييز ، إيثارا للتقليد . إذ كان أقل فى الشغل وأدل على الجهل''
''وأخف فى المؤونة . وحسبك من جهل العامة أنها تفضل السمين على النحيف ، و إن كان السمين مأفونا''
''والنحيف ذا فضائل ؛ وتفضل الطويل على القصير ، لا للطول ولكن لشىء آخر لا ندرى ما هو ؛ وتفضّل''
''راكب الدابة على راكب البغل وراكبَ البغل على راكب الحمار ، آقتصارا على التقليد إذ كان أسهل فى المأتى''
''وأهون فى الآختبار'' .

أفليست هذه ديباجة الجاحظ ؟ وهلا ترى روحه سارية فى هذه التراكيب الرشيقة الناصعة وتلك الأساليب الأنيقة البارعة ؟

بعض مصادره

ثانيا ـ إن بعض المصادر التى عوّل عليها صاحب "التاج" نجدها متفقة مع ماتراه فى الكتب التى لاريب فى أنها من آثار "الجاحظ".

فقد آعتمد الجاحظ علىٰ آبن نجيح[1] وعلىٰ إبراهيم بن السِّنْدِىّ بن شَاهَك[2] وعلىٰ محمد آبن الجَهْم[3] وعلىٰ صباح بن خاقان[4].

وكذلك شأنه فى النقل عن "كَليلَة ودِمْنَه"[5].

أما المدائنىّ والهيثم والشَّرْقِىُّ بن القَطَامِىّ، فالنقل عنهم كثير جدًا فى كل كتبه. فلا نطيل بالآستدلال بهم فيما نحن بصدده.

تكرار الجاحظ وترداده

ثالثا ـ إن الجاحظ مشهور بالتكرار والترداد. وهو أمر نشاهده أيضا فى كتاب "التاج" ودليلنا علىٰ ذلك ماتراه :

(١) فى "التاج" (ص ٤) وفى "الحيوان" (ج ٦ ص ١٢٩).

(٢) فى "التاج" (ص ١٢) وفى "الحيوان" (ج ٢ ص ٥٠ ، ج ٤ ص ١٣٥ ، ج ٥ ص ١٠٣ ، ١١٩ ، ج ٧ ص ١٢) وفى "البخلاء" (ص ٢٦) وفى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ٤١، ٥٤، ٦٠، ٧٩، ١٢٩ ؛ ج ٢ ص ٣٩ و ١٥٤) وفى "مناقب الترك" (ص ٤٧ و ٥٠) وفى "العشق والنساء" (ص ١٦٧).

(٣) فى "التاج" (ص ٥١) وفى "الحيوان" (فى مواضع كثيرة من جميع الأجزاء) وفى "البخلاء" (ص ١٤٨) وفى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ٤٥ ، ج ٢ ص ١٦ و ١٦١) وفى "مناقب الترك" (ص ٢٤ و ٣٥).

(٤) فى "التاج" (ص ١١٠) وفى "الحيوان" (ج ٤ ص ١٠٠) وفى "البيان" (ج ١ ص ٤٨ و ١٣٦).

(٥) فى "التاج" (ص ١٣٨) وفى "الحيوان" (ج ٦ ص ١٠٨ ؛ ج ٧ ص ٢٩، ٣٠).

١ً – فى كلامه على تفرد الملوك (ص ١٧، ٤٧)؛

٢ً – فى بيانه لكمية الشرب وكيفيته (ص ٢٢، ٤٩، ٨٩)؛

٣ً – فى شرحه لاستماع حديث الملوك (ص ٥٣، ١١٢)؛

٤ً – فى ذكره لطريقة تحديث الملوك (ص ٤٩، ١١٢، ١١٧)؛

٥ً – فى سرده سيرة الخلفاء والملوك فى الشرب (ص ٣٢ – ٤٣ و ص ١٥١)؛

٦ً – فى إتيانه على آداب أهل الزلفى بعد المضاحكة (ص ٦١، ٦٨)؛

٧ً – فى دلالته على وجوب الاحتياط على الملك عند الدنو منه (ص ٥٣، ٧٠).

وهنالك مواضع أخرى من هذا القبيل، أضربنا عن ذكرها لأنها مبثوثة فى الكتاب يراها المتأمل بغير عناء.

إشارته إلى كتبه المتقدمة

رابعا – لأن المؤلف نفسه يقول فى صفحة ٥ من "التاج":

ولعل قائلا يقول، إذا رآنا قد حكينا فى كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب: "قد ناقض واضع هذا الكتاب إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية". فيظلم فى اللفظ ويعتدى فى المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا كالطبقة الوسطى عند النمط الأعلى. أنت تجد ذلك عيانا وتشهد عليه بيانا. وعلى أن هذه المقالة لا يقولها من نظر فى سير من مضى وسير من شاهد. وبالله التوفيق!

وبديهى أن محمد بن الحارث لا يصح له أن يقول مثل هذه الكلمة لأن كتبه الثلاثة "الصيد والجوارح"، و"الروضة والزهر"، و"البستان" لا تحتمل أن تكون موضوعا لبعض "أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب". أما الذى له الحق الصراح فى أن يأتى بمثل هذا القول فإنما هو الجاحظ دون صاحبه. وها هى كتب الجاحظ التى وصلت إلينا نراها مفعمة بتفاصيل من هذا القبيل! فما ظنك بالتى ضن بها علينا الزمان؟

تصريحه بكتاب معين له

خامسا – لأن مصنف "التاج" يقول فى خطبته : "إنا ألفنا كتابا قبل كتابنا هذا فيه أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة . وكان غير ذلك أولى بنا وأحق فى مذهبنا وأحرى أن نصرف عنايتنا إلى ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشيمها"[1].

تأكيده لهذا التصريح

سادسا – إن المؤلف يعود فيؤكد ذلك بقوله : "فرأينا إذ أخطأنا فى تقديمنا أخلاق أهل البطالة – وإن كان فيها بعض الآداب وما يحتاج إليه أهل الشرف من محاسن الأخلاق – أن نتلافى ما فرط منا بوضع كتاب فى أخلاق الملوك وخصائصها التى هى لها فى أنفسها"[2] .

فهذان نصان صريحان فى أن الذى ألف كتابا فى أخلاق أهل البطالة هو نفس الذى صنف كتاب " أخلاق الملوك " . ولا مِرْيَةَ عند أحدٍ فى أن الجاحظ هو الذى صنف كتاب الفتيان وأخلاق أهل البطالة (كما يشهد به ياقوت والصفدى وابن شاكر) .

* * *

النتيجة والحكم

فوجب علينا حينئذ أن نجزم القول ونبرم الحكم بأن الجاحظ هو هو صاحب هذا الكتاب .

أما محمد بن الحارث التغلبى (أو الثعلبى) فلم يقل أحد قط إنه كتب شيئا فى أخلاق الفتيان وأهل البطالة .

---

(١) أنظر كتاب التاج (ص ٣ س ٢ – ٤).

(٢) أنظر كتاب التاج (ص ٤ س ١٠ – ١٢).

وبناء على ذلك فليس يصح لإنسان أن يقول بعد الآن إن لهذا الرجل شأنا ما في الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى أهل الفضل والأدب .

وها نحن، بحمد الله، قد وفينا البحث حقه بما وصلت اليه طاقتنا وانتهى إليه وسعنا . ولم نأل جهدا فيما شرطه الجاحظ (فى البيان والتبيين، ج ١ ص ٤) من حيث الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم والنفوس إليه أسرع . والله ولىّ الهداية والتوفيق .

أحمد زكى

عن "الخزانة الزكية" بالقاهرة فى سنة جمادى الأولى ١٣٣٢ / أبريل ١٩١٤

حاشية :

أرى من واجبي أن أذكر بالشكر المعاونة الثمينة التى بذلها لى صديقى المفضال نعمت الله افندى البغدادى المشتغل بمهنة المحاماة بالقسطنطينية . فقد جعل نفسه وقفا على خدمتى ومساعدتى أثناء آشتغالى فى عاصمة الخلافة الإسلامية بجمع المواد التى كانت أساسا لمشروع "إحياء الآداب العربية" . وكان فى كل معاملاته معى مثالا للإخلاص وعنوانا للأمانة . وله اليد الطولى فى خدمة هذا الكتاب بنوع أخص، لأنه تفضل وراجع بمزيد الدقة تجارب المطبعة على النسخة المحفوظة فى آياصوفيا قبل أن تصلنى صورتها الفتوغرافية . فكان حقا علىّ أن أسطر له آية من الشكر فى تضاعيف هذا السفر .

أ . زكى

بعد التحرير

وفيه تعريف بنسخة ثالثة من كتاب "التاج"

مكتوبة فى مدينة حلب الشهباء

كان إرسال كتاب "التاج" إلىٰ المطبعة الأهلية فى يوم ١٧ محرم سنة ١٣٣٠ (٧ يناير سنة ١٩١٢) بأمر رسمىّ من نظارة المعارف العمومية .

من ذلك العهد توفّرتُ علىٰ خدمته بتحقيق ألفاظه وعباراته و إنعام البحث فى مبانيه ومعانيه وتحلية حواشيه وتصحيح مسودّاته وتجاربه ، ثم آنقطعتُ لكتابة "التصدير" وتكميل الحواشى وتحرير الفهارس حتى فرغتُ من ذلك كله فى يوم الأربعاء ٢٠ ذى الحجة سنة ١٣٣١ (١٩ نوفمبر سنة ١٩١٣) . فأرسلتُ للمطبعة الأميرية الإذن بآعتماد الطبع نهائيا .

ولكن الأقدار ساقت لى نسخة ثالثة من "التاج" علىٰ غير آنتظار . فقد حضر إلىٰ القاهرة فى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٣ رجلٌ من الذين يتعاطَوْن تجارة التحائف والطرائف بمدينة فلورانسة ، من أعمال إيطاليا ، وهو جناب المسيو شرمان S. Sherman ومعه طائفة من الكتب الخطية باللغة العربية والتركية والفارسية مما آشتراه من القسطنطينية من المجموعة التى تضمنتها خزانة خالص بك . وقد طلب منى مشاهدة مامعه من الأسفار ، فتصفّحتُها واحدا واحدا ، وليس فى وسعى أن أصف آبتهاجى وسرورى حينما عثرتُ فى جملتها علىٰ نسخة من كتاب "التاج" .

لذلك أسرعتُ فطلبتُ من المطبعة إيقافَ طبع التصدير والفهارس إلىٰ أن يتم لى تصفّح هذه النسخة الثالثة التى أُسميها "بالحلبية" .

راجعتُ هذه النسخة علىٰ طبعتى كلمةً كلمةً وحرفا حرفا . فألفيت فى "الحلبية" أغلوطات كثيرة، وتحريفات متعددة . ووجدتُ فيها بعضا من العبارات التى آعتمدتها فى طبعتى، نقلا عن نسخة آيا صوفيا . ولست أتكلم عما فى "الحلبيـة" من التحريف الذى قلما تخلو منه صفحة واحدة بل سطر واحد، ولا عما تضمّنته من الحروف والكلمات الزائدة أو الناقصـة، ولا عن العبارات المبتورة . فإن الذى يَعْنِينِى منها إنما هو بعض ما تضمّنته من الزيادات التى فيها فائدة جوهرية، أو قد يكون لها شـبه مزية عَرَضية . هذه الزيادات هى التى آكتفيتُ بتحريرها فى باب عنونتُه باسم "آستدراك" وأضفته عقب باب "التصحيحات" حتّى يكون "التاج" متحليا بكل ما يمكن من مزايا الجمال والكمال .

✦ ✦ ✦

أمّا وقد سبق لى وصف النسخة السلطانية (س) فى صفحة ٢٧ و٢٨ ونسخة آيا صوفيا (ص) فى صفحة ٣١ و٣٢ من هذا التصدير، فلا بدّ لى من أن أقول فى هـذا المقام إننى أكملتُ كلًّا من هاتين النسختين بالأخرىٰ، وأتعبتُ نفسى كثيرا فى تصحيح ما أودعه فيها الناسخان الماسخان من سخافات وحماقات وضلالات، ومن تشويهات وتبديلات وجهالات .

ذلك بأنى شمّرتُ عن ساعد الجِدّ، وراجعتُ كتب الثقات، وبذلتُ كل ما فى الطوق لتقويم المعوجّ وإصلاح الخطل بما وسعه الجهد وبلغه المقدور، حتّى جاءت طبعتى لكتاب "التاج" جامعةً لكل ما جاء فى النسختين المذكورتين علىٰ قسطاس مستقيم . فأصبحتْ وافية من كل وجه بما يتطلبه أهل العلم والتحقيق . ويستغنِى بها القارئ عن الأصلين متحدين أو منفردين .

*
* *

والآن أرىٰ من الواجب تخصيص كلمة أخرىٰ للتعريف بالنسخة "الحلبية" فأقول :

إنها موجودة فى مجموعة تشتمل علىٰ كتابين، وليس فى أحدهما عنوان .

فأما الأول فيتضمن آداب الملوك ونصائحهم، وأما الثانى فهو كتاب "التاج" .

علىٰ الصفحة الأولىٰ من هـذه المجموعة عبارة تفيد أنها دخلتْ فى نوبة "خويدم الفقراء النقشبندية السيد أحمد نجل المرحوم المبرور الشيخ داود افندى النقشبندى الخالدى عُفى عنهما فى ١٩ شوّال سنة ١٣٠٨" .

وأنا أعلم علم اليقين أنّ هذه المجموعة قد دخلتْ بعد ذلك التاريخ فى خِزانة كتب خالص بك من رجالات السلطان عبد الحميد الثانى المخلوع فى عصرنا هـذا . فإن الخواجه شرمان وشركاءه قد ٱشتروا هذه الخزانة أو معظمها منذ سنة أو أقلَّ من سنة من خالص بك المشار إليه .

وأعود لوصف نسخة "التاج" الموجودة فى هـذه المجموعة "الحلبية" فأقول علىٰ وجه الإجمال : إنها تشترك مع (ص) فى كثير من الزيادات التى تضمنتها، وتشترك مع (ب) فى بعض العبارات التى ٱنفردتْ بها . (وحينئذ فهذه النسخ الثلاث التى وقعت لى هى صادرة عن ثلاث أمهات أصلية متغايرة) .

أما هذه النسخة "الحلبيـــة" فهى مكتوبة بقلم النسخ العادى الذى كان مستعملا فى القرن التاسع الهجرى . وهى تقع فى ١٠٥ صفَحات، فى كل صفحة منها ١٧ سطرا . ولكنها مبتورة من آخرها . ذلك لأنها تنتهى عند قول الجاحظ :

"ولولا أن يطول كتابنا فى إسحاق وذكره وحكينا (كذا) مناقبه لحكينا عنه أخبارا كثيرة ، وهى من هذا الجنس وفيما ذكرناه كفاية . والله أعلم بالصواب" .

فهذه العبارة هى الواردة فى صفحة ١٧١ من طبعتنا . وإنما أضاف إليها الناسخ الحلبى قوله "والله أعلم بالصواب" ليختم الكتاب . وعلىٰ ذلك تكون النسخة الحلبية ناقصة ١٥ صفحة من طبعتنا، أى ١٧ صفحة من النسخة السلطانية، أى ١٣ صفحة من نسخة آيا صوفيا .

ومما ينبغى إعادة التنبيه اليه أن هذه النسخة خِلْو من العنوان . والأمر المهم فيها أنها تتضمن فى الصفحة الأولىٰ نسبة الكتاب إلىٰ الجاحظ . فإنها مصدّرة بعد البسملة بهذه العبارة :

"قال الشيخ الإمام العالم العلامة ذو التصانيف المفيدة والمقاصد الحميدة أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله"[1] .

والأمر الأهم فيما يعنينا أن آخر صفحة منها تتضمن اسم الكاتب لها وموضع نسخها والخِزانة التى كانت بها . فقد ورد فيها مانصه بالحرف الواحد :

"بلغ المقابلة من هذا الكتاب بالمدرسة المعروفة بانشاء الخواجا أمير حاج بن جنيد ببانَقُوسا[2] بحلب المحروسة ، فى السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة . وكتبه عبد الله بن عمر الشافعى[3]" .

(١) أنظر الراموز الفتوغرافى فى صفحة ٨١ وقد نقلناه عن الأصل بإذن صاحبه المسيو شرمان .

(٢) بانقوسا (بفتح النون كما فى ياقوت، ولكن أهلها ينطقون به ساكنا الآن) هى قرية كبيرة كانت خارج سور حلب وفيها جامع قديم مشهور . وقد اتصلت العمارة بينهما حتى صارت الآن جزءا من المدينة . ولا تزال بها آثار تلك المدرسة ولكن أطلالها دارسة، ومعالمها طامسة . وهى من المدارس المهجورة . وأنظر الراموز الفتوغرافى فى صفحة ٨٣ وقد نقلناه عن الأصل بإذن صاحبه المسيو شرمان .

(٣) كلمة "الشافعى" قرأتها بالتخمين . وفى كتابتها إبهام كثير فلذلك لا أضمن صحة القراءة .

فهــذه العبارة الأخيرة لها فائدة كبيرة فى التحقيق . لأنها تدل أولا على أن هــذا الكتاب كان معروفا فى ســنة ٨٨٣ بأنه من تأليف الجاحظ، ولأنها جاءت مؤكدة لما قاله ياقوت قبل ذلك بثلاثة قرون من حيث إن للجاحظ كتابا فى أخلاق الملوك . فهذا هو السند التاريخى الذى تخيلناه فى مباحثنا وتحقيقاتنا على ما يراه القارئ فى "التصدير" حينما سقنا الدليل وراء الدليل على أن هذا الكتاب من تأليف الجاحظ بلا جدال ولا إشكال .

ومن سوء الحظ أن الناسخ الحلبى لم يضع لنا فى أول نسخته آسم "التاج" ولا آسم "أخلاق الملوك" . فسواء كان الكتاب معروفا فى ذلك الوقت بهذا الأسم أو بذاك العنوان فلا ريب بعد هــذه الشهادة التاريخية الثابتة ثبوتا حاسما فى أن هذا الكتاب هو من كتب الجاحظ دون سواه . وكأن الأقدار أرسلت لنا هــذا الدليل الناطق وهــذا البرهان القاطع لتأييد البحث الذى سهرنا عليه الليالى وأوفيناه قسطه من التحقيق الدقيق حتى وصلنا إلى الغاية التى جاءت النسخة الحلبية مصدقة لها بما فيه تمام الإقناع ونهاية اليقين .

أ . زكى

رامـــوز

لكتابٍ أرسله لى أحد أفاضل العلماء المستشرقين بالروسيا، وهو الأستاذ أغناطيوس كرونشْووسْكى . وقد كان قابلنى بالقاهرة وفاوضتُهُ فى شأن " التاج " وغيره من نفائس المصنفات .

رأيتُ من الواجب إثبات هذا الكتاب علىٰ صورته الأصلية وبخط صاحبه ، لكى يعرف قومنا مقدار عناية الأفرنج بآثار أجدادنا وتفانيهم فى البحث عنها . وإنى أشكره علىٰ هذه العنايه ، وأُهنِّيه علىٰ بلوغه فى فن الإنشاء العربى هذه الغايه .

(كما تراه فى الصفحتين التاليتين)

جناب الاستاذ الفاضل والعالم المدقّق الكامل

بعد الاحترام الوافر والسلام العاطر اعرض لمقامكم السامي انّه قد قضت عليّ الظروف بمغادرة مصر ليلًا باسرع وقت ولذلك لم اتجاسر على ازعاج خاطركم الشريف ثانيةً حسب سابق الوعد. هاءنا ذا قد بسطت لكم عذري والعذر عند كرام الناس مقبول

قد وصلت الى بيروت وتطول اقامتي ههنا شهرًا او تزيد حسب الظروف فانّ الرياح تجري "بما لا تشتهي السفن"...

وبحثت في هذه الايام على قدر امكاني عن كتاب التاج الذي اخبرتموني عن اكتشافه في محاورتنا الاخيرة ورايت انّ له قدرًا اهمّ ممّا كنت اراه في الاوّل. وما وجدت كتاب التاج بين تاليفات الجاحظ ولكن صاحب الفهرست يذكر كتابًا لابن المقفّع تحت هذا العنوان (طبعة اوروبا ١١٨,٢٨) ولا يبعد ان يكون مصدر الكتابين واحدًا، وممّا يؤيّد ذلك وجود كتاب بهذا الاسم نفسه بين "الكتب التي الّفها الفرس في السير (راجع الفهرست ٣٠٥,١١) وعلى هذا الوجه ربّما يكون كتابا الجاحظ وابن المقفّع مستندين على الكتاب المذكور. وهذا كما لا يخفى على ذهنكم الوقّاد من الاهمّيّة بمكان وكيفما كان الحال فليس بين ايدينا حتى الآن شيء من كتابيْ الجاحظ وابن المقفّع اما كتاب التاج الفارسي فيذكره ابن قتيبة في عيون الاخبار وقد جمع متفرقاته استاذنا المرحوم البارون روزن قبل طبع

بعض الاخبار في مقالته المدرجة في Mélanges Asiatiques vol VIII, 1880, p. 774 sq. وقد بحث عنه مطوّلاً وأحدٌ من تلامذته المستشرق الروسي Inostranzew في رسالته التي طبعت حديثاً في Mémoires de l'Académie Impériale des sciences de St. Pétersbourg, VIII série, Vol. VIII # 13, p. 26-29. ولعلّ هذا الكتاب نفسه هو الذي ذكره المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف (طبعة ليدن ص ١٠٦) وعلى كل حال فنحن في انتظار ظهور تقريركم المطوّل عن هذه الاكتشافات الجديدة ذات الاهمّية ولا شك انه سيكون له صدى بعيد عند المستشرقين كما هو الجدير به.

وفي الختام التمس معذرة من جنابكم على ازعاجي خاطركم الشريف بهذه العجالة واطلب لكم من الله نجاحاً وتوفيقاً في اعمالكم كلّها التي تخدمون بها العلم خدمةً تذكر فتشكر

ودمتم لمحترمكم

بيروت في ١٢ شباط سنة ١٩١٠ Ign Kratchkovsky

Beyrouth (Syrie)
Consulat Impérial de Russie

جـــدول

بيان بعض المؤلفات التى نقلتْ عن كتاب "التاج"

المحاسن والمساوى		محاسن الملوك		مروج الذهب	تنبيه الملوك
ح ٢ ص ١٢	ح ١ ص ١٠٦	ح ٨ ص ١٣	ح ٢ ص ٩٩	ح ١ ص ١١	ح ٢ ص ١٦
ح ٥ ص ١٢	ح ٢ ص ١٠٨	ح ٣ ص ١٤	ح ١ ص ١٢٣	ح ٣ ص ٢٣	ح ٤ ص ٥٥
ح ٤ ص ٥٥	ح ٢ ص ١١٠	ح ٢ ص ١٦	ح ٤ ص ١٢٤	ح ٣ ص ٢٩	ح ٣ ص ٥٦
ح ٢ ص ٥٧	ح ١ ص ١١٢	ح ٤ ص ٣٣	ح ٣ ص ١٢٥	ح ٥ ص ٣٣	ح ٢ ص ٥٧
ح ٢ ص ٥٩	ح ١ ص ١٢٢	ح ٣ ص ٣٧	ح ٧ ص ١٢٥	ح ١ ص ٥٣	ح ١ ص ٦٥
ح ٣ ص ٧٨	ح ٦ ص ١٢٦	ح ٢ ص ٤٥	ح ٣ ص ١٢٦	ح ٣ ص ٥٥	ح ٥ ص ٦٦
ح ٣ ص ٧٩	ح ٣ ص ١٢٧	ح ٤ ص ٥٥	ح ٥ ص ١٢٦	ح ٣ ص ٥٦	ح ٢ ص ٩٩
ح ٤ ص ٨١	ح ٤ ص ١٣٤	ح ٣ ص ٥٦	ح ١ ص ١٣٢	ح ٣ ص ٥٧	ح ١ ص ١٢٢
ح ٢ ص ٨٢	ح ٣ ص ١٦٨	ح ٢ ص ٥٧	ح ٢ ص ١٤٠	ح ٢ ص ٥٩	ح ٢ ص ١٨٠
ح ٣ ص ٨٣	ح ٤ ص ١٦٨	ح ٢ ص ٥٩	ح ٢ ص ١٤١	ح ٤ ص ٥٩	ح ٣ ص ١٨٠
ح ١ ص ٨٨	ح ٢ ص ١٦٩	ح ٣ ص ٧٣	ح ٢ ص ١٦٠	ح ٢ ص ٦٠	
ح ٣ ص ٨٨	ح ٦ ص ١٦٩	ح ٤ ص ٧٦	ح ١ ص ١٦٢	ح ١ ص ١١٢	
ح ٢ ص ٩١	ح ٥ ص ١٧٠	ح ٣ ص ٧٨	ح ١ ص ١٦٣	ح ٣ ص ١٣٠	
ح ١ ص ٩٤	ح ٢ ص ١٧١	ح ٣ ص ٧٩	ح ٣ ص ١٧٥	ح ٢ ص ١٣١	
ح ٢ ص ٩٩	ح ٤ ص ١٧١	ح ٢ ص ٨٢	ح ٢ ص ١٧٥	ح ٣ ص ١٣٢	
ح ٥ ص ١٠٠	ح ٣ ص ١٧٥	ح ١ ص ٨٨	ح ٤ ص ١٧٦	ح ٥ ص ١٣٥	
ح ٣ ص ١٠١	ح ٤ ص ١٨٠	ح ٢ ص ٩١	ح ٢ ص ١٨٠	ح ٤ ص ١٧٦	
ح ٢ ص ١٠٢	ص ١٩٧	ح ١ ص ٩٥			
ح ١ ص ١٠٤					

المحاسن والأضداد	العقد الفريد	الطــبرى	الأغانى	محاضرات الراغب
ح ٢ ص ٦٥	ح ٧ ص ٢٠	ح ٢ ص ٣٧	ح ٢ ص ٨٢	ح ٢ ص ٦٩
ح ٢ ص ٦٧	ح ٤ ص ٨١	ح ٢ ص ١٤٣	ح ٤ ص ١٣٤	
ح ٦ ص ٦٧	ح ٢ ص ٨٢			
	نهج البلاغة	المستطرف	صبح الأعشى	مطالع البدور
ح ١ ص ٨٨	ص ١٩٠	ح ٥ ص ١٤	ح ١ ص ١٢٢	ح ٢ ص ٥٨
ح ٣ ص ٨٨	ص ٢٠٢	ح ٤ ص ١٦٩		
ح ١ ص ٩٧				
ص ٢٠٠				

بيان
الرموز المستعملة فى هذه الطبعـــة

١ ـــ الحروف

سـ يدل علىٰ النسخة السلطانية الموجود أصلها فى خزانة طوب قپو بالقسطنطينية .

صـ « النسخة الموجود أصلها فى خزانة آيا صوفيا بالقسطنطينية .

س « سطر .

ص « صفحة.

ح « حاشية.

ج « جزء .

م « مكرر، إذا وضع وراء أحد الأعداد . (وحينئذ يدل علىٰ أن الكلمة مكررة فى الصفحة مرتين فأكثر).

[ ] هـذان القوسان المربعـان حصرتُ فيهما الكلام المكمل للمتن، وأشرت فى الحاشـية إلىٰ موضع النقل . وقد أحصر بينهما إضافات من عندى يسـتوجبها المقام،وحينئذ لا أُشير إلىٰ شىء فى الحاشية . أما الكلام المحصور بينهما فى الحواشى فيتضمن تنبيهات و بيانات من عندى .

٢ ـــ الأرقام

الأرقام الصغيرة الموجودة علىٰ الهوامش الداخلية تدل علىٰ عدد السطور ، خمسةً خمســةً .

الأرقام المكتوبة فى العلبة ( ) علىٰ الهوامش الخارجية تدل علىٰ عدد الصفحات فى النسخة الأصلية (أى السلطانية التى ٱعتمدتُها فى الطبع) .

أما أعداد الصفحات المتسلسلة ، فقد وضعتُ ما يختص بالتصدير فى أسفلها ، وأما مايختص بالكتاب نفسه وملحقاته وفهارسه ، فوضعتُها فى أعلىٰ الصفحات مثل المعتاد ، وذلك منعا للاَلتباس .

٣ ـــ الحركات

ـِّ هذه العلامة تدل علىٰ الشدّة المكسورة ، كما أن ـَّ تدل علىٰ الشدّة المفتوحة .

ـٍّ « « « بكسرتين ، كما أن ـًّ تدل علىٰ الشدّة بفتحتين .

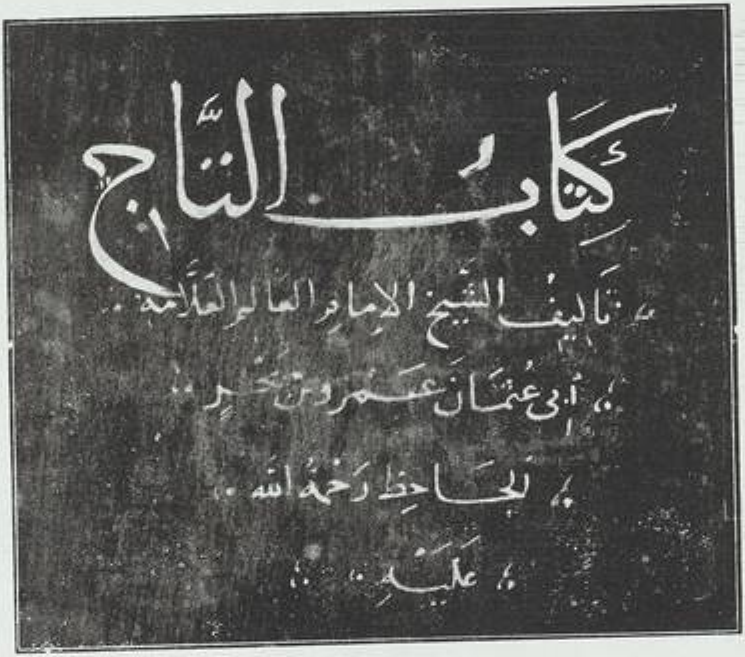
عن أَلِف الوصل ـ أضعُ فوقها دائما العلامة الخاصة بها (ٱ) . إلا إذا جاءت هذه الألف فى أول الكلام ، فإننى أضع فوقها أو تحتها الحركة التى تستلزمها (فتحة أوضمة أو كسرة ـَ ـُ ـِ) لكى تكون ممتازة عن أَلِف القَطْع التى تكون الهمزة دائما فوقها أو تحتها . وذلك لتعريف القارئ بأن هذه الحركة تسقط وتزول إذا ٱتصلت أَلِف الوصل بحرف أو بكلمة قبلها .

عن الألف المهموزة ـ أضع الهمزة دائما فوقها أوتحتها للدلالة علىٰ أنها مفتوحة أو مكسورة . فإذا كانت مضمومة أو ساكنة ، فإننى أضع فوق الهمزة علامة الضم أو السكون .

٤ ــ ضبط الكلمات والأعلام

١ ـ إذا كان للكلمة ضبطان (أى صورتان من الحركات)، فإننى أعتمد الضبط الأول الوارد فى كتب اللغة، وكذلك الحال فى أوزان الأفعال؛ اللهم إلا إذا كان مما يمجّه الذوق المصرىّ العصرى .

٢ ـ الأعلام التاريخية والجغرافية، ضبطتُها بحسب القول الأول أو الأشهر، معتمدا على المصادر المعتبرة .



كتابُ التاج

تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة

أبي عثمان عمرو بن بحر

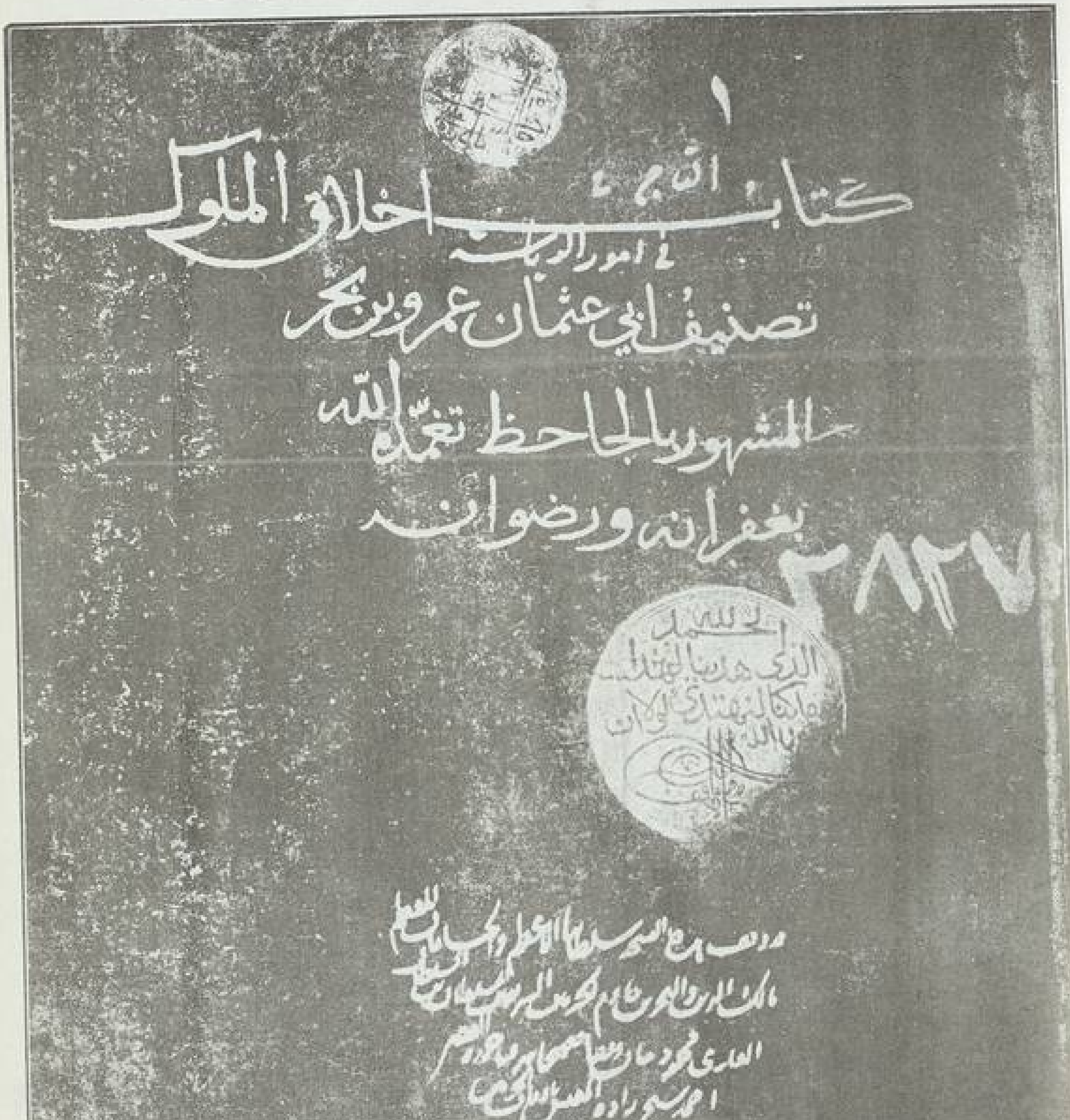
الجاحظ رحمه الله

عليه

(الراموز الاول)

تمثل فيه طرة النسخة السلطانية (المرموز لها فى حواشى هــذه الطبعة بحرف س)

وهذه النسخة محفوظة بخزانة طوب قبو بالقسطنطينية ، رقم ١٣٣ أدب .



كتاب التاج في أخلاق الملوك في أمور الرياسة

تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر

المشهور بالجاحظ تغمده الله

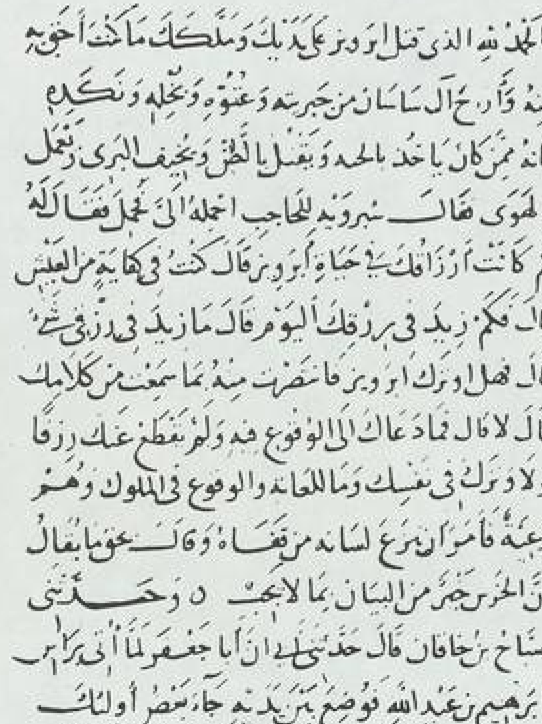
بغفرانه ورضوانه

٢٨٢٧

(الراموز الثاني)

تمثل فيه طرة النسخة الثانية المحفوظة بخزانة آياصوفيا تحت رقم ٢٨٢٧ .

وهذه النسخة هي المرموز لها بحرف صـ في هذه الطبعة


الحمد لله الذى قتل ابرويز على يديك وملكك ما كنت أحق به
منه وأراح آل ساسان من جبريته وعتوه وبخله ونكده
فانه ممن كان يأخذ بالحنة ويقتل بالظن ويخيف البرئ ويعمل
بالهوى فقال شيرويه للحاجب احمله الى الحبس فقال له
كم كانت ارزاقك في حياة ابرويز قال كنت في كفاية من العيش
قال فكم زيد في رزقك اليوم قال ما زيد في رزقي شئ
قال فهل اوترك ابرويز فانتصرت منه بما سمعت من كلامك
قال لا قال فما دعاك الى الوقوع فيه ولم يقطع عنك رزقا
ولا وترك في نفسك وما للعامة والوقوع في الملوك وهم
رعيته فأمر ان ينزع لسانه من قفاه وكان يقال
ان الخرس خير من البيان بما لا يجب ٥ وحدثني
صالح بن خاقان قال حدثني ابي ان ابا جعفر لما أتي برأس
ابرهيم بن عبد الله فوضع بين يديه جاء بعض اولئك
الزوبدية فضرب الراس بعمود كان في يده فقال
المنصور للمسيب دق وجهه فدق المسيب انفه ثم قال له

(الراموز الثالث)

تمثل فيه إحدى صفحات النسخة السلطانية (وهى صفحة ٩٣ من الأصل ، ويقابلها صفحة ١٠٩ — ١١١ من هذه الطبعة) .

٢٩

الآن وعرفت غرضه فقلت آخذ سبعين ولكم ثلثون قال شانك فانصرف
بسبعين بدرة وانصرف ملك الموت عن الدار   قال وكان الرشيد
في اخلاق ابي جعفر مشطها كلها الا في العطايا فانه كان يتبع افعال
ابي العباس والمهدي فمن اخبرك انه رآه يشرب الا الما فكذبه وكان
لا يحضر شربه الا خاص جواريه وربما طرب للغنا فتحرك حركة بين
الحركتين في الثقل والكرم وهو من بين خلفا بني العباس من جعل
للمغنيين مراتب وطبقات على ما وضعهم اردشير وانوشروان وكان
ابرهيم وابن جامع وزلزل في الطبقة الاولى وكان زلزل يضرب فيغني
هذان عليه والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ومن
اشبههما والطبقة الثالثة اصحاب المعازف والونج والطنابير
وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم   وكان اذا وصل
واحدا من الطبقة الاولى بمال كثير خطير جعل لصاحبيه الذين
معه في الصنعة نصيبا منه وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه

(الراموز الرابع)

تمثل فيه إحدى صفحات النسخة المحفوظة فى آياصوفيا (وهى صفحة ٢٩ ،
و يقابلها صفحة ٣٧ — ٣٩ من هذه الطبعة) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام العالم العلامه
ذو التصانيف المفيده والمقاصد الحميده
ابو عثمن عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الاخرة وهو الحكيم
الخبير واحمده على تتابع الآيه وتواتر نعمايه وترادف مننه واستوفقه
لما يرضيه ويرضى فيه واشهد ان لا اله الا الله الذي لا شبيه له ولا نظير
الذي جل عن الاجزاء والتبعيض والتحديد والتمثيل والحركة والسكون
والنقلة والزوال والتصرف من حال الى حال لا اله الا هو الكبير
المتعال اما بعد فان الذي حدانا على وضع كتابنا هذا معان فيها ان
الله عز وجل لما خص الملوك بكرامته واكرمهم بسلطانه ومكن لهم في البلاد
وخولهم امر العباد وجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيرهم
كما اوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم فقال في محكم كتابه وهو
الذي جعلكم خلايف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وقال
عز وجل اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ومنها ان اكثر
العامه وبعض الخاصة لما كانت تجهل الاقسام التي تجب لملوكها عليها
وان كانت متمسكة بجملة الطاعة حصرنا آدابها في كتابنا هذا لان نجعله

(الراموز الخامس)

تمثل فيه الصفحة الاولى من النسخة الحلبية (المكتوبة في سنة ٨٨٣ هجرية)



عيالك فزدت في العدة فقال كذبت فبهت وقال يا نفس من
اين علم اني كذبت فاقمت سنة لا اجترئ على كلامه ثم رفعت اليه
رقعة اخرى في اجرآء الرزق فقال كم عيالك فقلت اربعة فقال
صدقت فوقع في حاشيتي تجرى على عياله كذا وكذا ولولا ان يطول
الكتاب في سبق وذكر وحكينا مناقبه لحكينا عنه اخبارا كثيرة
هي من هذا الجنس وفيما ذكرناه كفاية والله اعلم بالصواب

(الراموز السادس)

تمثل فيه الصفحة الأخيرة من النسخة الحلبية

(أنظر صفحة ١٧١ من طبعتنا)

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحَمدُ لِلهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الحَمدُ فِى الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ." (٢)

أحمده على تتابع آلائه، وتواتر نعمائه، وترادف مننه[1]، وأستهديه وأستوفقه لما يُرضيه ويَرضىٰ فيه.

وأشهد أنْ لا إلٰه إلّا الله الذى لاشبيه له ولا نظير، الذى جلّ عن الأجزاء والتبعيض، والتحديد والتمثيل، والحركة والسكون، والنُّقلة والزوال، والتصرُّف من حال إلىٰ حال. لا إلٰه إلّا هو الكبير المتعال!

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه وأمينه ونجيّه! ابتعثه على فترة من الرسالة وطُموس من الهداية ودروس من شرائع الأنبياء والمرسلين "لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ" والعربُ تَئِدُ أولادها وتتسافك دماءها وتتباوح[2] أموالها وتعبُدُ اللّاتَ والعُزّىٰ ومَنَاةَ الثالثةَ الأُخرىٰ. فصدع بأمر ربّه، وجاهد فى سبيله، ودعا إلىٰ معالم

---

(١) هذه الكلمة مأخوذة عن صـ .

(٢) الوارد فى صـ : "متاوح". ولما كان السياق يدل على التناهب واستباحة الأموال، فلذلك صححتُ الكلمة بردِّها إلى مادة (ب و ح). قال فى لسان العرب: "والإباحةُ شِبهُ النُّهبىٰ، وقد استباحه أى انتهبه". على أنى لم أعثر على هذا الحرف مستعملا بصيغة التفاعل.

دينه، وجاء بما أعجز الجنّ والإنس أن يأتوا "بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا."

فصلّى الله عليه وعلى جميع المرسلين! وخصّه بصلاةٍ من نوافله دون العالمين! وعليه السلام ورحمة الله وبركاته!(١)

أما بعد،

فإنّ الذى حدانا على وضع كتابنا هذا معانٍ:

منها أنّ الله (عزّ وجلّ) لمّا خصّ الملوك بكرامته، وأكرمهم بسلطانه، ومكّن لهم فى البلاد، وخوّلهم أمرَ العباد، أوجبَ على علمائهم تعظيمَهم وتوقيرهم وتعزيزهم وتقريظَهم. كما أوجب عليهم طاعتهم والخضوعَ والخشوعَ لهم. فقال فى مُحكَم كتابه: "وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ."

وقال عزّ وجلّ: "أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ."

ومنها أنّ أكثرَ العامّة وبعضَ الخاصّة، لمّا كانت تجهل الأقسام التى تجب لملوكها (٣) عليها - وإن كانت مُتمسّكة بجُملة الطاعة - حصَرْنا آدابها فى كتابنا هذا لنجعلها قدوةً لها وإمامًا لتأدُّبها.(٢)

وأيضا فإنّ لنا فى ذلك أجرَين: أما أحدُهما فلِما نَبَّهْنا عليه العامّةَ من معرفة حقّ ملوكها، وأما الآخَرُ فلِما يجب من حقّ الملوك علينا من تقويم كلّ مائل عنها وردّ كلّ نافرٍ إليها.

ومنها أنّ سعادة العامّة فى تبجيل الملوك وطاعتها، كما قال أردشير بن بابك: "سعادةُ الرعية فى طاعة الملوك، وسعادةُ الملوك فى طاعة المالك."

---

(١) الفقرتان المحصورتان بين نجمتين * * مأخوذتان عن صـ.

(٢) فى صـ لتأديتها.

ومنها أنّ الملوك هم الأُسّ، والرعيَّة هم البناء، وما لا أُسّ له مهدومٌ.

ومنها أنّا ألّفنا كتاباً قبل كتابنا هـذا، فيه أخلاقُ الفِتيان وفضائلُ أهل البَطالة[1]، وكان غيرُ ذلك أولى بنا وأحقّ فى مذهبنا[2] وأحرى أنْ نصرف عنايتنا إلى ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشِيَمِـها، إذ فضَّلها الله على العالمين، وجَعَلَ ذكرها فى الباقين إلى يوم الدِّين.

ألا ترى حين ذكر الله تعالى الأُمَمَ السالفة والقرون الخالية، لم يقصِـدْ من ذكرها إلى وضيعٍ ولا خامل؟

بل قال تعالى حكاية عمَّن مضى منهم: ”رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا.“ (٤) وقال تبارك اسمه: ”اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ.“

وقال جلَّت عظمته: ”أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ.“

وقال جلَّ وعلا: ”وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.“

وقال تقدّست أسماؤه: ”إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً.“

وقال تبارك وتعالى: ”قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.“

وقال عزّ وجلّ، وقد بَعَثَ موسى عليه السلام إلى أعتى خلقه وأشدّهم عُتوداً وصُدوفاً عن أمره: ”اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى.“

(١) فسرها فى صـ بالشجاعة، وحينئذ تكون مماثلة للفظة Héroïsme عند الفرنسيين.

(٢) فى صـ: طبعنا.

فليَفْهم الحكماء هـذه الأُعجوبةَ التى وصلتْ عنِ الله تبارك وتعالى! فإنّ فيها حكمةً عجيبةً ومَوْعِظةً بليغةً وتنبيهًا لمن كان له قلبٌ .

حدثنا أصحابُنا عن شَبابة عن ورقاء عن ابن أبى نَجِيحٍ[1] عن مُجاهـدٍ فى قوله تبارك وتعالى: "فقولَا له قولًا ليّنًا"[2] قال: كَنِّياه. (٥)

و إنّما أمرَهما بذلك لأن الملوك ــ و إنْ عصى أكثرُها ــ فمن حقّها أنْ تُدعى إلى الله بأسهل القول وألين اللفظ وأحسن المخاطبة. فإذا كان هـذا حُكم الله فى العاصى من الملوك والذين ادّعَوُا الرُّبوبيّةَ و جحدوا الآياتِ وعاندوا الرُّسلَ، فما ظنُّك بمن أطاع اللهَ منها، وحَفظ شرائعَهُ وفرائضَــهُ، وقُلِّد مقامَ أنبيائه، و جَعَلَهُ الحُجّة بعد حُجّته، وفَرَضَ طاعتَهُ حتّى قرَنَها بطاعته وطاعة رسوله، صلّى الله عليه وسلم؟

فرأينـا ــ إذ أخطأْنا فى تقدمتنا أخلاقَ أهل البَطَالة، و إن كان فيها بعضُ الآداب وما يَحتاج إليـه أهلُ الشرف من محاسن الأخلاق ــ أنْ نتلافى ما فرط منّـا بوضع كتابٍ فى أخلاق الملوك وخصائصها التى هى لهـا فى أنفسها، وأن نَخُصّ بوضع كتابنا هذا الأمير الفتح بن خاقان مولى أمير المؤمنين : إذ كان بالحكمة مشغوفا، وعلى طلبها مثابرا، وفيها وفى أهلها راغبا، ليبقى له ذِكْرُهُ و يحيا به اسْمُهُ، ما بَقِىَ الضياء والظلام. و بالله التوفيق والإعانة! إهداء الكتاب

(١) فى صـ : حدثنا أصحابنا عن مقدام عن ابن أبى نجيح . وكلهم من رواة الحديث

(٢) فى هامش صـ : "وكان له ثلاث كُنًى : أبو العباس وأبو الوليد وأبو مُرّة" . وانظر كتب التفسير، وانظر "المستطرف فى كلّ فنّ مستظرف" للأبشيهى (ج ٢ ص ٤٤).

الفاتحة[١]

*وبعدُ، فإنّ أكثر كلامنا فى هذا الكتاب إنّما هو على مَن دُونَ الملك الأعظم. إذ لم يكن فى آستطاعتنا أنْ نَصِفَ أخلاقه، بل نعجِزُ عن نهاية مايجب له لو رُمْنا شرحَها. وأيضا فإنّ مَن تكلَّفَ ذلك بعدَنا من الناس بأقصى تكلُّفٍ وأغْورِ ذهنٍ وأحدِّ فكرٍ، فلعلّه أن يعتذر بمثل آعتذارنا.

وليس لأخلاق الملك الأعظم نهايةٌ تقوم فى وَهْمٍ، ولا يُحيط بها فِكرٌ. وأنت تراها تتزيّد مذ أوّل مَلِكٍ مَلَكَ الدنيا إلى هذه الغاية. ومَن ظنّ أنّه يبلغ أقصى هذا المدى، فهو عندنا كمَن[٢] قال بالتشبيه مَثَلًا، وبالجسم مُعارَضةً.

ولعلّ قائلًا يقول، إذا رآنا قد حكَيْنا فى كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسانَ وملوكِ العرب: "قد ناقض واضعُ هذا الكتاب، إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهايةٌ." فيظلِمُ فى اللفظ ويعتدى فى المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا كالطبقة الوُسطى عند النَّمَط الأعلى. أنت تجد ذلك عِيانا وتشهده عينك[٣] بيانا. وعلى أنّ هذه المقالة لا يقولها مَن نظر فى سِيَرِ مَن مضى وسِيَرِ مَن شاهدَ. وبالله التوفيق!*

(١) وضعنا هذا العنوان للفقرات الثلاث التالية له المحصورة بين نجمتين * * وكلها منقولة عن صـ.

(٢) فى الأصل وهو صـ : كما.

(٣) فى الأصل وهو صـ : وتُشهِد عليك بيانا.

(٦)

باب

فى الدخول على الملوك وفيما يجب على الملك إذا دخل الرجُلُ عليه

الاشراف وسلامهم وقعودهم وآنصرافهم

إن كان الداخلُ من الاشراف والطبقة العالية، فمن حقِّ الملك أن يقف(١) منه بالموضع الذى لاينأى عنه ولا يقرب منه، وأن يسلّم عليه قائما. فإن آستدناه، قرُب منه فأكبّ على أطرافه يقبّلها. ثم تنحّى عنه قائما حتّى يقف فى مرتبةِ مثله. فإن أَوْمَأَ إليه بالقعود، قعد، فإنْ كلّمه، أجابه بآنخفاضِ صوتٍ وقلّةِ حركةٍ. وإن سكت، نهض من ساعته قبل أن يتمكّن به مجلسُه بغير تسليمٍ ثانٍ ولا آنتظارِ أمرٍ.

الاوساط سلامهم وقعودهم وآنصرافهم

وإن كان الداخلُ من الطبقة الوُسطى فمن حَقّ الملك إذا رآه، أن يقف وإن كان نائيًا عنه. فإن آستدناه، دنا خُطًى ثلاثًا أونحوها. ثم وقف أيضا. فإن آستدناه، دنا نحوًا من دُنوه الأوّل، ولا ينظر إلى تعب(٢) الملك فى إشارةٍ أو تحريك جارحةٍ. فإنّ ذلك، وإن كان فيه على الملك مُعاناةٌ، فهو من حقّه وتعظيمه.

وإن كان دخوله عليه من الباب الأوّل(٣) يقابل وجهَ الملك ويحاذيه ـ وكان له طريقٌ عن يمينه أو شِماله ـ عَدَلَ(٤) نحو الطريق الذى لايقابله فيه بوجهه ثم آنحرف نحو مجلس الملك، فسلّم قائما ملاحظًا للملك. فإن سكت عنه، آنصرف راجعا من غير سلامٍ

(١) أى الداخل.

(٢) صـ: لفت.

(٣) هكذا فى سـ، صـ. والمعنى واضح فى أن الدخول يكون من أوّل باب يقابل وجه الملك. ولذلك لم نروجها لزيادة لفظ "الذى" أو وضعه مكان "الأوّل".

(٤) صـ: عن.

(٧) ولا كلام. وإن آستدناه، دنا خُطًى وهو مُطْرِقٌ ثم رفع رأْسَه. فإن آستدناه، دنا خُطًى أيضا ثم رفع رأْسه حتى إذا أمسك الملك عن إشارةٍ أو حركةٍ، وقف (فى ذلك الموضع الذى يقطع الملكُ فيه إشارتَه) قائمًا. فإن أومأ إليه بالقعود، قعد مُقْعِيًا(١) أو جاثيا. فإن كلّمه، أجابه بآنخفاضِ صوتٍ وقلّة حركة وحُسن آستماع. فإذا قطع الملك كلامَه، قام فرجع القَهْقَرىٰ. فإن أمكنه أن يستتر عن وجهه بجدارٍ أو مسلكٍ لايحاذيه إذا ولّى، مشىٰ كيف شاء.

استقبالُ الملك للمساوين له وتشييعهم

وعلىٰ الملك ـ إذا دخل عليه من يساويه فى السلطان والتّبَع والعزّ والولادة والبيت ـ أن يقوم فيخطو إليه خُطًى ويعانقه، ويأْخذ بيده فيُقعِده فى مجلسه ويجلس دونه. لأنّ هذه حالٌ يحتاج الملك إلىٰ مثلها من الداخل عليه، إذا زاره. فإنْ بَخَسَه حظَّه ومَنَعَه مايجب له، لم يأْمَنِ الملكُ أن يَفْعَلَ به مثلَ ذلك. ومتىٰ فعل كلُّ واحدٍ منهما بصاحبه ماهو خارجٌ عن النواميس والشرائع(٢)، تولّد من ذلك (٨) فسادٌ وحدثتْ ضغائنُ بين الملوك يقع بسببها التباغُض والتعادى والتحاسُد. وإذا آجتمع ذلك فى المملكة، كان سببًا للبوار وداعيةً إلىٰ التحارب.

وعلىٰ الملك ـ إذا أراد هذا الذى قدمنا صفتَهُ الآنصرافَ ـ أن يقوم معه إذا قام، ويدعو بدابّته ليركب حيث يراه، ويشيّعه ماشيا قبل ركوبه خُطًى يسيرةً، ويأْمر حشمه(٣) بالسعْى بين يديه.

---

(١) سـ : "مُقعيا" بدون إيراد "جاثيا" التى تليها. وأقنع الرجُل رأْسه نصبه أو لايلتفت يمينا ولا شمالا وجعل طَرْفَه موازيا. (قاموس). [وآنظر صفحة ٢٢ من هذا الكتاب].

(٢) صـ : الشريعة.

(٣) صـ : خدمه.

وعلى هذا كانت أخلاق آل ساسان من الملوك وأبنائهم. وبهذه السياسة أخذهم أردشير بن بابك. فلم تزل فيهم حتى مَلَكَ كسرى أبرويز فغيّرها. فكان مما عدّد عليه شيرويه، ابنه، في ذكر مثالبه ومعايبه.[1]

وقد قلنا إن من حقّ الملك أنْ لا يُطيلَ أحدٌ عنده القعود. فإنْ أخطأ مخطئ في ذلك، فمنْ إذْنِ الملك له بالانصراف أنْ يلحظه.[2] فإذا عرَفَ ذلك فلم يَقُمْ، كان ممن يحتاج إلى أدبٍ، وكان الذى وصّله بالملك ظالماً له ولنفسه.

---

(١) أبرويز هذا كاتَبَهُ النبيُّ يدعوه للإسلام فمزّق كتابه وقال: "يكتبُ لى هذا، وهو عبدى؟" فدعا عليه النبيّ بتمزيق ملكه. استبدّ بفارس فوثب عليه ابنه شيرويه (وهو أيضا شيرى) فحبسه وأرسل إليه ينعَى عليه ما ارتكبه من المثالب والمعايب فى رسالة "خشنة يقطر منها الدم فى تقريعه بأفاعيله" ثم قتله. وأرسل شيرويه بعد أن جلس على سرير الملك كتابا إلى النبيّ فى جملته: "أما بعد فإنى قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارسَ لِمَا كان استحلّ من قتل أشرافهم وتجميرهم فى ثغورهم" [وتجمير العساكر حبسهم فى أرض العدوّ وعدم إرجاعهم إلى وطنهم]. هذا ولكن شيرويه لم يظفر بالملك بعد أبيه سوى ستة أشهر فمات بعلة أفاض المؤرّخون فى وصفها.

ومن غريب الاتفاقات التى لاحظها كتّاب العرب أن المَلِك الذى يقتل أباه لا يمضى عليه فى المُلك سوى ستة أشهر فقط، كما حصل ليزيد بن الوليد بن عبد الملك الأمويّ، وكما حصل للمنتصر العباسيّ.

ومن غريب الاتفاقات أيضا أن المنتصر هذا قتل أباه المتوكل فى نفس الموضع المعروف بالماخورة الذى قتل فيه شيرويه أباه كسرى أبرويز، وأن المنتصر جلس فى بعض الأيام على بساط فاخر مزدان بالنقوش. ومن جملة ما فيه صورة شيرويه على رأسه التاج كأنه ينطق وتحتها ما تعريبه: "صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز الملك. مَلَكَ ستة أشهر". وكان من جملة الصور أيضا صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ومكتوبٌ عليها ما تعريبه: "صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد. ملك ستة أشهر". وقد أمر بعضُ المقرّبين بإحراق هذا البساط النفيس حتى لا يتفطن الخليفة لما فيه من العبرة، ولكن أبى الله إلا أن يكون ثالث الثلاثة. (التفاصيل فى "غرر أخبار الفرس" ص ٧١٢—٧٣٨؛ والطبرى سلسلة ١ ص ١٠٤٣، ١٠٦١، ١٥٧٤ وسلسلة ٣ ص ٤٩٦؛ وابن الأثير ج ١ ص ٣٦١؛ والمسعودى ج ٧ ص ٢٩٣ وما يليها؛ وفى "المحاسن والمساوى" ص ٥٩٢ — ٥٩٣). وفيه أيضا أن أبرويز انتقم لنفسه قبل أن يموت فوضع سُمّا فى حقة وكتب عليها ما يغرى الإنسان بالتناول مما فيها. فلما رآها شيرويه تعاطى منها فكانت علته التى أعقبها هلاكه (ص ١٣٨) [وانظر ص ١٠٩ من هذا الكتاب]

(٢) فى س، ص: "فمن إذن له الملك بالانصراف أن يلحظه". وقد صححتُ الرواية ليستقيم الكلام.

باب
فى مطاعمة الملوك

تخفيف الأكل بحضرة الملك

ومن حق الملك ـ إذا تبذّل مع أحدٍ وأَنِسَ به حتّى طاعمه ـ أنْ لا ينبسط بين يديه فى مطعمه. فإنّ فى ذلك خلالًا مذمومة:

منها، أنّ انبساطه يدلُّ علىٰ شَرَهه؛

ومنها، أنّ فى ذلك سوءَ أدبٍ وقِلّةَ تمييزٍ؛

ومنها، أن فيه جُرْأةً علىٰ الملك ببسط اليد ومدِّها وكثرة الحركة.

(٩)

وليس فى كثرة الأكل مع الملك معنًى يُحمد. إلّا أن يكون الآكلُ كميسرةَ التَرّاس أو حفصٍ الكيّال(١)، الذين إنما يحضرون لكثرة الأكل فقط. فأما أهلُ الأدب وذوو المروءة، فإنما حظُّهم من مائدة الملك المرتبةُ التى رفعهم إليها والأُنْس الذى خصَّهم به.

(١) أورد المسعودىُّ هذين الاسمين هكذا: "ميسرة التمّار" و"حاتم الكيّال". وسمّى طابع الابشيهى أوّلهما "ميسرة البرّاش". وقد أوردا، هما والراغب الإصفهانىّ، نوادر كثيرة لطيفة لمشاهير الأَكَلة نكتفى بالاشارة الى مواطنها للرجوع إليها. ونذكر فقط أسماءَهم بالترتيب، فهم: أبو الحسن بن بكر العلّاف الشاعر، أبو العالية، أبو مُرّة، أحمد بن أبى خالد الأحول، أحمد بن أبى دُؤاد، إسحاق الحمامىّ، بسرة الأحول، بلال بن أبى بُردة، الحجاج بن يوسف الثقفىّ، حفص (أو حاتم) الكيّال، درواس، دورق القصّاب، زهمان، سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموىّ)، العادل الأيّوبىّ (سلطان مصر)، عبيد الله بن زياد بن أبيه، عمرو بن معديكرب، قاسم التمّار، قُفّ الملقّم، محمد بن إسحاق بن ابراهيم المصعبىّ، مزود، معاوية بن أبى سفيان (الخليفة الأموى)، ميسرة (البرّاش أو التَرّاس أو التمّار)، هلال بن الأسعر، هلال بن سعد المازنىّ، هلال بن مسعر التيمى، وزوجته، الواثق (الخليفة العباسى). (أُنظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٣٨٤ـ٣٨٦؛ و"مروج الذهب" طبع باريس ج ٥ ص ٤٠١ و ٤٠٢ وج ٦ ص ٢١٥ـ٢١٨؛ وج ٧ ص ١٧٠ . وج ٨ =

قال: وحدثنى إبراهيم بن السندى [بن شاهك](١) عن أبيه، قال: دخل شابٌّ من بنى هاشم على المنصور، فاستجلسه ذات يومٍ ودعا بغدائه، وقال للفتى(٢): أُدْنُهْ. فقال الفتى: قد تغدّيتُ. فكفّ عنه الربيعُ حتّى ظننتُ أنه لم يفطَن لخطاءِه. فلمّا نهض للخروج، أمهله. فلما كان من وراء السِّتر، دفع فى قفاه. فلما رأى الحجّاب ذلك منه، دفعوا فى قفاه حتّى أخرجوه من الدار. فدخل رجالٌ من عمومة الفتى فشكَوُا الربيعَ إلى المنصور. فقال المنصور: إنّ الربيع لا يُقدِم على مثل هذا، إلا وفى يده حُجّة، فإن شئتم أغضيتم على ما فيها، وإن شئتم سألته وأنتم تسمعون. قالوا: فسَلْهُ! فدعا الربيعَ، وقصّوا قصّته. فقال الربيع: "هذا الفتى كان يُسلِّم من بعيدٍ وينصرف. فاستدناه أمير المؤمنين، حتّى سلَّم عليه من قريب، ثم أمره بالجلوس. ثم تبذّل(٣) بفضيلة المرتبة التى صيّره(٤) فيها أنْ قال حين دعاه إلى طعامه: "قد فعلت." وإذًا ليس عنده لِمَن أكل مع أمير المؤمنين إلّا سدّ خَلّة الجُوع. ومثلُ هذا لا يقوِّمه القول دون الفعل"(٥).

= ص ١١٠؛ و"كتاب البخلاء" للجاحظ ص ٢١٥ و ٢١٦؛ و"الأغانى" ج ٢ ص ١٨١ — ١٩٠؛ و"شذرات الذهب فى أخبار من ذهب" ج ١ ص ١٢٧؛ والفصل السادس من الباب الثانى من القسم الثالث من الفن الثانى من "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى؛ "والمستطرف" ج ١ ص ٢١٤ و ٢١٥؛ و"مطالع البدور فى منازل السرور" ج ٢ ص ٥٧؛ و"محاضرات الراغب" ج ١ ص ٣٩٢؛ والطبرى سلسلة ٣ ص ١٤٠٤؛ و"بدائع الزهور" لابن إياس (جزء ١ ص ٧٧) و"شرح المقامات" للشريشى ج ١ ص ٢٣٧ و ٢٤١ و ٢٤٢؛ وكذلك "الأغانى" (فى فهرسه عن بعض الأسماء التى أوردناها). هذا وقد صنف المداينى كتابا فى "أخبار الأكلة" ذكره "صاحب الفهرست" ص ١٠٤ ولم يصل إلينا سوى اسمه فيما أعلم.

(١) ذكره فى "تاج العروس" فى مادة س ن د، وأورد له شعراً.

(٢) هو محمد بن عيسى بن على الهاشمى [كما فى "المحاسن والمساوى"].

(٣) أى الفتى. [وروى الجاحظ هذه الحكاية بهذه الألفاظ عن ابراهيم بن السندى عن أبيه فى كتاب "البيان والتبيين" ج ٢ ص ٣٨ — ٤٨]

(٤) أى الخليفة.

(٥) هذه الفقرة المحصورة بين النجمتين * منقولة عن صـ. وقد أوردها صاحب "المحاسن والمساوى" بعبارة أخرى (ص ١٧٢).

حدّثني أحمد بن عبد الرّحمن الحرّانيّ[١]، قال : "كنتُ أحضر على مائدة إسحاق ابن إبراهيم[٢]، أنا وهاشم ابن أخي الأبرد والناقديّ. فكنتُ أعُدُّ على مائدته ثلاثين[٣] طائرا. فأما الحُلْوُ والحامض والحارّ والقارّ[٤]، فأكثر من أن أُحصيه. فلا نرزأ[٥] من ذلك كلّه إلّا مقدار ما يأكل الطائر. إنما نكسر الخبز بأظفارنا." قلتُ : فما كان يُنَشِّطكم؟ قال : لا، ولو فعل ما فعلنا. قال : فما هو إلّا أنْ نتوارى عن عينه حتّى ننتهب.

وكذلك يجب للملوك أنْ لا يشرَه أحدٌ إلى طعامهم، ولا يكونَ غرضُه أن يملأ بطنَه وينصرفَ إلى رَحْله[٦] : إلّا أنْ يكون الآكلُ أخا الملك أو ابنَه أو عمَّه أو ابن عمّه، أو مَن أشبه هؤلاء؛ ويكون أيضا ممن يُقَصّر بعد الأكل[٧] ويُطيل المنادمة، ويحمل ما يأكل غذاء يومه وليلته، إذ كان لا يمكنه الانصرافُ متى شاء[٨].

٦٠ عقوبة الشره عند الفرس

وكانت ملوكُ فارسَ، إذا رأت أحدًا في هذه الحال التي وصفنا من شرهِ المطعم والنَّهم، أخرجوه من طبقة الجدّ إلى طبقة الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار والتصغير.

(١) س : عبد الرحيم. ورواية ص ربما كانت أصح، فقد ذكر الطبري رجلا بهذا الاسم (سلسلة ٣ ص ٢٣٨١) ووصفه بالراوي.

(٢) هو الأمير إسحاق بن إبراهيم المصعبي حاكم بغداد في أيام المأمون والمعتصم والواثق وهو الذي سيرد ذكره كثيرا في هذا الكتاب.

(٣) س : "الحرّاني قال كنت أعدّ على مائدة ثلاثين". والتكميل عن ص.

(٤) ص : والبارد.

(٥) أي : نُصيب منه. يقال : إنه لقليل الرُّزء من الطعام، أي قليل الإصابة منه. (تاج العروس)

(٦) بيته.

(٧) ص : "هؤلاء ولا يكون إلا من يقيم بعد الأكل".

(٨) روى هذه الآداب بزيادة وباختصار في "محاسن الملوك" (ص ٢٩) وأورد فيها قولهم : "موائد الملوك للشَّرف لا للسَّرَف."

والملك – وإن بسط الرجُلَ لطعامه – فمن حقِّه على نفسه وحقِّ الملك عليه أنْ لايتركه آستعمال الأدب ولا يميلَ إلى ماتهوى طبيعتُهُ. فإنّه من عُرِف بالشَّرَه، لم يجب له آسم الأديب، ومَن عُرف بالنَّهَم، زال عنه آسم التمييز.

وإذا وضع الملك بين يدىْ أحدٍ طعامًا، فليعلمْ ذلك الرجُلُ أنه لم يضعه بين يديه ليأتِيَ عليه، بل لعلّه – إن كان لم يقصد بذلك إلى إكرامه أو مؤانسته – أنْ يكون أراد أنْ يعرِف ضبطَهُ نفسَه، إذا رأى مايشتهى من بسطه لها.

وحسْبُ الرجُلِ[1] – إذا أتحفه الملك بتحفة على مائدته – أن يضع يَدَهُ عليها. فإن ذلك يُجزِئُهُ[2] ويزيد فى آدابه[3].

بين معاوية والحسن ابن علىّ بشأن دجاجة

ألا ترى إلى مُعاوية بن أبى سُفْيَان حين وضع بين يدىْ الحسن عليه السلام دَجاجةً[4] ففكَّها، نظر إليه معاوية فقال: هل كان بينك وبينها عداوة؟[5] فقال له الحسن: هل كان بينك وبين أُمِّها قرابة؟[6]

(١) صـ: ويجب على الرجل.

(٢) أى يكفيه.

(٣) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذه الآداب المتقدمة مختصرة فى باب أدب مؤاكلة الملوك. (ص ٢٩)

(٤) سـ: "بين يدى سيد جليل دجاجة".

(٥) صـ: "وبين أمّها".

وقد روى هذه الحكاية صاحب "المستطرف" وعلّق عليها بقوله: "أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة". (ج ١ ص ٢١٣)

(٦) تغدّى رجل مع بعض الرؤساء، فقدّم إليه جديا، فجعل يُمعن فيه. فقال له الرئيس: إنك لتمزّقه حتى كأنّ أباه نطحك! فقال له: وأنت تُشفق عليه كأنّ أُمّه أرضعتك. فخجل وآنقطع. (أنظر "مطالع البدور فى منازل السرور" ج ٢ ص ٥٢)

ضيافات معاوية في عاصمته وسائر قواعد مملكته

إنّ هذا الكلام الذى دار بينهما قد قَرَحَ[١] فى قلب كلٍّ واحد منهما. ومعاويةُ لم يقل هذا القول، لأنه كان يعظُم عليه قدْر الدجاجة.

فكيف يكون ذلك، وهو يكتب إلىٰ أطرافه وعمّاله وإلىٰ زيادٍ[٢] بالعراق بإطعام السابلة والفقراء وذوى الحاجة، وله فى كل يوم أربعون مائدة يتقسّمها وجوهُ جُند الشام؟ ولكنْ علم أنّ من حقّ الملك توقيرَ مجلسه وتعظيمَه. وليس من التوقير والتعظيم مدُّ اليد وإظهارُ القَرَم وشدّةُ النَّهم وطلبُ التشبّع بين يدَىِ الملوك وبحضرتها.

وعلىٰ هذا كانت ملوك الأعاجم من لَدُنْ أردشيرَ بن بابك إلىٰ يَزْدَجِرْدَ[٣].

اختبار سابور لرجل رشحه لقضاء القضاة

ويقال إنّ سابورَ ذا الأكتاف[٤]، لمّا مات مُوبَذَانُ مُوبَذ[٥]، وُصِف له رجلٌ من كُورة إصْطَخْرَ، يصلُحُ لقضاء القضاة فى العِلم والتألّه والأمانة. فوجّه إليه. فلمّا قَدِم، دخل عليه. ودعا بالطعام ودعاه إليه. فدنا فأكل معه. فأخذ سابور دَجاجة فنصّفها.

(١) معناه جَرَح. وفى س: "قدح".

(٢) هو زياد ابن أبيه الذى استلحقه معاوية بيبه. وأخباره مشهورة معلومة تكفلت بها كتب التاريخ والأدب. (وانظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٢ — ٦). وهو أول من أخذ الناس بقانون العجم (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر). وللمدائنى كتاب فى أخباره، وكتاب فى ولده ودعوته (عن الفهرست ومعجم الأدباء لياقوت). وللهيثم بن عدىّ كتاب فى أخباره ويسميه (فى الفهرست) زياد بن أمية، وذلك تصحيف من الناسخ أو الطابع، وإلا فلا خلاف فى أنه زياد ابن أبيه.

(٣) بعضهم يضبط هذا الاسم بفتح الجيم وبعضهم بكسرها، وطائفة تقول بالروايتين. والصواب الكسر دون سواه، وهو الذى اعتمده الإمام الذهبىّ فى كتاب "المشتبه فى الأسماء"، وكذلك العلّامة رِتشاردسُن فى معجمه الفارسىّ العربىّ الإنكليزىّ.

(٤) تعريب شاه پور. وسماه العرب ذا الأكتاف لانه انتصر عليهم فخلع أكتافهم.

(٥) أى قاضى القضاة فى دولة الفرس قبل الإسلام. وبقيت وظيفة الموبذ أى القاضى إلى أواخر الدولة العباسية، للقيام بأمور المجوس الذين دخلوا فى الذمة.

ووضع نصفَها بين يدَيِ الرجُل ونصفَها بين يديْه. ثم أومأ إليـه أن كُلْ من هـذه، ولا تخلِطْ بها طعامًا، فإنّه أمرأُ لطعامك وأخفُّ علىٰ مَعِـدتك . وأقبل سابور علىٰ النصف، فأكل كنحو ما كان يأْكل . ففرغ الرجُل من النصف قبل فراغ سابور. ثم مدّ يده إلىٰ طعام آخر، وسابورُ يلحظه.

(١٢) فلما رُفعت المـائدة قال له : وَدِّع وآنصرف إلىٰ بلدك ! فإنّ آباءنا وسلَفَنا من الملوك كانوا يقولون : "من شَرِهَ بين يدَيِ الملك إلىٰ الطعام كان إلىٰ أموال الرعيّـة والسُّوقة والوضعاء أشدَّ شَرَهًا." فلم يستكفِه[1] علىٰ ما كان أحضره له[2]

عدم النظر للملك عند مؤاكلته

ومن حقِّ الملك أنْ لا يرفع أحدٌ إليه طَرْفَهُ، إذا أكل، ولا يحرِّك يده معه فى صَحْفَة.

التسوية بين الملك وبين مدعويه

ومن قوانين المُلك أن توضع بين يدىْ كلِّ رجُلٍ صحفةٌ فيها كالذى بين يدَيِ الملك من طعامٍ غليظٍ أو دقيقٍ أو حارٍ أو قارٍ، ولا يخصُّ الملك نفسَه بطعام دون أصحابه. لأنّ فى ذلك ضَعةً علىٰ المَلك ودليلا علىٰ الاَستئثار.

(١) فى سـ : لم يستكفه . ولعلها محرفة عن "لم يستكفِه" بمعنى أنه لم يطلب كفايته لمؤونة العـمل ، وكثيرا ما يستعمل الجـاحظ وغيره ، استكفاه بمعنى ولاه | انظر البيـان والتبين ج ٢ ص ١٨٦ | ومن هـذه المادة "الكفاة" وهم العُمّال أهل القدرة على العمل والنهوض به . | أُنظر ص ٥٠ س ٧ — ١١ من هذا الكتاب | . ومنها أيضا "كافى الكفاة" لوظيفة كبيرة كانت فى الدولة الإسلامية . يؤيد ذلك أنه قيل لعروة بن عدىّ ابن حاتم (وهو صبيٌّ) فى وليمة كانت لهم : قِفْ بالباب ، فآحجُبْ مَن لا تعرِف وأَدْخِلْ مَن تعرِف . فقال : والله لا يكون أوّلُ شيْ أستكفيه منعَ الناس عن الطعام ! (طراز المجالس للشهاب الخفاجى ص ٩٢) . هذا . وربما يجوز أن تكون محرفة عن "يستكفئه" أى "يجده كفؤا" . والذى فى صـ : "فلما رفعت المـائدة اليه إلا أن نغسل ونحدد" . | وليس للجملة بقية ، وهى مبتورة ومشوهة ، كما ترى | .

(٢) وردت هـذه القصة بحروفها ماعدا بعض ألفاظ فى صحيفتى ٢٦ و ٢٧ من كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" . وهى مختتمة بهذه العبارة : "فلم يستكفه لمـا كان أحضره إليه وعوّل فيه عليه" . ووردت أيضا مبتورة فى "محاسن الملوك" (ص ٢٩ و ٣٠)

غسل اليد بحضرة الملك

ومن حقِّ الملك أنْ لا يغســل أحدٌ بحضرته يديْه من خاصّته وبِطانته(١)، إلّا أنْ يكون معه مَن يساويه فى الجاه والعز والبيت والولادة. فقدبيّنا مايجب لأولئك آنفا.

إيناس الملك لمدعوّيه

ومن العدل أن يُعطِىَ الملك كلَّ أحد قِسطَه(٢)، وكلَّ طبقةٍ حقَّها؛ وأن تكون شريعةُ العدل فى أخلاقه كشريعة مايقتدِى به من أداء الفرائض والنوافل التى تجب عليــه رعايتُها والمثابرةُ علىٰ التمسُّــك بهــا؛ وإيناسُ الناس فى بَسْــط أيديهم فى الطعام حتّى يُسَوِّىَ فى ذلك بين الملوك والنَّمط الأَوْسط والعامّة.

(١٣)

مباينة الملوك لمن سواهم

وليس أخلاقُ الملوك كأخلاق العامّة. وكانوا لايُشَبَّهون فى شىء(٣). وإنما تحسن كثرة الأكل مع الصــديق والعشـير والمُساوى فى منازل الدنيا من الرفعة والضَّــعَة. فأما الملوك فيرتفعون عن هذه الصفة ويَجِلُّون عن هذا المقدار.

قيام الملك عن الطعام

ومن حقِّ الملك ــ إذا رفع يديْه عن الطعام ــ أنْ يَنْهَضَ عن مائدته كلُّ مِنَ الحافّ(٤) بها حتى يتواروْا عنه بجدارٍ أوحائلٍ غيره. فإن أراد الدخول، كان ذلك بحيث لايرون قيامه؛ وإذا أراد القعود لهم، دخلوا إليه بإذنٍ ثانٍ.

منشفة الدَّفَر

ومن قوانين الملك أن يكون منـديل غَمَره(٥) كمنديل وجهه فى النقاء والبياض، وأنْ لايعاد إليه إلّا أنْ يُغسَل أو يُجدّد.

---

(١) أُنظر فى الحاشية التى فى ص ١١٦ ما كان يفعله آبن دأب من غسل يده فى حضرة الخليفة الهادى.

(٢) فى سـ : "بقسطه" . وليست هذه الفقرة واردة فى صـ .

(٣) فى سـ : "لايشتهون فى شىء" . وليست هذه الفقرة واردة فى صـ .

(٤) أراد "الحافّين" فوضع المفرد فى موضع الجمع، بآسـتعمال "أل" التى للجنس . ومثـل ذلك كثير فى عبارات البلغاء.

(٥) فى سـ : "عمره" بالمهملة . وصـوابه بالمعجمة ، والغَمَر بالتحريك زَنَخ اللحم وما يعلق باليـد من دسمه . وهو يمـاثل ما نسميه الآن فى مصر : فوطة الدَّفَر . وليست هذه العبارة واردة فى صـ .

حديث الملك على المائدة

ومن حقّ الملك أن لا يُحدَّث على طعامه بحديثِ جِدٍّ ولا هزلٍ. وإن ٱبتدأ بحديثٍ، فليس من حقّه أنْ يُعارَض بمثله. وليس فيه أكثر من الٱستماع لحديثه، والأبصارُ خاشعةٌ.

زمزمة الفرس على الطعام وامتناعهم عن مطلق الكلام

(١٤)

ولشىءٍ مّا كانت ملوك آل ساسان — إذا قُدِّمتْ موائدهم — زمزموا عليها، فلم ينطق ناطقٌ بحرفٍ حتّى تُرفع. فإنِ ٱضطُرُّوا إلى كلام، كان مكانه إشارةٌ وإيماءٌ يدلُّ على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا.(١)

---

(١) الزمزمة: تراطُنُ العلوج على أكلهم، وهم صُموتٌ، لا يستعملون لسانا ولا شفة فى كلامهم؛ لكنه صوتٌ تُديره فى خياشيمها وحلوقها، فيفهم بعضها عن بعض. وقد زمزم العلج، إذا تكلف الكلام عند الأكل، وهو مُطبقٌ فمه. وقال الجوهرى: الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم. زاد ٱبن الأثير [فى النهاية]: بصوت خفى (عن تاج العروس). وذلك يرادف قول الفرنسيين Marmotter.

قال فى مروج الذهب: "ذكروا أن كيومرث هو أوّل من أمر بالسكوت عند الطعام، لتأخذ الطبيعة بقسطها، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء. وتسكن النفس عند ذلك، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيراً يؤدّى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام. فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها. وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب، ٱنصرف قسط من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث ٱنصباب الهمة ووقوع الٱشتراك، فأضرّ ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية. وإذا كان ذلك دائما، أدّى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميزة الفكرية لهذا الجسد المرئىّ. وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب." (مروج الذهب طبع باريس ج ٢ ص ١٠٨ — ١٠٩)

وأقول إن عادة العرب والإفرنج قد جرت على خلاف ذلك.

وبمناسبة الزمزمة، نروى ما حكاه ٱبن النديم فى كتاب "الفهرست" (ص ١٩) عن الجاحظ فى "البيان والتبيين" إن "للزنج خطابة وبلاغة على مذهبهم وبلغتهم، وإن من رأى ذلك وشاهده قال إذا حزبهم الأمور ولزّتهم الشدائد، جلس خطيبهم على ما علا من الأرض وأطرق، وتكلم بما يشبه الدمدمة والهمهمة، فيفهم عنه الباقون. قال الجاحظ: وإنما يظهر لهم فى تلك الخطابة الرأى الذى يريدونه فيعملون عليه. والله أعلم".

وكانوا يقولون: "إنّ هذه الأطعمة بها حياةُ هذا العالَم. فينبغى للإنسان أنْ يجعل ذهنه فى مطعمه ويَشْغَل رُوحه وجوارحه فيه، لأنْ تأْخذ كلُّ جارحة بقسطها من الطعام، فيغتذى بها البدنُ والرُّوح الحيوانية التى فى القلب والطبيعةُ التى فى الكَبِد، آغتذاءً تامًّا، وتقبله الطبيعة قبولا جامعا."

وفى ترك الكلام على الطعام فضائل(١) كثيرة هى فى آيينهم(٢) تركنا ذكرها، إذ كانت ليست من جنس كتابنا هذا.

---

(١) صـ : وفى ترك الكلام فضائل.

(٢) الآيين كلمة فارسية عرّبها العرب وآستعملوها. ومعناها القانون والعادة. (وآنظر ص ٢٣ و ٣٠ و ٧٧ من هذا الكتاب)

قال السيد صديق بن حسن خان فى "لف القماط فى تصحيح ماتستعمله العامة من المعرّب والدخيل والمولد والأغلاط" مانصه: "آيين بمعنى العادة. وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة. أعجمىّ عرّبه المُوَلَّدون. وفى الكشاف: ليس من آيين الملوك آستراق الظفر." وعلى هامشه للسيد نور الحسن مانصه: "أى فى سورة النمل. قيل لذى القرنين: بيّتْ على العدوّ! فقال: ليس من آيين الملوك آستراق الظفر. وقال مهيار فى قصيدة له:

يَجْمَعُ الخِرِّيتُ حَوْلًا أَمْرَهُ * وَهُوَ لَمْ يَأْخُذْ لَهَا آيِينَهُ"

وهاتان العبارتان منقولتان بدون تنبيه عن "شفاء الغليل" للخفاجى. والخرّيت هو الدليل البصير بالطريق. وكلمة "آيين" لا تزال مستعملة إلى الآن بهذا المعنى عند الفُرس والأتراك.

وفى المعجم الفارسى العربى الانكليزى تأليف رِشاردصُن مانصه:

آيين = An institution, rite, custom, or ordinance, canon, usage, prescription. Common law (in contradistinction to the laws delivered by Muhammad, and which are called شرع). Mode, form, manner.

ولابن المُقَفَّع تأليفٌ بهذا الأسم ذكره صاحب الفهرست. وكلام الجاحظ هنا يدل على كتاب بعينه ضمّنه الفُرس مجموع القوانين والنواميس والعادات والأصطلاحات المقررة عندهم. والى "آيين الأكاسرة" أشار البيرونى فى "الآثار الباقية عن القرون الخالية" (ص ٢١٨)

*قال: وحدّثني بعض المُحَدِّثين قال: قال بعض الأُمراء ـ وأظنه بلال بن أبي بُرْدة[١] ـ لأبي نَوْفل الجارود بن أبي سَبْرة[٢]:

ماذا تصنعون عند عبد الأعلى [بن عبد الله بن عامر بن كريز القرشي][٣]، إذا كنتم عنده؟

قال: نشاهد[٤] أحسن حديث وأحسن استماع، ثم يأتي الطبّاخ فيتمثّل بين عينيه، فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندي لون كذا، ودَجاجة كذا، ومن الحلواء كذا.

قال: ولِمَ يسألُ عن ذلك؟

قال: ليقصّر كلّ رجلٍ عمّا لا يشتهيه، حتّى يأتيه بما يشتهي. قال: ثم يُؤْتى بالخِوان، فيتضايق ويتّسع، ويقصر ويجتهد. فإذا استغنى، خَوَّى[٥] تَخْوِيَةَ الظليم[٦] ثم أكل أكل الجائع المقرور[٧].

قال: والجارود هذا هو الذي قال: "سوء الخُلُق يُفسد العمل، كما يُفسد الخَلُّ العسل."[٨]*

---

(١) كان أميرًا على البَصرة وكان قاضيها. وهو أوّل من جار في القضاء. كان يقول: إن الخصمين يتقدّمان إليّ فأجد أحدهما أخفَّ على قلبي من الآخر، فأقضي له. (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر). وكان مع ذلك كريما مدحه ذو الرُّمّة والحُطَيْئة. وانظر ترجمته في خزانة الأدب للبغدادي (ج ١ ص ٤٥٣)، وله في "الأغاني" و"كامل" المبرّد ذكر كثير (أُنظر فهارسهما).

(٢) الهُذَليّ البصريّ. صدوقٌ. تُوُفِّي سنة ١٢٠ (تقريب التهذيب للحافظ العسقلانيّ ص ٢٨)

(٣) الزيادة عن "العقد الفريد" وفهرس الطبري.

(٤) في الأصل وهو صـ: فشاهدنا.

(٥) الخَوُ والخَوَاء: الجوع. والخَوَىٰ والخَواءُ خُلُوُّ الجوف من الطعام. وخَوِيَ خَوًى وخَوَاءً: تتابع عليه الجوع. وخَوَّى الطائر تخوية بسط جناحيه، وذلك إذا أراد أن يقع (عن تاج العروس). ولعلّ هذا المعنى الأخير هو الذي أراده الجاحظ، لأنه في كتاب الحيوان يُلحق النعام بالطير.

(٦) الذكر من النَّعام.

(٧) روى هذه الحكاية صاحب "العقد الفريد" بزيادة ونقص في الألفاظ والمعاني (ج ٣ ص ٣٨٢)

(٨) هذه الفقرات المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ.

باب
فى المنادمة

مراتب الندماء واحتياج الملوك لجميع الطبقات

ومن أخلاق الملك أن يجعل نُدماءه طبقاتٍ ومراتبَ، وأن يَخُصَّ ويعُمَّ، ويقرِّب ويباعد، ويرفع ويضع، إذ كانوا على أقسام وأدوات[١].

فإنّا قد نرى الملك يحتاج إلى الوضيع لِلَهْوِه، كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه؛ ويحتاج إلى المُضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لعظته؛ ويحتاج إلى أهل الهزل، كما يحتاج إلى اهل الجِدّ والعقل[٢]؛ ويحتاج إلى الزامر المُطرِب، كما يحتاج إلى العالِمِ المُتقن[٣].

[١٥] وهذه أخلاق الملوك أنْ يحضرهم كُلُّ طبقة، إذ كانوا يتصرَّفون من حالِ جِدّ إلى حالِ هزل، ومن ضَحِكٍ إلى تذكير، ومن لَهْوٍ إلى عظَة.

فكلُّ طبقة من هذه الطبقات تُرفَع مرّةً وتُحَطُّ أُخرى، وتُعطَى مرّةً وتُحرم أخرى، خلا الأشرافَ والعلماءَ. فإنّ الذى يجب لهم رفعةُ المرتبة[٤] وإعطاءُ القِسط من الميزة والنَّصَفَةُ عند المعاشرة، ما لزموا الطاعة ورَعَوْا حقَّها.

---

(١) كذا فى صـ، سـ. [والسياق يقتضى معنى المراتب.]

(٢) صـ: والنبل.

(٣) صـ: المفتى. قال فى "محاسن الملوك" (ص ٤٣): "ولما كان الملك محتاجا إلى اصطناع الرجال كحاجته إلى اصطفاء الأموال، وجب أنْ يتخيّر لمسامرته من يكون طيِّبَ الأعراق، باعثا على مكارم الأخلاق؛ ولكنه قد يحتاج إلى المطرب المُلْهى كما يحتاج إلى العالم المفتى. لأنه يحتاج إلى أن يتصرّف بين الهزل والجِدّ لما هو بصدده من التعب فى النظر فى أمر الجمهور".

(٤) صـ: المرتبة.

آداب الخروج من حضرة الملك والرجوع إليها

وليس من حقّ الملك أن يَبْرَحَ أحدٌ من مجلسه [١] إلّا لقضاء حاجة. فإذا أراد ذلك، فمن الواجب أن يلاحظه. فإنْ سكت الملكُ، قام بين يديه ثم لاحظه. فإنْ نظر إليه، مضى لحاجته. فإذا رجع، قام ماثلاً بين يديه أبدًا، وإن طال ذلك، حتّى يُومِئَ إليه بالقعود. فإذا قعد، فمقعيًا [٢] أو جاثيا. فإنْ نظر إليه بعد قعوده، فهو إذنه له بالتمكّن فى قعوده.

كمية الشرب وكيفيته موكولتان للملك، وعليه العدل

وليس له أن يختار كمّيّة ما يشرب ولا كيفيّتها. إنما هذا إلى الملك. إلا أنَّ من حقّه على الملك أن يأمر بالعدل عليه والنَّصَفَة له، ولا يجاوز به حدّ طاقته ولا وُسْعَ آستطاعته، فيخرج به من ميزان القسط وحدّ القصد: لأنّه لا يأمن أنْ يُتلف نفسا، وهو يجد إلى إحيائها سبيلا.

ومن أخلاق الملك السعيد أن يحرص على إحياء بِطانته، حِرْصَه على إحياء نفسه، إذ كان بهم نظامه.

١٦

طبقات الندماء والمغنين عند الفرس وفى الإسلام

و إذ قد آنتهينا إلى هذا القانون من القول، فبنا حاجة إلى الإخبار عن مراتب الطبقات الثلاث من النُّدماء والمغنِّين، وإن كانت مراتبهم فى كتاب الأغانى [٣] محصورةً، فقد يجب ذكرها فى هذا الموضع أيضا، لأنها داخلة فى أخلاق الملوك.

---

(١) كذا فى س، ص "يبرح أحد من مجلسه" بتعدية يبرح بمن. والذى فى كتب اللغة تعديته بنفسه. على أن بعض أكابر أهل الأدب قد يُعدّون هـذا الفعل بحرف "من" كما فعل الجاحظ هنا. فقد ورد فى التبريزى "لم يبرح من مكانه" و"ما برحت من مكان كذا" (شرح الحماسة للخطيب التبريزى طبع أوربة ص ١٦٤ و ٢٥٠) وفى الأغانى "ما أنا بارح من بابها" (ج ٢ ص ١٣٧). وفى "المحاسن والمساوى" قوله: لا أبرح من بغداد (ص ١٩٣). [وآنظر ص ١٤٤ من هذا الكتاب].

(٢) س: قعد مقنعا. [وآنظر الحاشية ١ ص ٨ من هذا الكتاب].

(٣) ليست الإشارة هنا إلى كتاب الأغانى المشهور الذى لأبى الفرج الاصفهانىّ. فقد تُوُفِّىَ الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ، وكانت وفاة أبى الفرج فى سنة ٣٥٦. ولا بُدّ أن الجاحظ يعنى كتابا للفرس أو سفرا آخر =

ولنبدأ بملوك الأعاجم، إذ كانوا هم الأُوَل فى ذلك، وعنهم أخذنا قوانين المُلك والمملكة[(١)] وترتيبَ الخاصّة والعامة، وسياسةَ الرعيّة، وإلزامَ كلّ طبقة حظَّها والاقتصار علىٰ جديلتها[(٢)].

كان[(٣)] أردشيرُ بن بابَكَ أوّلَ من رتّب النُّدماءَ وأخذ بزمام سياستهم. فجعلهم ثلاث طبقات:

= من أسفار الاغانى التى كانت متداولة فى صدر الدولة العباسية كما تدل عليه عبارة الاصفهانى فى مقدمته. هذا وقد أشار المسعودىّ (مروج الذهب ج ٦ ص ١٠) إلى **كتاب الأغانى** ولم يقيده بشىء آخر من حيث ذكر المؤلف أو غيره. فلعله هو نفس الكتاب الذى يشير إليه الجاحظ. لان المسعودىّ فرغ من مروج الذهب فى سنة ٣٣٦ أى قبل وفاة أبى الفرج الأصفهانىّ بعشرين سنة. وهو لم يعرفه المسعودىّ ولم يشر إليه ولا إلى مؤلفاته مطلقا فى كتبه التى بلغتنا.

ويتلخص مما ذكره المسعودىّ وأبوالفرج الاصفهانىّ فى هذا الموضوع: أوّلا — أن إبراهيم بن المهدىّ المعروف بابن شِكلة (وهى جارية فارسية اقترشها الخليفة المهدىّ) صنّف كتابا فى الأغانى. وهو أوّل كتاب فى هذا المعنى وصلنا خبره، غير الذى يشير إليه الجاحظ والمسعودىّ؛ ثانيا — أن الرشيد أمر إبراهيم الموصلىّ وإسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء فألفوا له كتابا فى الاغانى وضمنوه المائة الصوت المختارة؛ ثالثا — أن كتاب هؤلاء الثلاثة وقع إلى الواثق، فأمر إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ بتهذيبه وتوسيعه. وقد روى صاحب الأغانى (أعنى أبا الفرج) أن هذا الكتاب ليس من تأليف إسحاق بل هو مصطنع عليه ومنسوب إليه، وأورد حججا تؤيد ذلك فى مقدمة كتابه. ولكن المسعودى ذكره باعتبار أنه من تأليفه.

(١) ‘‘صــ: وعنهم أخذنا آيين المملكة’’ | وانظر الحاشية ٢ ص ١٩ وص ٣٠ و٧٧ من هذا الكتاب. |

(٢) هذه الكلمة وردت فى ســ مهملة من النقط هكذا: ‘‘حد لىها’’. وفوقها كلمة ‘‘كذا’’. وقد اعتمدنا رواية صــ. وفيه تفسيرها بقوله: ‘‘شاكلتها’’. وهذا التفسير منقول عن القاموس.

(٣) من هنا إلى قوله ‘‘أنت يا فلان كذا وكذا’’ فى ص ٢٩ من هذا الكتاب نقله المسعودىّ فى ‘‘مروج الذهب’’ بالحرف الواحد تقريبا، ولم يشر إلى أنه نقل هذه البيانات عن التاج للجاحظ. وقد جرى هو وغيره على هذه العادة فى كثير من العبارات، كما ستراه فيما يرد عليك من الحواشى. وقد زاد فى هذه العبارة التى نحن بصددها ألفاظا تزيد المعنى وضوحا، وضم إليها معلومات أخرى. (انظر مروج الذهب طبع باريس ج ٢ ص ١٥٣ — ١٥٩، وطبع بولاق سنة ١٢٨٣ ج ١ ص ١١٧ — ١١٨)

فكانت الأساورة[١] وأبناء الملوك فى الطبقة الأولىٰ. وكان مجلس هذه الطبقة من الملك علىٰ عشرة أذرع من الستارة.

ثم الطبقة الثانية، كان مجلسها من هذه الطبقة علىٰ عشرة أذرع (وهم بِطانة الملك وندماؤه ومحدِّثوه من أهل الشرف والعلم)؛

ثم الطبقة الثالثة، كان مجلسهم علىٰ عشرة أذرع من الثانية، وهم المُضحِكون وأهل الهزْل والبطالة. غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيسُ الأصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقِصَر ولا مَؤُوفٌ[٢] ولا مرمىٌّ بأُبْنَة[٣] ولا مجهولُ الأبوَين ولا آبن صناعة دنيئة، كآبن حائك أو حجّام، ولو كان يعلم الغيب مثلا. (١٧)

وكان أردشير يقول: "ماشئٌ أضرَّ علىٰ نفسِ ملكٍ من معاشرةِ سخيفٍ أو مخاطبةِ وضيعٍ. لأنه كما أن النفس تصلُح علىٰ مخاطبة الشريف الأديب الحسيب، كذلك تفسُد بمعاشرة الدنىء الخسيس، حتى يَقدَح ذلك فيها ويُزيلَها عن فضيلتها. وكما أن الريح، إذا مرّت بطيبٍ، حملت طِيبًا تحيا به النفس وتقوىٰ به جوارحها، كذلك إذا مرّت بالنَّتْن فحملته أَلِمَتْ له النفس وأضرّ بأعلاقها إضرارًا تامًّا[٤]."

(١) الأُسوار: الواحد من أساورة الفرس. قال أبو عُبيد: هم الفرسان، والأساورة أيضا قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة (الصحاح) [حاشية عن صــ]. قال الخوارزمى فى "مفاتيح العلوم" إن العجم لا تضع آسم أُسوار إلا على الرجل الشجاع البطل المشهور. وعلى ذلك يكون مقابله فى اللغة الفرنسية: Chevalier.

(٢) هذه الكلمة وردت فى صــ فقط. [ومعناها مصاب بآفة].

(٣) الأُبنة: العيب. (قاموس)

(٤) هذه العبارة منقولة عن آبن المقفع فى "الادب الصغير" وفى "كليلة ودمنه".

أقسام الناس عند الفرس أربعة

وكذلك جعل الناس على أقسام أربعة، وحصر(١) كل طبقة على قسمتها(٢):

فالأول الأساورة من أبناء الملوك؛

والقسم الثانى النُّسَّاك وسَدَنَةُ(٣) بيوت النِّيران؛

والقسم الثالث الأطبَّاء والكُتَّاب والمنجِّمون؛

والقسم الرابع الزُّرَّاع والمِهَان(٤) وأضرابهم.

وكان أردشير يقول: "ماشئٌ أسرعَ فى انتقال الدُّول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتّى يُرْفَعَ الوضيع إلى مرتبة الشريف، ويُحَطَّ الشريف إلى مرتبة الوضيع."

(١٨)

مقابلة كل طبقة من الندماء بمثلها

وكان الذى يقابل الطبقة الأُولى من الأساورة وأبناء الملوك أهلَ الحذاقة بالموسيقيات والأغانى. فكانوا بإزاء هؤلاء نُصْبَ خطّ الاستواء.

وكان الذى يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبِطانته الطبقةَ الثانية من أصحاب الموسيقيات.

---

(١) فى سـ، صـ: خصَّ.

(٢) أردشير بن بابك هو أوّل من رتب الرعية على طبقات ووضع لهم الكتب فى الآداب الملوكية من أحوال الدين والدنيا، وعلَّم مراتب الخلق فى الديوان والدول، ونصب الموبذان موبذ يعنى كبير القضاة الشهير اليوم بقاضى العسكر. (عن محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر)

(٣) أى خَدَمَة.

(٤) ضبطها فى سـ بكسر الميم وفتح الهاء بغير تشديد. [وقد تكون هذه الكلمة جمع ماهن أى صاحب المهنة. وهو أيضا الخادم والعبد. وجمعه يكون حينئذ "مُهَّان" مثل كاهن وكُهَّان وصانع وصُنَّاع]. وعلى هذا الوجه الثانى ضبطها فى صـ.

احتفاظ الفرس بهذا الترتيب

وكان الذى يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحاب(١) الونج(٢) والمعازف والطنابير(٣). وكان لا يَزْمُرُ الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المُغنّين. وإنْ أمره الملك بذلك، راجعه واحتجّ عليه.

وقلّما كانت ملوك الأعاجم خاصّةً تأمر أن يَزْمُر على المُغنّى إلّا من كان معه فى أسلوب واحد، إذ لم يكن من شأنهم أن ينقلوا أحدا من طبقة وضيعة إلى طبقة

---

(١) فى س، ص: وأصحاب.

(٢) كلمة فارسية معرّبة. والعرب تقول الونّ بتشديد النون. وهى الصنج، آلة من آلات الطرب. وقيل إنه الصنج ذو الأوتار (أنظر تاج العروس، ومفاتيح العلوم للخوارزمى). وروىَ فى كتاب الملاهى بيتاً للأعشى، وهو:

ومُستَقُ صينى ووَنٌّ وبَرْبَطٌ ❊ يجاوبه صَنْجٌ إذا ما ترنّما

وقال صاحب شفاء الغليل: "إن الونج هو عود الطيب، معرب". فانظر من أين أتى بالطيب هنا. ولعله أراد عود الطرب. فصحفها الناسخ وفاتت الطابع.

(٣) أنظر أسماء آلات الموسيقى عند العرب فى الجزء ١٣ من "المخصص" لابن سيده (ص ١١ — ١٥). فنعرف أن الطُّنْبُور والطّنْبار من الأسماء المعروفة عند العرب | نقلا عن الفُرس |. أما ما زعمه العلامة دوزى من أنهم أخذوا هذا الاسم عن اللغة السلتية Celtique، فهو زعمٌ يقوم الدليل على خلافه:

أوّلا — ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة (المتوفى سنة ١٠١ أو ١١١ للهجرة). قال:

"من الطنابير يَزْهى صَوْتَه ثَمِلٌ فى لحنه عن لغات العُرْب تعجيم."

ومعلومٌ أن العرب ابتدؤوا فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ. ولا يكفى سبعُ سنواتٍ أو ثمانٍ لانتقال اللفظ من أقصى الغرب إلى بادية العرب وشيوعه فيها حتى رضى ذو الرُّمة باستعماله وارتضاه الناس منه.

ثانيا — إن الاسبانيين يقولون إلى الآن Atambor، وهو لفظ مأخوذ عن الاسم العربىّ بأداة التعريف العربية. فلو كان اسم هذه الآلة شائعا عندهم قبل دخول العرب بلادهم لما بقى فى لغتهم بهذه الصورة العربية. وهذا رأْىُ الأستاذ ليباردى الطليانى فى معجمه المسمّى Le parole italiane derivate dall'arabo وهو رأْىٌ رجيح، أيدناه بشعر صحيح، لبدوىّ قُحّ فصيح، نبت فى المهامِه الفيح، ومات بين القيصوم والشيح. (أنظر ترجمته فى الاغانى ج ١٦ ص ١١٠ وما يليها)

رفيعة. إلّا أن الملك كان ربما غلب عليه السُّكْرُ حتّى يؤثّر فيه، فيأمر الزامر من الطبقة الثانية أو الثالثة أن يزمر على المغنى من الطبقة الأولى، فيأبى ذلك. حتّى إنه ربما ضربه الخدم بالمراوح والمذابّ(١) فيكون من اعتذاره أن يقول: إن كان ضربى بأمر الملك وعن رأيه، فإنه سيرضى عنى إذا صحا، بلزومى مرتبتى.

(١٩)

معاقبة أردشير لنفسه لمخالفته هذا القانون

وكان أردشير قد وكّل غلامين ذكيين ـ لا يفارقان مجلسه ـ بحفظ ألفاظه عند الشرب والمنادمة. فأحدهما يُمِلُّ(٢) والآخر يكتب حرفاً حرفاً. وهذا إنما يفعلانه إذا غلب عليه السكر. فإذا أصبح ورفع عن وجهه الحجاب، قرأ عليه الكاتبُ كلّ ما لَفَظَ به فى مجلسه إلى أن نام. فإذا قرأ عليه ما أمر به الزامرَ ومخالفة الزامر أمْرَه، دعا بالزامر فخلع عليه وحباه الخير، وقال: ”أصبتَ فيما فعلتَ وأخطأ الملكُ فيما أمرك به. فهذا ثوابُ صوابك(٣). وكذلك العقوبة لمن أخطأ. وعقوبتى أنْ لا نَزْمَزِم اليوم إلا على خبز الشعير والجُبْن.“ فلم يَطْعَم فى يومه ذلك غيرهما.

وما ذاك إلا حثًّا على لزوم سُنَّتهم وحفظ نواميسهم وأخذ العامّة بالسياسة التامّة والأمر اللازم.

---

(١) جمع مِذَبّة. وهى آلة لطرد الذباب، وهى التى نسميها فى مصر بالمنشّة. أما المراوح فمعروفة، وأنظر تفصيلا شافيا عن أنواعها فى أيام الدولة العباسية وما بعدها فى كتاب ”مطالع البدور فى منازل السرور“. (ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٦)

(٢) صـ : يُملل.

(٣) سـ : ”فهذا صوابٌ هذه ثمرته“. وهى رواية صحيحة تشابه التى اخترناها فى المتن عن صـ لأنها مختصرة مفيدة.

اختلال هذا النظام أيام بهرام جور وإعادة أنوشروان له

فلم يزل على ذلك ملوك الأعاجم حتى ملك بهرام جُور بن يَزْدَجِرْد[1]، فأقرّ مرتبة الأشراف وأبناء الملوك وسَدَنَة بيوت النّيران على ما كانت، وسوّى بين الطبقتين من الندماء والمغنّين ورفع مَن أطْرَبَه - وإن كان فى أوضع الدرجات - إلى الدرجة الأُولى، وحطّ مَن قصّر عن إرادته إلى الطبقة الثانية. فأفسد سيرة أردشير فى المغنّين وأصحاب الملاهى خاصّةً. فلم يزل الأمر على ذلك حتى ملك كسرى أنوشِرْوَانَ، فردّ الطبقات إلى مراتبها الأُولى.

٣٠

احتجاب ملوك الفرس عن الندماء ومقدار المسافة بين الطبقات

وكانت ملوك الأعاجم كلُّها من لَدُنْ أردشير بن بابك إلى يَزْدَجِرْد تحتجب عن الندماء بستارة. فكان يكون بينه وبين أوّل الطبقات عشرون ذراعا. لأن الستارة من الملك على عشرة أذرع، والستارة من الطبقة الأولى على عشرة أذرع.

وكان الموكَّل بحفظ الستارة رجُلا من أبناء الأساورة يقال له "خُرَّم باش"[2]. فإذا مات هذا الرجُل وُكِّل بها آخر من أبناء الأساورة وسُمّى بهذا الأسم. فكان "خرم باش"[2] إذا جلس الملك لندمائه وشغله، أمر رجلا أن يرتفع[3] على أعلى مكان فى قرار دار الملك ويُغرِّد[4] بصوت رفيع يسمعه كل من حضر فيقول: "يا لسان! احفظ رأسك[5]، فإنك تجالس فى هذا اليوم ملك الملوك!" ثم ينزل.

(١) أُنظر السبب فى إضافة الجور إلى آسمه فى كتاب "غرر أخبار ملوك الفُرْس وسِيَرِهم" للثعالبى (صفحة ٥٤٤).

(٢) فى سـ : "خورم تاش". وصححنا عن صـ وعن المسعودى الذى قال: "وتفسير ذلك: كن فرِحًا."

(٣) فى سـ "يرفع". والتصحيح عن صـ وعن المسعودى.

(٤) سـ : "يعرب". والتصحيح عن صـ وعن المسعودى.

(٥) صـ : الرأس.

فكان هـذا [فِعلَهم] فى كل يوم يجلس فيـه الملك لِلَهْوِه، ولا يجترئُ أحد من خلْق الله أن يدير(١) لسـانه فى فيه بخير ولا غيره، حتّى تُحرَّكَ الستارة، فَيَطَّلعَ القائمُ عليها فيُؤْمَرَ(٢) بأمرٍ فينفِّذه، ويقول: اِفعل يافلان كذا، وتُغَنِّى(٣) أنت يافلان كذا وكذا. (٣١)

وكان الندماء من العظماء والأشراف وأبناء الملوك وإخوة الملك وعمومته وبنى عمّه وأوضع الطبقات فى مجلس الملك فى نِقابٍ(٤) واحد: إطراقا و إخباتا(٥) وسكونَ طائرٍ وقلّةَ حركةٍ.

فلم يَزَل أمر الملوك من الأعاجم كذلك حتّى ملك الأرْدَوَان الأحمر(٦)، فكان يقول: «مَن كانت له منكم حاجة، فليكتبْها فى رُقعة وليرفعْها قبـل شُغْلى(٧) فأفهمُ مافيها

(١) صـ : يفيض.

(٢) سـ : تحوّل الستارة فيؤمر.

(٣) اُنظر حاشية ٣ ص ٢٣ من هذا الكتاب. (وهنا ينتهى ما نقله المسعودىّ عن الجاحظ.)

(٤) قال فى أساس البلاغة : كانا فى نقاب واحدٍ : أى كانا مِثْلَيْن ونظيرَيْن. وفى سـ : فى نصاب واحد.

(٥) أى خشوعا وخضوعا وتواضعا.

(٦) كذا فى سـ، صـ هنا [ثم فى صفحتى ١١٨ و ١٥١ من هذا الكتاب]. والذى يستفاد مما ذكره المسعودىّ فى "مروج الذهب" وفى "التنبيه والإشراف" أن الأردوان هو علَمٌ على جماعة من ملوك النَّبَط، وكانوا من ملوك الطوائف بعد الإسكندر. وهؤلاء ليس لهم شأن فيما نحن بسبيله الآن.

ويستفاد منه أيضا أن فارس قام عليها ملكان أحدهما اسمه الأردوان الأكبر والثانى الأصغر. وأن هذا الثانى كان أعظم شأنا وأكبر ملكا. وهو الأردوان بن بهرام بن بلاش آخر ملوك الأشكانية. قتله أردشير بن بابك وقام بأعباء الملك بعده. يؤيد ذلك ابن الأثير والثعالبىّ. والراجح أن هـذا الأردوان هو المراد هنا وأن كلمة "الأحمر" تحريف من الناسخ للفظة "الأصغر".

(٧) سـ : تَشَغُّل.

ويخرجُ إليه أمري، وعقلي صحيحٌ وفكري جامعٌ." فمَن سأل في غير هذا الوقت حاجة، ضُربتْ عنقه. وهو أوّل مَن فتح هذا. وكان لا يَرُدّ سائلاً، ولا يُعْطِي مبتدئا.

فلم يزل الأمر على ذلك حتّى ملك بَهْرام جُور، فكان يقول للندماء: "إذا رأيتموني قد طَرِبْتُ وخرجتُ من باب الحَدّ إلى باب الهزل، فسلوا حوائجكم." وكان يُوَكِّل بحوائجهم صاحبَ الستارة. فكان إذا سَكِر، مدّ الناس أيديهم برقاعهم، فأخذها صاحب الستارة، فأنفذها إليه. فأخذها بيده وضمّها عليها، ثم رمى بها من غير أن ينظر في شيء منها، ويقول: "أنفِذوا كلَّ ما فيها." (٣٢) فكان ذلك ربما بلغ في ليلة واحدة من سؤالٍ في إقطاع أو قضاءِ دَيْنٍ أو طالبِ مِنْحةٍ(١) ألفَ ألفٍ أو أكثر. إلاّ أنّ ذلك لم يكن تِبَاعا.

وكان إذا رفع أحدهم في رقعته ما ليس يجوز لمثله ــ وهو خارج من حدّ القصد وأَدْخَلُ(٢) في باب الإفراط ــ لم تُقْضَ له حاجةٌ، وسُمِّيَ جاهلا، ولم تؤْخَذ له رُقعةٌ بعدها أبدا.

التسوية بين الطبقات في أيام يزيد بن عبد الملك

ثم لم يكن ذلك بعدُ في أخلاق الملوك من الأعاجم والعرب حتّى ملك يزيد بن عبد الملك. فسوّى بين الطبقة العُلْيا والسُّفلى، وأفسد أقسام المراتب، وغلب عليه اللهْوُ، واستخفّ بآيين(٣) المملكة، وأذِنَ للنُّدماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه والرّدّ عليه.

أوّل خليفة شُتِم في وجهه هزلا

وهو أوّل من شُتِمَ في وجهه من الخلفاء على جهة الهزل والسُّخْف.

(١) صـ: "مَنيحة". وهي المنحة أيضا.

(٢) صـ: وداخل.

(٣) سـ: بقوانين. (انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ وص ٢٣ وص ٧٧ من هذا الكتاب)

أحوال الأمويين في الشرب واللهو

قلتُ لإسحاق بن إبراهيم(1): هل كانت الخلفاء من بني أُميّة تظهر للندماء والمغنين؟

(١) في صـ : لأبي إسحاق بن ابراهيم الموصلي. (وأبو، زائدةٌ ولاشك).

لم أترك طريقا من طرق البحث للتعريف بهذا الاسم إلا سلكتها. فتقصّيتُ كلَّ مَن اسمه "إسحاق بن إبراهيم" ممّن عاصر الجاحظ فلم أستطع أن أحصر مصدر هذا الخبر إلا في رجلين: أحدهما (وهو الذي يتبادر الذهن إليه) إسحاق بن إبراهيم الموصليّ صاحب الصيت البعيد في الغناء، والأدب والرواية؛ والثاني إسحاق بن إبراهيم المُصعبيّ (حاكم بغداد في أيام المأمون والمعتصم والواثق) وهو من أرباب المكانة العالية في الأدب والرواية ونقد الغناء.

غير أنه ليس من المحتمل أن يكون الراوي هو إسحاق المصعبيّ، لأنه من ذوي قرابة طاهر بن الحسين، قاتل الأمين. وأهل هذا البيت جميعهم نشأوا في بوشنج من خراسان، ولم يحضروا بغداد إلا بعد دخول المأمون فيها. يعرف ذلك كل من عانى التاريخ الإسلاميّ. فكيف يكون إسحاق المصعبيّ قد شهد مجالس الأمين في دار السلام أو أخذ منه الجوائز والصِّلات؟ (أُنظر ص ٤٣ من هذا الكتاب).

أما إسحاق الموصليّ فأشبه بأن يكون هو الراوي للخبر، لولا أن عبارة الجاحظ مضطربة مشوّشة بحيث إنها لو بقيت على حالها كما هي واردة في سـ، صـ (وكما جرت العادة به في الكتابة العربية أي بدون علامات الترقيم) لكان من المتعذر معرفة وجه الصواب أو نسبة الحديث إلى صاحبه. وذلك لأن القصة تضمنت خبرا فيه تحقير لأبيه وتصغير لشأنه (كما تراه في ص ٣٩ و ٤٠) فضلا عن أنها تنتهي بخبر عن إسحاق الموصليّ نفسه (في ص ٤٣ و ٤٤). وهذا الخبر الثاني منقول بصيغة الغائب المحدَّث عنه، لا كما يتكلم الإنسان عن نفسه. وفيه ما يجدر بمثل الموصليّ أن يملأ به فمه تشدّقا وفخرا ويرفع له رأسه تيها وكبرا. كيف لا وفيه أنّ المأمون ضمَّ إسحاق وقبّله. فكان المعقول والمتحتّم أن يقول الراوي مُدِلًّا معجبا: "فضمّني وقبّلني".

على أن الشكَّ في راوي هذا الحديث قديم. يرجع أوّل عهده إلى الطبريّ المتوفى سنة ٣١٠. فقد روى إمام المؤرّخين واقعة إبراهيم (والد إسحاق الموصليّ) مع الهادي (راجع السلسلة ٣ ص ٥٩٥). والخبر بنصه تقريبا وارد في عبارة الجاحظ (ص ٣٦). لكن الطبريّ رواه بصيغة الغائب وصدّره بقوله: "وذُكِر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ أو عن غيره". وكذلك روى صاحب "الأغاني" خبر إبراهيم بن المهدي مع الأمين (الوارد في حديث الجاحظ ص ٤٣) بروايتين مختلفتين جدا، إحداهما عن إسحاق الموصليّ متكلما عن نفسه والثانية عن محمد بن الحارث بن بشخير (راجع الأغاني ج ٩ ص ٧١). والخبر نفسه وارد أيضا عن إسحاق الموصلي بلهجة المحدّث عن نفسه في "العقد الفريد" لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٢٤٤) وفي "معجم الأدباء" لياقوت (ج ٢ ص ٢٠٦). =

قال: „أما مُعاويةُ ومَرْوانُ وعبدالمَلِك والوليد وسليمان وهشام ومَرْوان ابن محمد، فكان بينهم و بين الندماء ستارة. وكان لايظهر أحدٌ من الندماء علىٰ مايفعله „الخليفة، إذا طرِبَ للمغنّىٰ وٱلتَذَّهُ حتّى ينقلِبَ ويمشى ويحرّك كتفيْه و يرقص (٢٣) „ويتجرّد حيث لايراه إلا خواصّ جواريه. إلّا أنّه كان إذا ٱرتفع من خلف الستارة „صوتٌ أو نعير طَرَبٍ أو رقصٌ أو حركةٌ بزفير تجاوز المقدار، قال صاحب الستارة: „حَسْبُكِ ياجارية! كُفّى! اِنتهى! أَقْصِرى! ــ يُوهِمُ الندماء أنّ الفاعل لذلك بعض „الجوارى."

„فأما الباقون من خلفاء بنى أُمَيّة فلم يكونوا يتحاشَوْن أن يرقصوا و يتجرّدوا „ويحضروا عُراة بحضرة الندماء والمغنّين. وعلىٰ ذلك، لم يكن أحدٌ منهم فى مثل حال „يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى المُجون والرَّفَثِ بحضرة الندماء والتجرُّد: „ما يُباليان ماصنعا."

= وعندى أنه لايمكن التوفيق بين جميع هذه الروايات، إلا إذا فرضنا أن هذا الحديث قد رواه الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ، ثم حشاه بٱستطرادات من عنده وروايات أخرىٰ ضمّها إليه مما يَتَّسق معه و يناسب المقام أو يرتبط بالموضوع. فكان الجاحظ إذا ٱنتهى من الحشو والٱستطراد على ما ٱعتادته طبيعته وألِفَتْه نفســه كما هو المعهود فى كلّ كتبه وتصانيفه، عاد إلى الحديث الأصلىّ مستعملا لفظة "قال" تنبيهًا للقارئ إلى رجع ما ٱنقطع ووصل ما ٱنفصل وٱستئنافا لما حدّثه به إسحاق بن إبراهيم (الموصلى). فحينا كان المقام يدعو الجاحظ الكلام عن نفس إسحاق (صاحب الحديث)، وضع لفظة "ويقال". فيذكر من عنده خبرا عن نفس إسحاق بصيغة الغائب المحدّث عنه. أما إذا عرض للجاحظ أن يحشر فى تضاعيف الحديث الأصلى شيئا من عنده لأجل زيادة التعريف بأحد الخلفاء، أو أحد الأشخاص المذكورين فى الحديث، فكان يستعمل لفظة "وهو" أو "وكان". فإن أتى المؤلف برواية أخرى، عبّر بقوله "وزعم فلان" أو "ولقد حدثنى فلان".

فلذلك كله وضعتُ بين شولتين مزدوجتين " " كل سطر من السطور التى ورد فيها كلامٌ دلّنى السياق والبحث والٱستقصاء على أنه من حديث إسحاق بن إبراهيم الموصلى للجاحظ. وأغفلتُ من هــذه الإشارة كل ما تأكد عندى أنه من حشو الجاحظ وٱستطراداته، لأنه من ضمن عبارته، والكتاب كله له.

(عمر بن عبد العزيز)

قلتُ: فعمر بن عبد العزيز؟

قال: „ماطنَّ فى سمعه حرفُ غِناء، منذ أفضتْ الخلافة إليـه إلىٰ أن فارق الدنيا." „فأما قبلها ــ وهو أمير المدينة ــ فكان يسمع الغِناء، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل." „وكان ربمـا صفّق بيديه، وربما تمرّغ علىٰ فراشه وضرب برجليه وطَربَ. فأما أن" „يخرج عن مقدار السرور إلىٰ السُّخْف، فلا."

(٣٤)

قلتُ: فخلفاؤُنا؟[1]

(أحوال العباسيين فى الشرب واللهو)

(السفاح)

قال: „كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعد سنة[2]." „أشار بذلك عليه أُسَيْد[3] بن عبد الله [الخُزاعى]. وكان يطرَب و يتهيجُ و يصيح من" „وراء الستارة: "أحسنْتَ والله! أعِدْ هذا الصوتَ!" فيُعاد له مرارًا. فيقول فى كلها:" „"أحسنتَ!" وكانت فيه فضيـلة لانجـدها فى أحد. كان لايحضُره نديم ولا مُغَنٍّ" „ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بِصِلَةٍ أو كُسْوَةٍ، قلَّتْ أم كَثُرَتْ[4]. وكان لايُؤَخِّرُ إحسانَ" „مُحْسِنٍ لغدٍ، ويقول: "العجب ممن يُفَرِّحُ إنسانا، فيتعجَّلُ السرورَ ويجعلُ ثوابَ مَن" „سَرَّه تسويفا وعِدَةً!"، فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله، لاينصرف أحدٌ ممن" „حضره إلّا مسرورا. ولم يكن هذا لعربىّ ولا عجمىّ قبله. غير أنه يُحْكَى عن بَهْرَامَ جُورٍ" „مايُقارِبُ هذا.[5]"

---

(١) صـ: فخلفاء بنى العباس؟

(٢) أُنظر شذرات الذهب. "ج ١ ص ٢١٦"

(٣) كان من القائمين بالدعوة العباسية ومن رجالات أبى مُسلم الخراسانى، وكان على مقدّمته عند دخوله مرو. توفى سنة ١٥٦ هـ وهو أمير خراسان. (أُنظر الفهارس فى الطبرىّ وفى ابن الأثير)

(٤) أورد صاحب "محاسن الملوك" مايضارع ذلك (ص ٣٠)

(٥) قارنْ ذلك بما نقله صاحب "مروج الذهب" (ج ٦ ص ١٢١ و ١٢٢).

(المنصور) ,,فأما أبو جعفر المنصور، فلم يكن يظهر لنديمٍ قطُّ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء."
,,وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا، وبين الستارة والندماء مثلها. فإذا غنَّاه"
(٣٥) ,,المُغَنِّى فأطربه، حَرَّكَتِ الستارةَ بعضُ الجوارى فاطَّلَعَ إليه الخادمُ صاحبُ الستارة"
,,فيقول: قل له: "أحسنتَ! بارك الله فيك!" وربما أراد أن يُصفِّق بيديه، فيقوم عن"
,,مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه، فيكون ذاك هناك. وكان لا يُثيب أحدًا من ندمائه"
,,وغيرهم درهما، فيكون له رَسْمًا فى ديوانٍ. ولم يَقْطِعْ أحدًا ممن كان يضاف إلى مُلْهِيَةٍ"
,,أو ضَحِكٍ أو هزْلٍ موضعَ قَدَمٍ من الأرض. وكان يحفظ كلَّ ما أعطىٰ واحدًا منهم"
,,عشرَ سنين ويحسِبُهُ ويذكره له."

وكان أبو جعفر المنصور يقول: "مَن صنع مثل ما صُنع إليه، فقد كافأَ؛ ومَن أضعفَ، كان مشكورًا؛ ومَن شكر، كان كريمًا؛ ومَن علم أن ماصنع فإلىٰ نفسه صنع، لم يستبطئ الناس فى شكرهم ولم يستزدهم فى مودّتهم. ولا تلتمس من غيرك شكر ماأتيته إلىٰ نفسك ووقيتَ به عِرضك. وٱعلم أن الطالب إليك الحاجَةَ لم يُكْرِمْ وجهه عن مسألتك، فأكْرِمْ وجهك عن ردّه."[1]

(المهدى) ,,وكان المهدىُّ فى أول أمره يحتجب عن الندماء، متشبِّها بالمنصور نحوًا من سنة."
,,ثم ظهر لهم. فأشار عليه أبو عَوْنٍ[2] بأن يحتجب عنهم، فقال: «إليك عنى، يا جاهل!"

(١) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين** منقولة عن صــ. وهى ٱستطرادٌ أجنبيٌّ من موضوع الحديث.

(٢) هو عبد الملك بن يزيد الخراسانىّ الأزدىّ. كان من أهل الرأى ومن وجوه الشيعة القائمين بالدعوة العباسية، ومن قوّاد أبى مسلم الخراسانىّ. وكان له بلاء حسن فى تمهيد الأمر لبنى العباس. دخل بجنوده دمشق عنوة من باب كيسان ثم تعقب مروان بن محمد الجعدىّ إلى مصر عند هربه إليها، وفيها قتله. وبقى فيها ومعه السلاح والأموال والرقيق. فولّاه عليها أبو العباس السفاح مرتين: الأولى من شعبان سنة ١٣٣ =

„إنما اللذة فى مشاهدة السرور وفى الدُّنُوّ ممن سرَّنى. فأما من وراء وراء، فما خيرُها“ „ولذّتها؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان إلّا أنّى أُعطيهم من السرور“ „بمشاهدتى مِثلَ الذى يُعطونى من فوائدهم، لجعلتُ لهم فى ذلك حظًّا مُوَفَّرًا.» وكان“ „كثير العطايا، يواترها[١]. قلَّ من حضره إلّا أغناه. وكان لَيِّنَ العريكة، سَهْلَ الشريعة،“ (٣٦) „لذيذ المنادمة، قصير المناومة[٢]، ما يَمَلُّ نديما ولا يتركه إلّا عن ضرورة، قطيع الخنا،“ „صبورا على الجلوس، ضاحك السنّ، قليل الأذىٰ والبَذَاء.“

„وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق، صعْب المرام، قليل الإغضاء، سيّئ الظنّ[٣]. قلَّ“ (الهادى) „مَن توقّاه وعرف أخلاقه، إلّا أغناه. وما كان شئٌ أبغضَ إليه من آبتدائه بسؤال.“ „وكان يأمر للمغنِّى بالمال الخطير الجزيل، فيقول: «لا يُعطينى بعدها شيأ»، فيعطيه“ „بعد أيام مثل تلك العطيّة.“

= إلى سنة ١٣٥. وهو الذى أمر أصحابه بالبناء فى الأرض الفضاء التى محلها الآن جامع آبن طولون. وبنى هو هنالك دار الإمارة ومسجدًا عُرف بجامع العسكر. ولذلك سمى المكان كله بآسم العسكر من ذلك الوقت، وصار فيما بعد مدينة عامرة. ثم أرسله أبو العباس السفاح على رأس الجيش المتوجه إلى المغرب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٦. ولكن الخليفة مات، فجاء أمر الخليفة الجديد أبى جعفر المنصور بالعدول عن هذه الغزوة. فأقام أبو عون ببرقة شهرًا. ثم عاد إلى مصر بجيشه فذهب إلى فلسطين لحرب الخوارج. فهزمهم وقتل منهم جما غفيرا، وأرسل إلى مصر ثلاثة آلاف رأس. ثم تولّى خراج مصر وصَلاتَها بطريق النيابة حتى جاءه التقليد فى ٢٠ رمضان سنة ١٣٧. وأقام فى هذه الولاية الثانية ثلاث سنين وستة أشهر. وعاد إلى مصاحبة المنصور وحضر معه واقعة الراوندية. فلما أفضت الخلافة إلى المهدىّ، آستعمله على خراسان سنة ١٥٩ ثم عزله عنها سنة ١٦١. (أُنظر الأغانى وآبن الأثير وأبى المحاسن تغرى بردى، فى فهارسها)

(١) صـ : وافرها.

(٢) سـ : قصير المياومة والملايلة.

(٣) سـ : النظر.

ويقال إنه قال يوما، وعنده ابن جامع وإبراهيم الموصلي ومُعاذ بن الطبيب — وكان أوّل يوم دخل عليه مُعاذ[١] وكان حاذقا بالاغاني عارفا بها —: مَن أطربني اليوم منكم فله حُكْمُه. فغنّاه ابن جامع غِناءً لم يحرّكه، وكان إبراهيم قد فهم غرضه فغنّاه:

سُلَيْمَى أجمعتْ بينا. * فأَيْنَ تَقُولُها[٢] أَيْنَا؟

فطرِب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته، وقال: "أَعِدْ بالله، وبحياتي!" فأعاد، فقال: «أنت صاحبي فاحتكِمْ» فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، حائط[٣] عبد الملك بن مَرْوان وعينه[٤] الخرّارة بالمدينة! قال: فدارت عيناه في رأسه حتّى صارتا كأنهما جمرتان ثم قال: «يا ابن اللخناء! أردتَ أن تَسْمَعَ العامّةُ أنك أطربْتَني، وأنّي حكّمْتُك فأقطعتُك! [أما والله][٥] لولا بادرةُ جهلك التي غلبتْ على صحيح عقلك وفكرك، لضربتُ الذي فيه عيناك!» ثم سكت هُنَيْهةً. قال إبراهيم: فرأيتُ مَلَكَ الموت قائما بيني وبينه ينتظر أمره. ثم دعا إبراهيم الحرّاني[٦]، فقال: «خذ بيد هذا الجاهل، فأدخِلْه بيت المال، فليأخُذْ منه ماشاء!» فأخذ الحرّاني بيدي حتّى دخل بي بيت (٢٧)

---

(١) صـ: مَن.

(٢) "تقولها" هنا مثل "تظُنُّها" معنًى وعملًا. وقد تحرّفتْ هذه الكلمة في كثير من كتب الأدب المطبوعة. وهذه القصة التي ذكرها الجاحظ أوردها الطبري أيضا (سلسلة ٣ ص ٥٩٥) باختلاف قليل، وهي غير واردة في الأغاني، وإنما هنالك حكاية أخرى وفيها الأبيات بأكملها. (أنظر ج ٢١ ص ١٦٦)

(٣) أي بستان.

(٤) الينبوع الذي يخرج منه جدول يتدفق ماؤه.

(٥) الزيادة عن الطبري (سلسلة ٣ ص ٥٩٦).

(٦) هو عديل هارون الرشيد. وكان من ندماء الهادي وهو ولي العهد. ويظهر من كلام ابن الأثير أنه كان قيّما على خزائن الأموال في أيام الهادي. (الأغاني ج ٦ ص ٦٧ وج ١٧ ص ١٧)

المـال، فقال: كم تأخذ؟ فقلتُ: مائة بدرة[(١)]. فقال: دعنى أُؤامره. قلتُ: فآخذُ تسعين. قال: حتى أؤامره. قلتُ: فثمانين. قال: لا. فأبى إلّا أن يؤامره، فعرفتُ غرضه، فقلت له: آخذُ سبعين لى، ولك ثلاثون. قال شأنُك[(٢)]! قال: فآنصرفتُ بسبعمائة ألف، وآنصرف مَلَك الموت عن الدار[(٣)].

(٣٨) (الرشيد)

قال[(٤)]: "وكان الرشيد فى أخلاق أبى جعفر المنصور، يمتثلها كلَّها إلّا فى العطايا" "والصِّلات والخِلَع. فإنه كان يقفو فعل أبى العبّاس والمهدىّ. ومَنْ خبّرك أنه رآه" "قَطُّ وهو يشرب إلّا المـاء، فكذِّبْهُ[(٥)]. وكان لا يحضُر شربه إلّا خاصُّ جواريه. وربما" "طرب للغناء فتحرّك حركةً بين الحركتين فى القِلّة والكثرة."

وهو من بين خلفاء بنى العباس مَن جَعَلَ للمغنّين مراتب وطبقات، على نحو

---

(١) البدرة فى الأصل جلد السخلة (أى ولد الضائنة أو الماعزة). كانوا يضعون فيها الأموال، ثم أطلقوا آسمها على المـال نفسه مجازا. والمستفاد من كتب اللغة أن البدرة كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. ورواية الجاحظ هنا تدل على أن مقدارها فى أيام العباسيين كان عشرة آلاف درهم.

(٢) فى سـ، صـ: شارك. وفى الطبرى: "قال الآن جئتَ بالحق، فشأنك!" (سلسلة ٣ ص ٥٩٦)

(٣) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة بآختصار ألفاظ الجاحظ. (ص ٣٠ و ٣١)

(٤) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى هذه الحكاية كلها للؤلف.

(٥) هـذا النصّ الصريح يؤيد رأى آبن خلدون فى مقدمته (ص ١٤). وذلك أن "إلّا" هنا معناها "غير" كما وردت فى غير ما آية قرآنية و بيتٍ شعرىّ. فيكون المعنى الذى أراده محدِّث الجاحظ: لو خبّرك إنسان بأنه رأى هارون وهو يشرب شرابا غير الماء، فآعلمْ أنّه كاذبٌ. لأن الرشيد، كان إذا أراد الشرب، فإنما يشرب بحضرة خاصّ جواريه دون سائر الناس، بحيث لم يره أحد يشرب شيئا سوى الماء، حتى يجوز له الإخبار بذلك عنه [وانظر ص ١٥٣ من هذا الكتاب]. يؤيد ذلك ماوقع له مع آبن بختيشوع بشأن السمكة التى منعه الطبيب من أكلها. (مروج الذهب ج ٦ ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦؛ وعيون الأنباء ج ١ ص ١٢٩)

ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان. فكان إبراهيم [الموصلى][1] و [إسماعيل أبو القاسم] ٱبن جامع وزلزل [منصور الضارب] فى الطبقة الأولى. وكان زلزلٌ[2] يضرب، ويُغَنِّي هذانِ[3] عليه.

---

(١) الأسماء والكُنى والالقاب الموضوعة بين [ ] فى هذه الصفحة والتى تليها مأخوذة عن الأغانى لأبى الفرج.

(٢) كان زلزل هـذا ممن يضرب به المثل فى حسن الضرب بالعود وكان من الأجواد. وقد ٱشتهر فى أيام المهدىّ والهادى والرشيد. ومن آثاره العمرانيـة بركةٌ أنشأها فى بغداد ووقفها على المسلمين، فٱشتهرت بٱسمه: وٱشتهرت المحلة الكائنة فيها بٱسمها. قال فيها نفطويه النحوى:

لو أنّ زُهيرا وٱمرأ القيس أبصرا * مَلاحةَ ما تحـويه بركة زَلزَلِ،
لَمَا وَصَفَا سَلْمَى ولا أُمَّ جُنْدُبٍ * ولا أكثرا ذكرَ الدَّخول فَحَوْمَلِ.

وقد أكثر الشعراء من ذكرها.

غضب عليه الرشيد فحبسه سنين. وكانت أُخته تحت إبراهيم الموصلى، فقال إبراهيم فيه:

هـل دهرُنا بك عائدٌ يا زَلْزَلُ * أيامَ يغبنا العـدوّ المُبْطِلُ،
أيامَ أنت من المكاره آمنٌ * والخير مُتَّسِعٌ علينا مُقْبِلُ؟
يا بُؤسَ مَن فقد الإمام وقُرْبَه! * ما ذا به من ذِلَّة، لو يعقل؟
ما زلتُ بعدك فى الهموم مردّدا * أبكى بأربعـة كأنى مثكل.

فرضى عنه الرشيد وأخرجه من الحبس. (أُنظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٥٩٢ وج ٤ ص ١٢٣ و ٢٥٢؛ وٱنظر شفاء الغليل للخفاجىّ ص ١١٧؛ والاغانى ج ٥ ص ٢٢)

(٣) أى صاحباه الآخران وهما إبراهيم الموصلىُّ وٱبن جامع. والذى جاء "فى الأغانى" (ج ٥ ص ٤٠) أن إبراهيم الموصلى وزلزلا وبرصوما ٱجتمعوا بين يدَيِ الرشيد فضرب زلزلٌ وزَمَر برصوما وغنّى إبراهيم:

صحا قلبي وراع إلىَّ عقلى * وأقصرَ باطلى ونسيتُ جهلي.
رأيتُ الغانيات، وكنَّ خُزْرًا * إلىَّ، صرمنَني وقطعنَ حبلي.

فطرب هارون حتى وثب على رجليه وصاح: يا آدم! لو رأيتَ من يحضرنى من ولدكَ اليوم، لسرّك! ثم جلس =

والطبقة الثانية سُلَيم بن سلام [1] [أبو عبيدالله الكوفىّ] وعمرو الغزال [2] ومَن أشبههما. والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير. وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصِلاتهم. وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأُولى بالمال الكثير الخطير، جعل لصاحبيه اللذين معه فى الطبقة نصيبا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا. وإذا وصل أحدا من الطبقتين الأُخرَيَيْن بصلة، لم يقبل واحدٌ من الطبقة العالية منه درهما، ولا يجترئُ أن يعرض ذلك عليه. (٣٩)

قال: [3] «فسأل الرشيد يومًا برصوما الزامر، فقال له: يا إسحاق! ما تقول فى ابن» «جامع؟ فحرّك رأسه [و] قال: خَمْرٌ قُطْرَبُّل، يعقِل الرجْل ويُذهِب العَقْل. قال:» «فما تقول فى إبراهيم الموصلىّ؟ قال: بستانٌ فيه خوخ وكُمَّثْرَىٰ وتُفّاح وشَوْكٌ وخُرْنُوبٌ.» «قال: فما تقول فى سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسنَ خِضابه! قال: فما تقول» «فى عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه [4]!»

قال: وكان منصورٌ زلزل من أحسن وأحذق مَن بَرَأَ الله بالجَسّ. فكان إذا جَسّ العُود، فلو سمعه الأحنف [5] ومَن تحالم فى دهره كله، لم يملكْ نفسه حتّى يطرَب.

= وقال: أستغفر الله!
وفى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٤٧) أن زلزلا كان يضرب على إبراهيم، يعنى الموصلى.

(١) صـ: سليمان بن سلامة (وهكذا فى بقية الحكاية).

(٢) فى سـ، صـ: "العزال" بالعين المهملة (وهكذا فى بقية الحكاية). وقد اعتمدتُ ما أورده صاحب الأغانى (ج ١١ ص ٣٤ و ٧٧ وج ٢٠ ص ٦٤ و ٦٥).

(٣) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى الحكاية للجاحظ.

(٤) سـ: "ثيابه". وفى الاغانى (ج ٦ ص ٧٢) أن برصوما الزامر ذكر إبراهيم الموصلى وابن جامع، فقال: "الموصلىُّ بستانٌ تجد فيه الحلو والحامض، وطريا لم ينضج، فتأْكل منه من ذا ومن ذا؛ وابن جامع زِقُّ عسلٍ، إن فتحتَ فمه خرج عسل حُلوٌ، وإن خرقتَ جنبه خرج عسل حُلوٌ، وإن فتحت يده خرج عسل حُلوٌ: كله جيّد."

(٥) هو أبو بحر الضحّاك بن قيس. ينتهى نسبه إلى زيد مناة. وهو الذى يضرب به المَثَل فى الحلم. وكان آية فى الجدّ والوقار. (أُنظر ترجمته فى ابن خلكان والأغانى وغيرهما)

قال إبراهيم : فغنّيتُ يومًا على ضربه[(١)]، فخطّأنى. فقلتُ لصاحب الستارة : هو والله أخطأَ ! قال : فرَفَع الستارة، ثم قال : يقول لك أميرالمؤمنين : أنت والله أخطأتَ ! فحمِىَ زَلزلٌ وقال : يا إبراهيم، تخطّئنى؟ فوالله ما فتح أحدٌ من المغنين فاهُ بغير لفظٍ إلّا عرَفْتُ غرضَه ! فكيف أُخطِئُ وهذه حالى؟ فأدّاها صاحبُ الستارة، فقال (٣٠) الرشيد : قل له : صدقتَ ! أنت كما وصفتَ نفسك، وكَذَبَ إبراهيم وأَخْطَأَ. قال إبراهيم : فغمّنى ذلك، فقلتُ لصاحب الستارة : أبلغْ أمير المؤمنين، سيّدى ومولاى، أنّ بفارسَ رجلا يقال له سُنَيْد[(٢)]، لم يخلُق الله أضربَ منه بعود ولا أحسن مَجَسًّا، وإن بعث إليه أميرالمؤمنين فحمله عرف فضله وتغنّيتُ على ضربه. فإن زَلزَلًا يُكايدنى مُكايدةَ القُصّاص والقرادين. قال : فوجّه الرشيد إلى الفارسىّ فحُمِل على البريد، فأقلق ذلك زَلزَلًا وغمّه. فلما قدم بالفارسىّ، أُحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاؤا بالعيدان قد سُوّيتْ. وكذلك كان يُفعَل فى مجلس الخلافة، ليس يُدفَع إلى أحدٍ عودُه فيحتاج إلى أن يحرّكه لأنها قد سُوّيتْ وعُلّقتْ مثالثها مُشاكِلةً للزِّيَرة[(٣)] على الدقة والغلظ. قال : فلما وُضع عُود الفارسىّ فى يديه، نظر إليه منصور زلزل، فأسفر وجهه وأشرق لونه. فضرب وتغنّى عليه إبراهيم. ثم قال صاحب الستارة لزلزل : يامنصور : اِضرِبْ ! قال : فلما جسّ العود، ماتمالك الفارسىّ أنْ وثب من (٣١) مجلسه بغير إذنٍ حتّى قبل رأس زَلزَلٍ وأطرافه، وقال : مِثلُكَ ــ جُعِلتُ فداكَ ! ــ

(١) أى إبراهيم الموصلىّ حكاية عن نفسه . وهذه القصة من آستطرادات الجاحظ أيضا

(٢) لم يذكره صاحب الأغانى، ولم يورد هذه الحكاية . وهى غير واردة فى صـ .

(٣) جمع زير، مثل ديك ودِيَكة . والزير هو الوتر الدقيق من الأوتار وأحكمها فتلًا (فى عود الطرب). فكأنّ المؤلف قال : وعُلّقتْ مثالثه مشاكلةً لمثانيه . قال المفضل بن سلمة النحوى فى كتاب الملاهى مانصه : "ويقال لأوتاره [أى العود] الحابِضُ واحدها مِحبَض وهى الشَّرْع واحدتها شِرْعة . فمنها الزير، والذى يليه المَثنَى ومنهم من يسميه الثانى، والمَثْلَث ومنهم من يسميه الثالث، والبَمّ . ويقال للتى يسميها الفرس دساتين، العَتَبُ . وكل ذلك قد جاء فى الشعر."

لا يُمتهَن ويُستعمل، ومثلك يُعبَدُ. فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسيّ، فأمر له بصلة وردّه إلى بلده.

وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم. نزل بين ظهرانَيْ قوم، وقد كان يحلّ لهم أخذ الزكاة. فما مات حتّى وجبت عليهم الزكاة.[1]

„وكان إسحاق بَرْصُومًا فى الطبقة الثانية. قال: فطرب الرشيد يوما لزمره، فقال„ „له صاحب الستارة: يا إسحاق! أَزْمُرْ على غناء ابن جامع. قال: لا أفعلُ. قال: يقول„ „لك أمير المؤمنين، ولا تفعلُ؟ قال: إن كنت أزمُرُ على الطبقة العالية، رُفِعْتُ إليها.„ „فأما أنْ أكون فى الطبقة الثانية وأزْمُرَ على الأُولى، فلا أفعلُ! فقال الرشيد لصاحب„ „الستارة: اِرفعه إلى الطبقة الأُولى؛ فإذا قمتُ، فادْفَع البِساط الذى فى مجلسهم إليه.„ „فرُفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط، وكان يساوى ألفَيْ دينار. فلما حمله إلى„ „منزله آستبشرت به أُمّه وأخواته. وكانت أمه نَبَطِيّةً لكْناء.[2] فخرج برصوما عن منزله„ „لبعض حوائجه، وجاء نساءُ جيرانه يهنّئْنَ أُمّه بما خُصّ به دون أصحابه ويدعون لها.„ (٣٢) „فأخذت سِكّينًا وجعلت تقطع لكل مَن دخل عليها قطعة من البساط، حتّى أتت على„ „أكثره. فجاء برصوما فإذا البساط قد تُقُسِّم بالسكاكين. فقال: وَيْلَكِ! ماصنعتِ؟„ „قالت: لم أدرِ، ظننتُ أنه كذا يُقَسَّم. فحدّث الرشيد بذلك، فضحك ووهب له آخر.„

*وزعم سعيد بن وهب[3] أنّ إبراهيم الموصلىّ غنّى أمير المؤمنين هارون صوتًا، فكاد

(١) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن ص.

(٢) التى لاتُقيم العربية لعجمة لسانها. (قاموس)

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن وهب البصرى. كان كاتبا شاعرا مطبوعا. مات فى أيام المأمون. (أُنظر أخباره فى الأغانى ج ٢١ ص ١٠٤ – ١١٠)

يطير طرباً، فاستعاده عامة ليله، وقال: «ما رأيت صوتاً يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والسخف غير هذا الصوت!» فأقبل إبراهيم، فقال: «يا أمير المؤمنين! لو وهب لك إنسان مائة ألف درهم، أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحةً، كنتَ أسَرَّ بها أو بهذا الصوت؟» قال: «والله لأنا أسَرُّ بهذا الصوت مني بألف ألف، وألف ألف!» قال: «فلو فقدتَ من بيت مالك مائة ألف كان أشدَّ عليك، أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرور؟» قال: «بل ألف ألف، وألف ألف أهونُ عليَّ.» قال: «فلِمَ لا تَهَبُ مائة ألف أو مائتي ألف لمن أتاك بشيءٍ فَقْدُ ألفي ألف أهونُ عليك منه؟» فأمر [له] (١) بمائتي ألف درهم.*

(الامين)

قلتُ لإسحاق: فالمخلوع (٢)، أين كان ممن ذكرتَ؟

قال: „ما كان أعجبَ أمرَه كلَّه! فأما تبذّله، فما كان يبالي أين قعد ومع مَن قعد."
„وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرّقها كلّها وألقاها عن وجهه حتى"
„يقعد حيثُ قعدوا. وكان مِنْ أعطى الخلق لذهبٍ وفضةٍ، وأنهبهم للأموال إذا"
„طرِب أو لَهَا. وقد رأيتُه (٣) وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلةٍ بوقْرِ زورقٍ ذهباً،"
„فانصرف به. وأمر لي (٤) ذات ليلة بأربعين ألف دينار، فحُملت أمامي. ولقد غنّاه"
„إبراهيم بن المهديّ غناءً لم أرتضه. فقام عن مجلسه فأكبّ عليه فقبّل رأسه. فقام"

(١) هذه الجملة المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن صـ.

(٢) يعني الأمين الخليفة العباسي. وبذلك اللقب يسميه أغلب الكتّاب والمؤرّخين المعاصرين له أو الذين بعده بقليل، لقرب عهدهم بخلعه واشتهاره بينهم. وشاهدُ ذلك بين أيدينا الآن، فإن الأتراك لا يُسمّون السلطان عبد الحميد في كتاباتهم وأحاديثهم إلا باسم "المخلوع".

(٣) الإشارة إلى إبراهيم بن المهدي عمّ الخليفة. (أنظر الأغاني ج ٩ ص ٧١)

(٤) الضمير يعود إلى راوي الحكاية وهو إسحاق بن إبراهيم الموصليّ.

(٣٣) „ابراهيم فقبّل ما وطِئَتْ رجلاه من بساطه. فأمر له بمائتي ألف دينار. ولقد رأيتُه" „يوما، وعلى رأسه بعض غلمانه، فنظر إليه فقال: وَيْلَكَ! ثيابُك هذه تحتاج إلى أنْ" „تُغسَلَ. انطلقْ، فَخُذْ ثلاثين بدرة، فاَغسلْ بها ثيابك."

ولقد حدَّثني عَلُّوَيْه [الأعسر وهو أبو الحسن علىّ بن عبد الله بن سيف](١) عنه قال: لما أُحيطَ به وبلغت حجارة المنجنيق بِساطه، كنا عنده فغنَّتْه جاريةٌ له بغناء تركتْ فيه شيأً لم تُجِدْ حكايته. فصاح: يا زانية! تغنيني الخطأ! خذوها! فَحُمِلتْ. وكان آخرَ العهد بها.

(المأمون)

قلتُ: فالمأمون؟

قال: „أقام بعد قدومه عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء. ثم سمعه من وراء" „حجاب، متشبّهًا بالرشيد. فكان كذلك سَبْعَ حِجَجٍ. ثم ظهر للندماء والمغنين."

قال: „وكان حين أَحَبَّ السماع ظاهرًا بعينه، أَكْبَرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه."

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن ابراهيم الموصِلىّ(٢) فغمزه بعضُ مَن حضر، وقالوا: مايُغادر تيهًا وبَأْوًا(٣). فأمسك عن ذكره. قال: فجاءه زُرْزُر يوما فقال له: يا إسحاق، نحن اليومَ عند أمير المؤمنين! فقال إسحاق: فغنِّه بهذا الشعر:

---

(١) الزيادة التى بين [ ] عن كتاب الاغانى لأبى الفرج.

(٢) كان المأمون يعقد مجلسا لتفريق الأرزاق، فكان إسحاق هذا أولَ مَن يدخل عليه فى طائفة الوزراء، ثم القُوّاد، ثم القضاة، ثم الفقهاء، والمعدّلين، ثم الشعراء، ثم المغنّين، ثم الرماة فى الهَدَف. (عن ذيل أمالى القالى ص ٩٠)

(٣) البأو هو الفخر والكِبر والتيه. قال حاتم الطائىّ:

فما زادنا بأوًا على ذى قرابة * غِنانا، ولاأزرى بأحسابنا الفقرُ.

وأنظر هذه القصة أيضا فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٢٤٤).

يا سَرْحَةَ(١) المَاءِ قد سُدَّتْ مَوارِدُهُ، * أما إليكِ طريقٌ غيرُ مسدودِ؟
لِحَائِمٍ حَامَ حَتَّى لاحَرَاكَ(٢) به * مُحَلَّإٍ(٣) عن سبيلِ(٤) المَاءِ مَطرودِ(٥).

فلما غنّاه به زُرْزُر، أطربه وأبهجه وحرّك له جوارحه. وقال: ويلك! مَن هذا؟

---

(١) وردت هذه الكلمة هكذا: "سرحة" فى سـ، صـ وفى "الأغانى" والطبرى و"معجم الأدباء" وأكثر كتب الأدب التى وقعت لنا، ومنها محاسن الملوك. وأما صاحب العقد الفريد فقد روى صدر البيت هكذا: "يامشرع الماء". والرواية الأولى هى الأصدق والأصوب، وإن كانت الثانية فيها شبهة من جهة المعنى. والسَّرحةُ شجرةٌ عظيمة بلا شـوك تنبت فى بلاد العَرَب وفى نجد خصوصًا، وورقها أخضر دائمًا، وهى جميلة المنظر. [ويسمّيها أهل شنقيط (آتيل). وفى أشعارهم "ذو السَّرح" وهو موضع يسمّى عندهم باللغة البربريّة "إنواتيل" وهو تعريبٌ له كما ترى. استفدت ذلك من الأستاذ الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطى.] ومثل ذلك فى بلاد العرب مواضع كثيرة مثل السرحة، وذات السرح، وذو السرح. (أنظر ياقوت ج ٢ ص ٥٠٣، ج ٤ ص ٤٨٠؛ وج ٣ ص ٢٨٦؛ وج ١ ص ٥٣٦ و ٥٨٠، ج ٣ ص ٧٨٢)

وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب أنذر الشعراء بالجلد إذا هم شببوا بالنساء. فقال حُمَيْد ابن ثَوْر فى ضمن قصيدة له:

تُرَانِى إنْ عَلَّلْتُ نفسى بسرحةٍ * من السَّرْحِ موجودٌ علىَّ طريقُ
أبَى اللهُ إلاّ أنَّ سَرْحَةَ مالكٍ * على كلِّ سَرْحاتِ العِضاهِ تَرُوقُ

(وأنظر ياقوت ج ٣ ص ٧١).

هذا وقد أورد صاحب "لسان العرب" البيتين اللذين نحن بصددهما وقال كُنِىَ بالسرحة النابتة على الماء عن المرأة، لأنها حينئذ أحسن ما تكون. (أنظر مادة س ر ح)

(٢) فى صـ: "حيام" وكذلك فى الأغانى (ج ٩ ص ٦١)، وفيه "حوام" (ج ٥ ص ١٠٦) وقد أورد هذه الحكاية باسم علويه بدلا من زرزر وأضاف بيانات أخرى. ولكنها هنا أوفى وأكمل.

(٣) ممنوع أى مطرود.

(٤) فى الأغانى فى الموضعين المذكورين: "طريق". وكذلك فى صـ. وفى لسان العرب: "طريق الورد".

(٥) استحسن الأصمعىّ هذا الشعر وقال: "غير أن هذه الحاءات لو اجتمعت فى آية الكرسىّ، لعابتها". (عن الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط للأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١١ — ص ٣١١)

قال: عبدُك المجفوُّ المطَّرَح، ياسيِّدى، إسحاقُ. قال: يحضُر الساعةَ. فجاءه رسوله، وإسحاقُ مستعدٌّ، قد علِمَ أنه إنْ سمع الغناء من مُجيدٍ مؤدٍّ أنه سيبعث إليه. فجاءه الرسول. فحُدِّثتُ(١) أنه لما دخل عليه ودنا منه، مدّ يده إليه ثم قال: آدنُ منى! فأكبَّ عليه وآحتضنه المأمونُ وأدناه وأقبل عليه بوجهه مُصْغِيًا(٢) إليه ومسرورا به.

⁂

مباسطة الملك لندمائه

ومن أخلاق الملك السعيد تركُ القُطوب فى المنادمة، وقلَّة التحفُّظ علىٰ ندمائه، و[لا] سِيَّما(٣) إذا غُلِبَ أحدُهم علىٰ عقله، وكان غيرُه أملكَ به منه بنفسه.

(٣٥)

وللسكْر حدّ إذا بلغه نديمُ المَلِكِ، فأجملُ الأُمور وأحراها بأخلاقه أنْ لا يؤاخذه بزَلَّةٍ إنْ سبقته، ولا بلفظةٍ إنْ غلبتْ لسانه، ولا بهفوةٍ كانت إحدىٰ خواطره.

حد الإغضاء عن الزلات

والحدُّ فى ذلك أنْ لايعقل مايقول ولا مايقال له، وإنْ خُلِّيَ ونفسَه رمى بها فى مَهواة، وإن أراد أحدٌ أخذ ثيابه لم يمانعه.

مواطن المعاقبة عليها

فأما إذا كان ممن يعرِف ما يأتى وما يَذَرُ، وكان إذا رام أحدٌ أخْذَ مامعه قاتله دونه، وكان إذا شُتِم غَضِبَ وآنتصر(٤)، وإذا تكلَّم أفصح وقلَّ سَقَطُه: فإذا كانت هذه صفته ثم جاءت منه زَلَّةٌ، فعلىٰ عَمْدٍ أتاها وبقصدٍ فعلها. فالملك جديرٌ أن يعاقبه بقدر ذنبه. فإن ترك عقوبة هذا ومن أشبهه، قدحُ فى عزّه وسلطانه.

---

(١) الضمير للجاحظ.

(٢) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة بألفاظ الجاحظ مختصرةً. (ص ٦١)

(٣) لاشك أن أداة النفى (لا) قد سقطت من عبارة الجاحظ. وقد نصوا على وجوبها وآستشهدوا بقول آمرئ القيس: ولاسيَّما يوم بدارة جُلْجُل * وأكد أئمة اللغة أن من أهملها فقد أخطأ. (أنظر التسهيل وشرحه وحاشية الأشمونى فى باب الآستثناء، وآنظر البيان الوافى فى "تاج العروس" (مادة س و ى). [وانظر أيضا ص ١٥٧ من هذا الكتاب].

(٤) أى لنفسه.

الاقتصاد فى العقوبة

ومن الحقِّ علىٰ الملك أنْ لايُجاوز بأهل الجرائم عقوبةَ جرائمهم. فإنَّ لكلِّ ذَنْبٍ عقوبةً: إمَّا فى الشريعة والنواميس، وإمَّا فى الإجماع والاَصطلاح. فمَنْ تركَ العقوبةَ فى موضعها، فبالحَرَى أن يعاقب مَن لاذنب له. وليس بين ترك العقوبة (إذا وجبتْ) وعقوبة من لا ذنب له، فرقٌ. وإنما وضع الله الملوك بهذه المواضع الرفيعة (٣٦) لِيُقوِّموا كلَّ ميل ويَدْعَموا كلَّ إقامة.

تفرّد الملك بالتطيب والتجمل ونحوهما

ومن أخلاق الملك أنْ لايشاركَ بِطانته وندماءه فى مَسِّ طِيبٍ ولا مُجْمِرٍ. فإنَّ هذا وما أشبهه يرتفع الملك فيه عن مساواة أحد.

وكذا يجب علىٰ بِطانة الملك وقرابته[(١)] أنْ لا يَمَسُّوا طيبا إذا تطيَّبَ، لِينفردَ المَلِكُ بذلك دونهم.

وليس الطِّيب كالطعام والشراب اللذين لا بدّ من مشاركة الندماء فيهما.

فأما كلُّ ما أمكن الملكَ أن ينفرد به دون خاصّته وحامّته[(٢)]، فمِن أخلاقه أن لا يُشارِكَ أحدا فيه.

وكذا حُكِيَ عن أنوشروانَ ومعاوية بن أبى سُفيان. وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد مايقرب من هذا.

وأَوْلىٰ الأمور بأخلاق الملك ـ إن أمكنه التفرّد بالماء والهواء ـ أنْ لا يَشْرَكَ فيهما أحدًا. فإن البهاء والعز والأُبَّهة فى التفرُّد.

---

(١) نهىٰ صاحب القاموس عن استعمال "القرابة" بمعنى الأقارب، ونسبه الجوهريُّ إلى العامّة، ووافقهما الأكثرون ومنهم الحريريّ فى "درّة الغوّاص". ومن رأيهم أن الواجب أن يقال "ذوو القرابة". ولكن هذا اللفظ ورد بهذا المعنىٰ فى الحديث الشريف، وعليه جرىٰ الجاحظ فى جميع هذا الكتاب. (وانظر التفصيل فى تاج العروس فى مادة ق ر ب)

(٢) الحامّة هى العامة، وأيضا أخِصّاء الرجل من أهله وولده وذوى قرابته.

سنة ملوك الفرس فى ذلك

ألا ترىٰ أنّ الأمم الماضية من الملوك، لم يكن شئ أحبَّ إليهم من أنْ يَفعلوا (١) شيأ تعجِز عنه الرعيّة، أو يتزيّوا بِزِىٍّ يَنْهَوْن الرعيّة عن مثله.

فمن ذلك أردشير بن بابك، وكان أنبل (٢) ملوك بنى ساسان. كان إذا وَضَع التاجَ علىٰ رأسه، لم يضع أحدٌ فى المملكة علىٰ رأسه قضيبَ رَيحانٍ متشبّهًا به.

(٣٧)

وكان إذا ركب فى لِبْسَةٍ (٣)، لم يُرَ علىٰ أحدٍ مثلُها. وإذا تختّم بخاتمٍ، فحرامٌ علىٰ أهل المملكة أن يتختّموا بمثل ذلك الفصّ، وإن بَعُد فى التشابه.

سنة سادات العرب والخلفاء فى ذلك

وهذه من فضائل الملوك. وطاعةُ أهل المملكة أنْ تَحامىٰ أكثر زِىّ الملك وأكثرَ أحواله وشِيَمِه، حتّىٰ لا يأتى مالا بدّ لها منه.

وهذا أبو أُحيحة سعيد بن العاص. كان إذا اعتمّ بمكّة لم يعتمّ أحدٌ بعِمّةٍ مادامت علىٰ رأسه (٤).

وهذا الحجّاج بن يوسف. كان إذا وضع علىٰ رأسه طويلة (٥)، لم يَجترِئْ أحدٌ من خلق الله أن يدخل وعلىٰ رأسه مثلُها.

وهذا عبد الملك بن مَرْوان. كان إذا لبِس الخُفَّ الأصفر، لم يلبَس أحدٌ من الخلق خُفا أصفر حتى ينزِعه.

---

(١) فى س، ص : يفعل.

(٢) ص : أمثل.

(٣) حالةٌ من حالات اللبس.

(٤) أوّل من روى ذلك ابن الكلبىّ فى كتاب الأصنام الموجودة نسخته الوحيدة المعروفة فى العالَم بخزانة كتبى. قال (فى ص ٢٠ من الأصل و ٢٠ من طبعتنا) : "وكان سعيد بن العاص أبو أحيحة يعتمّ بمكّة. فإذا اعتمّ لم يعتمّ أحدٌ بلون عمامته". وروى ذلك أيضا ابن دريد فى كتاب الاشتقاق (ص ٢٩) وقال إنه ذو العمامة وإن "أُحَيْحة تصغير أُحّة وهو مايجده الانسان فى قلبه من حرارة غيظ وحزن. والأُحّة والأُحاح واحد وقد استقصينا هذا فى كتاب الجمهرة".

(٥) أى قلنسوة طويلة عالية. وكان هذا النوع من القلانس خاصّا بالأمراء، وبالقضاة أيضا (كما تدلّ على ذلك عبارة البيهقى فى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٣).

وهذا إبراهيم بن المهدىّ بالأمس(١) ، دخل علىّ [أحمد] ابن أبى دُؤاد(٢) [بن علىّ] وعليه مُبَطَّنة مُلَوَّنة من أحسن ثوب فى الأرض، وقد اعتمّ على رأسه رُصافيّةً(٣) بعمامةِ خزٍّ سوداء لها طرفان خلفه وأمامه، وعليه خُفٌّ أصفرُ، وفى يده عُكَّازة آبنوس ملوّح (٣٨) بذهبٍ، وفى إصبعه فصٌّ ياقوت تضىء يده منه. فنظر إلى هيئةٍ(٤) ملأتْ قلبه، وكان جسيمًا، فقال: "يا إبراهيم! لقد جئتنى فى لِبْسةٍ وهيئةٍ ما تصلُحُ إلا لواحدٍ من الخلق(٥)." فانصرفَ فلم يأْتِهِ حتّى مات.

وحدّثنى أبو حسّان الزيادىّ(٦) (وذَكَرَ الفضلَ بن سَهْلٍ فترحَّمَ عليه) وقال: وجّهَ إلىّ فى ليلة ــ وقد أوَيْتُ إلى فراشى ــ رسولاً فقال: يقول لك ذو الرياستين:

---

(١) أى من عهد قريب من المؤلف. [وانظر ص ١٠٤ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٢٦ من هذا الكتاب]

(٢) من أكابر رجالات بنى العباس وخصوصا فى دولة المأمون والمعتصم والواثق.

(٣) هذه العبارة توضّح لنا ما لم يتيسر للعلامة دوزى Dozy الوقوف عليه أثناء تأليفه لمعجم الثياب عند العرب Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes. فيؤخذ من كلام الجاحظ هنا ومما يليه بأربعة عشر سطرا أن الرصافية هيئة عمّة على قلنسوة خاصة بالخليفة أو ولىّ عهده. ويؤخذ من كلام ابن خلكان (فى ترجمة جعفر البرمكى) أن أكابر بنى هاشم كان لهم هذا الحق أيضا. ذكر ابن خلكان أن عبد الملك بن صالح دخل مجلس جعفر هذا، وقال إنه كان على رأسه رصافية. وقد روى صاحب الأغانى هذه الحكاية بحرفها تقريبا (جزء ٥ ص ١١٨) وقال إن عبد الملك نزع قلنسيته. فذلك دليل على أن الرصافية نوع مخصوص من القلانس المعممة.

(٤) صـ: فنظر إليه بهيبة.

(٥) يعنى الخليفة.

(٦) من أكابر فقهاء بغداد الذين امتحنهم المأمون بخلق القرآن. وهو من أهل الفتوى والرواية. وقد ولّاه المتوكل قضاء مديرية الشرقية بمصر سنة ٢٤١ (أبو المحاسن فى "النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٦٣٩ و ٧٣٥)

لاتعتمّ غدًا على قلنسوة إذا حضرتَ الدار[1] . قال : فبِتُّ واجمًا، وأنا لا أعلم مايريد بذلك . وغَدَوْتُ، وغدا الناس على طبقاتهم ومراتبهم . فجاء الحسين[2] بن أبى سعيد إلى مَن فى الدار، فقال : إن أمير المؤمنين يقعد فى هذا اليوم ويعتمّ على قلنسوة، فآنزِعوا عمائمكم!

وحدّثنى بعض أصحابنا عن الحسن بن قريش[3] قال : لما مات القاسم بن الرشيد، وجّه إلىّ المأمونُ رسولا فأتيته . فجعل يسألنى عن عياله وعن أمواله، ويشكوه إلىّ، ويقول : كان يفعل كذا ويفعل كذا . فكان فى تلك الشكاية أن قال : وكان إذا ركب بمَرْو[4]، ركب فى رُصَافية[5] .

✥

عدل الملك فى مجلس الشراب

ومن أخلاق الملك إذا علم أن بعض النّدماء قد بلغ غاية مجهوده فى الشرب وأن الزيادة بعد ذلك تضر ببدنه وجوارحه أن يأمر بالكفّ عنه، وأنْ لا يُكلَّف فوق وسعه . فإنه مَن تجاوز حقّ العدل عن الخاصّة، لم تطمع العامة فى إنصافه .[6]

✥

(٣٩) مكالمة الندماء للملوك

ومن حقّ الملك أنْ لَا يكلّمه أحدٌ من الندماء مبتدئًا ولا سائلًا لحاجةٍ، حتّى يكون

(١) يعنى قصر الخلافة . والحكاية تدل على أن الواقعة حصلت بمرو، لأن الفضل بن سهل قُتل فى بلده (سرخس) عند عودة المأمون إلى بغداد .

(٢) صـ : الحسن .

(٣) صـ : قريش . وآنظر الطبرى (سلسلة ٣ ص ٦٥٢) فقد ورد فيه آسم هذا الرجل . وكان من خاصّة المأمون، وقد حدّثه الخليفة عن أخيه القاسم هذا . (المحاسن والمساوى ص ١٨٧)

(٤) متى أطلق الكُتّاب هذا الآسم، فإنما يريدون به مرو الشاهجان، لا مرو الرُّوذ . والأُولى هى أكبر مدائن خُراسان، وكان المأمون عاملا عليها لأبيه .

(٥) تأفّف المأمون لأن أخاه كان يتعمّد التشبه به، ولم يراع الواجب فى تركه ينفرد بالرصافية فى عاصمة ملكه، ولو أن للقاسم حقا فى لبسها لأنه هو أيضا آبن الخليفة .

(٦) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ .

هو المبتدئ بذلك[١]. فإنْ جهل أحدٌ ما يلزمه فى ذلك، تقدم إليه فيما يجب عليه. فإنْ عاد، فعلىٰ الموكَّل بأمر الدار أن يُحسن أدبه وأنْ لَايأذَنَ له فى الدخول، حتّٰى يكون الملك يبتدئُ ذكره. ثم يوعز إليه أنه إن عاد، أُسقِطتْ مرتبته فلم يطأْ بِساطَ الملك.

وكان شِيرَوَيْهِ بن أبرويز يقول: "إنمـا تُعْذَرُ البِطانة برفع حوائجها إلىٰ الملوك عند ضِيقَةٍ تكون، أو عند جفوة[٢] تنالهم من ملوكهم، أو عند موت يحدث لهم، أو عند تتابع أَزْمَةٍ. فإذا كان ذلك، فعلىٰ الملك تعهُّدُ ذلك من خاصّـته حتّٰى يُصـلِحَ لهم أمورهم ويَسُـدَّ خَلّتهـم. فإذا كانوا من الكفاية فى أقصىٰ حدودها، ومن خفض العيش فى أرفع خصائصه، ومن ذات اليد و إدراز العطايا فى أتم صـفاتها، ثم فتح أحدٌ فاهُ بطلبِ ما فوق هـذه الدرجة، فالذى حداه علىٰ ذلك الشَّرَهُ والمنافسة. ومَن ظهرت هاتان منه كان جديرا أن تُنْزَع كفايته من يده وتُصَيَّرَ فى يد غيره، ويُنقَل إلىٰ الطبقة الخسيسة، فيُلْزَم أذناب البقر وحراثة الأرض."

✥

(٤٠) مَنّ الملوك بنعمهم عند الضرورة فقط

ومن أخلاق الملك أنْ لا يَمُنَّ بإحسان سَبَقَ منه، ما آستقامتْ له طاعةُ مَن أنعمَ عليه ودامت له ولايته، إلا أنْ يَخْرُجَ من طاعةٍ إلىٰ معصيةٍ. فإذا فعل ذلك، فمن

---

(١) دخل الإمام الشافعىُ علىٰ الرشيد وسلَّم فردّ الخليفة عليه السلام ثم قال: "من العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى!" (أُنظر شرح القصة فى ص ٤٢ من كتاب "مناقب الشافعى" لفخر الدين الرازى، طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٩). وأول خليفة منع الناس من الكلام عند الخلفاء، وتقدم فيه وتوعد عليه عبد الملك بن مروان "البيان والتبيين ج٢ ص١٢" وعلىٰ هذا النظام جرى خلفاء الإسلام، حتى جاء القاضى أحمد بن أبى دُؤاد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، فكان أول من بدأهم بالكلام، وكانوا لا يُكَلَّمون حتى يتكلموا. (أُنظر ابن خلّكان فى ترجمته، وآنظر "شذرات الذهب" ج ١ ص ٥١٦)

(٢) س: عقوبة.

أخلاقه أن يَمُنَّ عليه أوّلاً بإحسانه إليه، ويُذَكِّره بلاءَه عنده وقلّة شكره ووفائه، ثم يكون من وراء [ذلك] عقوبته بقدر مايستحقّ ذلك الذنب فى غِلَظه ولِينِه.

وحدّثنى محمد بن الجَهْم[1] وداود بن أبى داود قالا: جلس الحسن بن سهل فى مُصَلَّى الجماعة لنُعيم بن خازم[2]، فأقبل نُعيم حافياً حاسرًا وهو يقول: "ذنبى أعظم من السماء! ذنبى أعظم من الهواء! ذنبى أعظم من الماء!" قالا: فقال له الحسن بن سهل: "على رِسْلك! تقدّمتْ منك طاعةٌ، وكان آخر أمرك إلىٰ توبة. وليس للذنب بينهما مكانٌ. وليس ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفوِ أمير المؤمنين فى العفوِ.[3]"

✣

عدم المعاقبة فى حال الغضب

ومن أخلاق الملك السعيد أنْ لا يُعاقب وهو غضبانُ. لأنّ هذه حالٌ لا يُسْلَمُ معها من التعدّى والتجاوز لحدّ العقوبة. فإذا سَكَنَ غضبُه ورجع إلىٰ طبعه، أمَرَ بعقوبته علىٰ الحدّ الذى سنّته الشريعة ونقلته الملة[4]. فإنْ لم يكن فى الشريعة ذِكْرُ عقوبةِ ذنبِه، فمن العدل أنْ يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطةً بين غليظ الذنوب ولَيِّنها، وأن يجعل الحكم عليه فيه، ونفسُه طيِّبةٌ وذِكْرُ القِصاص منه علىٰ بالٍ.

فأما العقوبة فلا تجوز إذا رُفِعَ أمرُها[5] إلىٰ الملك.

---

(١) كثيرا مايروى الجاحظ عن هذا الإنسان فى كتاب "الحيوان" وفى كتاب "البيان والتبيين".

(٢) كان فى معية المأمون حينما أرسله إلى مرو أبوه هارون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة. وصار من قواده ورجال دولته حينما أفضت إليه الخلافة. (طبرى سلسلة ٣ ص ٧٣٤ و ٨٤١ و ١٠٢٢)

(٣) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ. (وهى واردة فى "البيان والتبيين" ج١ ص٤٥)

(٤) سـ: الأئمة.

(٥) سـ: "فأما العفو فلا يجوز إذا رفع أمره إلى الملك". ولهذه الرواية أيضا وجه وجيه. والضمير راجع إلى الذنب. والمعنى أن الملك لا يجوز له تعطيل الشريعة بالعفو عن الجانى.

وليس الذنب بحضرة الملك كالذنب بحضرة السُّوقة، ولا الذنب بحضرة الحاكم[١] كالذنب بحضرة الجاهل. لأن الملك هو بين الله و بين عباده. فإذا وجب بحضرته الذنب، فمن حقه العقوبة عليه ليزدجر الرعايا عن العياثة والتتايع[٢] فى الفساد. (٤١)

✦✦✦

آداب البطانة عند قيام الملك

ومن حقّ الملك ـ إذا همّ بالحركة للقيام ـ أن تسبقه بِطانته وخاصته بذلك. فإن أومأ إليهم أنْ لا يبرحوا، لا يقعُدُ واحدٌ منهم حتّى يتوارىٰ عن أعينهم.

فإذا خرج، فمن حقه أن تقع عينه عليهم وهم قِيَام.

فإذا قعد، كانوا علىٰ حالهم تلكَ.

فإن نظر إليهم ليقعدوا، لم يقعدوا جملةً. بل تقعد الطبقة الأُولىٰ أوّلا. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثانية. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثالثة.

وأيضًا فإن لكل طبقة رأْسا وذَنَبًا. فمن الواجب أن يقعد من كلّ طبقةٍ رأْسُها ثم هَلُمَّ جَرًّا علىٰ مراتب الطبقة أوّلا أوّلا.

✦✦✦

عدم الدنوّ من الملك، إلا بشروط

ومن حقّ الملك أنْ لا يدنُوَ منه أحدٌ ـ صَغُر أو كبر ـ حتّى يَمَسّ ثوبُه ثوبَه إلا وهو معروفُ الأبوينْ، فى مُرَكَّبٍ[٣] حسيبٍ، غيرُ خامل الذكر ولا مجهولٍ.

---

(١) هكذا فى سـ ، صـ . ولعل الصواب : "الحكيم" أو "الحليم"

(٢) التتايع بالمثناة التحتية : التهافت والإسراع فى الشرّ (قاموس).

(٣) المُرَكَّب كمعظم الأصل والمنبت (قاموس).

فإن آحتاج الملك إلىٰ مشافهة خاملٍ أو وضيعٍ وآضطُرَّ إليها، إمّا لنصيحةٍ يُسِرُّها إليه أو لأمرٍ يسأله عنه، فمن حقّ الملك أنْ لا يُخَلِّيَ أحدًا يدنو منه حتى يُفَتَّشَ أوّلا، ثم يأخذَ بضَبْعَيْه آثنان، أحدُهما عن يمينه والآخر عن شِماله. فاذا أبدىٰ ما عنده وقبل (٤٢) منه الملك ماجاء به، فمن حقّه علىٰ الملك الإحسانُ إليه والعائدةُ عليه والنظرُ فى حاجته ـ إن كانت له ـ ليرغب ذوو النصائح فى رفعها إلىٰ ملوكهم والتقرّب بها إليهم.

✣

الأستماع لحديث الملك

ومن حق الملك، إذا حَدّثَ بحديثٍ أنْ يصرِفَ مَن حضره فكره وذهنَه نحوه.

فإنْ كان يعرفُ الحديثَ الذى يُحَدِّثُ به الملكُ، آستمعه آستماعَ مَن لم يَدُرْ فى حاسّة سمعه قَطُّ ولم يعرفْهُ، وأظهرَ السرورَ بفائدةِ المَلِك والآستبشارَ بحديثه. فإنّ فى ذلك أمرَيْن: أحدهما مايظهر من حسن أدبه، والآخر أنه يُعطى الملك حقّه بحسن الآستماع. وإن كان لم يعرفه، فالنفس[1] إلىٰ فوائد الملوك والحديث عنهم أقرمُ[2] وأشهىٰ منها إلىٰ فوائد السُّوقة ومن أشبههم.

وإنما مدار الأمر والغاية التى إليها يُجرَى، الفهمُ والإفهامُ والطلبُ ثم التثبُّتُ.

قال عمرو بن العاص: "ثلاثة لا أَمَلُّهُنَّ: جليسى مافهم عنّى، وثوبى ماسترنى، ودابّتى

(١) فى س : "الأستماع وان كان لم يعرفه فللنفس". وقد أكملتُ موضع البياض وصححت العبارة، بناء على ما فى ص وعلى ما أورده المسعودى. فانه نقل هذه الحكاية برُمّتها مع تغيير قليل، وزيادة ونقصان، وآضطراب فى التقسيم، وقال إنها مما قاله حكماء اليونان. فلعله نقلها هو والجاحظ عن كتاب آخر. (أُنظر مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٨)

(٢) أى أشدّ حرصا. [حاشية فى ص]. ورواية س : "أقرب". [وهى بعيدة عن الصواب].

ماحملتْ رَحْلى[١]." وذكر الشَّعبيُّ ناساً، فقال: "مارأيتُ مثلَهم أشدَّ تناقدًا فى مجلسٍ ولا أحسنَ فهمًا عن محدِّثٍ."

وقال سعيد بن سَلْم [الباهلى] لأمير المؤمنين المأمون: ""لو لم أشكرِ الله إلّا علىٰ حُسن ما أبلانى أميرُ المؤمنين من قصْده إلىّ بالحديث وإشارته إلىّ بطَرْفه، لقد كان ذلك من أعظم ماتفرضه الشريعة وتوجبه الحرّيّة." قال المأمون: "لأن أمير المؤمنين والله يجد عندك من حُسن الإفهام إذا تحدّثتَ، وحسن الفَهم إذا حُدِّثتَ ما لم يجِدْهُ عند أحدٍ فيما مضىٰ ولا يظنُّ أنه يجدُه فيما بَقِىَ[٢].""

(ماحصل لرجل كان أنوشروان يسايره)

وفيما يُحكىٰ عن أنوشروان أنه بَيْنَا هو فى مسيرٍ له (وكان لا يسايره أحدٌ من الخلق مبتدئا وأهلُ المراتب العالية خَلْفَ ظهره علىٰ مراتبهم، فإن آلتفت يمينا، دنا منه صاحب الحَرَس، وإن آلتفت شِمالا، دنا منه المُوبَذُ، فأمره بإحضار مَن أراد مسايرته)، قال: فآلْتفَتَ فى مسيره هذا [يمينا]، فدنا منه صاحب الحرس، فقال: فلانٌ. فأحضره. فقال: حدِّثنى عن أردشير بن بابك حين واقع ملك الخَزَر[٣]، وكان الرجُل قد سمع من أنوشروان هذا الحديث مرةً. فآستعجم عليه وأوهمه أنه لا يعرفه. فحدّثه أنوشروانُ بالحديث. فأصغىٰ الرجُل إليه بجوارحه كلها، وكان مسيرهما علىٰ شاطئ نهرٍ. وترك الرجُلُ – لإقباله علىٰ حديثه – النظرَ إلىٰ مواطئ حافر دابّته. فزلّتْ إحدىٰ قوائم الدابّة، فمالت بالرجُل إلىٰ النهر فوقع فى الماء ونَفَرَتْ دابّتُه. فآبتدرها حاشيةُ الملك وغلمانُه، فأزالوها عن الرجُل، وجذبوه فحملوه علىٰ أيديهم حتّىٰ أخرجوه. فآغتمّ لذلك أنوشروان ونزل عن دابّته، وبُسِط له هناك. فأقام حتّىٰ

(٤٣)

(١) أُنظر رواية أخرى لهذه الكلمة فى "كامل" المبرِّد. (ص ١٥٠)
(٢) هاتان الفقرتان المحصورتان بين نجمتين ** منقولتان عن صـ.
(٣) هو بفتح الخاء والزاى إسم جيل (قاموس). والمتعارف الآن عند الفرنج ضم الخاء. وآنظر ياقوت.

تغذّى فى موضعه ذلك. ودعا بثيابٍ من خاصّ كُسوته، فأُلقِيَتْ على الرجُل، وأكل معه. وقال له: كيف أغفلتَ النظر إلى موطئ حافر دابّتك؟ قال: "أيها الملك! إنّ الله إذا أنعم على عبدٍ بنعمةٍ، قابلها بمحنةٍ وعارضها ببليّةٍ. وعلى قدر النعم تكون المِحَنُ. وإنّ الله أنعم علىّ بنعمتين عظيمتين، هما(١): إقبال الملك علىّ بوجهه من بين هذا السواد الأعظم؛ وهذه(٢) الفائدةُ وتدبيرُ هذه الحرب التى حدّث فيها عن أردشير حتّى لو رحلتُ إلى حيث تطلُع الشمس أو تغرب، كنتُ فيه رابحًا. فلما اجتمعتْ (٤٤) نعمتان جليلتان فى وقتٍ [واحدٍ](٣)، قابلتهما هذه المحنةُ. ولولا أساوِرة الملك وخَدَمُهُ [وحسن جِدّه](٣)، كنتُ بمعرض هَلَكةٍ. وعلى ذلك، فلو غرِقتُ حتّى أذهب عن جَديد الأرض، كان قد أبقى لى الملكُ ذكرًا مُتلّدًا مُخلّدًا، ما بقِىَ الضياءُ والظلام.

فسُرّ الملكُ وقال: ماظننتُك بهذا المقدار الذى أنت فيه!

فحشا فَمَهُ جوهرا ودُرّا رائعا ثمينا، واستبطنه حتّى غلب على أكثر أمره(٤).

(ماوقع لأبى شجرة الرهاوىّ حينما حادثه معاوية)

وهكذا يُحكى عن [أبى شجرة] يزيد بن شَجَرَة الرُّهاوىّ(٥)، أنه بينا هو يساير معاوية

---

(١) فى س، ص: "منها" تحريفا عن "منهما". وقد صححتُ بمعونة المسعودىّ.

(٢) فى س، ص: "ومنها هذه" تحريفا عن "منهما". وقد صححتُ بمعونة المسعودىّ.

(٣) الزيادة عن المسعودىّ.

(٤) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتمامها وبحرفها، إلا فى كلمات قليلة. وقال إنه وجدها فى كتب سِيَر الملوك من الأعاجم. ونسبها إلى شيرويه بن أبرويز، وقال إن الرجل هو بُندار بن خُرشيد (جزء٦ ص١٢٤–١٢٦). ونقلها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ٢٧ – ٢٩)، واختصرها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨١ – ٨٢). ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" ص ٤٩٤ – ٤٩٥.

(٥) من أركان دولة معاوية. أرسله إلى مكة سنة ٣٩ ليقيم للناس الحج وليأخذ له البيعة ويطرد عامل علىّ عنها. ثم أرسله بعد ذلك لغزو الروم فى البحر مرة أو مرتين (سنة ٤٩ وسنة ٥٦). وهو منسوب إلى قبيلة من العرب (أُنظر تاج العروس فى مادة ر ه و). وأما النسبة إلى المدينة المشهورة بآسيا الصغرى فهى الرُّهاوىّ؛ بضم الراء.

ٱبن أبى سفيان، ومعاوية يحدّثه عن يوم خزاعة وبنى مخزوم وقريش.(١) وكان هذا قبل الهجرة. وكان يومًا أشرف فيه الفريقان علىٰ الهَلَكَة حتّىٰ جاءهم أبو سفيان فٱرتفع ببعيره علىٰ رابية ثم أَوْمَأَ بكُمّه(٢) إلىٰ الفريقين، فٱنصرفوا.(٣)

قال: فبينا معاوية يحدّث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صكّ وجهَ يزيدَ حَجَرٌ

(٤٥) عائرٌ(٤) فأدماه، وجعلت الدماءُ تسيل من وجهه علىٰ ثوبه، [وهو] ما يمسح وجهه.

فقال له معاوية: لله أنت! ما ترىٰ ما نزل بك؟ قال: وماذاك، ياأمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل علىٰ ثوبك! قال: أُعتِقُ ما أَملكُ،(٥) إنْ لم يكن حديث

---

(١) فى المسعودىّ: "يحدّثه عن جرعان يوم كان لبنى مخزوم وغيرهم من قريش". وفى بعض نسخه: "جزعان". [والصواب خزاعة كما هو وارد فى س، ص].

(٢) س: "بكمه" ص: "بكفه". [والتصحيح عن "محاسن الملوك"].

(٣) هذه القصة لم نجدها لغير الجاحظ والذين نقلوا عنه مثل المسعودىّ وصاحب "تنبيه الملوك" وصاحب "محاسن الملوك". ولعلّ الواقعة التى يشير إليها هى المذكورة فى آخر ديوان حسان بن ثابت الصحابىّ، وفى السيرة الحلبية (ج ١ ص ١٤٣ طبع المرحوم الزبير رحمت باشا العباسىّ فى بولاق سنة ١٢٩٥ هـ، وج ١ ص ٢٧٣ طبع العلّامة وستنفلد فى مدينة ليبسك سنة ١٨٥٨ م)

(٤) فى س غابر. وفى ص عابر. [وهذه الكلمة كثيرا ما يصحفها الناسخون والطابعون. فتارة يضعون "غابر" وأخرى "غاير" وأخرى "عابر". والصواب "عائر" بالعين المهملة والياء التحتية المثناة المهموزة. قال صاحب تاج العروس فى مادة (ع و ر): والعائر من السهام مالايدرى راميه وكذا من الحجارة . . . والجمع العوائر].

(٥) فى المسعودىّ: أعتق ما أملك. ولكن س ٱنفرد بجعل الضمير للغائب على سبيل الحكاية لئلا تقع اليمين على المتكلم أو القارئ. فوردت فيه العبارة هكذا: "عتق ما يملك". وعلى ذلك جرىٰ كثير من الكتّاب. وذلك من باب التشدد فى التأثم والتحرج. وإذا كان ناقل الكفر ليس بكافر، فكيف يقع فى اليمين من يروى مجرد كلام لغيره؟ ولعلهم أرادوا عدم جريان اللسان بمثل هذه الأَيمان

أمير المؤمنين أَلْهَانِي حتّى غمر فكرى وغطّى علىٰ قلبى، فما شعرتُ بشئ حتّى نبّهنى أمير المؤمنين. فقال له معاوية: لقد ظلمك مَن جعلك فى ألف من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكُماةِ أهل صِفّينَ! [1] فأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاده فى عطائه ألف درهم، وجعله بين جلده وثوبه. [2]

فلئن كان يزيد بن شجرة خدع معاويةَ فى هذه، فمعاويةُ ممن لا يُخادَع ولا يُجارَىٰ. [3] ولئن كان بلغ من بلادة يزيد بن شجرة وقلة حِسّه ماوصف به نفسه، ماكان بجدير بخمسمائة ألف وزيادة ألف فى عطائه. وما أظنّ ذلك خَفِىَ عن معاوية، ولكنه تغافل علىٰ معرفةٍ، لمّا وفّاه حقّ رياسته. [4]

[ويروى عن معاوية أنه كان يقول: "السَّرْوُ التغافُلُ" [5]]

---

(١) صـ : حماة.

(٢) روى هذه القصة فى "تنبيه الملوك" بألفاظ الجاحظ (ص ٢٩)، ورواها صاحب "محاسن الملوك" باختصار (ص ٢٠)، وأوردها صاحب "المحاسن والمساوى" بالحرف الواحد (ص ٤٩٥ — ٤٩٦).

(٣) صـ : يجارى.

(٤) نقل المسعودىّ هذه الحكاية أيضا عن الجاحظ، ولم يسمّه كما جرت عادته. ولكنه حينما اضطُرّ لنقل فكره وتقديره عند قوله "فلئن كان يزيد بن شجرة ....."، لم يجد بُدًّا من الإشارة اليه بطريق الوصف والتعميم، فقال: "قال بعض أهل المعرفة والأدب ممن صنف الكتب فى هذا المعنى وغيره" ثم نقل العبارة الثانية برمتها أيضا، مع تغيير قليل فى الألفاظ أو فى مواضعها. (مروج الذهب جزء ٦ ص ١٢٨ — ١٣٠)

(٥) هذه الجملة من زيادات صـ. | ومعنى السَّرو السخاءُ فى مروءة. فيكون المراد من هذه المقولة أن التظاهر بالغفلة هو من دلائل السخاء الممزوج بالمروءة. وسترد هذه المقولة أيضا فى صفحة ١٠٣ من هذا الكتاب |.

(ماوقع لابي بكر الهذلي حينما حادثه السفاح) (٤٦)

وكذلك حُكِيَ عن أبي بكر الهُذَلِيِّ(١) أنه بينا هو يسامر أبا العباس إذ تحدّث أبوالعباس بحديثٍ من أحاديث الفُرس. فعصفتِ الريح، فأذْرتْ طَسًّا(٢) من سطح إلىٰ مجلس أبي العباس، فآرتاع ومَن حضره. ولم يتحرّك أبو بكر لذلك، ولم تزل عينه متطلعةً لعين أبي العباس. فقال له: ماأعجبَ شأنَك، ياهُذَلِيُّ! لم تُرَعْ مما راعنا! قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: "مَاجَعَلَ ٱللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ". وإنما للمرء قلبٌ واحدٌ. فلما غمره السرور بفائدة(٣) أمير المؤمنين، لم يكن فيه لحادثٍ مَجالٌ. وإنّ الله، إذا آنفرد بكرامة أحدٍ وأحبَّ أن يبقىٰ له ذكرُها، جعل تلك الكرامة علىٰ لسان نبيّه أو خليفته. وهذه كرامةٌ خُصِصْتُ بها، مال إليها ذهني وشُغِلَ بها فكرى. فلو آنقلبت الخضراء علىٰ الغبراء(٤)، ماحَسَستُ بها ولا وَجَمْتُ(٥) لها إلّا بما يلزمني في نفسي

---

(١) إسمه سليمان بن عبد الله (الأعلاق النفيسة لآبن رُسته ص ٢١٣). وهو من مشاهير أهل البصرة وكان من أخص جلساء أبي العباس السفاح، وله بحضرته مناظرة بديعة فى تفضيل البصرة على الكوفة وأهلها وكان مناظره آبنَ عياش المتوف (الآتى ذكره فى متن الكتاب وحاشيته فى الصفحة التالية) أوردها آبن الفقيه فى كتاب البُلدان (ص ١٦٧ — ١٧٣ وتكلتها فى ص ١٩٠). وهو من الضعفاء فى الحديث، ومات سنة ٦٧ (شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٣).

(٢) أى أوقعت الريح طستا. وفى صـ: "فأوردت طستا"، وقد رواها صاحب "مطالع البدور" (ج ١ ص ١٩٢). والذى فى المسعوديّ: "فأذرتْ ترابا وقطعا من الآجُرّ من أعلى السطح إلى المجلس". وآنظر "شذرات الذهب" (ج ١ ص ٢١٧). وقد روى الراغب الاصفهانى فى "محاضراته" (ج ١ ص ١١٧) واقعة أخرى شبيهة بهذه من كل الوجوه، فقال: كان أبوالقاسم الكعبي المتكلم فى مجلس أمير خراسان فسقط من السطح طستٌ فتزلزلت منه عَرْصة الدار. فلم يلتفت أبو القاسم عن الأمير. فقال الأمير لايصلح لوزارتى إلا هو.

(٣) فى المسعودى: "بمحادثة".

(٤) صـ: البيضاء.

(٥) صـ: توجهت.

لأمير المؤمنين. فقال أبو العباس: لئن بقيتُ لك، لأرفعنّ منك ضَبُعًا[(١)] لا تطيف به السباع ولا تحطُّ عليه العِقْبان.[(٢)]

(كلمة ابن عياش المتوف)

وكان [عبد الله] بن عَيّاش المتوف[(٣)] يقول: لم يتقرب العامة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البِطانة بمثل حُسن الاستماع.[(٤)]

---

(١) الضَّبُع (بضم الباء) العضد. والجملة هنا كناية، بمعنى لا نُوهِّنَنَّ باسمك. (أنظر القاموس وأساس البلاغة). وفي المسعودي: "صعبا". [وهو تحريف ظاهر].

(٢) أورد المسعودي هذه القصة بتبديل في الألفاظ وزيادة ونقصان (مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ ـ ١٢٣). وأوردها صاحب "محاسن الملوك" باختصار (ص ٢٠). ونقلها بتحريف يسير صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٦).

(٣) هو من رجالات المنصور العبّاسي، وكان من النسّابين. ويعرف بالمتوف لأنه كان ينتف لحيته. (ابن قتيبة في كتاب "المعارف" ص ٦٨). ذكره ابن الأثير في حوادث سنتي ١٤٧ و ١٥٨.
ركب المنصور معه يوما، فقال له: تعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين، قتلت ثلاثة خوارجَ مبدأُ أسمائهم على العين؟ قال: لا أعرف إلا ما يقول العامّة إن عليًّا قتل عثمان (وكذبوا)، وعبد الملك قتل عبد الرحمن بن الأشعث، وعبد الله بن عليّ سقط عليه البيت. [وكان المنصور، واسمه عبد الله بن محمد، سجن عبد الله بن عليّ هذا في بيت أساسه ملح، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات.] فقال المنصور: إذا سقط عليه، فما ذنبي، أنا؟ قال: ما قلتُ إنّ لك ذنبا. وقد روى المسعودي هذه المحادثة بتفصيل أوفى (ج ٦ ص ٢١٧ ـ ٢١٨)، وساقها الراغب الإصفهاني في محاضراته بألطف سياق (ج ٢ ص ٢٠٥).
وفي صبح الأعشى (ج ١ ص ٢٦٥): ملكان إسلاميّان أوّل اسم كلّ واحدٍ منهما عينٌ، قَتَلَ كلُّ واحدٍ منهما ثلاثة ملوك أوّل اسم كل واحدٍ منهم عينٌ. أحدهما عبد الملك بن مروان، قتل عمرو بن سعيد، وعبد الله ابن الزُّبير، وعبد الرحمن بن محمد الأشعث. والثاني أبو جعفر المنصور (واسمه عبد الله) قتل أبا مسلم الخراسانيّ (واسمه عبد الرحمن)، وعمّه عبد الرحمن بن عليّ، وعبد الجبار بن عبد الرحمن والي خُراسان. [وانظر ص ١١٤ من هذا الكتاب].

(٤) نقلها المسعودي (ج ٦ ص ١٢٣ ـ ١٢٤).

(كلمة روح بن زنباع)

٤٧ وكان [أبو زُرْعة] رَوْح بن زِنْبَاع [بن رَوح بن سلامة الجُذَامى] يقول: إن أردتَ أن يُمَكِّنَكَ المَلك من أُذنه، فأَمْكِنْ أُذُنَكَ من الإصغاء إليه إذا حدّث.(١)(٢)

(كلمة أسماء بن خارجة الفزارى)

وكان أسماء بن خارجة [الفَزَارِىُّ](٣) يقول: ما غلبنى أحدٌ قطُّ غلبةَ رجُلٍ يصغى إلىٰ حديثى.(٢)

(كلمة معاوية)

وكان معاوية يقول: يُغْلَبُ المَلكُ حتّى يُركَب بشيئين: بالحلم عند سَوْرته، والإصغاء إلىٰ حديثه.(٢)

---

(١) قال فى "تاج العروس" إن كل من سمى "رَوْح" من المحدّثين فهو بالفتح، إلا رُوح بن القاسم، فانه بالضم. ورَوْح بن زنباع الجُذَامىّ من رجالات بنى أُمية. كان فى سنة ٦٤ واليا على فلسطين للخليفة مرْوان بن الحكَم، فوثب عليه بابل بن قيس الجُذَامى فأخرجه، وبايع لأبن الزبير حين قيامه بالخلافة فى الحجاز. ثم عاد رَوْح واليا عليها، بعد أن ألقىٰ خطابة جذب بها الناس لبيعة مرْوان بن الحكَم دون عبدالله بن عمر بن الخطاب ودون عبدالله بن الزبير. (أُنظرها فى آبن الأثير فى حوادث سنة ٦٤). ولذلك صار من أجلّ الناس عنده وعند آبنه عبد الملك بن مرْوان. وكان جليسه وأنيسه ونديمه وسميره ومشيره حتى قال الخليفة فيه إنه جمع ثلاث خصال لم تجتمع فى غيره: فقه الحجاز، فى دهاء أهل العراق، فى طاعة أهل الشأم. (العقد الفريد ج ١ ص ٩ و ٢٠٧ وأسد الغابة). وقد وقعت له مع هذا الخليفة ومع زوجته الأعرابية حكاية ظريفة أوردها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١٩). [وآنظر صفحة ١١٣ و ١١٧ و ١٣٠ من هذا الكتاب].

ثم صار مشيراً للوليد بن عبد الملك. ومع ما كان عليه من الفضل والدهاء والذكاء، فقد وقعت له حكاية ظريفة مضحكة أثناء وجوده بالكوفة مع بِشْر أخى عبدالملك بن مرْوان واليا. أوردها فى "مروج الذهب" (ج ٥ ص ٢٥٤ ــ ٢٥٨ ــ وفى المستطرف ج ٢ ص ١١٢)

(٢) نقلها المسعودى (ج ٦ ص ١٢٣ ــ ١٢٤).

(٣) أسماء بن خارجة هو آبن حصن بن حُذيفة بن بدر. كان سيد بنى فزارة، وكان من أسخياء الكوفة. مات سنة ٩٦. وله ترجمة فى "فوات الوفيات" (ج ١ ص ١٤). ولم يل أسماء بن خارجة شيأ للسلطان (العقد الفريد ج ١ ص ٥١)

❖

آداب أهل الزلفى بعد المضاحكة

ومن أخلاق الملك، إذا قرب إنسانا أو أَنِسَ به حتّى يهازله ويضاحكه ثم دخل عليه بعدُ، أنْ يدخل دخولَ مَن لم يجرِ بينهما أُنْسٌ قَطُّ وأن يُظهر من الإجلال له والتعظيم والاستخذاء(١) أكثر مما كان عليه قبلُ. فإنّ أخلاق الملوك ليست على نظامٍ.

❖

تنكر أخلاق الملوك

ومن أخلاقهم أن لا تكون أخلاقهم معروفة فيُتمَثَّلُ عليها ويُعامَلون بها.

ألا ترى أنّ الملك قد يغضب على الرجُل من حُمَاتِه، والرجُل من حامّته وبطانته: إما لجنايةٍ في صُلب مالٍ، أو لخيانةٍ حُرمةِ المَلِك، فيؤخّر عقوبته دهرا طويلا، ثم لا يُظهِر له مايُوحِشُه حتى يتّقِيَ ذلك في اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك.

وليست هذه أخلاق سائر الناس، إذ كنا نعلم أن طبائعَ الناس الانتصارُ في أول أوقات الجنايات وعند أول بوادر الغضب.

(٤٨)

صبر الملوك على مضض الحقد حتى تحين الفرصة

فأما الملوك وأبناؤهم، فليست تُقاس أخلاقهم ولا يُعايَرُ(٢) عليها. إذ كان أحدهم يضع أعدى خَلق الله له بين أُذُنه وعاتقه، وبين سَحْرِه ونَحْرِه(٣). فتطول بذلك المدّة وتمرّ به الأزمنة، وهو(٤) لو قتله في أول حادثة تكون وعند أول عثرة يعثُرُ لم يكن

---

(١) الخضوع والانقياد. وفي "الأغاني": "أنت تخضع لهذا، هذا الخضوع وتستخذي له؟" (ج٧ ص١٨٣)

(٢) صـ: تعامل.

(٣) السَّحْر (بالفتح) هو الرئة. والمراد به هنا مايحاذيه، وهو الصدر. قالت عائشة (رضي الله عنها): "مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين سحري ونحري." تعني بين صدرها ونحرها. والمقصود شدة الاقتراب والالتزاق، كما تقول أيضا: بين سمعه وبصره. (عن تاج العروس)

(٤) صـ: وهوله. سـ: ويقولون.

بين هذه القِتلة وبين الأُخرىٰ بعدها بعشرين سنة فرقٌ. إذ كان لا يخاف ثأرا، ولا في المُلك وَهْنًا.

(معاقبة أنوشروان لمن خانه في حريمه)

وفيما يُذكَر عن سيرة أنوشِرْوان أنّ رجُلا من خاصّ خَدَمه جنىٰ جناية ٱطّلع عليها أنوشروان، والرجُل غافلٌ عنه. وكانت عقوبة تلك الجناية توجب القتل في الشريعة. فلم يدرِ كيف يقتله: لا هو وَجَدَ أمرًا ظاهرًا يَقْتُلُ بمثله الحُكّامُ فيسفِك به دمَه، ولا قدر علىٰ كشف ذَنْبه لما في ذلك من الوَهْن علىٰ المَلِك والمملكة، ولا وجد لنفسه عذرا في قتله غِيلةً، إذ لم يكن ذلك في شرائع دينهم ووِراثة سَلَفهم. فدعا به بعد جنايته بسَنَةٍ فٱستخلاه وقال: قد حزبنى أمرٌ[1] من أسرار مَلِك الروم، وبى حاجة إلىٰ أن أعلمها، وما أجدُنى أسكُنُ إلىٰ أحد سُكونى إليك، إذ حللتَ من قلبى المحلّ الذى أنت به. وقد رأيتُ أن أدفع إليك مالاً لتحمِل إلىٰ هناك تجارةً وتدخلَ بلاد الرُّوم [٤٩] فتقيم بها لتجارتك. فإذا بِعْتَ ما معك، حملتَ مما في بلادهم من تجاراتهم وأقبلتَ إلىّ. وفي خِلال ذلك تُصْغِى إلىٰ أخبارهم وتطّلِع طِلْعَ[2] ما بنا حاجةٌ إليه من أمورهم وأسرارهم.

فقال الرجُل: أفعَلُ أيها الملك، وأرجو أن أبلُغَ في ذلك محبة المَلِك ورضاه.

فأمر له بمالٍ، وتجهز الرجُل وخرج بتجارة. فأقام ببلاد الروم حتّى باع وٱشترىٰ ولَقِنَ[3] من كلامهم ولغتهم ما عرف به مخاطبتهم وبعض أسرار مَلِكهم[4]. ثم ٱنصرف إلىٰ

(١) حَزَبَه الأمر ٱشتدّ عليه وأصابه منه غمٌّ.

(٢) أى: وتعلم سرّ أمرهم الذى نحن في حاجة إلى معرفته.

(٣) أى فَهِمَ وحَفِظَ بسرعة.

(٤) صـ: أسرارهم.

أنوشروان بذلك. فآستبشر بقدومه وزاد فى برّه، وردّه إلى بلادهم وأمره بطول المُقام بها والتربُّص بتجارته. ففعل حتّى عُرف وآستفاض ذِكره. فلم تزل تلك حاله ستَّ سنين. حتّى إذا كان فى السنة السابعة، أمر الملك أن تُصوَّر صورةُ الرجُل فى جامٍ من جاماته التى يَشْرَبُ فيها، وتُجعلَ صورتُهُ بإزاء صورة المَلك، ويُجعل حاطبًا (٥٠) لِلَك ومشيرًا إليه من بين أهل مملكته، ويُدنى رأسَه من رأس المَلك فى الصورة كأنه يُسِرُّ إليه(١). ثم وَهَبَ ذلك الجام لبعض خدمه، وقال له: "إن الملوك ترغب فى هذا الجام. فإنْ أردتَ بيعه، فآدفعه إلى فلان إذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته. فإنه إن باعه من المَلك نفسِه، نفعك، وإنْ لم يُمْكِنْه بيعه من الملك باعه من وزيره أو من بعض حاشيته." فجاء غلام الملك بالجام ليلاً، وقد وضع الرجُل رِجْله فى غَرْزِ(٢) ركابه، فسأله أن يبيع جامه من الملك، وأن يَتَّخِذَ بذلك عنده يدًا. وكان الملك يقدّم ذلك الغلام، وكان من خاصّ غلمانه وصاحبَ شرابه. فأجابه إلى ذلك، وأمره بدفع الجام إلى صاحب خِزانته، وقال: "احفظْه! فإذا صرتُ إلى باب الملك، فليكن فيما أعرضه عليه." فلما صار إلى ملك الروم، دفع صاحب الخِزانة إليه الجامَ فعزله فيما يَعرض على الملك. فلما وقع الجام فى يَدَىِ الملك، نظر إليه ونظر إلى صورة أنوشروان فيه وإلى صورة الرجل وتركيبه: عُضوًا عُضوًا وجارحةً جارحةً. فقال: "أخبِرْنى، هل يُصوَّر (٥١) مع الملك صورةُ رجُلٍ خسيس الأصل؟ قال: لا. قال: فهل يُصوَّر فى آنية الملك صورةٌ لا أصلَ لها ولا علّة؟ قال: لا. قال: فهل فى دار الملك آثنان يتشابهان

(١) صح : يسارّه .

(٢) الغرز هو الركاب من جلد مخروز .

فى صورةٍ واحدةٍ حتّى يكون هذا كأنّه هذا فى الصورة، وكلاهما نديمَا المَلك؟ قال: لا أعرفه. فقال: قم! فقام. فتأمّله قائما، فوجد صورته قائما فى الجام. ثم قال: أَدْبِرْ! فأَدْبَر، فتأمّل صورته فى الجام مُدْبِرًا. ثم قال: أَقْبِلْ! فأَقْبَلَ. فتأمّل صورته فى الجام مقبلاً. فوجدها بحكاية واحدة وتخطيط واحد. فضحك الملك ولم يجترئ الرجُل أنْ يسأله عن سبب ضحكه، إجلالاً له وإعظامًا. فقال ملك الروم: الشاةُ أعقل من الإنسان إذ كانت تأخذ مُدْيتها[(١)] فتدفنها[(٢)]، وأنت أهديْتَ إلينا مُديتك بيدك! ثم قال له: تغدّيتَ؟ قال: لا. قال: قرّبوا له طعاما. فقال الرجُل: أيها الملك! أنا عبد ذليل، والعبد لا يأكل بحضرة الملك. فقال: أنت عبدٌ ما كنتَ عند ملك الروم متطلّعا على أُموره (٥٢) متتبعا لأسراره، بل أنت مَلِكٌ ونديمُ ملكٍ إذا قدِمتَ بلاد فارس. أطعِموه! فأُطعِمَ وسُقِىَ الخمرَ حتّى إذا ثَمِل، قال: إنّ من سُنن ملوكنا أنْ تقتل الجواسيس فى أعلى موضع تقدر عليه، وأنْ لا تقتله جائعًا ولا عطشانَ. فأمر أنْ يُصعد به إلى صَرحٍ كان يُشرِف منه على كلّ مَن فى المدينة، إذا صَعِد. فضُربتْ عنقُه هناك، وأُلقِيتْ جثّتُه من ذلك الصّرح، ونُصِبَ رأسه للناس.

فلما بلغ ذلك كسرى، أمر صاحب الحرس أن يأمر المغرِّد[(٣)] بصوت الحراسة — إذا ضَرَبَ بأجراس الذهب — أنْ يقول، إذا مرّ على دور نساء المَلك وجواريه:

---

(١) سه: تجى.

(٢) روى المقريزىّ عن ابن عبد الظاهر "أنّ خادما رأى من مُشرِف عالٍ ذبّاحا، وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكّينه ومضى ليقضى حاجته. فأتى رأسُ الغنم الآخر وأخذ السكّينَ بفمه ورماها فى البالوعة. فجاء الجزّار يطوف على السكّين، فلم يجدها. وأما الخادم، فإنه استصرخ وخلّصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر، فأمروا بعمله جامعا" (الخطط ج ٢ ص ٢٩٣). وهذا الجامع هو المعروف اليوم بجامع الفاكهانى.

(٣) سه: يأمر بالعود يضرب.

”كُلُّ نفسٍ وجب عليها القتلُ ففى الأرض تُقتل، إلّا من تعرّض لحُرَمِ المَلِك فإنه يُقتل فى السماء.“

فلم يدرِ أحدٌ من أهل مملكته ماذا أراد بذلك حتّى مات.(١)

فليس فى الأرض نفسٌ تصبر علىٰ مَضَض الحِقد ومطاولة الأيام بها(٢) صبرَ الملوك.

ولذلك بطل القياس علىٰ أخلاقهم، ووُجِّهَتْ آراء ذوى الحِجا والتمييز فى العمل عليها والمقابلة بها حتّى تخرج علىٰ وزنٍ واحدٍ وبنظمٍ مؤتلف.

(٥٣) (نكبة عبد الملك بن مروان بمن نازعه الملك)

وكذلك يُحكىٰ عن عبد الملك بن مَرْوَان وعمرو بن سعيد الأشدق(٣)، أنه أقام

---

(١) روى صاحب ”تنبيه الملوك“ هذه القصة عن الجاحظ (ص ٣٠ ــ ٣٤)، وهى واردة بالحرف فى ”المحاسن والأضداد“ (ص ٢٧٧ ــ ٢٨٠)

(٢) الضمير يعود إلى النفس.

(٣) فى ”الاشتقاق“ لابن دُرَيْد (ص ٤٩) مانصه: عمرو بن سعيد بن العاص يعرف بالأشدق، وهو الذى يلقب بلطيم الشيطان. لما بلغ خبره إلى ابن الزبير (وهو مطالب بالخلافة فى مكة) صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أبا ذِبَّان قتل لطيم الشيطان ”وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظَّالمِينَ بعضًا بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ“.

قتله عبد الملك بن مروان فى خطب طويل ذكره المؤرخون بالتفصيل، مثل المسعودى (ج ٥ ص ١٩٨ و ٢٣٤ــ٢٣٩)، وابن الأثير (فى حوادث سنة ٦٩). لكن حكاية ابن الأثير لاتدل على تردد عبد الملك فى شأنه بضع سنين كما يصرّح به الجاحظ، وهو الحق. كان الرجل ذا شهامة وفصاحة وبلاغة وإقدام، وكبرياء وعظمة لا نهاية لها. سعى فى حمل الناس على مبايعة مروان، بعد أن اتفق معه على أن يجعله ولىّ عهده بعد خالد بن يزيد. فلما تم الأمر لمروان، نقض الشرط وجعل الخلافة لابنه عبد الملك، على أن يكون خالد وعمرو وليَّى عهده بعده. ولكن عبد الملك تخلص من خالد بأيسر سبب، وحَزَبَهُ أمر عمرو وهو يصابره. وكان بينه وبين عبد الملك مكاتبات ومحادثات بشأن الخلافة. كتب إليه عبد الملك: ”إنك لَتُطمع نفسك بالخلافة، ولستَ لها بأهلٍ“! فأجابه عمرو: ”إِستدراج النعم إياك أفادك البغىَ، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة. زجرتَ عما وافقت عليه، وندبتَ الى ماتركتَ سبيله. ولو كان ضعف الإنسان يؤيس الطالب، ما انتقل سلطان ولاذلّ عزيز. وعن قريب يتبيّن من صريعُ بغىٍ وأسيرُ غفلة“. قال فى المستطرف =

بضع سنين يُزاول قتله. فمرّةً يرجئه، وأخرى يَهُمّ به، ومرّةً يُحجِم، وأخرى يُقدِم، حتّى قتله، على أخبث حالاته.

(نكبة الرشيد بالبرامكة)

وحدّثنى قُثَم بن جعفر بن سليمان،[٢] قال: حدّثنى مسرور[٣] الخادم: قال: أشهد بالله! لكُنْتُ من الرشيد وهو متعلّقٌ بأستار الكعبة بحيث يَمَسّ ثوبى ثوبَه،[٤] وهو يقول فى مناجاته ربَّه: "اللهم! إنى أستخيرك فى قتل جعفر بن يحيى." ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ستّ.[٥]

⁂

مراعاة حرم الملك

ومن حقّ الملك أن لا يَرفعَ أحدٌ من خاصّته و بطانته رأسَه إلى حُرْمَةٍ له، صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ. فكم من فيلٍ قد وطئ هامةَ عظيم وبطنَه حتى بدت أمعاؤه، وكم من

= (ج ٢ ص ٤٤) إنه سُمّى بالأشدق لأنه كان مائل الشدق. وأنظر التفاصيل فى المواطن التى نبهنا عليها. [وأنظر الأقوال الأخرى التى رواها الجاحظ فى سبب تسميته بالأشدق وأنه كان خطيبا مفوّها "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ وأنظر أيضا ص ١٨٤ — ١٨٥ منه].

(١) سه: يراود.

(٢) هو قُثَم بن جعفر بن سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس. كان عاملاً على المدينة، وأميراً على البصرة. وله فيها مجالسُ علمٍ وأدب. (أنظر البلاذرىّ والأغانى فى فهارسهما)

(٣) فى الأصل: "حسين". ولا نعلم أن للرشيد خادماً خاصا بهذا الاسم. ولذلك أبدلناه بخادمه المشهور وهو: "مسرور". يؤيد ذلك أيضا رواية "تنبيه الملوك والمكايد" الواردة فى الحاشية رقم ٥ من هذه الصفحة.

(٤) سه: مع.

(٥) فى "تنبيه الملوك والمكايد" ما نصه: "كان الرشيد أدهى الناس وأكتمهم لسرّه. ومما يدلّ على ذلك ما حدّث به مسرورٌ خادمه، قال: كنتُ مع الرشيد فى بعض سِنِي حجّه، فسمعتُه وقد ألتزم المُستجار من الكعبة وهو يلتفت يمينًا وشمالًا، وكنتُ بين أستار الكعبة لم يرنى وهو يقول: "اللّهم إنى أستخيرك فى قتل جعفر بن يحيى!" مرارًا كثيرةً. فلما سمعتُه، طار عقلى وخشيتُ أن يفطن بى، فيكون ذلك سبب هلاكى. فأقبلتُ أتعوّذ، ولم أزل أحتال حتى أنسللتُ من الأستار. قال أبو هاشم مسرورٌ الخادم: فكان بين الوقت الذى أستخار الله فيه فى قتل جعفر بن يحيى و بين قتله سبعُ سنين". (صفحة ١٩٧ — ١٩٨)

شريف وعزيز قوم قد مزّقته السباع وتمشّشته(١)؛ وكم من جارية كانت كريمة على قومها عزيزة فى ناديها قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء؛ وكم من جُمْجُمة كانت تُصان وتُعَلّ(٢) بالمسك والبان(٣) قد أُلقيت(٤) بالعراء، وغُيّبت جُثّتها فى الثرى بسبب الحُرَم والنساء، والخَدَم، والأولياء! ولم يأتِ الشيطان أحدًا من باب قطّ حتى يراه بحيث (٥٤) يَهْوِى(٥) منقسم اللحم والأعضاء، هو أبلغ فى مكيدته وأحرى أن يرى فيه أُمْنيّته من هذا الباب، إذ كان من ألطف مكايده وأدقّ وساوسه وأحلى تزيينه(٦)!

(١) أى مَصَّت عظمه. وفى س: "تمزقته السباع وتمشمشته". وفى ص: "تمزقته السباع وتمششته". وفى "المحاسن والأضداد": ونهشته.

(٢) أى تُطيَّب مرة بعد أخرى بالمسك الخ، عَلَّه بالحناء يَعِله و يعُله "الكامل للمبرد". والعليلة المرأة المطيبة طيبا بعد طيب "قاموس". وفى ص: تعلى. وفى نسخ "المحاسن والأضداد": تغل، تعل، تفدا. [وأنظر صفحة ١٥٥ من هذا الكتاب والحاشية ١ و ٢ منها]

(٣) يطلق العرب اسم البان على شجرتين مختلفتين. فالأولى هى المسماة أيضا بشجرة الخِلاف، وهى التى يهيم بها الشعراء ويشبهون قوام المحبوب بقضبانها. وهى كثيرة بمصر. والخلاف نوع من الصفصاف (Saule) أو هو غيره. و يطلقون اسم الخلاف فى مصر على زهرة مما يُشَمّ رطبا ويُستقطر مثل الورد والنسرين والنيلوفر (نهاية الأرب، فى الباب الأول من القسم الأول من الفن الرابع؛ وحسن المحاضرة). وفى "صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩٣" أن البان والخلاف من الفواكه المشمومة وأنهما نوعان.

أما اسم هذا البان عند علماء النبات فهو Salix Egyptiaca. والشجرة الثانية هى التى عناها الجاحظ. تشبه الأثل ولها ثمر كأنه الجوز فيه حبّ كالفستق، ومنه يستخرجون الدهن المشهور بدهن البان أو بالبان فقط. وهذا الثمر يسمى بالشوع أيضا. ودهنه يدخل فى تركيب نفائس الطيب والأعطار والغوالى. وتوجد شجرته ببلاد العرب. واسمه العلمى (Guilandina moringa) واسمه العامى المشهور عند الفرنج (Ben) مأخوذ عن العربية. (راجع ابن البيطار وترجمته إلى الفرنسية فى الكلمات التى ذكرناها)

(٤) ص: نبذت.

(٥) من باب ضرب بمعنى يسقط.

(٦) فى نسخ "المحاسن والأضداد" (ص٢٧٣ – ٢٧٤) أجلّ تزايينه، أجلّ بوائقه.

فعلى الحكيم المحبّ لبقاء هذا النسيم الدقيق، وهذا الماء الرقيق،(١) أنْ يطلب دوامَهما لنفسه بكل حيلة يجد إليها سبيلا، ويدفعَ مقارفتهما(٢) لكل شئ يقع فيه التأويلُ بين أمرين من سلامة تُنجى أو عَطَبٍ(٣) يُتْلف، ولا يتّكل على خيانة خَفِيَتْ أو بَخْرَة حَظِى بها أحدٌ من أهل السَّفَه والبَطالة. فإنّ تلك لا تُسمّى(٤) سلامة، بل إنما هى حسرة وندامة، يومَ القيامة. وكم من فَعْلة قد ظُهِرَ عليها بعد مرور الأيام وطول الأزمنة بها، فَرَدَّتْ(٥) من كان قد أحسنَ بها الظنَّ حتّى تركتْه كأمس الذاهب،(٦) كأنْ لم يكن فى العالَم!

✦ ✦ ✦

إغضاء البصر بحضرة الملك

ومن حقّ الملك – إذا أَنِسَ بإنسانٍ حتّى يُضاحكه ويُمازله ويُفضِى إليه بسرّه ويَخُصَّه دون أهله، ثم دخل على الملك داخلٌ أو زاره زائرٌ – أنْ لا يرفعَ إليه طَرْفه، إعظاما وإكراما، وتبجيلا وتوقيرا، ولا يضحكَ لضَحِك المَلك ولا يعجب لعَجَبه. [٥٥] وليكنْ غرضُه الإطراقَ والصمتَ وقلّةَ الحركة.

---

(١) يُكنّى بالنسيم الدقيق عن النَّفَس، وبالماء الرقيق عن الدم.

(٢) سـ : مقارفتهما بكل. صـ : مقارفتها بكل. [وربما كان الأصوب ما وضعناه فى متن الكتاب: "ويدفع مقارفتهما لكل شئ الخ" أى يحول دون ارتكابهما لأىّ أمرٍ تكون عاقبته مشكوكا فيها بين السلامة والهلاك]. قال فى تاج العروس: "قارفه مقارفةً وقرافا: قاربه. ولا تكون المقارفة إلا فى الأشياء الدنيّة."

(٣) صـ : غضب.

(٤) سـ : تسمى.

(٥) الفعل هنا هو ردّى مثل أردى، بمعنى أهلك. وفى صـ : فأوردت.

(٦) أمس الذاهب، وأمس الدابر، وخبر كان: كلّها بمعنى واحد. (أُنظر لسان العرب فى د ب ر)

⁂

غض الصوت بحضرة الملك

ومن حق المَلِك أنْ لا يرفع أحدٌ صوتَه بحضرته. لأن من تعظيم المَلِك وتبجيله خَفْضَ الأصوات بحضرته، إذ كان ذلك أكثرَ في بهائه وعزِّه وسلطانه.

تأديب الله للصحابة

وبهذا أدّب الله أصحاب رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فقال عزّ من قائل: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ." فأَخْبَرَ أنّ مَن رفع صوته فوق صوت النبيّ فقد آذاه، ومَن آذاه فقد آذى الله، ومَن آذى الله فقد حَبِط عمله.

وكان قومٌ من سفهاء بني تميم أَتَوُا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: يا محمد! اُخْرُجْ إلينا نُكَلِّمْكَ. فغَمَّ ذلك رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) وساءه ما ظهر من سُوء أدبهم، فأنزل الله عز وجل: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ."(1)

ثم أثنى على مَن غضّ صوته بحضرة رسوله، فقال جل اسمه: "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى."(2)

(٥٦)

فمِن تعظيم المَلِك وتبجيله خفضُ الأصوات بحضرته، وإذا قام عن مجلسه: حتى لا يدخُل المُلكَ وَهْنٌ ولا خَلَلٌ ولا تقصيرٌ، في صغيرِ أمرٍ ولا جليله.

⁂

حرمة مجلس الملك في غيبته

وكانت ملوك الأعاجم تقول: إنّ حُرْمَةَ مجلس الملك إذا غاب كحُرْمته إذا حضر.

---

(١) أُنظر قصة هذا الوفد في كتب السيرة النبوية، وفي "صبح الأعشى" (ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٦). وفي "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣٩).

(٢) أُنظر "محاضرات الراغب" (ج ١ ص ١١٧).

الرقباء على مجالس ملوك العجم عند غيابهم

وكان لها عيون(١) على مجالسها، إذا غابت عنها. فمَن حضرها، فكان فى كلامه وإشارته وقلّة حركته وحُسن ألفاظه وأدبه ـ حتّى أنفاسه ـ على مثل ما يكون إذا حضر الملك، سُمِّىَ ذا وجهٍ. ومَن خالف أخلاقه وشِيَمَه وظهر منه خلاف ما يظهره بحضرة المَلك، سُمِّىَ ذا وجهين، وكان عند المَلك منقوصا مُتَصَنِّعا(٢).

مواطن المكافآت

ومن أخلاق الملك أن يخلع على مَن أدخل عليه سرورًا، إمّا فى خاصّة نفسه وإمّا فى توكيد مُلكه. فإنْ كان السرور لنفسه فى نفسه، فمن حقّه على الملك أن يخلع عليه خِلعة فى قرار داره، وبحضرة بِطانته وخاصّته. وإن كان فى توكيد مُلكه، فمن حقّه أن يخلع عليه بحضرة العامّة، ليَنشُر له بذلك الذكر ويُحَسِّنَ به الأُحدوثةَ وتَصْلُحَ عليه النيّات، ويَستدعى بذلك الرغبة إلى توكيد المُلك وتسديد أركانه. (٥٧)

بيان المكافآت وخصوصها وعمومها

وليس من العدل أن يُفرَدَ المُحسِنُ بخلعة فقط، إلّا أن تكون الخلعة على شُرب أو لَهْوٍ. فأما إذا كانت لأحدِ المَعنَيَيْن اللذَيْن قدمنا ذكرهما، فمن العدل أن يكون معها جائزةٌ وصِلَةٌ وترتيبٌ، أو ولاية أو إقطاع أو إجراء أرزاق أو فكّ أسير أو حمل حَمالات أو قضاء دَيْن أو إحسان، كائنًا ما كان، مضافًا إليها وموصولًا بها.

(١) أى رقباء.

(٢) صـ : مقصيا. [وعلى فرض صحة هذا الحرف فالواجب أن تكون صيغته هنا "مُقَصًّى" إذ لا يقال "مقصيا" فى اسم المفعول. وانظر القاموس وشرحه فى مادة ق ص و]

باب
فى صفة ندماء الملك

صفة خلق النديم

ينبغى أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة، معتدل الأخلاط، سليم الجوارح والأخلاق، لا الصفراء تقلقه وتكثر حركته، ولا الرطوبة والبلغم يقهره ويكثر بوله وبزقه وتثاؤبه ويطيل نومه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره وتكثر أمانيّه وتفسد مزاجه. فأمّا الدموىّ (١)، فليس يدخل فى هذه الأقسام المذمومة، إذ كان بالبدن إليه (٢) حاجة كحاجته إلىٰ تركيبه وسلامته.

✣

(٥٨)

آداب النديم فى المزاملة، وعلومه.

ومن حقّ الملك - إذا زامله بعض بطانته - أن يكون عارفا بمنازل الطريق وقطع المسافة، دليلا بهدايته وأعلامه ومياهه (٣)، قليلَ التثاؤُب والنُّعاس، قليلَ السُّعال والعُطاس، معتدلَ المِزاج، صحيح البِنْيَة، طيِّبَ المُفاكهة والمُحادثة، قصير المياومة والملايلة (٤)، عالما بأيّام الناس ومكارم أخلاقهم، عالما بالنادر من الشعر والسائر من المثل، متطرِّفا (٥) من كلّ فنّ، آخذا من الخير والشر بنصيب. إنْ ذكَرَ الآخرة ونعيمَ أهل الجنّة، حدّثه بما أعدّ الله تعالىٰ لأهل طاعته من الثواب، فرغّبه فيما عنده؛ وإنْ ذكر النار، حذّره ما قرّب إليها. فزهّده مرّةً، ورغّبه أُخرىٰ. فإنّ بالملك أعظم

(١) صـ : الدين.

(٢) الضمير يعود إلى "الدم" المفهوم من قوله "الدموى".

(٣) صـ : ومناره.

(٤) صـ : قصير الملالة.

(٥) صـ : متصرفا.

الحاجة إلىٰ مَن كانت هذه صفاته وبالْحَرَا(١) إذا أصاب هذا، أنْ لايفارقه إلّا عن أمرٍ تنقطع به العصمة وتجب به النقمة(٢).

⁂

عدّة الملك فى خروجه لسفر أو نزهة

ومن حقِّ الملك، إذا خرج لسفرٍ أو نُزهةٍ، أنْ لايفارقه خِلَعٌ للكساء، وأموالٌ للصِّلات، وسِياطٌ للأدب، وقيودٌ للعُصاة، وسلاحٌ للأعداء، وحُماةٌ يكونون من ورائه وبين يديه، ومُؤْنِسٌ يُفضى إليه بسرّه، وعالمٌ يسأله عن حوادث أمره وسُنّة شريعته، ومُلْهٍ يُقَصِّر ليله ويُكْثِرُ فوائده. (٥٩)

وعلىٰ هذا كانت ملوك الأعاجم، أوّلُها وآخِرُها.

وأيضا فإنّ ملوك العرب، لم تزل تمتثل هذا وتفعله.

خلال الندماء

ولندماء الملك وبِطانته خِلالٌ يُساوُون فيها المَلك ضرورةً. ليس فيها نقص علىٰ المَلك، ولا ضَعةٌ فى المُلك. منها: اللِّعبُ بالكُرَة، وطلب الصيْد، والرَّمْىُ فى الأغراض، واللّعب بالشِّطْرَنج، وما أشبه ذلك.

مساواة الملك لملاعبه

ومن الحقّ علىٰ الملك أنْ لا يمنع ملاعبه ما يجب له من طلب النَّصَفَة فى هذه الأقسام التى عَدَدْنا.

حق الملاعب على الملك

ومن حقِ المُلاعِب له المُشاحّةُ والمُكالَبة والمُساواة والممانعة(٣) وتركُ الإغضاء والأخذُ

(١) فى "القاموس": "الحَرَا الخليق. ومنه: بالحَرَا أن يكون ذلك. "وفى "الصحاح": ويحدّث الرجُلُ الرجل فيقول: بالحرىٰ أن يكون. [والمعنىٰ هنا أن الملك اذا أصاب رجلا توفّرت فيه هذه الصفات فالأحرى والأجدر والاخلق به أن لايفارقه إلا فى الحالة التى نص عليها المؤلف.]

(٢) س: "التهمة".

(٣) ص: المعانقة.

من الحقّ بأقصى حدوده، غير أنّ ذلك لا يكون معه بَذَاءٌ ولا كلامُ رَفَثٍ ولا معارضةٌ بما يُزيل حقّ المَلِك ولا صياحٌ يعلو كلامه ولا نخيرٌ(١) ولا قذفٌ ولا ما هو خارج عن ميزان العدل.

(٦٠)
ملاعبة سابور على أمر مجهول

وفيما يُحكى عن سابور أنه لاعب تِرْبًا، كان له بالشِّطْرَنْج إِمْرَةٌ مُطاعَةٌ(٢). فقمره تِرْبُه. فقال له سابور: ما إِمْرَتُك؟ فقال: أركبك حتى أخرج بك إلى باب العامة. فقال له سابور: بئس موضع الدالّة وضعتَك، فَرِدْ غيرَ هذا. فقال: بهذا جرى لفظي. فأَسِف لذلك سابور وقام فدعا ببرقع، فتبرقع. ثم جثا لتِربه، فامتنع أن يعلو ظهر الملك، إجلالًا له وإعظامًا. فنادى سابور بعد ذلك بسَنَةٍ في الرعيّة: لا يلعبنّ أحدٌ لُعبةً على حُكْمٍ غائبٍ، فمن فعل قَدَمُه هَدَرٌ(٣).

فأما إذا كانت المُشاحّة على طلب الحق في هذه الأقسام التي ذكرنا بمعارضةِ شعرٍ، وتوبيخٍ في مَثَلٍ ونادرٍ من الكلام، وإخبارٍ عن سوء لَعِبِ اللاعب وتأنيبٍ له، فهذا مما يُخاطَب به المَلِك ويُعارَض فيه. فأما إذا خرج عن هذا، فدخل في باب الجُرْأة كما فعل تِرْبُ سابور، فإنّه خطأٌ من فاعله وجهلٌ من قائله وجُرْأةٌ على ملكه. وليس للرعية الجُرْأة على الراعي.

✦ ✦ ✦

(٦١)
آداب الملاعبة بالكرة وغيرها

ومن حق الرجُل على المَلِك، إذا ضرب معه بالكرة، أن يتقدم بدابّته على دابّة

(١) النخير: مدّ الصوت في الخياشيم. (قاموس)

(٢) أي أنّ هذا التِّرْب كانت عادته وديدنه أن لا يلعب الشطرنج إلا على إمرة مطاعة. والإمرة المطاعة هي الأحكام.

(٣) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة باختصار. (ص ٧٨)

الملك، وصَوْلجانه على صولجان الملك، وأن يعمل جُهده فى أن لا يُبْخَس حظّه ولا يَفْتُر[١] فى مسابقةٍ ولا مراكضةٍ ولا ٱلتقافِ كرةٍ ولا سبقٍ إلى حدّ ونهاية وما أشبه ذلك.

وكذلك القول فى الرِّماية فى الأغراض وطلب الصيد ولعب الشِّطْرَنْج.

لعبة الشطرنج بحضرة عبدالله ابن طاهر

سمعت محمد بن الحسن بن مُصْعَب[٢] يقول: "كان لى صديق من بنى مَخْزُوم، وكان لاعبا بالشِّطرنج. فذكرتُه لأبى العباس عبد الله بن طاهر، فقال: أحضِره. فقلت للمخزومىّ: تهيأْ للقاء أبى العباس. وكان متصرفًا كثيرَ الأدب. فغدوتُ به، فدخل. فلما وقعت عين أبى العباس عليه، وقف. فرآه من بعيدٍ، ثم ٱنصرف من غير أن يُكلِّمه. فقال: هذا رجُلٌ من أهل الأدب، فٱغْدُ به ولاعِبْه الشِّطْرَنْجَ بحضرتى

(١) صـ: ولا يعين.

(٢) إضطرب ٱسمُ الأب فى كثير من كتب التاريخ والأدب. فورد فى سـ: "الحسين" وكذلك فى كامل ٱبن الأثير طبع أوربة ومصر وفى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٧. وورد فى صـ: "الحسن" وكذلك فى الأغانى وفى سـ فى موضع آخر [أى فى صفحة ١٥٠ من هذا الكتاب]. أما الطبرىّ فأورد الأسمين، وفرّق بينهما صاحبُ فهرسته بجعل "محمد بن الحسين" راويا. ولا أدرى من أين له هذه التفرقة، فإن متن الطبرىّ لا يفيدها. والظاهر عندى أنهما شخص واحد.

أوّلا — لأن محمد بن الحسين بن مصعب لم يرد فى الأغانى مطلقا، ولو كان راويا — كما زعم صاحب فهرست الطبرىّ — لكان من الراجح وقوع ٱسمه فى كتاب الأغانى؛

ثانيا — لأن ٱبن الأثير ذكر محمد بن الحسين بن مصعب (فى حوادث سنة ١٩٨) ثم وصفه بأنه ابن عمّ طاهر ذى اليمينين الذى فتح بغداد بٱسم المأمون. ومعلومٌ أن طاهرًا هذا هو ٱبن الحسين بن مصعب بلا خلاف. فيكون صاحبنا الذى أشار إليه الجاحظ هو محمد بن الحسن بن مصعب، وإلا لكان عمّه. ومحمد بن الحسن بن مصعب هذا هو الذى أرسله طاهر إلى المأمون بخراسان برأس الأمين بعد قتله ببغداد. فهو من عصبة عبد الله بن طاهر الذى وقعت الحكاية فى مجلسه. وقد كان بصيرا بالغناء والنَّغَم، وكان من المُلَحِّنين. وذلك لأن أبا الفرج الإصفهانى يقول إن الرجل نشأ بخراسان، وينعته بلقب الأمير. (ٱبن الأثير ج ٦ ص ٢٠١ و ٣٥٦) و(الأغانى ج ٥ ص ٣٨ و ٥٣ و ١٠٢ وج ٩ ص ٦٢ وج ١٤ ص ٩١)

حتّى أبوره[1] وعابَه حتّى يخرج إلىٰ باب الهزل والشتيمة[2]. فلما قعدنا، دارت لى عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها، وأنا الغلام البُوشَنْجِىُّ[3]! وهو ساكتٌ. ثم دارتْ لى عليه ضربةٌ أخرىٰ، فقلتُ: خذها، وأنا مَولَى مَخْزُوم! فسكتَ. ثم دارت عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها يا آبن مخزوم، فى خِرِمّ مخزوم[4]! فسكت. وآستُؤذِن لرجلٍ من آل عبد الملك (٦٢) آبن صالح، وكان خاصًّا بأبى العباس، فأمر بالإذن له. فلما دخل الهاشمىّ وقعد، قال [لى] المخزومىّ: ليس فيك موضع شرف ولا عزّ، فأُفاخِرُك! أنت بوشنجىٌّ ثمَنُ دانق! ولكنْ قُلْ لهذا الهاشمىّ يفاخرنى حتّى ينظر ما يكون حاله. فأمّا أنت، فمَنْ أنت حتّى أُفاخرك؟ فضحك أبو العباس حتّى فَحَص برِجْلَيْه[5]، وأمر له بخمسمائة دينار وقرّبه وآنسه.

✦ ✦ ✦

آداب الندماء اذا أخذت الملك سنة من النوم

ومن أخلاق الملك، إذا غَلَبَتْه عيناه، أن ينهض مَن حضره من صغيرٍ أو كبيرٍ، بحركةٍ لَيِّنَة خفيفة، حتّى يتوارىٰ عن قرار مجلسه، ويكون بحيث يقرُب منه إذا آنتبه. ولا يقولَنَّ إنسانٌ فى نفسه: لعلَّ الملك إنْ هبّ من سِنَتِه لا يسألُ عنّى، أو لعلَّهُ أن يمتدّ به النوم أو يعرِضَ له شُغْلٌ. فإنَّ هذا من أكبر الخطإ.

وقد قَتَل بعضُ الملوك رجُلا فى هذه الصفة.

---

(١) البَوْر الاختبار والامتحان كالابتيار. قال فى نقائض جرير والفرزدق (ص ٣٥٤): "وهذا كلّه آبتيارٌ منه للناس ليدعوهم إلى خلعه".

(٢) يظن بعض الجهلة أن هذا اللفظ ليس بعربىّ، لأن بعض المتحذلقين مالوا إلى الشتم لفظا ومعنى، دون أن يتفطنوا إلى الفرق بين الاسم والمصدر. والقاموس وشرحه وكل متون اللغة والجاحظ وأمثاله شهودٌ عدولٌ. وآنظر أيضا شرح القاموس فى مادة هـ ز ل فقد صرح بأنهم اشتقوا الشتيمة من الشتم [وآنظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٦]

(٣) إشارة إلى نشأته بمدينة بُوشَنْج من خراسان.

(٤) كلمة مركبة تركيبا إضافيا من كلمتين. وحُذف حرف الألف من الثانية. والمعنى ظاهر. وهو شتيمة. ويضارع ذلك فى حذف الألف، قول العرب: "لَابَ لك" أى لا أب لك، وقولهم: "ويلُمّه" (أنظر تاج العروس فى مادة و ى ل). [وآنظر صفحة ١٣٥ من هذا الكتاب].

(٥) أى ضرب الأرض برجليه كثيرا حتى كأنه يبحث فيها.

وليس من الحزم أن يجعل الحكيم للملك على نفسه طريقا، وهو وإنْ سَلِمَ من عَذْلِ الملك ولائمته لكَرَم المَلك وشِيمَته، قَدَحَ ذلك فى نفس المَلك واضطغن عليه. وبالحَرى أنْ لا يَسْلَمَ من عَذْلٍ وتأْنيبٍ[1].

✣

إمامة الملك للصلاة ٦٣

ومن حقِّ الملك ـ إذا حضرتِ الصَّلاة ـ فالملك أَوْلى بالإمامة[2]، لخصالٍ: منها ـ أنه الإمامُ، والرعيَّـةُ مأمومةٌ؛ ومنها ـ أنه المولى، وهم العبيد؛ ومنها ـ أنه أَوْلى بالصلاة فى قرار داره وموطئ بِساطه، ولو حضر مجلسَه أزهدُ الخلق وأعلمُهم.

فإذا قام للصـلاة، فمن حقِّه أنْ يكون بينه وبين من يصلِّى خلفه عشرةُ أذرع، وأنْ لا يتقدَّمَه أحدٌ بتكبيرٍ ولا بركوعٍ ولا سجودٍ ولا قيامٍ.

وهذا، وإن كان يجب لكلِّ مَن أَمَّ قوما من صغيرٍ أو كبيرٍ أو شريفٍ أو وضيعٍ، فهو للملك أوجبُ.

فإذا سلَّم الملك، فمن حقِّه أنْ يقوم كلُّ مَن صلَّى خلفه قائمـا. فإنهم لا يدرون أيريد تنفُّلا[3] أو دخولا أو قعودًا فى مجلسه.

فإن قام لنافلة، فليس من حقِّه أن يتنفَّلوا. لأنهم لا يدرون لَعَلَّه أنْ يسبِقَهم أو يقطعَ صَلاتَهُ لِحَدَثٍ، فيكون يحتاج إلى أن يسبقهم، وهم قِيامٌ يُصَـلُّون بإزائه، وهو قاعدٌ. ولكن من حقِّه أن يكونوا بحالهم حتّى يعلَموا ما الذى يفعل. فإنْ قعـد، انحرفوا إلى حيثُ لا يراهم، فَصَلَّوْا نوافلهم. وإن دخل فى الصلاة، صلَّوْا على مكاناتهم[4].

---

(١) أنبه تأنيبا: عنفه ولامه. (حاشية فى صـ)

(٢) صـ: بالإقامة.

(٣) فى سـ: "تنقلا" بالقاف، ولكن بقية السياق تدل على أنه بالفاء.

(٤) المكانة المنزلة عند ملِك. (قاموس). وقد وردت هـذه الآداب بزيادة واختصار فى "محاسن الملوك" (ص ٧٨)

✦

آداب مسايرة الملك (٦٤)

وقد قلنا إنّ من حقّ المَلك أنْ لا يبتدئَهُ أحدٌ بمُسايرةٍ. وإنْ طلب ذلك منه من يستحِقّ المُسايرة، فالذى يُجزئهُ من ذلك أن يقف بحيث يراه ويتصدّى له. فإنْ أومأ إليه، سايره، وإنْ أمسكَ عن الإيماء، عَلِم أن إمساكه هو تركُ الإذْن له فى مسايرته.

ومن حقّه، إذا سايره أن لا يَمَسّ ثوبُه ثوبَ الملك، ولا يُدْنىَ دابّتَه من دابّتِه، ويتوخّى أنْ يكون رأسُ دابّته بإزاء سَرْج المَلك، غيرَ أنّه لا يُكلفه أن يلتفت إليه. ولا ينبغى له أن يبتدئه بكلام.

وإنْ كان لا يثق بِلِينِ عِنان دابّته حتّى يصرفه كيف شاء ومتى شاء، فالرأىُ له أنْ لا يسايره. فإنّ فى مسايرته وَصْمَةً عليه وعلىٰ المَلك. أمّا عليه، فإنه يحتاج إلىٰ حركة متواترة يُتعِب بها نفسه ودابّته، ويَخرُج بها عن حدّ أهل الأدب والمروءة والشرف. ولعلّه فى خلال ذلك أيضا أنْ لا يبلُغ ما يريد. وأمّا علىٰ المَلك، فإنه وَهْنٌ فى المملكة. لأنّ المَلك، إنْ طلب الصبر عليه وعلىٰ سير دابّته، كان إنما يسير عند ذلك بسيره. وليس فى آيين[1] المملكة أن يسير الأعظم بسيْرِ مَن هو دونه.

سنة أكابر العجم عند تهيئهم للساير (٦٥)

ولذلك كانت رؤساء الأكاسرة والأساورة والدّبيربذ[2] وموبذان مُوبذ[3] ومن أشبه هؤلاء من خاصّة المَلك، إذا همّ الملك بالمسير فى نُزْهةٍ أو لبعض أُموره، عرضوا دوابّهم

(١) أنظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ و ٢٣ و ٣٠ و ٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) كلمة فارسية تفسيرها حافظ الكتاب (التنبيه والإشراف للمسعودى ص ١٠٤). والمقصود من الكتاب الكتاب المقدس عند المجوس. وربما كان الصواب فى هذا المقام: "دبير يد" من كلمتين الأولى فارسية والثانية عربية بمعنى "كاتب اليد". ذلك لأنى لم أعثر فى معجمات اللغة الفارسية على تفسير يوافق ما ذهب إليه المسعودى. اللهم إلا أن تكون الكلمة محرفة وتحتاج إلى التثقيف. [وأنظر صفحة ١٦٠ و١٧٣ من هذا الكتاب].

(٣) أما الموبذ فهو القاضى، وموبذان موبذ هو قاضى القضاة. وموبذ من ألفاظ الفهلوية، وهى اللغة الفارسية القديمة ومعناها القاضى (مروج الذهب جزء ٦ ص ٣٧٥).

علىٰ راضة المَلِك وصاحب دوابّه. وكان كلُّ واحدٍ منهم لا يأمَنُ أن يدعُوَ به المَلِك للمسايرة والمحادثة، فيحتاج إلىٰ معاناة دابّته لبلادةٍ أو كثرةِ نفورٍ أو عِثار أو جِماحٍ. فيكون علىٰ الملك من ذلك بعضُ مايكره. وكان الرائض يمتحِنُ دابّةً دابّةً من دوابِّ هؤلاء العظماء. فما آختار منها رُكِبَ، وما نفىٰ أُرْجِئَ.

وأيضا إنّ من حقِّ الملك، إذا سايره واحدٌ، أنْ لا تَرُوثَ دابّتُه ولا تبُول ولا تحصَّن[1] ولا تتشغّب، ولا يطلب المحاذاةَ لسير دابّة الملك، وإن أراد ذلك منعه راكبه.

ما حصل للموبذ أثناء مسايرته لقباذ.

وفيما يُحكىٰ عن ملوك الأعاجم أن قُباذ[2]، بينَا هو يسير والمُوبذ يسايره، إذ راثت دابّة المُوبذ وفطِن لذلك قباذ. فآغتمّ المُوبذ بذلك، فقال له فى كلام بينهما: ما أوّل مايُستدلّ به علىٰ سُخْف الرجل، أيها الموبذ؟ فقال: أنْ يعلِف دابّته فى الليلة التى يركب فى صبيحتها الملكُ. فضحك قُباذ حتّى آفترّ عن نواجذه. وقال: لله أنتَ! ماأحسنَ ماضمّنتَ كلامك بفعل دابّتك! وبحقٍّ ماقدمك الملوك وجعلوا أزِمّة أحكامهم فى يدك! ووقف ثم دعا بدابّة من خاصّ مراكبه، فقال له: تحوّل عن ظهر هذا الجانى عليك إلىٰ ظهر هذا الطائع لك.[3] (٦٦)

---

(١) تحصَّنَ الفَرَسُ صار حصانا أى إذا تكلّف ذلك. ولعلّ المعنىٰ أنّ الفَرَس تثب على الدابّة التى تكون قُدّامها كما يفعل الفحل. لئلا يحدث مثل ماوقع لسلطان مصر قايتباى إذ ركب فى محرم سنة ٨٧٦ ومعه الأتابكىّ أزبك (منشئ الأزبكية) متوجهيْن من القاهرة إلى شيبين القناطر. ففى أثناء الطريق شبّ فرس الأتابكىّ على فرس السلطان ورفسه. فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان فآنكسرت، فنزل بشيبين وهو فى غاية الألم. واستحضر السلطان محفّة من القاهرة ليعود عليها. (وآنظر التفصيل فى آبن إياس ج ٢ ص ١٢٨)

(٢) معرّب قباد. وفى كتاب "برهان قاطع" أنه بنىٰ مدينتى حُلوان وكازرون. وأقول إن حُلوان هذه هى غيرالتى بالقرب من القاهرة. وعن ياقوت أنها كانت أكبر مدينة فى العراق بعد الكوفة والبصرة وبغداد وسُرَّ مَنْ رأى. [وآنظر صفحة ١٠٥ من هذا الكتاب].

(٣) رواها فى "محاسن الملوك" بآختصار. (ص ٨٢ — ٨٣)، ورواها بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٦ — ٤٩٧).

ما حصل لشرحبيل أثناء مسايرته لمعاوية

وهكذا يُحكىٰ عن معاويةَ بن أبى سفيان أنه بينَا هو يسير وشُرَحْبِيل بن السِّمْطِ[١] يسايره، إذْ راثت دابّة شُرَحْبِيل، وكان عظيم الهامَة بسيط القامَة. ففطِن معاوية بروْث الدابّة، وساء ذلك شُرَحْبِيل. فقال معاوية: يا أبا يزيد! إنه يقال إن الهامة إذا عظُمتْ، دلّتْ علىٰ وُفور الدماغ وصحّة العقل. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلّا هامتى فإنها عظيمة، وعقلى ضعيفٌ ناقصٌ. فتبسّم معاوية، وقال: كيف ذلك، ولله أنت! قال: لإطعامى هذا النائلَ أُمّه[٢] البارحة مَكُّوكَىْ شعير. فضحك معاوية، وقال: أَفْحَشْتَ، وما كنتَ فاحشًا![٣] وحمله علىٰ دابّة من مراكبه.

(١) هو أبو السمح الكندىّ. كان من رجالات معاوية وأركان دولته، وكان يستشيره فى جلال الأمور ويعوّل عليه فى حلّ المشكلات الجسام. وقد أرسله مع عمرو بن العاص لملاقاة أبى موسىٰ الأشعرىّ فى قضية التحكيم. وكان من قوّاد الجيوش ومن صناديد الفرسان المعدودين، وآشترك فى رياسة الجيوش التى فتحت العراق والقادسية وبيسان وأجنادين. وقد طلب من علىّ عليه السلام أن يدفع إليهم قَتَلة عثمان بن عفّان إن لم يكن هو القاتلَ. وهو الذى فتح حِمْص ثم تولّاها لمعاوية، وهو الذى قسم منازلها بين أهلها. ومما يحسن ذكره للتعريف بجلاله فى نفسه وقومه أنه آعتزل مع ولده بنى معاوية حينما أطبقوا على منع الصدَقة، وقالا لهم: "إنه لقبيح بالحرار [الأحرار] التنقل. إن الكرام ليُلَزَمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا الى أوضح منها، مخافة العار. فكيف الآنتقال من الأمر الحسن الجميل والحق، إلى الباطل والقبيح؟ اللهم إنا لا نمالئ قومنا على ذلك!" توفى سنة ٤٠ أو سنة ٤٢. (ابن الأثير ج ٢ ص ٢٩١ و ٣٤٨ و ٣٧٤ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٤٩٤ وج ٣ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٩٧ و ٣٣٨، والآشتقاق لابن دُرَيْد ص ٢١٨، وتاج العروس فى باب الباء وفى باب اللام)

(٢) اقتديتُ فى هذا الموضع بما فعله فى صفحة ٧٩ طابع كتاب طراز المجالس للشهاب الخفاجىّ فى المطبعة الوهبية بالقاهرة. [وآنظر صفحة ١٣١ من هذا الكتاب].

(٣) رواها بآختصار فى "محاسن الملوك". (ص ٨٣)، وفى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٧).

تحذير ٦٧

فليتنكّبْ مَن يساير الملوك ما يَقذِى أعينهم بكل جُهده. فإنّ لمسايرتهم شروطا يجب علىٰ مَن طلبها أن يستعملها و يتحفّظ فيها. وقلّما حظِىَ أحدٌ بمسايرة مَلك حتّى يكون قبلها مقدّماتٌ يجب بها الحُظْوَة.

تطير العجم من مسايرة الملك المتصلة

فأما نفس المسايرة للملك المُتَّصِلة، فإن الأعاجم كلها كانت تتطيّرُ منها وتكرهها. وأيضا فإن المَلِك لم يكن يثابر علىٰ مسايرةِ أحدٍ من بِطانته بعينه، لمّا كان يعلم من طِيَرتهم من ذلك وكراهتهم له.

ما حصل من صاحب الشرطة وهو يسير بين يدى الهادى

ويقال إن سعيد بن سَلْمٍ[1]، بينا هو يساير موسىٰ أمير المؤمنين، وعبدُ الله بن

---

(١) هو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلىّ . كان بمنزلة عظيمة من الهادى ومن الرشيد بعده، وكان يركب معه فى قبة واحدة . وقد استعمله الرشيد على الموصل، ثم على الجزيرة، ثم على أرمينية . فخرج الخزر عليه فهزموه وفعلوا الأفاعيل المنكرة التى لم يسمع بمثلها الناس . فأرسل الرشيد رجلين فأصلحا ما أفسده . ثم ولاه مَرْعَش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا، ولم يتحرك سعيد من موضعه . وكان ذلك سنة ١٩١ .

قال سعيد إن أعرابيا مدحه ببيتين لم يسمع أحسن منهما :

أيا ساريًا بالليل، لا تخشَ ضِلّةً! ※ سعيدُ بن سَلْمٍ ضوءُ كلِّ بلادِ.
لنا مُقرَمٌ أربىٰ علىٰ كلِّ مُقرَمٍ، ※ جوادٌ حَثَا فى وجه كل جواد.

فأغفل صلته فهجاه ببيتين لم يسمع أهجىٰ منهما :

لكلِّ أخى مدحٍ ثوابٌ عَلِمْتُهُ، ※ وليس لمدح الباهلىّ ثوابُ.
مدحتُ ابن سَلْمٍ، والمديحُ مَهَزَّةٌ، ※ فكان كصَفْوانٍ عليه ترابُ.

(ابن الأثير ج ٦ ص ٧١ و ٨١ و ١٠٥ و ١١١ و ١١٢ و ١٤١؛ و"الأغانى" ج ١٧ ص ٣٢ وج ٢١ ص ٢٣٤؛ و"عيون الأنباء" ج ١ ص ١٥٤؛ و"أمالى القالى" ج ٢ ص ٢٧)

مالك[1] [الخزاعىّ] أمامه، والحربة[2] فى يده، فكانت الريح تسفى التراب الذى تثيره دابة عبد الله فى وجه موسى، وعبدُ الله لا يشعر بذلك، وموسى يحيد عن سَنَن التراب. وعبد الله فى خلال ذلك يلحظ موسى وموضعه، فيطلب أن يحاذيه. فإذا حاذاه، ناله من ذلك التراب ما يؤذيه. حتى إذا كثر ذلك من عبد الله، ونال موسى أذى ذلك التراب، قال لسعيد: أما ترى ما نلقى من هذا الخائن[3] فى مسيرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين! والله ما قصَّر فى الاجتهاد، ولكنه حُرِم حظَّ التوفيق[4].

ما قاله عبد الله بن الحسن للسفاح

وفيما يُذكر عن عبد الله بن حسن[5] أنه بينا هو يساير أبا العباس [السفاح] بظاهر مدينة

(١) كان صاحب الشُّرطة فى أيام المهدىّ فالهادى فالرشيد. وكان من أكابر القوّاد وتولّى أرمينية وأذربيجان. له مع الهادى حكاية ظريفة ذكرها ابن الأثير (ج ٦ ص ٧٠ و ٧١). وكان بينه وبين يحيى بن خالد البرمكى عداوة وتحاسد، وانتهت بتصالحهما على يد أحد المزوِّرين من حيث لا يعلمان ولا يعلم (ساقها فى المحاسن والمساوى ص ٤١٥ — ٤١٦). وفيه يقول أحد الشعراء فى شكاة اشتكاها:

ظلّت علىّ الأرض مُظلمةً ✽ إذ قيل: عبدُ الله قد وُعِكا.

ياليت ما بك بى، وإن تلفتْ ✽ نفسى لذاك! وقلّ ذاك لكا!

(انظر ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ و ٦٨ و ١٢٥ و ١٣٤ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٥ و ١٥٣ و ١٥٤ وانظر الأغانى ج ٥ ص ٥ وج ٨ ص ١٠٥ وج ١٦ ص ١٦٧). [وانظر صفحة ٩٢ من هذا الكتاب].

(٢) يستفاد من كلام الجاحظ هنا مضافاً إليه كلام ابن الأثير (فى ج ٦ ص ٦٥ وفى ج ٧ ص ٧٦) أن من شعار الخليفة وولىّ عهده أن يسير قائد بحربة بين يدى كلّ منهما.

(٣) كذا فى س، ص، وفى العقد الفريد وفى المحاسن والمساوى. ولعلّ الأصل: "المائق".

(٤) نقل ابن عبد ربه هذه الحكاية باختصار فى مقدّمتها ولم يُشر إلى مصدرها. (العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٦) ونقلها بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٧)

(٥) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب. وله أخبار ووقائع كثيرة مع السفّاح والمنصور. لأن السفّاح اجتهد فى ترضّيه حتى لا يطالب بالخلافة. وكذلك فعل المنصور. ولكنّ ولديه محمدًا النفس الزكية وإبراهيم خرجا على المنصور. (انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٤ والأغانى ج ١٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٩ والطبرى والكامل للمبرّد بمقتضى فهارسهما).

(٦٨) الأنبار وهو ينظر إلىٰ بناء قد بناه، فقال أبو العباس له: هاتِ ما عندك، يا أبا محمد! (وهو يستطعمه الحديثَ بالأُنْس منه)(١) فأنشده:

أَلَمْ تَرَ مالِكًا لَمَا تَبَنّى ✻ بناءً نفعُه لبني بُقَيْلَهْ؟
يُرَجّي أَنْ يعمَّر عُمْرَ نُوحٍ، ✻ وأَمْرُ الله يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَهْ!

فتبسَّم أبو العباس كالمُغْضَب، وقال: لو علمنا، لاشترطنا حقَّ المسايرة! فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين، بوادرُ الخواطر وإغفالُ المشايخ! قال: صدقتَ، خُذْ في غير هذا.(٢)

ماقاله الهاشمىّ لأبي مسلم الخراسانىّ

وذكر المدائنيُّ أن عيسىٰ بن موسىٰ(٣)، بينا هو يساير أبا مُسلِم(٤) عند مُنصَرَفه

---

(١) سـ: يستفهمه.

(٢) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة (ص ٨٣ و ٨٤)، ورواها أيضا صاحب الأغانى (جزء ١٨ ص ٢٠٦) باختصار، وأورد البيت الأوّل هكذا:

ألم تر حوشبا أمسى يبنى ✻ بناء نفعه لبنى نفيله

ونفيلة تصحيف فى المحاسن وفى الأغانى، إذ لم يرد فى أسمائهم؛ والذى ورد من هذه المادة إنما هو نُفَيْل. وأما بقيلة فهو الاسم الصحيح الوارد فى متون اللغة وكتب التاريخ. قال ابن دُريد: "ومنهم (أى من العرب) بنو سُنَيْن وهم بالحيرة منهم بُقَيْلة صاحب القصر الذى يقال له قصر بنى بُقَيْلة بالحيرة. منهم عبد المسيح بن عمرو بن حيّان ابن بُقيلة الذى صالح خالد بن الوليد على الحيرة، وكان من المعمَّرين وهو الذى بعث به كسرى أبرويز إلى سطيح بالشام فى رؤيا الموبذان، وله حديث." وفى حاشيته مانصه: "فى معجم الشعراء للمرزبانى رحمه الله: عبد المسيح بن بُقَيْلة الغسّانىّ هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة. وبُقَيْلة اسمه ثعلبة بن سُنَيْن ويُقال الحارث. وسمى بقيلة لأنه خرج فى بُرْدَيْن أخضرين، فقيل له: ياحارث! ما أنت إلا بقيلة خضراء. فغلبتْ عليه. (الاشتقاق ص ٢٨٥؛ وراجع الطبرىّ وابن الأثير فى فهارسهما؛ وتاج العروس فى ب ق ل. ون ف ل؛ والمسعودىّ ج ١ ص ٢١٧–٢٢٢ وج ٢ ص ٢٢٨؛ وكتاب البُلدان لليعقوبىّ ص ٣٠٩). وقد أورد هذه الحكاية صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٤) وجاء فى النسخة المطبوعة: "نفيلة" بالنون والفاء. وهو غلط أيضا من الناسخ أو الطابع. وأوردها أيضا فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٨)، ولم يغلط طابعه فى "بقيلة".

(٣) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله الهاشمى (راجع فهارس ابن الأثير والأغانى).

(٤) هو أبو مُسلم الخراسانىّ صاحب الدعوة العباسية بخراسان. [وانظر ص ١٧٦ من هذا الكتاب وحاشية ٣ منها].

إلىٰ أبي جعفر فى اليوم الذى قُتل فيه، إذ أنشد عيسىٰ:

سيأتيك ما أفنىٰ القرونَ التى مضتْ، * وما حلَّ فى أكناف عادٍ وجُرْهُمِ،
ومَن كان أنأىٰ[1] منك عِزًّا ومَفْخَرًا، * وأنْهَدَ[2] بالجيش اللُّهامِ العَرَمْرَمِ.

فقال أبو مسلم: هـذا مع الأمان الذى أُعْطِيتُ؟ قال عيسىٰ: أعتِقُ ما أملِكُ إنْ كان هذا لشئٍ من أمرِك! وما هو إلّا خاطرٌ أبداه لسانى. قال: فبئس الخاطرُ (٦٩) واللهِ إذَنْ[3]!

+ + +

عدم تسمية الملك أو تكنيته

ومن حقّ المَلِك أنْ لا يُسمَّى ولا يُكَنَّى فى جِدٍّ ولا هَزْلٍ ولا أُنسٍ ولا غيرِه.

ولولا أنّ القدماء من الشعراء كَنَّتِ المُلوكَ وسَمَّتْهم فى أشعارها وأجازتْ ذلك وآصطلحتْ عليه، ما كان جزاءُ مَن كَنَّى مَلِكًا أو خليفةً إلا العقوبةَ. علىٰ أن ملوك آل ساسان لم يُكَنِّها أحدٌ من رعاياها قَطُّ ولا سمَّاها فى شِعرٍ ولا خُطبةٍ ولا تقريظٍ ولا غيرِه. وإنما حدث هذا فى ملوك الحِيرة[4].

---

(١) صـ: أدنى.

(٢) كثير النهود أو النهوض بأمر الجيش والقيام بأعبائه.

(٣) نقلها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٨).

(٤) أطنب ياقوت فى وصف هذه المدينة وأحوالها وأساطيرها فى الجاهلية، ولم يذكر لنا شيئاً عنها فى أيام عظمتها علىٰ عهد الإسلام. وإنما آستفدنا منه أنها بقرب النَّجَف. ولذلك رأينا أن نثبت هنا ماجاء عنها فى الأغانى (ج ٨ ص ١٢٥) ليعرف القارئ مكانتها التى دخلت الآن فى خبر كان. قال:

«كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة فى أيام بنى أُمية. فقال له رجل من أهلها، وكان عاقلا ظريفا:

ــ أتعيب بلدة بها يُضرب المثل فى الجاهلية والإسلام؟

ــ وبماذا تُمدَح؟ =

والدليل على ذلك أنه لو سمّى أحدٌ من الخطباء والشعراء فى كلامه المنثور مَلِكًا

ـ بصحة هوائها، وطيب مائها، ونزهة ظاهرها. تصلح للخفّ والظلف. سهل وجبل، وبادية وبستان، وبرّ وبحر، محلّ الملوك ومزارهم، ومسكنهم ومثواهم. وقد قدمتَها ـ أصلحك الله ـ مُخِفًّا فرجعت مثقَلًا، ووردتَها مُقِلًّا فأصارتك مُكثرًا.

ـ فكيف نعرف ماوصفتها به من الفضل؟

ـ بأن تصير إلىّ، ثم أدع ماشئت من لذّات العيش، فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه!

ـ فاصنع لنا صنيعا [Une partie de plaisir]، واخرُجْ من قولك.

ـ أفعـلُ!

فصنع لهم طعاما، وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صِيد من وحشها: من ظباء، ونعام وأرانب وحُبارَى. وسقاهم ماءها فى قلالها، وخمرها فى آنيتها. وأجلسهم على رُقُوها، وكان يُتّخذ بها من الفراش أشياء ظريفة. ولم يستخدم لهم حرًّا ولا عبدًا إلّا من مولَّديها ومولَّداتها، من خدم ووصائف كأنهم اللؤلؤ، لغتهم لغة أهلها. ثم غناهم حُنَيْنٌ وأصحابه فى شعر عَدِىّ بن زيد، شاعرهم، وأعشى هَمْدان لم يجاوزها. وحيّاهم برياحينها. ونقّلهم على خمرها ـ وقد شربوا ـ بفواكهها. ثم قال:

ـ هل رأيتنى استعنتُ على شىء، مما رأيتَ وأكلتَ وشربتَ وافترشتَ وشممتَ وسمعتَ، بغير ما فى الحيرة؟

ـ لا، والله! ولقد أحسنتَ صفة بلدك، ونصرتَه فأحسنتَ نصرتَه والخروجَ مما تضمّنته. فبارك الله لكم فى بلدكم!»

وكان ابن شُبْرُمَة يقول: "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنتين". (كتاب البلدان للهمدانى ص ٢٦٢). وعن أهلها أخذت قريش الزندقة فى الجاهلية، والكتابةَ فى فجر الإسلام (الأعلاق النفيسة لابن رُسْتَه ص ١٩٢ و ٢١٧).

وكانت عمارة الكوفة سببا لخراب الحيرة. وقد أتى على الكوفة الزمان، وكذلك الأمر فى واسط وسُرّ مَنْ رأى. وأنت عليم بما صارت إليه البصرة وبغداد. وهذه الستة هى أكبر أمصار العراق فى عهد الخلافتين. وناهيك بها من أمصار رفعت للحضارة أعلى منار! فسبحان من بيده ملكوت الأرض والسماء! يتصرف بالبلاد والعباد كما شاء!

أو خليفةً وهو يُخاطبه بآسمه، كان جاهلا ضعيفا خارجا من باب الأدب. ولولا أن الأصطلاح(١) منعنا إيجابَ المنع من ذلك، كان من أول ما يجب(٢).

ولا أدرى لِمَ فعل القدماء ذلك، كما أنى لا أدرى لِمَ أجازته ملوكُها ورضِيَتْ به، إذ كانت صفة الملوك ترتفع عن كل شئ وترقَّى عنه(٣).

وكانت الجفاة من العرب بسوء أدبها وغِلَظ تركيبها ــ إذا أتَوُا النبي (صلَّى الله عليه وسلم) ــ خاطبوه ودَعَوْه بآسمه وكُنْيَتِه. فأمّا أصحابه، فكانت مخاطبتهم إياه: "يارسول الله!" و"يانبيَّ الله!" ٧٠

---

(١) صــ: "الاضطلاع" وبجانبها "الاصطلاح". وفى ســ: الاصلاح.

(٢) سبق الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى تقرير هذه القاعدة. فهو أوّل من منع الناس أن ينادوه بآسمه. (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر). ولكن يظهر أن ذلك الأمر تراخى بتطاول العهد، فعاد القوم إلى ما كانوا عليه.

(٣) على أن أهل الأدب ورواة الأشعار كانوا يتحرَّون عند إنشاد القصائد على أحد الخلفاء والأمراء. فيتخيرونها من التى لا يكون فيها آسم معشوقة يشابه آسم أُمٍّ له أو آبنة أو أخت أو زوجة (الأغانى ج ٥ ص ١٧٤). وفى "محاسن الملوك" (ص ٢٩) أن إبراهيم بن المهدىّ قال: كنت عند الرشيد، فأُهْدِيَتْ له أطباقٌ ومعها رُقعةٌ. فلمّا قرأها، آستفزّه الطرب. فقلت: ياأمير المؤمنين، ما الذى أطربك؟ فقال: هذه هديّة عبدالملك بن صالح. ثم نبذ إلىّ الرقعة، فإذا فيها بعد البسملة: "دخلتُ، ياأمير المؤمنين، بستانا عَمَّرتُه بنعمتك، وقد أينعتْ أثماره وفاكهته. فأخذتُ من كلّ شيء (وعدّدَ أنواعا من الفاكهة) وصيّرتُه فى أطباق القُضبان ووجّهتُه لأمير المؤمنين، ليصل إلىّ من بَركة دعائه، ما وصل إلىّ من بِرّه ونَعْمائه". قلتُ: ياأمير المؤمنين، وما فى هذا يقتضى هذا السرور؟ فقال: ألا ترى إلى ظَرْفه، كيف قال: "القضبان"؟ فكنّى به عن الخيزران، إذ كان يجرى به آسم أُمّنا.

وهكذا يجب للملوك أن يقال فى مخاطبتهم : ياخليفة الله ! (١) ويا أمين الله ! (٢) ويا أمير المؤمنين ! (٣)

---

(١) لم يرضَ أبو بكر الصِّدِّيق بأن يُسمّى خليفة رسول الله (كما فى لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣٧) فضلا عن أن يُسمّى خليفة الله . ولكن الكتّاب والشعراء جرى اصطلاحهم على خلاف ذلك . قال الزجّاج : جاز أن يقال للأئمة "خلفاء الله فى أرضه" بقوله تعالى : "يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ" (لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣١) . وقال جرير : "خليفةَ الله ماذا تأمُرَنَّ بنا ؟" وقال أيضا : "خليفةُ الله يُستسقى به المطرُ" . وقال بشّار (و إن كان من باب التهكّم) :

ضاعتْ خلافتكم ، ياقومِ ، فالتمسُوا * خليفةَ الله بين الزِّقِّ والعُودِ !

وقد قال صاحب محاضرة الأوائل إن المعتصم بن الرشيد هو أوّل من تلقب بخليفة الله . فلعلّ ذلك كان بصفة رسمية فى المكاتبات الصادرة عن ديوانه . و إلّا فقد رأينا من الأشعار السابقة أن هذا اللقب كان موجودا فعلا .

(٢) قال حسّان بن ثابت يرثى عثمان بن عفّان .

إنّى رأيتُ أمينَ الله مضطَهَدا * عثمانَ رهنًا لدى الاجداث والكفنِ .

(٣) قال فى "محاسن الملوك" بهذه المناسبة (ص ٢٥ — ٢٧) ما نصُّه :

«و إنما يُتسامح بذلك للشعراء . وما زالت الشعراء يَمدحون الملوك بأسمائهم ، ولا يُنكَر ذلك عليهم . كقول الشاعر ، وهو حسّان :

هَجَــوتَ محمدًا فأجَبتُ عنــه * وعنــد الله فى ذاك الجــزاءُ .

وكقول المرأة تخاطبه :

أمحمدُ ، ولَدَتك ضِنْءُ كريمةٍ * فى قومها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ !

رُوِىَ أنه قدم رجل من الأعراب على عُمر رضى الله عنه ومعه صِبْيةٌ له وأهلُه ، فقال يُخاطبه :

يا عُمَرَ الخيرِ جُزِيتَ الجَنَّهْ * اُكْسُ بُنَيّاتى وأُمَّهُنَّــهْ
أُقسِم بالله لَتَفعَلَنَّهْ

فقال عُمر : يكون ماذا ؟ فقال :

يكونُ عَن حالى لَتُسأَلُنَّهْ =

الأدب فى حالة مشابهة الاسم لإحدى صفات الملك أو لاسمه

ومن حقّ الملك، إذا دخل عليه رجُلٌ، وكان آسمُ ذلك الرجُل الداخل أحدَ صفات المَلِك، فسأله المَلِك عن آسمه، أن يُكَنِّيَ عنه ويُجيبَ بآسم أبيه. كما فعل سعيدُ

= فقال عُمر: متى؟ قال:

يومَ تكون الأعطياتُ جُنّهْ * والواقفُ المسؤولُ بينَهنّهْ
إمّا إلى نارٍ وإمّا جَنّهْ.

فنبذ عمر رضى الله عنه قِيصهُ، وقال: هذا جُنَّةُ ذلك اليوم!

ورُوى أن الرشيدَ جلَسَ يومًا للمظالم فرأى فى الناس شيخًا حَسَنَ الهيئة. فلمّا تقوّض المجلس، قام الشيخ وبيده قِصّته، فأمر بأخذها. فقال: إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذنَ لى فى قراءتها، فإنى أحسَنُ تعبيرًا للخطّ. قال: آقرأْ! قال: يا أمير المؤمنين، إنى شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ، والمقامُ عظيمٌ. فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذَنَ لى فى الجلوس؟ فقال: آجلس! فجلس. ثم قال:

ياخيرَ مَن جَدّتْ لرِحلتهِ * نُجُبُ الركاب بمَهْمهٍ جَلْسِ!

يقول فيها:

لمّا رأتْك الشمسُ طالعةً، * سجدتْ لوجهك طلعةُ الشمسِ.
خيرُ البريّةِ أنت كلِّهمِ * فى يومك الغادى وفى أمسِ،
وكذاك لم تنفكَّ خيرَهمُ * تُمسى، وتُصبح فوق ما تُمسى.
لله يا هرُونُ من مَلِكٍ * عفِّ السريرة طاهرِ النَّفْسِ!
نَمَتْ عليه لربّهِ نِعَمٌ * تزدادُ جِدّتُها على اللُّبسِ.

(أردتُ قوله "لله ياهارون")

وبقية الشعر:

من عِترةٍ طابت أُرومتُها، * أهلِ العفافِ ومنتهى القُدسِ.
مُتهلّلين على أسرّتهم * ولدى الهياج مَصاعيبَ شُمسِ =

ابن مُرّة الكِندىّ، حين أتى مُعاوية فقال له: أنت سعيدٌ؟ فقال: أميرُ المؤمنين السعيدُ، وأنا آبن مُرّة[١]!

وكما قال السَّيِّدُ بن أنس الأزْدىُّ[٢] ـ وقد سأله المأمون عن آسمه ـ فقال: أنت السيِّد؟ قال: أميرُ المؤمنين السَّيِّدُ، وأنا آبن أنَس[٣]!

وهكذا جاءنا الخبر عن العبَّاس بن عبد المُطَّلِب، عمِّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) وصِنْوِ أبيه، قيل له: أنت أكبرُ أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر منِّى، ووُلِدْتُ أنا قبلَه[٣]!

= إنى لجأتُ إليك من فَزَعٍ ❊ قد كان شَرَّدَنى من الأُنُسِ.
لمَّا آستخرتُ الله مجتهدًا، ❊ يَمَّمتُ نحوك رحلةَ العَنْسِ.
وآخترتُ حلمك لا أُجاوزه ❊ حتى أُغَيَّبَ فى ثرى الرَّمْسِ.

فلما أتى على آخرها، قال: مَن يكون الشيخ؟ قال: على بن الخليل الذى يقال إنه زنديق. قال: أنت آمِنٌ! وأمر له بخمسمائة ألف درهم.

وأما مَن سوى الشعراء، فَلْيَقُلْ: أيُّها الخليفة! أو ياأمير المؤمنين! أو ياسلطان العالَم! أو ياأمينَ الله أو ياأمير المسلمين!

قال المُغيرة لعُمر رضى الله عنهما: ياخليفة الله! فقال له عمر: ذاك نبىّ الله داود! قال: ياخليفة رسول الله! قال: ذاك صاحبكم المفقود! قال: ياخليفة خليفة رسول الله! قال: ذاك أمرٌ يطول! قال: ياعمر! قال: لاتَبْخَسْ مقامى شرفه! أنتم المؤمنون، وأنا أميركم. فقال المغيرة: ياأمير المؤمنين! »

(١) روى ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ٢٨)، ورواها فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) وفى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠).

(٢) أُنظر المحادثة بعبارة أُخرى فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧).

(٣) أُنظر رواية أُخرى فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧)؛ وآنظر "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) و "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠).

ألا تراه (رحمه الله) كيف تخلّص إلى أحسن الأحوال فى الأدب، فاستعمله؟[1]

(٧١)

وعلى هذا المثال يجب أن تكون مخاطبة الملوك، إذ كانت صيغتهم غير صيغ العامة[2]، كما قال أردشير بن بابك فى عهده إلى الملوك.

⁂

الأمور التى يتفرد بها الملك فى عاصمته

ومن حقّ المَلك أن يتفرّد فى قرار داره بثلاثة أشياء، فلا يطمع طامعٌ فى أن يَشْرَكُه فيها.

---

(١) ومما يدخل فى هذا الباب ما حكاه ياقوت الحموى فى معجم الأدباء (ج ١ ص ١٤٩ طبع الأستاذ مرجوليوث) أن "أبا زيد البلخى لما دخل على أحمد بن سَهل — أول دخوله عليه — سأله عن اسمه. فقال: أبو زيد. فعجب أحمد بن سهل من ذلك حين سأله عن اسمه فأجاب عن كنيته، وعدّ ذلك من سَقَطاته. فلما خرج، ترك خاتمه فى مجلسه عنده. فأبصره أحمد بن سهل، فازداد تعجّبا من غفلته. فأخذه بيده ونظر فى نقش فصّه، فإذا عليه: أحمد بن سهل. فعلم حينئذ أنه إنما أجاب عن كنيته للموافقة الواقعة بينه وبين اسمه، وأنه أخذ بحسن الأدب وراعى حدّ الاحتشام، واختار وصية التزام الخطاب فى الوقت والحال، على أن يتعاطى اسم الأمير بالاستعمال والابتذال."

وروى ابن عبد ربه (ج ١ ص ٢٧٣) فى هذا المعنى أيضا أنه قيل لأبى وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خثيم؟ قال: أنا أكبر منه سنًّا، وهو أكبر منى عقلا.

وقال معاوية لأبى الجهم العدوى: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلتُ فى عرس أمك، يا أمير المؤمنين. قال: عند أى أزواجها؟ قال: عند حفص بن المغيرة. قال: يا أبا الجهم، إياك والسلطان! فإنه يغضب غضب الصبى ويأخذ أخذ الأسد. (ابن عبد ربه ج ١ ص ١٢). قال الحجاج للمهلّب: أنا أطولُ أم أنت؟ فقال: الأمير أطول، وأنا أبسَطُ قامةً منه. (المحاسن والأضداد ص ٢٢، والمحاسن والمساوى ص ٤٩٠)

وكان الأولى به أن يقتدى بطويس المغنّى المشهور فقد سأله سعيد بن عثمان بن عفان: أينا أسنُّ؟ فقال: "بأبى وأمّى أنت! لقد شهدتُ زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيّب." لئلا يُوهم أمرًا. (ابن عبد ربه ج ١ ص ٢٧٣، ومحاضرات الراغب ج ١ ص ١١٧). أورد الجاحظ قبل غيره هذه الحكاية وعلّق عليها تعليقا لطيفا، فقال: فانظر إلى حذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام! كيف لم يقل "بزفاف أمك الطيّبة إلى أبيك المبارك" (انظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤)

(٢) صـ: "كانت صنيعهم غير صنيع العامة."

فمنها الحِجامة، والفَصْد، وشُرب الدواء. فليس لأحدٍ من الخاصّة والعامة ممن في قصبة دار المملكة أن يشركه في ذلك.

وكانت ملوكُ الأعاجم تمنع من هذا وتعاقب عليه وتقول: "إذا أراق المَلك دمه، فليس لأحد أنْ يُريق دمه في ذلك اليوم حتّى يساوىَ المَلك في فعله؛ بل على الخاصة والعامة الفحصُ عن أمر المَلك، والتشاغُلُ بطلب سلامته، وظهور عافيته، وكيف وجد عاقبة ما يُعالَجُ به."

وليس الاقتفاء بفعل الملك في هذا وما أشبهه من فعلِ مَنْ تمّتْ طاعتُه وصحّتْ نيّتُه وحسُنتْ معونته، لأن في ذلك استهانةً بأمر الملك والمملكة.

ومَن قصد إلى أن يَشْرَكَ الملكَ في شئ يجد عنه مندوحةً ومنه بُدًّا، بالمُهَل المبسوطة والأيام الممدودة، فهو عاصٍ مفارقٌ للشريعة.

٧٣ ويقال إن كسرى أنوشروان كان أكثر ما يحتجم في يوم السبت. وكان المنادى – إذا أصبح في كل يوم سبت – نادى: "يا أهل الطاعة! ليكن منكم تركُ الحجامة في هذا اليوم على ذِكْرٍ! ويا حجامون! اجعلوا هذا اليوم لنسائكم وغَسْل ثيابكم!" وكذا كان يفعل في يوم فصد العِرق وأخذ الدواء.

⁂

عدم تشميت الملك وعدم التأمين على دعائه

ومن حقّ الملك – إذا عطَس – أنْ لا يُشمَّت، وإذا دعا، لم يُؤمَّنْ على دُعائه.

وكانت ملوك الأعاجم تقول: "حقيقٌ على المَلك الصالح أن يدعو للرعيّة الصالحة، وليس بحقيقٍ للرعيّة الصالحة أن تدعُوَ للمَلك الصالح: لأن أقربَ الدعاء إلى الله دعاءُ المَلك الصالح."

✣

عدم تعزية الملك

ومن حقّ الملك أن لا يُعَزِّيَه أحدٌ من حاشيته وحامّته وأهل بيته وقرابته. وإنما جُعِلت التعزيَة لمن غاب عن المصيبة، أو لمن قارَبَ الملكَ في العزّ والسلطان والبهاء والقدرة (١). فأما مَن دون هؤلاء، فيُنْهَوْن عن التعزيَة أشدّ النَّهْيِ.

وفيما يُذكَرُ عن عبد الملك بن مَرْوَانَ أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزّاه، فقال: يا بُنَيَّ! مصيبتي فيك أقدح في بدني من مصيبتي بأخيك! ومتى رأيتَ ابنًا عزّى أباه؟ قال: يا أمير المؤمنين! أمّي أمَرَتْني بذلك. قال: ذاك يا بُنَيَّ أهونُ عليّ! وهذا العَمْرِي من مَشُورَة النساء (٢)!

(٧٣)

✣

سرعة الغضب وبطء الرضا

ومن أخلاق الملك سرعة الغضب، وليس من أخلاقه سرعة الرضا.

فأما سرعة الغضب، فإنما تأتي الملك من جهة دوام الطاعة. وذلك لأنه لا يدور في سمعه ما يكره في طُولِ عمره. فاذا أَلِفَتِ النفسُ هذا العزَّ الدائم، صار أحدَ صفاتها. فمتى قرع حِسَّ النفس ما لا تعرِفه في خُلُقها، نَفَرَتْ منه نُفورا سريعا، فظهر الغضب، أَنَفَةً وحَمِيَّةً.

وأما رضا الملك فبطيءٌ جدًا. لأنه شيءٌ تُمانعه النفس أنْ يفعله، وتدفعُهُ عن نفسها. إذ كان في ذلك جنسٌ من أجناس الاستخذاء، وخُلُقٌ من أخلاق العامّة.

(١) صـ: والقرابة.

(٢) روى صاحب "المحاسن والمساوى" هذه القصة (ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦) ورواها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٣٤) وختمها بأن عبد الملك قال لابنه: "والله لَتَعزيتُك إيّاى أهون عليّ من قبولك مَشُورة النساء!" [وهي أحسن من روايتنا.] ثم أضاف على ذلك أن "يزيد بن معاوية وعمر بن عبد العزيز وغيرهما من ملوك الإسلام لا يرون بذلك بأسًا."

غضب السفاح على أحد رجاله

وهكذا يُحكى عن أبى العباس أنه غَضِبَ على رجُل ذهب عنّى ٱسمه، فذكره ليلةً من الليالى. فقال له بعض سُمّاره: ياأمير المؤمنين! فلانٌ لو رآه أعدىٰ خَلْق الله له، لرحمه وٱنعصر[١] له قلبه. قال: ولِمَ ذاك؟ قال: لغضب أمير المؤمنين عليه. قال: ماله من الذّنب مايبلغ به من العقوبة هذا الموضع. قال: فَمُنَّ عليه، يا أمير المؤمنين، برضاك. قال: ماهذا وقت ذاك! قال: قلتُ إنك ياأمير المؤمنين لما صغَّرتَ ذنبه، طمِعتُ فى رضاك عنه. قال: إنه مَن لم يكن بين غضبه ورضاه مدّة طويلة، لم يُحْسِن أن يغضب ولا يرضىٰ. ‹٧٤›

وعلىٰ هذا أخلاقُ الملوك وصنيعُهم.

غضب الرشيد على أحد قواده

وكذا جرىٰ لعبد الله بن مالك الخُزاعىّ[٢] مع الرشيد، حين غضب عليه. أَمَرَ أهله وحَشَمَه وجميعَ قرابته أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته حتّى أثَّر ذلك فى نفسه وبدنه. فتحاماه أقرب الناس منه من ولد وأهل، فلم يَدْنُ منه أحدٌ ولم يَطُف به. فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمىّ — وهو كان أحد أوِدّائه — فى جوف الليل، فقال له: ياأبا العبّاس! إنّ لك عندى يدًا لا أنساها ومعروفا ما أكفُرُه. وقد علمتُ ماتقدم به أميرالمؤمنين فى أمرك. وها أنا ذا بين يديك ونُصْبَ[٣] عينيك! فمُرْنى بأمرك! فو الله

(١) يقال فى اللغة عَصَرَ العنب ونحوه فٱنعصر. وفى المفضليات:

وَهْىَ لَوْ يُعصَرُ مِنْ أَرْدَانِهَا ❊ عَبَقُ المِسْكِ، لَكَادَتْ تَنْعَصِرْ.

ومن شواهد النحاة:

خَوْدٌ يُغَطِّى الفَرْعُ مِنْهَا ٱلمُؤْتَزَرْ ❊ لَوْ عُصِرَ مِنْها ٱلبَانُ والمِسْكُ، ٱنْعَصَرْ.

وكنّى الجاحظ بٱنعصار القلب عن شدّة الألم لحال الرجل. ومن مجاز الأساس: "أنا معصور اللسان" أى يابسه عطشا.

(٢) [أنظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا الكتاب].

(٣) أكثر العرب على ضم النون، كما فى شفاء الغليل.

لأجعلنّ نفسى وِقايةَ نفسِك، أوأسُوقَها فى كلّ ما نكَأها[1] أو جَرَحَها[2]. فقال له عبد الله خيرا، وأثنى عليه، وأخبره بعذره فى مَوْجِدَة أمير المؤمنين عليه. فوعده محمدٌ أن يكلّمَ أمير المؤمنين ويخبره باعتذاره. فلما أصبح محمدٌ وافاه رسول أمير المؤمنين، فركب. فلما دخل عليه، قال: مَن أتيتَ فى هذه الليلة؟ قال: عبدَك يا أمير المؤمنين، عبدَ الله بن مالك، وهو يحلف بطلاق نسائه وعِتق مماليكه وصَدَقة ماله مع عشرين نَذْرًا يُهديها إلىٰ بيت الله الحرام حافيًا راجلًا، والبراءة من ولاية أمير المؤمنين إنْ كان ما بلغ أمير المؤمنين سمِعَه اللهُ من عبد الله بن مالك، أو اطّلع عليه أو همّ به أو أضمره أو أظهره. قال: فأطرق الرشيد مَلِيًّا مُفكّرًا. وجعل محمدٌ يلحظه، ووجهه يُسفِرُ ويُشْرِق حتّى زال ما وجده. وكان قد حال لونُه حين دخل عليه. ثم رفع رأسه فقال: أَحْسَبُه صادقا، يا محمّد. فَمُرْهُ بالرَّواح إلىٰ الباب. قال: وأكون معه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. فانصرف محمدٌ إلىٰ عبد الله، فبشّره بجميل أمره، وأمره بالركوب رواحًا. فدخلا جميعا. فلما بَصُر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القِبلة فخرّ ساجدا، ثم رفع رأسه. فاستدناه الرشيد. فدنا وعيناه تهملان. فأكبّ عليه فقبّل رِجله وبِساطه وموطئ قدميه، ثم طلب أن يُأذن له فى الاعتذار. فقال: مابك حاجةٌ إلىٰ أن تعتذر، إذ عرَفتُ عُذرَك. قال: فكان عبد الله بعدُ، إذا دخل علىٰ الرشيد، رأىٰ فيه بعض الإعراض والانقباض. فشكا ذلك إلىٰ محمد بن إبراهيم. فقال محمدٌ: يا أمير المؤمنين! إن عبد الله يشكو أثرًا باقيًا من تلك النَّبْوَةِ التى كانت من أمير المؤمنين، ويسأل الزيادة

(٧٥) (٧٦)

(١) أوجب وقوع النكاية بها.

(٢) أصابها بجراحة.

فى بَسطه له . فقال الرشيد : يامحمد ! إنا معشر الملوك ، إذا غضِبنا علىٰ أحد من بِطانتنا ثم رضينا عنه بعد ذلك ، بَقِىَ لتلك الغَضْبة أثَرٌ(١) لايُخرجه ليلٌ ولا نهارٌ .

✤

كتم الملك أسراره

ومن حقّ المَلك أن يكتُم أسراره عن الأبِ والأمّ والأخ والزوجة والصَّديق . فإنّ المَلك يَحتمِل كلَّ منقوص ومأنوف(٢) ، ولا يحتمل ثلاثةً : صفة أحدهم أنْ يطعن فى مُلكه ، وصفة الآخر أن يُذيع أسراره ، وصفة الآخر أن يَخُونه فى حُرَمه(٣) . (٧٧)

فأما من وراء ذلك ، فمن أخلاق الملوك أن تَلبَس خاصّتَها ومَن قربَ منها علىٰ مافيهم ، وأن تستمِع منهم إذا سَلِمُوا من هذه الصفات الثلاث .

وكان كسرىٰ أبرويز يقول : "يجب علىٰ الملك السعيد أن يجعل همَّه كلَّه فى آمتحان أهل هذه الصفات ، إذ كانت أركانَ الملك ودعائمَه(٤)" .

امتحان أبرويز رجاله فى حفظ السرّ

فكانت مِحنَتُـه فى إذاعة السرّ عجيبةً . وللقائل أن يقول فيها إنها خارجة من باب العدل ، داخلة فى باب الظلم والجَوْر ، وللآخر أن يقول إنها مِحَنُ الحكماء من الملوك .

وكان إذا عرف من رجُلين من بطانته وخاصّته التحابَّ والأُلفة والآتفاق فى كلّ شئ وعلىٰ كلّ شئٍ ، خلا بأحدهما فأفضىٰ إليـه بسرٍّ فى الآخَر ، وأعلَمـه أنه عازمٌ علىٰ قتله ، وأمَرَه بكتمان ذلك عن نفسه ، فضلا عن غيره . وتقدّم إليه فى ذلك بوعيده .

(١) نقل هذه القصة فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٤٢ — ٥٤٣) .

(٢) أى الرجل المكروه . وهذه الكلمة ساقطة فى صـ .

(٣) قارن ذلك بما فى محاضرات الراغب . (ج ١ ص ١١٨) . وهذه المقولة منسوبةٌ بلفظ آخر لأبى جعفر المنصور العباسى . (أُنظرها فى المحاسن والأضداد ص ٢٨ ، والمحاسن والمساوى ص ٤٠٢) .

(٤) فى "محاسن الملوك" (ص ٥٤) مانصه : وأما كتمان سرّ السلطان فهو مِلاك الأمر ونظام المملكة وسبب بقاء الدولة . كان أبرويز إذا دخل إليه وزيرهُ وصاحب سرّه ، لم يفاوضه فى شيء حتّى لايبقىٰ عنده أحدٌ . فاذا لم يبقَ أحدٌ ، أمر أنْ تُرفع الستائر عمن لعلّه يكون وراءها . فإذا علم أنه ليس أحدٌ وراءها ، فاوضه بسرّه .

ثم جعل مِحْنته فى إذاعة سرِّه ملاحظة صديقه فى دخوله عليه وخروجه من عنده، وفى إسـفار وجهه ولقائه للملك. فإن وجد آخرَ أمرِه كأوّله فى أحواله، علم أن الآخَرَ لم يُفْضِ إليـه بسرّه ولم يُظهِرْه عليـه، فقرّبه وآجتباه ورفع مرتبتـه وحباه، ثم خلا به، فقال: "إنى كنتُ أردتُ قتلَ فلان لشئٍ بلغنى عنه. فبحثتُ عن أمره فوجدته باطلاً.(١)" (٧٨)

وإنْ رأى من صاحبـه نفور نفس وآزورارَ جانبٍ وإعراضَ وجهٍ، علم أنه قد أذاع سرَّه، فأقصاه وآطَّرحه وجفاه، وأخبر صاحبـه أنه أراد مِحْنته بما أَوْدعه من سرِّه. فإن كان هـذا من أهل المراتب، وضع مرتبته؛ وإن كان من النـدماء، أمر أن يُحْجَب عنـه؛ وإن كان من أصحاب الأعمـال، أمر أن [لا] يُستعان به؛ وإن كان من سَدَنَة بيوت النيران، أمر بعزله وإسـقاط أرزاقه. ويقول: "مَن لَمْ يصلحْ لَملِكه، لا يصلُحُ لنفسه؛ ومَن لَمْ يصلحْ لنفسه، فلا خَيْرَ عنده." ويقول: "إنّ القلب أعدل على القلب شهادةً من اللسان؛ وقلّ شئٌ يكون فى القلب إلا ظهر فى العينين(٢): إذ كانت الأعضاء مشترِكة يتعلّق بعضُها ببعضٍ."

امتحانه لرجاله فى حفظ الحرم (٧٩)

فأما مِحنته فى الحُرَم، فكان إذا خفَّ الرجُل على قلبه وقَرُب من نفسه، وكان عالماً يُظهر التألُّه، وكانَ عنده ممن يصلح للأمانة فى الدماء والفروج والأموال على ظاهره، أحبَّ أن يمتحنه بِمِحْنَةٍ باطنـة. فيأمُرُ به أن يُحَوَّلَ إلى قصره ويُفْرَغَ له بعضُ الحُجَر التى تقرب منـه، ولا يُحَوَّلُ إليها آمرأةٌ ولا جاريةٌ ولا حُرْمة ويقول له: "إنى أُحِبُّ الأُنْس بك فى ليلى ونهارى. ومتى كان معك بعض حُرَمِك، قطعك عنّى وقطعنى عنك.

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه العبارة بآختصار. (ص ٥٤ ـ ٥٥)

(٢) سـ: إن القلب ليظهر مافيه فى العينين.

فٱجعلْ مُنْصَرَفَكَ إلىٰ منزل نسائك فى كلّ خمْسِ ليالٍ ليلةً.» فإذا تحوّل الرجُل وخلا
به وآنسه وكان آخِرَ مَن ينصرف من عنده، فيتركه علىٰ هذه الحال أشهراً.

فٱمتحن رجُلا من خاصّته بهذه المحنة فى الحُرَم، ثم دسّ إليه جارية من خواصّ
جواريه ووجّه معها إليه بألطاف وهدايا. وأمرها أنْ لاتقعد عنده فى أول ماتأتيه.
فلما أتته بألطافِ الملك، قامتْ. فلم تَلْبَثْ أنِ ٱنصرفتْ. حتّى إذا كانت المرّةُ الثانية،
أمرها أن تقعُدَ هُنَيْهَةً. وأن تُبْدِيَ بعض محاسنها، حتّى يتأمّلَها. ففعلتْ ولاحظها
(٨٠) الرجُل وتأمّلها ثم ٱنصرفت. فلما كانت المرة الثالثة، أمرها أن تقعد عنده وتطيل
القعود وتحادثه، وإن أرادها علىٰ الزيادة من المحادثة أجابته. ففعلتْ. وجعل الرجُل
يُحِدُّ النظر إليها ويُسَرُّ بحديثها. ومن شأْن النفس أن تطلُبَ بعد ذلك الغرضَ من
هذه المطايبة. فلما أبدىٰ ماعنده، قالت: «إنى أخاف أن يُعْثَر علينا، ولكن دعنى
أُدَبِّرُ فى هذا مايتمُّ به أَمْرُنا.» ثم ٱنصرفت. فأخبرتِ المَلِك بكلّ مادار بينهما. فوجّه
أُخرىٰ من خاصّ جواريه وثقاتهن بألطافه وهداياه. فلما جاءته، قال لها: ما فعلتْ
فلانة؟ قالت: ٱعتلّتْ. فٱرْبَدَّ(١) لون الرجُل. ثم لم تُطِل القعود عنده كما فعلت الأُولىٰ
فى المرّة الأُولىٰ. ثم عاودته بعد ذلك، فقعدت أكثر من المقدار الأول، وأبدت بعض
محاسنها حتّى تأملها. وعاودته فى المرّة الثالثة، فأطالت عنده القعود والمضاحكة
والمهازلة. فدعاها إلىٰ ما فى تركيب النفس من الشهْوَة. فقالت: «إنّا من الملك علىٰ
(٨١) خُطًى يسيرة، ومعه فى دار واحدة، ولكنّ المَلِك يمضى بعد ثلاثٍ إلىٰ بستانه الذى
بموضع كذا، فيقيم هناك. فإن أرادك علىٰ الذهاب معه، فأظهِرْ أنك عليلٌ، وتمارضْ. فإن

(١) أى علتِ الغُبرةُ لونَهُ.

خَيَّرك بين الانصراف إلىٰ دور نسائك أو المُقام هٰهنا إلىٰ رجوعه، فٱختَرِ المُقام وأخبِرْه أن الحركة تصعُب عليك. فاذا أجابك إلىٰ ذلك، جئتُ فى أوّل الليل ولبثتُ عندك إلىٰ آخره." فسَكَنَ الرَقيع(١) إلىٰ هذه الأَنَسَة، وٱنصرفتِ الجارية إلىٰ الملك فأخبرتْه بكلّ مادار بينها و بينه. فلما كان الوقت الذى وعدتْه أن يخرج المَلك فيه، دعاه المَلك. فقال للرسول: أخبِرْهُ أنّى عليلٌ. فلما جاءه الرسول وأخبَرَهُ، تبسّم أبرويز، وقال: هذا أوّل الشرّ. فوجّه إليه بِمِحَفَّةٍ، فَحُمِلَ فيها حتّى أتاه، وهو مُعَصَّبُ الرأس. فلما بَصُرَ به من بعيد، قال: والعِصَابةُ الشرُّ الثانى. وتبسّمَ. فلما دنا من الملك، سجد. فقال له أبرويز: متىٰ حَدَثَتْ بك هذه العلّة؟ قال: فى هذه الليلة. قال: فأىُّ الأمرَيْن أحبُّ إليك؟ الانصرافُ إلىٰ منزلك ونسائك ليمرّضْنك أو المُقام هٰهنا إلىٰ وقت رجوعى؟ قال: هٰهنا أيها الملك أرْفَقُ بى، لقلة الحركة. فتبسّم أبرويز، وقال: ما صدقتَ! حركتُك هٰهنا، إنْ خلّفتُك، أكثر من حركتك فى منزلك. (٨٣)

ثم أمر أن تُخْرَجَ له عصا الزُناة التى كان يُوسَمُ بها مَن زَنىٰ. فأيقن الرجل بالشرّ. وأمر أن يُكتب ما كان من أمره حرفًا حرفًا، فيُقرأ علىٰ الناس إذا حضروا، وأنْ يُنفىٰ إلىٰ أقصىٰ حدّ المملكة، ويُجعل العصا فى رأس رُمْحٍ تكون معه حيث كان، لِيَحْذَرَ منه مَن لا يعرفه. فلما أُخرِج بالرجُل عن المداين، مُتَوَجِّهًا به نحو فارس أخذ مُدْيَةً كانت مع بعض الأعوان الذين وُكِّلُوا به، فجَبَّ بها ذكره، وقال: مَن أطاع عُضوًا من أعضائه صغيرًا، أفسد عليه أعضاءه كلها، صغارَها وكبارَها. فمات من ساعته.(٢)

(١) الرقيع والمرقعان الأحمق وهو الذى فى عقله مَرَمَةٌ (صحاح) | حاشية فى صحـ | . والمرمة معناها هنا الاحتياج إلى الترقيع والترميم. (أُنظر لسان العرب ج ٩ ص ٤٩١)

(٢) روىٰ هذه القصة فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧)

امتحانه فيمن يطعن فى المملكة

وكان قد نَصَبَ رجُلا يمتحِن به مَن فَسَدَتْ نيَّته وطَعَن فى المملكة. فكان الرجُل يُظهر التَّأَلُّهَ والدعاء إلىٰ التخلّى من الدنيا والرغبة فى الآخرة وترك أبواب الملوك. وكان يَقُصّ علىٰ الناس ويُبكيهم ويَشوبُ فى خلال ذلك كلامَه بالتعريض (٨٣) بذمّ الملك وتركه شرائعَ ملّته وسُنن دينه ونواميس آبائه. وكان هذا الرجُل الذى نصبه لهذا أخاه من الرضاعة وتِرْبَه فى الصِّبا. فكان إذا تكلَّم هذا الرجل بهذا الذى قد مثَّله له أبرويز وأمره به ليمتحن بذلك خاصَّته، أُخْبِرَ به. فيضحك لذلك أبرويز، ويقول: "فلانٌ فى عقله ضَعْفٌ، وأنا أعلم به. وإن كان كذلك فإنه لا يقصدنى بسوءٍ، ولا المملكةَ بما يُوهِنُها". فيُظهر الاستهانة بأمره والثقة من الطُّمَأْنينة إليه. ثم يوجِّه إليه فى خلال ذلك مَن يدعوه إليه، فيأبىٰ أن يُجيبه، ويقول: لا ينبغى لمن يخاف الله أن يخاف أحدًا سواه. فكان الطاعن علىٰ الملك والمملكة يُكثِرُ الخَلْوَة بهذا الرجُل فى الزيارة له والأُنْس به. فإذا خَلَوْا، تذاكروا أمر الملك، وابتدأ الناسكُ يطعَنُ علىٰ المَلك وفى صُلْب المملكة. فأعانه الخائنُ وطابقهُ علىٰ ذلك وشايَعَهُ عليه، فيقول له الناسك: "إياك أن تُظهر هذا الجبَّار[(١)] علىٰ كلامك! فإنه لا يَحتمِل لك ما يَحتمِله لى. فحَصِّنْ منه دَمَكَ!" فيزداد الآخر إليه استنامةً وبه ثقةً. (٨٤) فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن علىٰ الملك ما يستوجب به القتل فى الشريعة، قال له: إنى عاقدٌ غدًا مجلسا للناس أَقُصّ عليهم، فاحْضُرْهُ! فإنك رجُلٌ رقيقُ القلبِ عند الذكر، حَسَنُ النيةِ، ساكنُ الريح، بعيدُ الصوت. وإن الناس إذا رأوْك قد حَضَرْتَ مجلسى، زادتْ نيَّاتهم خيرًا، وسارعوا إلىٰ استجابتى. فيقول له الرجُل: إنى أخاف هذا الجبَّار، فلا تَذكُرْه إنْ حضرتُ مجلسَك.

---

(١) صـ : الخائن.

وكانت العلامة فيما بينه وبين أبرويز أن ينصرف الرجُل عن مجلس الناسك، إذا ٱبتدأ فى قصَّة الملك. وكان أبرويز قد وضع عُيونا تحضر مجلس الناسك، متىٰ جلس. فبكَّر الناسكُ وقَصَّ علىٰ العامّة وزَهَّد فى الدنيا ورغَّب فى الآخرة. وحضَرَهُ الرجُل الخائن. فلما فرغ من قَصَصِه وأخذ فى ذكر الملك، نهض الرجُل وجاءت عيون أبرويز فأخبرته بما كان. فإذ زال عنه الشكُّ فى أمره، وجَّهه إلىٰ بعض البُلدان وكتب إلىٰ عامله: "قد وجهتُ اليك رجُلا وهو قادمٌ عليك بعد كتابى هذا فى كذا وكذا. فأظهِرْ بِرَّهُ والأُنْسَ به والثقةَ بناحيته. فإذا آطمأنَّتْ به الدار، فٱقتُلْهُ قِتلةً تُحْيِي بها بيتَ النار، وتصلُ بها حُرمة النُّوبَهَار[1]. فإنه مَن فَسَدَتْ نيّتُه لغير علّةٍ فى الخاصّة والعامّة، لم يُصْلَح بعلّةٍ[2]."

(٨٥)

✣

تغافل الملك عن الصغائر

ومن أخلاق المَلك التغافل عمّا لايقدحُ فى المُلك ولا يَجرحُ[3] المال ولا يَضَع من العِزّ، ويزيد فى الأُبَّهة.

وعلىٰ ذلك كانت شِيَمُ ملوك آل ساسان.

---

(١) هو بيت من بيوت النار: Pyrée. بناه الفُرس بمدينة بلخ على مثال البيت الحرام بمكة. وعنه شرح واف فى ياقوت (فى حرف النون) وفى المسعودى (جزء ٤ ص ٤٧ — ٤٩ طبع باريس) وفى "مراصد الأطلاع" (فى حرف النون) وفى القزوينى (ص ٢٢١) وفى "كتاب البلدان" للهمدانى (ص ١٥٧ و ٣٢٢ — ٣٢٤) "وشفاء الغليل" (ص ٢٠٣). وآنظر Dictionnaire géographique de la Perse, par Barbier de Meynard, p.p. 122,569.

(٢) صـ: "لغير علة صلحت بخلافها". وقد أورد هذه الحكاية صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٤١ — ٤٢)، ولخصها جدًا صاحب "محاسن الملوك" (ص ٤٥)؛ وأوردها بالحرف تقريبا فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٥٥ — ١٥٧).

(٣) صـ: فى القلب ولا يخرج.

تغافل بهرام جور عن سرقة اللجام

وفيما يُحكى عن بَهْرامَ جور أنه خرج يوما لطلب الصيْد فعار[١] به فرسه حتّى وقع إلىٰ راعٍ تحت شجـرة، وهو حاقِنٌ[٢]. فقال للراعى: إحفظ عَلَيَّ عِنـان دابّتى، حتّى أبول. فأخذ بركابه حتّى نزل، وأمسك عنانَ الفَرَس. وكان لجامه مُلَبَّسًا ذَهَبًا، فوجد الراعى غَفْـلةً من بَهْـرامَ فأخرج من خُفّه سِكِّينًا[٣] فقطع بعض أطراف اللجام. فرفع بَهْرَامُ رأسـه فنظر إليه فٱستحيا، ورمىٰ بطرفه إلىٰ الأرض وأطال الٱستبراء ليأخذ الراعى حاجته من اللجام. وجعل الراعى يفرح بإبطائه عنه، حتّى إذا ظنّ أنه قد أخذ حاجته من اللجام، قام فقال: ياراعى! قدّمْ إلىَّ فَرَسى، فإنه قد دخل فى عَيْنَيَّ مما فى هذه الريح، فما أقدِر على فتحهما. وغمض عينيه لئلَّا يُوهِمَه أنه يتفقّد[٤] حلية اللجام. فقرّب الراعى فَرَسه فركبه. فلما ولّى، قال له الراعى: أيها العظيم! كيف آخذ إلىٰ موضع كذا وكذا؟ (لموضعٍ بعيد). قال بَهْرَامُ: وماسؤالك عن هذا الموضع؟ قال: هناك منزلى، وما وطئتُ هـذه الناحيةَ قطُّ غير يومى هـذا، ولا أُرانى أعود إليه ثانيةً. فضحك بَهرام، وفَطن لمـا أراد. فقال: أنا رجُلٌ مسافرٌ، وأنا أحقُّ بأنْ لا أعودَ إلىٰ هٰهُنـا أبدا. ثم مضىٰ. فلما نزل عن فرسه قال لصاحب دوابّه ومراكبه: إنّ معاليق اللجام قد وَهَبْتُها لسائلٍ مرّ بِي، فلا تتّهِمَنَّ بها أحدًا[٥].

[٨٦]

---

(١) عَارَ الفرس أى ذهب هاهنا وهاهنا، وذهب على وجهـه كأنه مُنفلِتٌ. وفى سه: فعارته فرسه. [وفى هامشه: صح: عاره يعوره ويعيره أى أخذه وذهب به]. وأنت ترى أن رواية صه عارية عن الصواب، وأن حاشيته فى الهامش لامحلّ لها فى هذا المقام.

(٢) أى ٱجتمع البول فيه، فهو فى حاجة شديدة إلى تصريفه. ومنه الحديث: «لارأى لحاقب ولا حاقن» أى لمن تشتد به الحاجة للإخراج من أحد السبيلين ويكون مضطرا لحبسهما.

(٣) [أنظر حاشيـة ١ صفحة ١٢٣ من هذا الكتاب]

(٤) سه: عليه.

(٥) روى هذه الحكاية بحرفها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٥ — ٥٠٦).

تغافل أنو شروان عن سرقة الجام

وهكذا يُحكىٰ عن أنو شِروانَ أنه قعد ذات يومٍ فى نيروزٍ أو مَهْرَجانٍ(١)، ووُضِعتْ الموائد، ودخل وجوه النـاس الإيوانَ علىٰ طبقاتهم ومراتبهم. وقام المُوَكّلون بالموائد علىٰ رؤوس النـاس، وكسرىٰ بحيثُ يراهم. فلما فرغ الناس من الطعام، جاؤوا بالشراب فى آنيةِ الفضة وجاماتِ الذهب. فشرب الأساورة وأهـل الطبقة العالية فى آنية الذهب. فلما انصرف الناس ورُفِعَتِ الموائد، أخذ بعض القوم جامَ ذهبٍ فأخفاه فى قَبائه(٢)، وأنو شروانُ يَلْحَظُهُ. فصرف وجهَه عنه. وافتقد صاحبُ الشرابِ الجامَ، فصاح: لايَخْرُجَنَّ أحدٌ من الدار حتىٰ يُفَتَّشَ. فقال كسرىٰ: لاتتعرّضْ لأحدٍ! وأذِنَ للناس فانصرفوا. فقال صاحب الشراب: أيها المَلك! إنّا قد فقدنا بعض آنيـةِ الذهب. فقال الملك: صَـدَقْتَ! قد أخذها مَن لا يردُّها عليك، وقد رآه مَن لا يَنِمُّ عليـه. فانصرف الرجل بالجام(٣).

(٨٧)

تغافل معاوية عن كيس الدنانير

وهكذا فعل معاوية بن أبى سُفْيان فى يومِ عيدٍ، وقد قعد للناس، ووُضِعت الموائد، وبِدَر(٤) الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات. فجاء رجلٌ من الجماعة، والناسُ يأكلون، فقعد علىٰ كيس فيه دنانير. فصاح به الخَدَمُ: تَنَحَّ، فليس هذا بموضعٍ لك! فسمع معاوية،

(١) هذه الكلمة بفتح الميم وبكسرها، والفتح أشهر، كما يدلُّ عليه المعجم الفارسى الإنكليزى لرتشاردصُن. وضبطها ياقوت بالكسر (ج ٤ ص ٦٦٨) واخترنا الفتح لجريانه على ألسنة المصريين.

(٢) أُنظر الفصل الطويل المفيد المشحون بالأسانيد الذى أورده العلامة دوزى الهولندى على هـذه الكلمة فى معجم الثياب عنـد العرب (ص ٣٥٢ — ٣٦٤) وقد قال فى آخره إن الهولنديين أخذوا هذا اللفظ عن (قباى) فى اللسان الفارسى فنقلوه إلى لغتهم وقالوا (Kabaai) للدلالة على الثوب الذى يسميه الفرنسيون Robe de chambre.

(٣) رواها باختصار يسير جدًا صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦).

(٤) [راجع الحاشية رقم ١ ص ٣٧]. وفى صـ: وبذر.

فقال: دَعُوا الرُّجلَ يقعدُ حيث آنتهىٰ به المجلس. فأخذ كيسا فوضعه بين بطنه وحُجْزة[١] سراويله، وقام. فلم يجسر أحدٌ أن يدنُوَ منه. فقال الخادم: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين! إنّه قد نقص من المال كِيسُ دنانيرَ. فقال: أنا صاحبُه، وهو محسوبٌ لك.[٢]

(٨٨) وهذه أخلاق الملوك معروفةٌ فى سِيَرِهم وكتبهم.

وإنما يَتَفَقَّدُ مثلَ هذا مَن هو دون الملك. فأمّا المَلِك، فيجِلُّ عن كلِّ شئ ويصغُر عنده كلُّ شئ.

الرّد على قولهم: المغبون لا محمود ولا مأجور

والعامّة تضع هذا وما أشبهه فى غير موضعه. وإنما هو شئ ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه علىٰ ألسِنَتِهِمْ، حتّى قالوا فى نحوٍ من هذا فى البائع والمشترى: "المغبونُ لا محمودٌ ولا مأجورٌ". فحَملوا الجَهلَة علىٰ المنازعة للباعة، والمشاتمة للسَّفلَة والسُّوقة، والمقاذفة للرعاع والوُضعاء،[٣] والنظر فى قيمةِ حَبّةٍ، والاطّلاع فى لسان الميزان، وأخذ المعايير[٤] بالأيدى.

وبِالحَرَى أن يكون المغبون محمودًا ومأجورًا. اللهمّ إلّا أن يكون قال له: اِغبِنِّى. بل لو قالها، كانت أُكرومةً[٥] وفضيلة، وفَعْلة جميلة تدلُّ علىٰ كرمِ عُنصرِ القائل وطِيبِ مُرَكَّبِه.

(١) موضع التِّكّة من السراويل.

(٢) رواها بآختصار صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦)

(٣) صـ: "والمفارقة للزعازع والوضعاء".

(٤) جمع معيار.

(٥) سـ: "مكرمة". [وهما بمعنى واحد].

ولذلك قالت العرب: "السَّرْوُ التغافُلُ[(١)]!"

وأنت لا تجد أبدًا أحدًا يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن[(٢)] مبايعته إذا غُبِنَ، وعن التقصّي إذا بُخِسَ، إلّا وجدْتَ له فى قلبك فضيلةً وجلالةً ماتقدر على دفعها.

(٨٩) وكذا أدّبنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) فقال: "يَرْحَمُ الله سَهْلَ الشراء، سَهْلَ البيع، سَهْلَ القضاء، سَهْلَ التقاضى[(٣)]!"

وهذا الأدب خارجٌ من قولهم: "المغبونُ لا محمودٌ ولا مأجورٌ."

كلمة معاوية

وقال معاوية فى نحوٍ من هذا: "إنّى لأُجُرُّ ذيلى على الخدائع."

كلمة الحسن

وقال الحسَن (عليه السلام): "المؤمن لا يكون مكّاسًا."

سليمان بن عبد الملك والأعرابى الذى أخذ رداءه

وفيما يُحكى عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج فى حياة أبيه لِمُتَنَزَّهِهِ[(٤)]، فبُسِطَ له فى صَحْراء، فتغدّى مع أصحابه. فلما حان آنصرافه، تشاغل غلمانه بالتَّرحال، وجاءَ أعرابىٌّ فوجد منهم غَفْلَةً، فأخذ دُوّاجَ[(٥)] سليمان فرمى به على عاتقه، وسليمانُ ينظر

(١) فى سـ: "السرو التغافل". [وآنظر الحاشية ٥ من صفحة ٥٧ من هذا الكتاب]. ومن المأثور عن السفاح قوله: "التغافل من سجايا الكرام". (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٥).

ولشاعرهم:

ليس الغبيُّ بسيّدٍ فى قومه * لكنّ سيّدَ قومه المتغابى.

(٢) فى الأصل: ولا عن.

(٣) صـ: "رحم الله من سَهَّل الشراء وسهّل البيع". والذى رأيتُه فى صحيح البخارى: "رحم الله رجلا سمْحا إذا باع وإذا آشترى وإذا آقتضى". (ج ٣ ص ٥٧، طبع بولاق سنة ١٣١١)

(٤) صـ: لمتزهه.

(٥) الدُّوّاج هو اللحاف الذى يُلْبَس. ولعل شبيه بالملحفة المسماة الآن بالمُضَرَّبيَّة. وآنظر ما كتبه عليه دوزى فى قاموس الثياب (ص ١٨٦) وليس فيه تفصيلٌ يشرح المعنى. قال فى مطالع البدور: وُجد لأمّ المعتزّ ثلاثة دواويج كانت تستعملهن، فقُوِّم الدُّوّاج بأكثر من ألف دينار (ج ١ ص ٦٠).

إليه. فبصر به بعض حشمه، فصاح به: أَلْقِ ماعليك! فقال الأعرابى: "لالعَمْرى! لا أُلقيه ولا كرامة! هـذا كُسْوَةَ الأمير وخِلْعته". فضحك سليمان وقال: صدق أنا كَسَوْتُه. فمرّ كأنه إعصارُ الريح.

جعفر بن سليمان وسارق الدرّة
٩٠

وأحسنُ من هـذا مافعله جعفر بن سليمان بن علىّ بالأمس، وقد عُثِرَ برجل سرق دُرّةً رائعة، أخذها من بين يديه. فطُلبتْ بعد أيامٍ فلم توجد. فباعها الرجل ببغداد، وقد كانت وُصِفتْ لأصحاب الجوهر. فأُخِذ وحُمِل إلىٰ جعفر فلما بَصُرَ به، آستحيا منه وقال: ألم تكن طلبتَ هذه الدرّة منى، فوهبتُها لك؟ قال: بلىٰ. قال: لاتعرّضوا له! فباعها بمائتَىْ[1] ألف درهم.

✣

إكرام أهل الوفاء وشكرهم

ومن أخلاق المَلك إكرامُ أهل الوفاء وبِرُّهم والآستنامة إليهم والثقة بهم والتقدِمة لهم علىٰ الخاصّ والعامّ والحاضر والبادى.

وذلك أنه لا يوجد فى الإنسان فضيلة أكبر ولا أعظم قدرًا ولا أنبلُ فعلا من الوفاء. وليس الوفاءُ شكرَ اللسان فقط، لأن شكر اللسان ليس علىٰ أحدٍ منه مؤونة.

وآسمُ الوفاء مشتمِلٌ علىٰ خِلالٍ:

فمنها ـ أنْ يَذْكُرَ الرجُلُ مَن أنْعَمَ عليه، بحضرة المَلك فمَنْ دونه. فإنْ[2] كان المَلك

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦).

(٢) سـ: "إن" صـ: "وإن". [ووضعتُ حرف الفاء لمنع التشويش فى الجملة، والاضطراب فى السياق.]

فيه سيّئ الرأى، فليس من الوفاء أن يُعينه علىٰ سوء رأيه. فإنْ خاف سَوْط المَلك وسيفه، فأحسنُ صفاته أن يُمسِكَ عن ذكره بخيرٍ أوشرّ.

ومنها ــ المؤاساة للصاحب فى المال حتّى يقاسمه الدرهم بالدرهم والنعل بالنعل والثوب بالثوب.

ومنها ــ الحفظ له فى خَلْفه وعياله، ما كان فى الدنيا، حتّى يجعلهم إسوةَ عياله فى الجَدْب والخِصْب. (٩١)

ومنها ــ الشكر له باللسان والجوارح.

وكانت ملوك الأعاجم كلُّها، أوّلُها وآخِرُها، لا تمنع أحدًا من خاصّتها وعامّتها شُكْرَ مَن أنعم عليها أو علىٰ أحدٍ منها وتقريظَه وذكرَ نعمه وإحسانه، وإن كانت الشريعة قد قتلتـه والمَلك قد سَخِط عليه. بل كانوا يَعرِفون فضيلةَ مَن ظَهَرَ ذلك منه ويأْمرون بصلته وتعهُّده.

قباذ ومادح الجانى على المملكة

ويقال إن قُباذَ(١) أمر بقتل رجُلٍ كان من الطاعنين علىٰ المملكة. فقُتِل. فوقف علىٰ رأسه رجُلٌ كان من جيرانه فقال: "رحِمَكَ الله! إنْ كنتَ ــ ماعلِمتُ ــ لَتُكْرِمُ الجارَ وتصبر علىٰ أذاه، وتُواسى أهل الحاجة، وتقوم بالنائبة! والعَجَبُ كيف وجد الشيطان فيك مَساغا حتّى حَمَلك علىٰ عصيان مَلكك، فخرجتَ من طاعته المفروضة إلىٰ معصيته! وقديمًا ماتمكّن ممن هو أشدُّ منك قوّةً وأثبت عَزْمًا." فأخذ الرجُلَ

(١) [أنظر حاشية (٢) صفحة (٧٨) من هذا الكتاب].

صاحبُ الشُّرْطة فحبسه. وآنتهى كلامه إلىٰ قُباذَ، فوقَّع قُباذُ: يُحْسَنُ إلىٰ هذا الذى شكر إحسانًا فُعِلَ به، وتُرفَعُ مرتبتُه، ويُزاد فى عطائه.(١) ٩٣

* وهكذا فعل سعيد بن عمرو بن جَعْدة بن هُبيرة(٢) [المخزومىّ]، حين حُمِل رأس مَرْوان [الجعدىّ](٣) إلى أبى العبّاس [السفاح] بالكوفة، فعقد له مجلسا وجاءُوا بالرأْس. فقام سعيد بن عمرو بن جَعْدة فأكبَّ عليه قياما طويلا، ثم قال: هذا رأْس

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ١١٤).

(٢) كان من رجالات مروان الجعدىّ، وآشترك معه فى وقعة الزاب. (الطبرىّ سلسلة ٣ ص ٢٠٤ و ٢٢٤؛ والأغانى ج ١١ ص ٧٥؛ وابن الأثير فى حوادث سنة ١٤٥).

(٣) هو آخر خلفاء بنى أُميّة بالمشرق.

وُلد سنة ٧٢ وقيل سنة ٧٦. تولَّى لهشام ومَن بعده من الخلفاء الجزيرة وأرمينية وأذربيجان لغاية سنة ١٢٦. وفى هذه السنة الأخيرة أظهر الخلاف علىٰ يزيد بن الوليد. ثم سار فى سنة ١٢٧ إلى الشام وحارب سليمان بن هشام ودعا الناس إلى مبايعته. وتمَّت له البَيْعةُ بدمشق فى تلك السنة. وهو الذى سمَّى يزيد آبن الوليد بالناقص. وكانت وفاته بأرض مصر فى سنة ١٣٢ هجرية. [وآنظر صفحة ١٧٥ من هذا الكتاب].

وهو المعروف فى كتب التواريخ بمروان الفَرَس، ومروان الحمار، ومروان الجعدىّ. سماه العباسيون الذين خرجوا عليه وقلبوا دولته بالحمار فى نظير تسميته بالفَرَس. وقيل إنه لُقِّبَ بالحمار لأنه كان لا يجفّ له لبد فى محاربة الخارجين عليه. (كان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحروب. ويقال فى المثل. "فلان أصبر من حمار فى الحروب" فلذلك لقب به). وقيل إن العرب تُسمِّى كُلَّ مائة سنة حمارا. (فلما قارب مُلك بنى أُميّة مائة سنة لقبوا مروان بالحمار لذلك). وربما كان ذلك لِفراره على حمار (يدلُّ على ذلك قول رُؤْبة آبن العجاج فى مدح السفّاح:

مازال يأتى الأمرَ من أقطارِه * عن اليمينِ وعلىٰ يسارِه،
مُشمِّرًا لا يُصطَلىٰ بنارِه * حتّى أقرَّ المُلكَ فى قرارِه
وفرَّ مروانُ علىٰ حمارِه). =

أبى عبد الملك[1]، خليفتنا بالامس، رحمه الله! فوثب أبو العبّاس فطعن فى حَجْره[2]. وانصرف ابن جعدة إلى منزله، وتحدّث الناس بكلامه. فلامه بنوه وأهله، وقالوا :

= وأما تسميته بالجعدىّ فنسبة إلى أخذه (حين كان واليا على الجزيرة) بتعاليم مؤدّبه الجعد بن درهم مولى سُوَيد بن غَفَلة. وقع هذا الرجل إلى الجزيرة فأخذ برأيه جماعةٌ من أهلها. فلما حارب الخراسانيون مَرْوان نسبوا إلى الجعد ما رأوه من سعة علمه. وكان الناس يذمّون مروان بنسبته إلى الجعد. وكان الجعد من شيوخ المعتزلة وأظهر مقالته بخلق القرآن والقدر والاستطاعة وغير ذلك أيام هشام. ومن أقواله: "إذا كان الجماع يتولّد منه الولد، فأنا صانع ولدى ومدبّره وفاعله، لا فاعلَ له غيرى، وإنما يقال إن الله خلقه مجازًا لا حقيقةً". ومن قوله: "إن كان النظر الذى يوجب المعرفة، تكون تلك المعرفة فعلا لا فاعل لها". وقيل إنه كان زنديقا. وعظه ميمون بن مهران، فقال: "لَشَاةُ قُبَاذ أحبُّ إلىَّ مما تدينُ به! فقال له مهران: قتلكَ الله، وهو قاتِلك!" وشهد عليه مهران. فطلبه الخليفة هشام حتى ظفر به. فأرسله إلى خالد القسرىّ، وهو أمير العراق، وأمره بقتله. فحبسه خالد ولم يقتله. فبلغ الخبر هشاما فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله. فأخرجه خالد من الحبس فى وَثاقه. فلما صلّى العيد يوم الأضحى قال فى آخر خطبته: "انصرفوا وضَحُّوا يَقْبَلِ الله منكم، فإنى أُريد أن أُضحّىَ اليومَ بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلّم الله موسى ولا اتّخذ إبراهيم خليلا! تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرا!" ثم نزل وذبحه.

انظر الطبرىّ سلسلة ٢ (ص ٩٤٠ و ١٥٦٢ و ١٨٢٥ و ١٨٧٠ و ١٨٧٦)؛ وانظر الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٣ وج ٢١ ص ٨٧)؛ وانظر "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٩)؛ والفِصَل فى الملل والأهواء والنحل (ج ٤ ص ٢٠٢)؛ وأنساب السمعانى (ص ١٣١)؛ وابن الأثير (ج ٥ ص ١٩٦ و ١٩٧ و ٣٢٩)؛ وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب (ص ٨١)؛ والفَرْق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١٠ (ص ١٤ و ٢٦٢).

(١) هو كنية مروان الجعدىّ، باسم ابنه.

(٢) أى فى حضنه.

عرّضْتنا ونفسَك للبوار ! فقال: آسكتوا، قبّحكم الله ! ألستم الذين أشاروا علىّ بالأمس بحرّان بالتخلّف عن مرْوان، ففعلتُ فى ذلك غيرَ فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما كان ليغسِل عنى عار تلك الفَعلة إلّا هذه . فإنما أنا شيخٌ هامّةٌ[1]، فإنْ نجوتُ يومى هذا من القتل، مُتُّ غدًا. قال: فجعل بنوه يتوقّعون رُسُل أبى العبّاس أنْ تطرُقه فى جوف الليل. فأصبحوا ولم يأتِه أحدٌ. وغدا الشيخُ فإذا هو بسليم بن مُجالد. فلما بصُر به، قال: يا آبن جعدة ! ألَا أبشّرك بجميل رأْى أمير المؤمنين؟ إنه ذكر فى هذه الليلة ما كان منك، فقال: "والله ! ما أخرج ذلك الكلامَ من الشيخ إلا الوفاءُ. ولَهُوَ أقربُ منا قرابةً، وأمسُّ بنا رَحِمًا منه بمرْوان، إنْ أحسنّا إليه!" قال: أجَلْ، والله![2] *

(١) تقول العرب: فلان هامّةٌ، أى يصير فى قبره. ومنه قول كُثيِّر:

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهوى، * فباليأس تسلو عنكِ، لا بالتجلُّدِ.

وكُلُّ خليلٍ راءَنى فهْوَ قائلٌ: * مِنَ اَجلكِ هذا هامَةُ اليوم أو غَدِ.

يقال: فلان هامة اليوم أو غد، أى يموت فى يومه أو غده. و يقال ذلك للشيخ إذا أسَنَّ، والمريض إذا طالت علّته، والمحتقر لمدة الآجال. وفى الحديث أن أبا حذيفة بن اليمان قال لثابت بن وقش الأنصارى وقد تخلف معه فى غزوة أُحُد: "إنهضْ بنا ننصُرْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنما نحن هامة اليوم أو غد". (وكانا قد أسَنّا). ومرجع ذلك لأعتقاد العرب فى مسألة الهامة. (راجع "الكامل" للمبرد ص ٢١١ و٣٨٧؛ وأنظر "الأغانى" ج ١٣ ص ١٦٥)

(٢) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن ص. وقد رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ١١٩ و ١٢٠)

كتاب قيس بن سعد ابن عبادة إلى معاوية

وهكذا فعلَ قَيْس بن سعد بن عُبادة [الأنصارىّ] بمُعاوية بن أبى سُفيان، حين دعاه إلىٰ مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخولِ فى طاعته. فكتب إليه قيس بن سعد: "يا وثن آبن وثن! تكتُبُ إلَىَّ تدعونى إلىٰ مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخول فى طاعتك وتخوّفنى بتفرُّق أصحابه عنه وإقبال الناس عليك وإجفالهم إليك! فوالله الذى لا إله غيره! لو لم يبقَ له غيرى ولم يبقَ لى غيره، ما سالمتُك(١) أبدا، وأنت حَرْبه، ولا دخلتُ فى طاعتك وأنت عدوُّه، ولا آخترتُ عدوّ الله علىٰ وليِّه، ولا حزبَ الشيطان علىٰ حزبِ الله. والسلام!"

الإسكندر والمتقربون إليه بقتل ملكهم

وفى سِيرة الإسكندر ذى القرنين أنه لما قصد نحو فارِس، تلقّاه جماعة من أساورتهم برأس ملكهم، يتقربون إليه به. فأمر بقتلهم لسُوء رَعْيهم وقلّة شكرهم لملكهم ومَن أنعم عليهم. وقال: مَن غدر بملكه كان بغيره أغْدَر.

شيرويه ومادحه على قتل أبرويز

(٩٣)

وفيما يُحكىٰ عن شيرويه أن رجلا من الرعيَّة وقف له يوما، وقد رَجَع من الميدان، فقال: "الحمد لله الذى قتل أبرويز(٢) علىٰ يديك، وملَّكك ما كنتَ أحقّ به منه وأراح آل ساسان من جبرِيَّتِه(٣) وعُتُوّه وبُخله ونَكَده. فإنّه كان ممن يأخذ بالحَبَّة(٤)،

---

(١) أُنظر فى المسعودى مكاتبات أُخرى جرت بينهما (ج ٥ ص ٤٥).

(٢) [أُنظر حاشية ١ صفحة ٩ من هذا الكتاب.]

(٣) صـ: «جبروته». والجَبَرِيّة القهر والغلبة. وفيها لغات كثيرة ذكرها فى القاموس وفى كامل المبرد. وفى خطبة عُتْبة بن غَزْوان: "وإنه لم تكن نُبُوّةٌ إلا تناسختها جَبَرِيّة". أى مُلك غالب وعضوض. [أنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٧٢]

(٤) صـ: بالإحنة.

ويقتل بالظنّ، ويُخيف البرىء، ويَعمل بالهوىٰ". فقال شيرويه للحاجب: اِحْمِلْهُ إلىٰ ‹خُمِل›. فقال له: —

— كم كانت أرزاقك فى حياة أبرويز؟

— كنتُ فى كفاية من العيش.

— فكم زِيدَ فى أرزاقك اليومَ؟

— ما زِيدَ فى رزق شئٌ.

— فهل وَتَرَكَ[1] أبرويز، فانتصرتَ منه بما سمِعتُ من كلامك؟

— لا.

قال — فما دعاك إلىٰ الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادّة رزقك ولا وَتَرَكَ فى نفسك؟ وما للعامّة والوقوعَ فى الملوك، وهم رعيّة؟

فأمر أن يُنْزَعَ لسانُه من قفاه، وقال: "بحقٍّ ما يقال إن الخَرَسَ خَيْرٌ من البيان فيما لا يَجِبُ."[2]

المنصور والضارب رأس الخارج عليه بعد قتله

وحدّثنى صَباح بن خاقان[3]، قال: حدّثنى أبى أنّ أباجعفر [المنصور] لما أُتِىَ برأس

(١) وَتَرَهُ حَقَّهُ أى نقصه. (صحاح) [حاشية فى صـ]

(٢) روى هذه الحكاية بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١١).

(٣) هو صباح بن خاقان المِنْقَرىّ. كان نديما لمصعب الزبيرى، وكان من مشايخ المروءة والعلم والأدب. وكان متعصبا للفرزدق وجرير يفضلهما على الأخطل (أغانى ج ٧ ص ١٧٤ وج ١٥ ص ١٥٩ و١٦٠). وكان هو ومصعب جليسين لا يكادان يفترقان وصديقين متواصلين لا يكادان يتصارمان (كامل المبرد ص ٤٦٠). وقد امتدحه إسحاق النديم (المشتبه فى أسماء الرجال للذهبي ص ٣١٠).

إبراهيم بن عبدالله فوُضِع بين يديه، جاء بعض أولئك الرُّوَيْديّة[1] فضرب الرأس بعمودٍ كان في يده. فقال المنصور للمُسَيَّب[2]: دُقَّ[3] وجهه! فدقّ المُسَيَّب أنفَهُ. ثم قال [المنصور] له: يا ٱبن اللخناء! تجيء إلى رأس ٱبن عمّي (وقد صار إلى حالٍ لا يدفع ولا ينفع) تضربه بعمودك، كأنك رأيته وهو يُرِيدُ نفسي فدفعته عنّي. أُخْرُجْ إلى لعنة الله وأليم عذابه! (٩٤)

المنصور ومادح هشام الأموي

ويقال إن أبا جعفر وجّه إلى شيخٍ من أهل الشأم، كان من بِطانة هشام، فسأله عن تدبير هشام في بعض حروبِهِ الخوارِجَ. فوصف له الشيخ مادبّر، فقال: "فعل (رحمه الله) كذا وصنع (رحمه الله) كذا." فقال المنصور: قُمْ، عليك لعنة الله! تَطَأُ بِساطي، وتترحّمُ على عدوّي؟ فقام الرجُل، فقال وهو مُوَلٍّ: إنّ نعمةَ عدوّك لَقِلادةٌ في عُنُقٍ لا ينزعُها إلّا غاسِلي. فقال له المنصور: اِرجِعْ ياشيخُ! فرجَعَ. فقال له: أشهدُ

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

(٢) هكذا في س، ص. ولا يمكن أن تكون الكلمة محرّفة عن الراوندية لأنهم قاموا على المنصور في سنة ١٤٠، وإبراهيمُ بن عبد الله كان قتله في سنة ١٤٥. ولم أتمكن بعد شدّة البحث وكثرة التنقيب في كتب التواريخ واللغة من الوقوف على معناها أو تقويمها. ولعلها تكون "الدورية" بمعنى أصحاب الدور من العساكر وأرباب الحرس، أو الزردية بمعنى لابسي الزرد. ولكنني لست على ثقة من ذلك. والذي في ٱبن الأثير: رجل من الحرس (ج ٥ ص ٤٣٧). وروى الطبريّ هذه الحكاية على وجه آخر ووصف الرجل بأنه من السيّافة (سلسلة ٣ ص ٤١٦).

(٣) هو المُسَيَّب بن زهير الضبّي وهو من ولد ضرار بن عمرو (و بنو ضرار من سادة ضبة). كان على شرطة أبي جعفر، وولاه المهديّ خراسان. وولي شرطة موسى الهادي. وكانت هذه الوظيفة في أبنائه لهارون والأمين والمأمون. (معارف ٱبن قتيبة ص ٢٠٠)

(٤) ص: سُوِّ.

أنك نَهيضُ حُرَّةٍ وغِراسُ شريفٍ! عُدْ إلىٰ حديثك! فعاد الشيخ إلىٰ حديثه حتّىٰ إذا فَرَغَ، دعا له بمالٍ ليأخذه فقال: "والله يا أمير المؤمنين، ما بى من حاجةٍ إليه! ولقد مات عنّى مَن كنتُ فى ذِكره آنفا، فما أَحْوَجَنى إلىٰ وقوفٍ علىٰ باب أحدٍ بعدَه. ولولا جلالةُ عزِّ أمير المؤمنين وإيثارُ طاعته ما لَبِسْتُ لأحدٍ بعده نعمةً." فقال المنصور: "مُتْ إذا شئْتَ، فلله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك، لكنتَ قد أبقيتَ (٩٥) لهم مجدًا مُخلَّدًا". ويقال إن الرجل كان من شَيْبان(١).

⁂

الأدب عندما يتكلم الملك

ومن حقّ الملك – إذا حضره سُمّارُه أو مُحدِّثوه – أنْ لا يُحرِّكَ أحدٌ منهم شفتيه مبتدئًا، ولا يقطعَ حديثَه بالاعتراض فيه، وإن كان نادرًا شهيًّا، وأنْ يكون غرضُهم حُسْنَ الاستماع، وإشغالَ الجوارح بحديثه. فإذا فرغ من الحديث فنظر إلىٰ بعضهم، فقد أذِنَ له أنْ يُحدِّثَه بنظير ذلك الجنس من الحديث. وليس له أن يأخذ فى غير جنس حديثه.

الأدب فى تحديث الملك

وليس لمن حدّث الملكَ أن يُفسِدَ ألفاظَه وكلامَه، بأنْ يقولَ فى حديثه: "فاسمعْ منى" أو "افهمْ عنى" أو "يا هذا" أو "ألا ترى". فإنّ هذا وما أشبهَه عِىٌّ من قائله وحَشْوٌ فى كلامه وخروجٌ من بَسْطِ اللسان(٢) ودليلٌ على الفَدَامة(٣) والغثاثة(٤). وليكنْ كلامُه

(١) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتصرف يسير (ج ٦ ص ٦٧ و ١٦٨). ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٢٠). وكان المنصور فى أكثر أموره وتدبيره وسياسته متّبعا لهشام فى أفعاله، لكثرة ما يستحسنه من أخبار هشام وسيرته. (شذرات الذهب ج ١ ص ١٨١)

(٢) س: وخروج من بسط الزمان، ص: وخروج يربط اللسان.

(٣) الفَدَامة العِىُّ عن الحجة، والكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم.

(٤) هى سوء الخلق. ويعبِّرعنها العامّةُ فى أيامنا هذه بقولهم: الغتاتة. ومنها فلان غتوت.

كلامًا سهلًا، وألفاظُه عذبةً مُتّصلةً، وسَقَطُ كلامِه قليلًا. فإذا فرغ من الحديث، فليس له أنْ يَصِلَهُ بحديثٍ آخرَ، وإنْ كان شبيها بالحديث الأول، حتّى يرى أنّ المَلك قد أقبلَ عليه بوجهه وأصغى إلى حديثه. [فإن أعرض] لشغل يعرض له، (٩٦) [فليس له] أن يمرّ فى حديثه وأن يَصِلَ كلامه، فيحتاج الملك إلى الإصغاء إليه ويحتاج إلى التشاغل بما عرض له، فيجمَعُ عليه أمرين. فإنّ هذا سُخْفٌ من فاعله وخروجٌ من الأدب. ولكن لِيُنْصِتْ مُطْرِقًا: فإنِ اتّصل شُغل المَلك، تَرَكَ الحديث، وإن انقطع فنظر إليه، فقد أَذِنَ له فى إتمامه وإعادته.

✣

عدم الضحك من حديث الملك

ومن حقّ المَلك أن لا يُضْحَكَ من حديثه إذا حَدَّثَ، لأن الضَّحِك بحضرة الملك جُرأةٌ عليه، ولا يُظْهَرَ التعجُّب بفائدة حديثه. وإنما هذا إلى المَلك. فإنْ ضَحِكَ المَلك من الحديث وأظهر السرور به، فذاك غرضُ حديثه، وإليه قَصَدَ. وإن سكتَ، فلم يكن فى الحديث ما يُلهيه ويُطربهُ أو يستفيدُ منه فائدةً، كان قد سَلِمَ من العيب، إذ لم يضحك ولم يعجب.

✣

عدم إعادة الحديث مرتين على الملك

ومن حقّ المَلك أنْ لا يُعاد عليه الحديث مرّتين، وإن طال بينهما الدهر وغَبَرَتْ بينهما الأيام، إلا أن يذْكُرَه المَلك. فإن ذَكَرَهُ، فهو إذْنٌ منه فى إعادته.

(٩٧)

كلمة روح بن زنباع فى المعنى

وكان رَوْحُ بنُ زِنْباع[1] يقول: أقمتُ مع عبد الملك سبعَ عشرة سنةً من أيامه، ما أعَدْتُ عليه حديثًا.

---

(١) أنظر الحاشية ١ صفحة ٦٠ و١١٧ و١٣٠ من هذا الكتاب.

كلمة الشعبي في المعنى

وكان الشَّعبيّ[(١)] يقول: ما حدّثتُ بحديثٍ مرّتين لرجلٍ بعينه قطُّ.

كلمة السفاح

وكان أبو العباس[(٢)] يقول: ما رأيتُ أحدا أغزر علمًا من أبي بكر الهُذَليّ، لم يُعِدْ عليّ حديثا قطُّ.

كلمة ابن عياش في المعنى

وكان ابن عيّاش[(٣)] يقول: حدّثتُ المنصور أكثر من عشرة آلاف حديثٍ. فقال لي ليلةً، وقد حدّثتُه عن يومِ ذي قارٍ[(٤)]: قد اضطُرِرْتَ إلى التَّكرار، يا ابن عياش! قلتُ: ما هذا منها، يا أمير المؤمنين. قال: أمَا تذكر ليلة الرعد والأمطار، وأنت تحدّث عن يوم ذي قار، فقلتُ لك: ما يومُ ذي قارٍ[(٥)] بأصعبَ من هذه الليلة؟

---

(١) هو فقيه العراق وأشهر من أن يذكر.

(٢) يعني السفاح رأس الدولة العباسية.

(٣) أنظر حاشية ٣ صفحة ٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) ذو قارٍ هو اسم ماء لبني بكر بن وائل، بالقرب من الكوفة. حدثت فيه معركة هائلة بين العرب والعجم قبل البعثة النبوية، وقيل بين غزوتَيْ بدرٍ وأُحُدٍ. انتصر فيها العرب على العجم انتصارا باهرا تغنّى به شعراؤهم وتحدّث به أخباريُّوهم. ويُسمّى هذا اليوم أيضا يوم الحِنْوِ، ويوم حِنْوِ ذي قار، ويوم حِنْوِ القراقر، ويوم بطحاء ذي قار، ويوم قراقر، ويوم الجبابات، ويوم ذات العجروم. وكلهن مواضع حول ذي قار. ولكنه الأشهر والأكثر في الاستعمال.

(٥) القار (بتخفيف الراء) هو في لغة العرب هذا الأسود (الزفت) الذي تُطلى به السُّفُن، وهو شجر مرٌّ أيضا (عن تاج العروس). وفي لغة الفرس يدل على البياض وعلى السواد (لأنه عندهم من أسماء الأضداد)؛ وقد أطلقوه من باب التوسع على الثلج وعلى الزفت بسبب لونهما. وليس يستفاد من الحكاية التي أوردها الجاحظ (مع ملاحظة المنصور على جليسه) أن المعركة وقعت في أيام الشتاء، ولأنه ربما كان لتسميتها بيوم ذي قار علاقة بنزول الثلج وأن الموضع ربما سمي بهذا الاسم لهذه المناسبة. والحقيقة أن اللفظ عربيّ صميم لأنه اسم ماء =

مواطن إعادة الحديث على الملوك

وكان الشَّرْقِيُّ بنُ القُطَامِيِّ (١) يُعيد الحديث مرارًا. وذلك أنَّ أكثر أحاديثه مضاحيكُ، وكانت تُعجِب المهديَّ فيستعيده.

= لبنى بكر بن وائل كما ذكرنا فى الحاشية السابقة، ولأن من نظر إلى الخريطة الجغرافية يتبين له أن عرض هذا المكان مما لا يقع فيه الثلج. وفوق ذلك فالمعلومات التاريخية تدل على أن هذه الحرب وقعت فى أيام القيظ. يدل على ذلك قول التغلبيِّ الذى يريد هلاك بكر بن وائل، حينما استشاره كسرى أبرويز فى أمرهم: "أمهلهم حتى يقيظوا ويتساقطوا على ذى قار، تساقطَ الفَرَاشِ فى النار. فتأخذهم كيف شئتَ" (ابن الأثير ج ١ ص ٣٥٧). ويؤيد ذلك ويوضحه مارواه صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ١١٣) فقد أورد حديث التغلبيِّ مع كسرى هكذا:

" — ياخير الملوك! ألا أدُلُّك على غِرَّة بكرٍ؟

— بلى!

— أقِرَّها، وأظهر الإضراب عنها حتى يُجلِيَها القيظُ ويُدنيَها منك. فإنهم لوقاظوا، تساقطوا عليك بما لهم فى وادٍ يقال له ذوقار، تساقطَ الفَرَاش فى النار."

وإنما الذى أشار إليه المنصور هو اشتداد الأمر وحرج الحال واصطلام الحرب، كما كانت ليله شديدة برعدها ومطرها.

(أنظر التفصيل عن تلك الواقعة وسببها فى معجم البلدان ج ٤ ص ١٠ — ١٢؛ "والأغانى" ج ٢٠ ص ١٣١ — ١٤٠؛ "والعقد الفريد" ج ٣ ص ١١٣ — ١١٦؛ "وابن الأثير" ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٨؛ وأنظر "صبح الأعشى" ج ١ ص ٢٣٦؛ "وتاج العروس" فى ق و ر.)

(١) سماه فى القاموس شرق بن القطاميّ. وفى شرحه عن بعض أهل اللغة أنه بفتح الراء. والقطاميّ بفتح القاف فى لغة قيس وعند سائر العرب بالضم.

وهو الوليد بن الحُصَيْن الكلبي. والشرقيُّ لقبه، كما أن القَطاميّ لقب أبيه. كوفيٌّ وافر العلم والأدب، واشتهر بمعرفة الأنساب ورواية الأخبار والدواوين. ولكنه فى الحديث معدود من الضعفاء. كان =

وكان ٱبن دَأْبٍ[1] إذا حدّث موسٰى أمير المؤمنين بالحديث، أعاده عليه فى القابلة حتّى يحفظه.

(٩٨) ويقال إنه لم يُسامِرِ الخلفاءَ أحدٌ كان أنبل من عيسٰى بن دَأْبٍ، ولا أتمّ صنعةً ولا أحسنَ ألفاظا ولا أفكَهَ مجلسا ولا أعظمَ أُبَّهة وقدْرًا منه. وكان عيسٰى بن دأب يَتَّكِئُ فى مجلس أمير المؤمنين.

= صاحب سَمَر. أقدمه أبو جعفر المنصور ليعلِّمَ ولده المهدىّ. وقد سأله: "عَلَامَ يؤتَى المرء؟ فقال: أصلح الله الخليفة! على معروف قدسلف، أو مثله يؤتَنف، أو قديم شرف، أو علم مُطَّرَف." ضمّه المنصور إلى المهدىّ حين خلّفه بالرَّىّ، وله معه هناك حديث ظريف عن الغريَّين (ساقه فى "مروج الذهب" ج ٦ ص ٢٥١ ــ ٢٥٦، وأورده ياقوت برواية أخرى فى "معجم البلدان" ج ٣ ص ٧٩١ ــ ٧٩٢).
وله كتب فى التاريخ والأنساب. روى عنها المسعودىّ و ياقوت والبلاذرىّ. وله قصيدة فى الغريب. سأله رجل ذات يوم عما كانت تقرؤه العرب فى صلاتها على موتاها. فقال: لا أدرى. فقال له الرجل: كانوا يقرؤن:

ماكنتَ وكوا كا ولا بزَوَنَّكْ * رُوَيدكَ حتى يبعث الخلق باعثُهْ

فحدَّث بذلك فى المقصورة يوم الجمعة. (انظُر "كتاب الفهرست" ص ٩٠ و١٧٠ و٣٠٦؛ و"نزهة الألباء" ص٤٢ ــ ٤٣؛ وٱبن قتيبة فى "المعارف" ص ٢٦٨. وقد صُححتُ البيت عن "لسان العرب" فى مادتى زنك، وكك).

(١) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، ويكنى أبا الوليد. (ودأب مأخوذ من قولهم: مازال هذا دأبه وديدنه وعادته ودِينه أى فعله الذى لا يفارقه). كان هو وأبوه وأخوه من العلماء بأخبار العرب وأشعارهم. وكان عيسٰى شاعرا فوقَ ذلك. وكان يضع بالمدينة الشعر وأحاديث السَّمَر وكلامًا يُنْسب إلى العرب. وكان أكثر أهل الحجاز بل ومعاصريه أدبا وعلما وعذوبة لفظ ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم؛ وكان لذيذ المفاكهة، طيِّب المسامرة، كثير النادرة، جيِّد الشعر، حَسَنَ الأنتزاع له. وهو من نقلة الأخبار ونُقَّاد الأشعار. حظِيَ عند الهادى حظوة لم تكن لأحد قبله. وبلغ من تيهه على الخليفة أنه كان ينادمه ولا يتغدّى معه. فقيل له فى ذلك، فقال: أنا لا أتغدّى فى مكان لا أغسل يدىَّ فيه. فقال له الهادى: فتغدَّ! فكان الناس إذا تغدَّوْا تنحَّوْا لغسل أيديهم، وٱبنُ دأب يغسل يديه بحضرة الخليفة. وبلغ من تيهه ودالّته عليه أيضا أن الخليفة كان يدعو له بما يتّكئ عليه فى مجلسه (وما كان يفعل ذلك بغيره ولم يكن عنده أحدٌ يطمع منه بذلك). =

ولم يكن هـذا لأحد. غير أنه يُحكىٰ أن رَوْح بن زِنْبَـاع مَرِض فكان يدعو له عبدُ الملك بن مروان بِمُتَّكَإٍ.(١)

✤

الأدب فى تحديث الملك

وعلىٰ المحـدِّث للملك أنْ لا يعجَلَ فى كلامه، وأن يُدمِج ألفاظه،(٢) ولا يُشـير بيده،

= وكان يقول له: "ما آستطلت بك يوما ولا ليلا، ولا غِبتَ عن عينى إلا تمنّيتُ أن لا أرىٰ غيرك". أمر له مرة بثلاثين ألف دينار. فعاكسه الحاجب فى قبضها، فتركها. ثم رآه الهادى، وليس معه إلّا غلام واحد، فأخذ عليه عدم ظهور النعمة فيه. فلما دخل إليه عرّض له بذلك وقال له: "أرى ثوبك غسيلا، وهذا شتاء يحتاج إلى الجديد." فقال: باعى قصير. فقال: وكيف، وقد صرفنا إليك مافيه صلاح شأنك؟ فقال: ماوصل إلىّ. فدعا صاحب بيت المال وآستحضر الثلاثين ألف دينار وحملها بين يديه.

وكان كثيرا مايدعوه ويسأله إنشاد الأبيات من أشعر ماقالت العرب. وكان يروى له الأخبار (منها حديث عن غلام سندىّ مع مولاه، ساقه المسعودىّ فى ج ٦ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ وصاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٦١٣ — ٦١٤)، والأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ٢ ص ٦٥)، وصاحب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ١١٦ — ١١٧). ومنها حديث عن عيوب مصر وفضائل البصرة والكوفة، ساقه المسعودىّ أيضا فى الجزء السادس (ص ٢٧٠ إلى ٢٧٧). وقد أخذ عليـه خلف الأحمر هفوة فقال فيـه: "العجب من آبن دأب! والله لقد طمع فى الخلافة حين ظن أن هذا يُقبل منه." وقد هجاه آبن مناذر الشاعر الفصيح المقدّم فى العلم باللغة، لأنه قال فيه قولا قبيحا. وكان خَلَف الأحمر ينسب إليه الكذب. وقالوا إنه كان يتشيّع ويضع أخبارا لبنى هاشم. (أنظر "كتاب الفهرست" (ص ٩١)؛ و"الأغانى" (ج ٥ ص ١٥٨ وج ٨ ص ١٠٤ و ١٠٦ وج ١١ ص ٦٩ وج ١٧ ص ٢٤ وج ١٩ ص ٤٨)؛ وآنظر آبن الأثير ج ٦ (ص ٧٢ — ٧٣)؛ وآنظر أيضا "مروج الذهب" (ج ٥ ص ١١٨ وج ٦ ص ١٢٨ و ٢٦٣)؛ وآنظر "المعارف" لآبن قتيبة (ص ٢٦٧)؛ و"كتاب الآشتقاق" لآبن دريد (ص ١٠٦)؛ و"كامل المبرّد" (ص ١٨٦ و ٢١٢)؛ و"المحاسن والمساوى" (ص ٢٠٧ — ٢٠٨)؛ والطبرىّ سلسلة ٣ (ص ٥٨٩)؛ و"شرح الحماسة" (ص ٢٠٠)؛ "والبيان والتبيين" ج ١ ص ٢٤ "وتاج العروس" فى دأب. وله ترجمة وافية فى "معجم الأدباء" لياقوت

روىٰ هذه الأحوال صاحب "محاسن الملوك" بالحرف الواحد عن الجاحظ دون أن يسميه (ص ٢٤).

(١) دخل محمد بن عمران على المأمون ذات ليلة، فجعل يأمره وينهاه، ثم دعا له بمُتَّكإٍ، فقال: أُعيذك بالله، ياأمير المؤمنين! ما كنتُ لأتّكئَ فى مجلسك! فقال له: إن على قلبك من ذلك ثِقلا ومؤونة، فأردنا أنْ يستريح بدنك ليفرُغ لنا قلبك. ("مطالع البدور" ج ١ ص ١٠)

(٢) من قولهم: أُدمج الحبل أجاد فتله، وقيل: أحكم فتله فى رقة. (عن تاج العروس)

ولا يُحرِّك رأسه، ولا يزحف من مجلسه، ولا يُراوح بين قَعْدته، ولا يرفع صوته، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً، ولا يُقبِل على غير الملك بملاحظته، ولا يكون غرضه أنْ يسمَعَ حديثَه أو يفهَم عنه سِواهُ.

✣

أمارات الملوك للجلساء بالانصراف

ومن حقّ الملك ـ إذا تثاءب أو ألقى المِرْوحة أو مدّ رجليه أو تمطّى أو اتّكأ أو كان في حالٍ فصار إلى غيرها مما يدلُّ على كسله[1] أو وقت قيامه ـ أن يقوم كلٌّ من حضره.

وكان أردشير بن بابك اذا تمطّى، قام سُمّاره.

وكان الأَرْدَوان الأحمر[2] له وقت من الليل وساعات تُحصى. فإذا مضت، جاء الغلام بنعله، فقام من حَضَرَهُ.

*وكان يُسْتاسِف إذا دلك عينيه، قام من حضره.

وكان يزدجرد الأثيم إذا قال: "شَبْ بِشُدْ"[3]، قام سُمّاره.

وكان بهرام جور إذا قال: "خُرَّمْ خُفْتار"[4]، قام سُمّاره.

وكان قُباذ إذا رفع رأسه إلى السماء، قام سُمّاره.[5]*

وكان سابور إذا قال: "حسبك يا إنسان!" قام سُمّاره. ٩٩

(١) صـ : كله. (بمعنى كلاله)

(٢) لعل الصواب: "الأصغر". [وانظر الحاشية ٦ من صفحة ٢٩ وصفحة ١٥١ من هذا الكتاب]

(٣) جملة فارسية معناها: صار الليل. وفي هامش صـ: يقول ذهب الليل.

(٤) جملة فارسية معناها: نام مسروراً (؟)

(٥) هذه الفقرات الأربع المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ.

وكان أنوشروان إذا قال: "قرّت أعينكم!" قام سُمّاره.(١)

وكان عمر بن الخطّاب إذا قال: "الصلاة!"(٢) قام سُمّاره. وكان ينهىٰ عن السَّمَر بعد صلاة العِشاء.

وكان عثمان إذا قال: "العزة لله!" قام سُمّارُه.

وكان معاوية إذا قال: "ذهب الليل!" قام سُمّاره ومَن حضره.(٣)

وكان عبد الملك إذا ألقى المِخْصَرة(٤)، قام مَن حضره.(٥)

وكان الوليد اذا قال: "أستودعكم الله!" قام مَن حضره.(٦)

وكان الهادى إذا قال: "سلام عليكم!" قام مَن حضره.

وكان الرشيد إذا قال: "سبحانك اللّهم وبحمدك!"(٧) قام سُمّارُه.

---

(١) وكان كيشاسف يدلك عينـه؛ ويزدجرد يقول: شب بشدّ (أى مضى الليل)؛ وبهرام يقول: خُرَّم خوش باد (أى كُنْ مسرورًا)؛ وأبرويز يمدّ رجليه؛ وقباذ يرفع رأسه إلى السماء. (عن "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١ . والتفسير العربىّ الأوّل عن المرحوم محمد عارف باشا فى حاشية "المحاضرات")

(٢) إذا قال قامت الصلاة. (فى "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١)

(٣) قال أصحاب معاوية له: إنا ربّما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنُريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك. قال: علامة ذلك أن أقول "إذا شئتم!". وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلت "على بركة الله!" وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان فقال: إذا وضعتُ الخيزرانة. ("العقد الفريد" ج ١ ص ١٦٦ و ٢٨٨)

(٤) قضيب كالسوط، وكل ما آختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصا ونحوها. وذلك من شعار الملوك.

(٥) فى المسعودىّ (ج ٥ ص ٢٥٧) وفى الراغب فى الموضع السابق بيانه، أنه كان يقول: "إذا شئتم" وكان سادات العرب يقولون لجليسهم: "إذا شئت فقم!" وهذه الجملة آستعملها مصعب بن الزبير، كما فى الأغانى. (ج ٢ ص ١٣٨)

(٦) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين منقولة عن صـ .

(٧) سبحان الله (الراغب ج ١ ص ١٢١)

وكان المعتصم إذا نظر إلىٰ صاحب النعل، قام مَن حضره.

وكان الواثق إذا مسَّ عارضَيْه وتثاءب، قام سُمَّارُه.

وكان المأمون إذا ٱستلقىٰ علىٰ فراشه، قام مَن حضره.(١)

غير أن بعض مَن ذكرنا كان ربما قام بجنسٍ آخرَ من الإشارة والكلام، وإنما أضفنا إلىٰ كلِّ واحد منهم أغلبَ أفعاله كانت عليه.(٢)

✣

عدم ذكر أحد بالعيب فى حضرة الملك

ومن حقِّ الملك أن لا يُعابَ عنده أحدٌ، صَغُرَ أو كَبُرَ.

تحريش الملك بين رجاله

(١٠٠)

غير أن من أخلاقها التحريشَ بين ٱثنين، والإغراءَ بينهما.

فمن الملوك مَن يُدبِّرُ فى هذا تدبيراً يجب فى السياسة. وذلك أنه يقال: قلَّ ٱثنان ٱستويا فى منزلة عند الملك والجاه والتَّبَع والعزِّ والحُظْوة عند السلطان فٱتفقا، إلّا كان ذلك الاتّفاق وَهْناً علىٰ المملكة والمَلك، وفساداً فى تدبيره. وذلك أنهما إذا ٱتفقا، وهما وزيرا الملك، كانا — متىٰ شاءآ — أنْ ينقضا ما أبرم الملك ويَحُلَّا ما عقد ويُوهِيَا ما أكَّد — قَدَرا على ذلك للاتّفاق والمُجامعة. ومتىٰ ٱنفصلا حتىٰ يتباينا أو يتحارنا كان تبايُنهما

(١) هذه العبارة غير واردة فى صـ . وإذا كانت صحيحة فكأنها بعد الكلام عن الرشيد، أى قبل هذا الموضع بسطرين.

(٢) فى "مطالع البدور فى منازل السرور" (ج ١ ص ١٨٤) أن أوّل من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد، كسرىٰ. وهو أن يمدّ رجله، فيعرفون أنه يريد قيامهم، فينصرفون. وتبعه الملوك. فكان فيروز الأصغر يدلك عينيه، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء. وكان فى ملوك الإسلام معاوية يقول: العزة لله! ، وعبد الملك يلقى المروحة من يده. وحُدِّث بهذا الحديث عند بعض البخلاء، وسُئل ما أمارته، فقال: إذا قلت "يا غلام، هات الطعام!" وٱنظر أيضا "محاضرات الراغب" (ج ١ ص ١٢١)

أثبتَ فى نظام المُلك وأوكد فى عزّ المملكة. وكان متىٰ أراد هذا شيئا، أراد الآخَرُ خلافه. فإذا تباينا فى ذات أنفسهما، اجتمعا علىٰ نصيحة الملك، شاآ أم أبَيَا. وآثرها كلُّ واحد منهما علىٰ هوىٰ نفسه، وانتظم للملك تدبيره وتمّ له أمْرُه.(١)

ومن الملوك مَن لا يقصد إلىٰ هذا ولا يكون غرضه الإغراء بين وزرائه و بطانته لهذه العلّة، بل ليعرِف معايبَ كلِّ واحدٍ منهما. فإن معرفة ذلك تقطع الوزير عن الانبساط فى حوائجه والتسحُّب علىٰ مَلكه.

✥

(١٠١) آداب السفير

ومن الحقّ علىٰ الملك أن يكون رسولُهُ صحيحَ الفِطرة والمِزاج، ذا بيانٍ وعِبارةٍ، بصيرًا بمخارج الكلام وأجو بته، مؤدّيا لألفاظ الملك ومعانيها، صدوقَ اللهْجَة، لا يميل إلىٰ طمع ولا طَبَع،(٢) حافظًا لما حُمِّلَ.

وعلىٰ الملك أن يمتحِن رسوله مِحْنةً طو يلةً، قبل أن يجعله رسولا.

---

(١) كان السفّاح، إذا تعادى رجلان من أصحابه و بطانته، لم يسمع من أحدهما فى الآخر شيئا ولم يقبله، وإن كان القائل عنده عدلا فى شهادته. و إذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحدٍ منهما لصاحبه ولا عليه. و يقول إن الضغينة القديمة تولّد العداوة المحضة وتحمل على إظهار المسالمة وتحتها الأفعىٰ التى إذا استمكنتْ لم تُبقِ. (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٦)

(٢) الطَّبَع: الشين والعيب. ومنه الحديث: "استعيذوا بالله من طمع يهدى إلى طبع." أخذه عُروة بن أُذينة شاعر قريش فقال:

لا خيرَ فى طَمَعٍ يَهدِى إلىٰ طَبَعٍ ✲ وغُفّةٌ من قِوام العيش تكفينى.

(عن تاج العروس)

والغُفّة البُلْغَةُ من العيش.

سنة ملوك العجم فى آختيار السفير

وكانت ملوك الأعاجم ـ إذا آثرت أن تختار من رعيتها مَن تجعله رسولا إلىٰ بعض ملوك الأمم ـ تمتحنه أولا، بأن توجِّهه رسولا إلىٰ بعض خاصَّة المَلك ومَن فى قرار داره فى رسائلها. ثم تقدّم عينًا عليه يحضر رسالته و يكتُبُ كلامه. فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته. فقابل بها الملكُ ألفاظَ الرسول. فإن آتفقت أو آتفقت معانيها، عرف الملك صحّة عقله وصدق لهجته. ثم جعله المَلك رسولا إلىٰ عدوّه، وجعل عليه عينا يحفظ ألفاظه و يكتبها، ثم يرفعها إلىٰ المَلك. فإن آتفق كلام الرسول وكلام عين المَلك وعلم أن رسوله قد صدقه عن عدوّه ولم يتزيَّد عليه للعداوة بينهما، جعله رسوله إلىٰ ملوك الأُمم، ووَثِق به. ثم كان بعد ذلك يقيم خَبَرَهُ مَقامَ الحُجّة.

(١٠٢)

كلمة أردشير فى حق السفير

وكان أردشير بن بابك يقول: "كَمْ من دَمٍ قد سفكَهُ الرسول بغير حِلّه! وكم من جيوشٍ قد قُتِلَتْ وعساكرَ قد هُزِمَتْ وحُرْمَةٍ قد آنتُهِكَتْ ومالٍ قد آنتُهِبَ وعهد قد نُقِضَ بخيانة الرسول وأكاذيبه!"

كلمة ثانية له

وكان يقول: علىٰ المَلك، إذا وجَّه رسولا إلىٰ مَلك آخر، أن يردفه بآخر. و إن وجه رسولين، أتبعهما بآثنين. و إن أمكنه أنْ لا يجمع بين رسولين فى طريقٍ ولا ملاقاةٍ ولا يتعارفان فيتواطآ، [فَعَلَ]. ثُمَّ عليه، إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك فى خير أو شرّ، أنْ لا يُحدِثَ فى ذلك خيرًا أو شرًّا، حتّى يكتُبَ إليه مع رسول آخر يحكى له ما فى كتابه الأوّل حرفًا حرفًا، ومعنًى معنًى. فإنّ الرسول ربما حُرِمَ بعضَ ما أمَّلَ، فآفتعلَ الكتب وحرّض المُرسِلَ علىٰ المُرْسَلِ إليه، فأغراه به وكذَب عليه.(١)

(١) أورد القلقشندى هذه الجملة فى الجزء الأوّل (ص ٧٣) من "صبح الأعشى" ببعض تصرف فى الألفاظ. وقد أورد هذه الحكاية صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٨٩). وكذلك صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ١٦٨ ـ ١٦٩).

ما فعله الإسكندر بسفير كذب عليه

ويقال إن الإسكندر وجّه رسولا إلىٰ بعض ملوك الشرق . فجاءه برسالة شكّ في حرف منها . فقال له الإسكندر : ويلك ! إن الملوك لاتخلو من مقوِّم ومسدِّد، إذا مالت . وقد جئتني برسالة صحيحة الألفاظ بيِّنة العبارة، غير أن فيها حرفًا (١٠٣) ينقضها . أفعلىٰ يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه؟ فقال الرسول : بل علىٰ يقين أنّه قاله . فأمر الإسكندر أن تُكتَب ألفاظُه حرفا حرفًا ويُعاد إلى الملك مع رسولٍ آخَر، فيقرأ عليه ويُترجَم له . فلما قُرِئَ الكتاب علىٰ المَلك فمرّ بذلك الحرف، أنكره . فقال للترجم : ضَعْ يَدى علىٰ هذا الحرف . فوضعها . فأمر أن يُقطَع ذلك الحرف بسكِّينة[(١)]، فقُطِع من الكتاب . وكتب إلى الإسكندر : إن رأْس[(٢)] المملكة صحَّةُ فطرةِ المَلك، ورأْس[(٢)] المَلك صدقُ لهجةِ رسوله، إذ كان عن لسانه ينطِقُ وإلىٰ أُذُنه يؤدِّى . وقد قطعتُ بسكِّينتي مالم يكن من كلامي، إذ لم أجدْ إلىٰ قطع لسان رسولك سبيلاً .

فلما جاء الرسول بهذا إلىٰ الإسكندر، دعا الرسول الأوّل، فقال : ما حَمَلَك علىٰ كلمةٍ أردتَ بها فساد مُلْكين؟ فأقرّ الرسول أن ذلك كان لتقصير رآه من المُوجَّه إليه . فقال الإسكندر : فأراك لنفسك سعيت، لالنا ! فلمّا فاتك بعضُ ماأمّلتَ، جعلتَ ذلك ثأرًا في الأنفُس الخطيرة الرفيعة ! فأمر[(٣)] بلسانه فنزع من قفاه . (١٠٤)

---

(١) المُدْيَة يسميها العرب سكّينا وسكّينة . والاسم الأوّل أشهر وأكثر شيوعا . والسكّين يذكّر ويؤنث ؛ وقال بعضهم إن السكّينة خطأ ، وليس كذلك . فقد جاء في شرح الفصيح أنها لغة قوم من بني ربيعة ، وأوردها الفرّاء وابن سيده . قال الشاعر : سِكّينةٌ من طبع سيف عَمْرو ❊ نِصابُها من قرنِ تيسٍ برّى .

وفي الحديث : قال المَلَك لماشق بطنه : إِيْتني بالسكّينة (أُنظر "تاج العروس" في س ك ن ، "وشفاء الغليل" صفحة ١٢٣) . وقد استعمل الجاحظ كلا من اللفظين أحدهما هنا والثاني في صفحة ١٠٠ من هذا الكتاب .

(٢) س : أس .

(٣) أنظر الحاشية ١ من الصفحة السابقة . وقد أورد هذه الحكاية صاحب "محاسن الملوك" (ص ٦١) واستعمل ألفاظ الجاحظ نقسا .

⁂

احتياط الملك فى منامه ومقيله

ومن أخلاق الملك أن لا يكون لمنامه فى ليلٍ ولا نهارٍ موضعٌ يُعرف به، ولا حاوٍ[١] يُقصَد إليه. إذ كانت أنفس الملوك هى المطلوب غِرَّتها[٢]، والموكَّل برعاية سِنَتِها[٣] وساعة غفلتها.

ويقال إن ملوك آل ساسان لم يُعرَف مَبيت أحد منهم قطُّ ولا مَقِيلُه.

سنة ملوك الفرس فى النوم

فأما أردشير بن بابك وسابور وبَهرام ويزدجرد وكسرى أبرويز وكسرى أنوشروان، فكان يفرش للملك منهم أربعون فِرَاشا [فى أربعين موضعا][٤]. ليس منها فِرَاش إلا ومَن رآه من بعيدٍ على الأنفراد لا يَشُكُّ[٥] أنه فِرَاش المَلِك خاصَّةً [وأنه نائم فيه][٤]. ولعلّه أن لا يكون على واحد منها. بل لعلّه ينام على مجلس رقيق. وربما توسَّد ذِراعه، فنام.

السنة النبوية فى النوم

ولو لم يجب على ملوكنا حفظُ منامهم وصيانته عن كل عينٍ تطرِفُ وأُذُنٍ تسمَعُ إلّا أن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) فعله ـ وهو من الله بمكانه المخصوص من كلاءَته إيَّاه وحِرَاسة الرُّوح الأمين له ـ لقد كان يحق عليهم أن يقتدوا به ويمتثلوا فعله. وقد كان المُشرِكون همُّوا بقتله، فأخبره جبريل (صلى الله عليهما) عن الله (جل ثناؤه) بذلك، فدعا عليَّ بن أبى طالب (عليه السلام) فأنامه على فِرَاشه، ونام هو (صلى الله عليه وسلم) بمكان آخَرَ. فلمَّا جاء المشركون إلى فِرَاشه، فنهض منه عليٌّ، انصرفوا عنه. (١٠٥)

---

(١) فى صـ، سـ: "حوى" [واخترتُ الحاوىَ لأنه من اصطلاحات الفلسفة بمعنى الحيِّز]

(٢) صـ: عزتها.

(٣) ضبطه فى سـ: "سُنَّتها" وهو سبق قلم.

(٤) الزيادة عن "محاسن الملوك".

(٥) سـ: إلا ومن ورائه من بعيد على الأنفراد فراش لا يشك الخ.

ففى هذا أكبر الأدلة وأوضح الحجة على ما ذكرنا. إذ كانت أنفسُ الملوك هى الأنفس الخطيرة الرفيعة التى توزن بنفوس كلّ من أظلّتِ الخضراء(١) وأقلّتِ الغبراء(٢).

إطلاع الوالدين فقط على منام الملك

وكانت الأعاجم تقول: لا ينبغى للملك أن يَطّلعَ على موضع منامه إلّا الوالدان فقط(٣)، فأما مَن دُونَهما، فالوحشةُ منه وتركُ الثقة به أبلغُ فى باب الحزم، وأوكد فى سياسة المَلِك، وأوجبُ فى الشريعة، وأوقع(٤) فى الهُوَيْنا(٥).

✣

معاملة الابن للملك

ومن حق المَلك أن يُعامِلَه ٱبنُه كما يُعامِلُه عَبْدُه، وأنْ لا يَدخل مَداخِله إلّا عن إذْنه، وأنْ يكونَ الحِجاب عليه أغلظَ منـه على مَن هو دُونه من بِطانة الملك وخَدَمه، لِئلّا تحمِله الدالّة على غير ميزان(٦) الحقّ.

ما فعله يزدجرد مع ابنه بهرام

فإنه يُقال إنّ يَزْدَجرْد رأى بَهْرَامَ ٱبنَه بموضع لم يكن له، فقال: مَرَرْتَ بالحاجب؟ قال: نعم. قال: وعَلِم بدخولك؟ قال: نعم. قال: فٱخْرُجْ إليـه وٱضرِبْهُ ثلاثين سَوْطًا، ونَحِّه عن السِّـتْرِ، ووَكِّلْ بالحجابة أرادمَرْدَ(٧). ففعل ذلك بَهرام وهو إذ ذاك ٱبنُ ثلاث عشرة، ولم يَعلمِ الحاجبُ فيمَ غضب الملك عليه. فلما جاء بَهْرام بعد ذلك ليـدخل، (١٠٦)

(١) السماء.

(٢) الأرض.

(٣) نقل هذه الأحكام صاحب "محاسن الملوك" باختصار مع استعمال ألفاظ الجاحظ (ص ٩٣).

(٤) سـ: وأرفع.

(٥) التُّؤدة والرفق.

(٦) صـ: مراد.

(٧) لم أعثر على شئ يتعلق بهذا الحاجب، ولم أجد هذه الحكاية فى غير الجاحظ. وفى "محاسن الملوك" سماه "فلانا".

دفع أَرَادَمَرْدُ فى صدره دَفعةً وَقَذَه(١) منها، وقال: إنْ رأيتُك بهذا الموضِع ثانيةً، ضربتُك ستين سوطا، ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب بالأمس، وثلاثين لئلا تطمع فى الجناية علىّ(٢). فبلغ ذلك يَزْدَجِرْدَ، فدعا أَرَادَمَرْدَ، فخلع عليه وأحسن إليه(٣).

ما فعله معاوية مع ابنه يزيد

ويقال إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه بابٌ. فكان إذا أراد الدخول عليه قال: ياجاريةُ! آنظرى هل تحرّك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية [مرّة] حتى فتحت الباب. فإذا معاوية قاعدٌ، وفى حِجره مُصْحَفٌ، وبين يديه جارية تصفّحُ عليه. فأخبرت يزيدَ بذلك. فجاء يزيد فدخل على معاوية. فقال له: أى بُنَيَّ! إنى إنما جعلتُ بينى وبينك بابًا، كما بينى وبين العامّة. فهل ترى أحدا يدخل من الباب إلّا بإذن؟ قال: لا. قال: فكذلك فليكن بابك! فإذا قُرِعَ عليك فهو إذْنُك(٣).

ما فعله المهدى مع ابنه الهادى

وهكذا ذُكِرَ لنا أن موسى الهادى دخل على أمير المؤمنين المهدىّ فزبره(٤) وقال: إيّاك أن تعود إلى مثلها إلّا أن يُفتح بابُك(٥)!

ما فعله الحاجب بولد المأمون

وذُكر لنا أن المأمون لما آستعر(٦) به الوجع، سأل بعضُ بنيه الحاجبَ أن يُدخله عليه ليراه. فقال: لا والله! ما إلى ذلك سبيل، ولكن إنْ شئتَ أن تراه من

١٠٧

---

(١) أى أوجعه وآلمه كثيرا. والوقذ شدّة الضرب. وفى "محاسن الملوك": فدعّه دفعةً أوقعه بها
(٢) فى "محاسن الملوك": وثلاثين على آستمرار جنايتك.
(٣) روى هذه الحكاية بتلخيص خفيف صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨٦ — ٨٧)
(٤) انتهره.
(٥) نقلها فى "محاسن الملوك" (ص ٨٧).
(٦) أى آشتدّ عليه، تشبيهًا بآستعار النار. وفى ص: آستغرقه. [ولعل صواب الرواية: آستمرّ] وفى "المحاسن والمساوى": اشتدّ.

حيثُ لايراك، فاطَّلِعْ عليه من ثُقْبٍ فى ذلك الباب. فجاء حتّى آطّلَعَ عليه وتأمّلَهُ ثم آنصرف.

ما فعله الحاجب بولد المعتصم

وذكر لنا أن إيتاخ[1] بَصُرَ بالواثق فى حياة المعتصم واقفًا فى موضعٍ لم يكن له أن يقف فيه، فزَبَرَه وقال: تَنَحَّ! فوالله لولا أنى لم أتقدَّم[2] إليك فى ذلك، لضربتُك مائةَ عصًا.[3]

واجبات ابن الملك

وليس لابن المَلِك من المَلِك إلّا ما لعبده من الاستكانة والخضوع والخشوع.[4] ولا له أن يُظهِر دالّةَ الأُبوّةِ وموضع الوراثة. فإن هذا إنما يجوز فى النَّمَطِ الأوسط من الناس ثم الذين يَلُونَهم. فأما الملوك فترقَى عن كلّ شيءٍ يُمَتُّ[5] به.

وليس لابن المَلِك أن يسفِكَ دمًا، وإن أوجبت الشريعة سَفْكَه وجاءت المِلّة

---

(١) قد يرد هذا الاسم بتقديم التاء على الياء (إتياخ) كما فى س وكما فى بعض نسخ "كتاب الفهرست". ولكن الصواب تقديم الياء التحتية. ومعناه فى اللغة الفارسية الغازى والفاضل، كما فى "برهان قاطع". كان أصل هذا الرجل طبّاخا ثم ترقّت به الأحوال إلى أن صار مقدَّم الجيوش وكبير الدولة وصاحب مصر فى أيام المعتصم. ولذلك قال بابك إن المعتصم لم يبق لديه أحدا إلا وجّه به إليه، حتى طباخه. وبعث بذلك المعنى إلى ملك الروم، يُغريه بالخليفة حينا ضايقه وأخذ بخناقه، وكتب له: "فإن أردتَ الخروج إليه، فليس فى وجهك أحد يمنعك". وقد تولّى إيتاخ أمر اليمن والكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ودُعِى له على المنابر. وآنتهى أمره بأن خافه المتوكل وأعمل الحيلة فى القبض عليه وإماتته عطشا. وأخذ له من الذهب ألف ألف دينار. كانت وفاته سنة ٢٣٤. (أُنظر "النجوم الزاهرة" وآبن الأثير فى نهارسهما، و "شذرات الذهب" ج ١ ص ٥٠٠)

(٢) س: أنى أتقدم.

(٣) الآداب والحكايات الواردة فى هذه الصفحة وفى التى قبلها منقولة بالحرف الواحد وبهذا الترتيب فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٧٠ — ١٧٢).

(٤) صه: الجنوح.

(٥) فى س: "تمت". وآلمَتُّ هو التوسُّل والتوصل بقرابة أو حُرمة أو دالّة أو نحو ذلك. وفى صه: فترق عن كل شيء يُمَتُّ إليه.

به ، إلا عن إذن المَلك و رأيه . لأنه ـ متى تفرد بذلك ـ كان هو الحاكم دون المَلك . وفى هذا وَهْنٌ علىٰ المَلك وضَعْفٌ[1] فى المملكة .

وكذلك أيضا ليس له أن يحكُمَ فى الحلال والحرام والفُرُوج والأحكام ، وإنْ كان ولىَّ عهدِ المَلك والمُقلَّدَ إرْثَ أبيه والمحكومَ له بالطاعة ، إلا عن أمره ورأيه .

(١٠٨) وليس له ـ إذا جمعته والمَلكَ[2] دارٌ واحدةٌ ـ أنْ يأكلَ إلّا بأكل المَلك ولا [أن] يشرَبَ إلّا بُشربه ولا [أن] ينامَ إلّا بمنامه .

وكذا يجب عليه فى كلّ شئ من أموره السارّة والضارّة أنْ يكون له تابعًا ولحركته تاليًا .

وليس هذا علىٰ [مَن] دون ٱبن المَلك من بطانته وسائر رعيته . لأن ٱبن الملك عُضوٌ من أعضائه وجزء من أجزائه ، والمَلك أصلٌ والٱبنُ فرعٌ ، والفرع تابعٌ للأصل ، والأصلُ مُستغنٍ عن الفرع .

وليس لٱبن المَلك أن يرضىٰ عمن سخِط عليه الملك ، وإن كان المسخوطُ عليه لاذنبَ له عنده . لأنّ من العدل والحقّ عليه أنْ يواليَ مَن والىٰ المَلك ، ويعاديَ مَن عاداه . ولا ينظرُ فى هذا إلىٰ حظّ نفسه وإرادة طبعه ، حتّىٰ يبلغ من حقّ الملك ماإنْ وَجدَ إلىٰ غيلَتِه[3] سبيلا أنْ يقتُلَه . وعلىٰ هذا ينبغى أن يكون نظام العامّة لملكها .

---

(١) صـ : وضعة .

(٢) الواو هنا واو المعية .

(٣) الضمير هنا يعود على المسخوط عليه . وفى صـ : حيله .

شهوة الاستبدال

وقد تحدثُ فى أخلاق الملك مَلَالَةٌ لشهوةِ الاستبدال(١) فقطْ. فليس لصاحبِ الملك، إذا أحدث الملكُ خُلُقًا، أنْ يعارضه بمثله، ولا إذا رأىٰ نَبْوَةً وازورارةً، أنْ يُحدِثَ مثله. فإنه متىٰ فعل ذلك فَسَدتْ نيَّتُهُ. ومَن فسدت نيَّته، عادت طاعته معصيةً وولايتُهُ عداوةً. ومَن عادىٰ الملك، فنفسه عادىٰ وإياها أهانَ. (١٠٩)

الحيلة فى معالجتها

ولكن عليه، إذا أحْدَثَ المَلِك الخُلُقَ الذى عليه بِنْيَةُ أكثر الملوك، أن يحتالَ فى صرف قلبه إليه. والحِيلةُ فى ذلك يسيرةٌ: إنما هو أن يطلب خَلْوَته فيُلْهيه بنادرةٍ مُضحِكةٍ أو ضربِ مَثَلٍ نادرٍ أو خبرٍ كان عنه مُغَطًّى، فيكشفُهُ له.

ما صنعه مازيار المضحك مع أحد ملوك العجم

كما فعل بعض سُمّار ملوك الأعاجم. أظهر الملك له جَفْوَةَ المَلَالَة فقط، فلما رأىٰ ذلك، تعلَّمَ نُبَاحَ الكلاب وعُوَاءَ الذئاب ونَهِيقَ الحمير وصِياحَ(٢) الديوك وشَحِيجَ البغال وصَهِيلَ الخيل. ثم احتال حتّىٰ دخل موضعا يقرُبُ من مجلس المَلِك وفراشه يُخفى أمره(٣). فنبح نُباحَ الكلاب، فلم يشكَّ المَلِك أنه كلبٌ وابنُ كلب، فقال: انظروا ماهذا! فعوىٰ عُواءَ الذئاب، فنزل المَلِك عن سريره. فنهق نهيق الحمار، ومرَّ الملك هاربًا. وجاء غلمانه يتْبَعُون الصوتَ. فكلما دَنَوْا منه، أحدثَ معنًى آخرَ، فأحجموا عنه. ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه، فأخرجوه وهو عُرْيانٌ مختبئٌ. فلمَّا نظروا إليه، قالوا للملك

(١) سـ: الاستبداد.

(٢) فى المسعودىّ طبع باريس: "رقاء"، وفى طبعة بولاق: "زقاء". وهذا هو الصواب، ومعناه صياح الديك. (انظر القاموس وشرحه)

(٣) فى المسعودىّ: "وأخفى أثره" ولعل الأقرب للصواب "وأخفى أمره". وفى صـ: من مجلس الملكِ وموضع منامه.

هذا مازِيار المضحك[١]! فضحك الملك حتّى تبسّط وقال: ويلك[٢]! ماحملك على هذا؟ قال: إن الله مسخنى كلبا وذئبا وحِمارا، لمّا غضب علىّ الملك. فأمر أن يُخلَع عليه ويُرَدّ إلى موضعه[٣]. ١٤٠

وهـذا لايفعله إلا أهلُ الطبقة السُّفلى. فأما الأشرافُ، فلهم حيل غير هـذه، ممـا يُشْبِه أقدارَهم.

*كما فعل رَوْح بن زِنباع، وكان أحد دُهاة العرب، رأى من عبدالملك بن مروان نَبْوَة وإعراضًا. فقال للوليد: ألا ترى ما أنا فيه من إعراض أمير المؤمنين عنى بوجهه، حتّى لقد فغرت السباع أفواهها نحوى، وأهوت بمخالبها إلى وجهى؟ فقال له الوليـد: إحْتَلْ فى حديثٍ يُضحكه! فقال رَوْح: إذا اطمأنّ بنا المجلس، فسلْنى عن عبد الله بن عمر، هل كان يمزح أو يسمع مِزاحًا؟ فقال الوليد: أفعلُ.

وتقدم فسبقه بالدخول وتبعه رَوْحٌ. فلمّا اطمأنّ بهـم المجلس، قال الوليد لرَوْح: هل كان ابن عمر[٤] يسمع المزاح؟ قال: حدثنى ابن أبى عَتيق[٥] أن امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن هجته، فقالت:

---

(١) سماه فى المسعودى: "مرزبان" وكرره.

(٢) صـ : ويحك.

(٣) نقل المسعودى هذه الحكاية. (مروج الذهب ج ٥ ص ٢٨٣)

(٤) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. وورعه وتقواه أشهر من نار على علم. (وترجمتـه فى "الطبقات الكبرى" لابن سعد. وفى "أسد الغابة" وغيرهما من الكتب الكثيرة الخاصة بالصحابة)

(٥) هو عبدالله بن أبى عتيق بن عبدالرحمن بن أبى بكر الصّدّيق بن أبى قحافة. كان من نُسّاك قريش وظرفائهم بل قد بذّهم ظرفا. وله أخبار كثيرة، فى الخلاعة بغير رَفَث وفى المجون بغـير فسوق. وقد غلبت عليـه الدُعابة واشتهر بها. (انظر "العـقد الفريد" ج ٣ ص ٢٣٨؛ وراجع "كامل" المبرد و"الأغانى" و"الكامل" لابن الأثير بمقتضى فهارسها)

ذهب الإلٰه بما تعيشُ به ❊ وقمرتَ ليلَك أيَّما قَمْرِ.

أنفقتَ مالَكَ غير محتشِمٍ ❊ فى كل زانيةٍ وفى الخمرِ.

قال: وكان ٱبن أبى عتيق صاحب غَزَل وفُكاهة، فأخذ هذين البيتين ـ وهما فى رقعة ـ فخرج بهما. فإذا هو بعبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن! أُنظر فى هذه الرقعة، وأَشِرْ علىَّ برأْيك فيها. فلمّا قرأها، ٱسترجع عبدُ الله. فقال: ما ترىٰ فيمن هجانى بهذا؟ قال عبدالله: أرىٰ أن تعْفُوَ وتصفَحَ! قال: والله يا أبا عبدالرحمن، لئن لقيتُ قائلها لأنيلنَّه نيلاً جيِّدا! (١) فأخذ ٱبنَ عمر أفْكَلٌ (٢)، وٱرْبَدَّ لونُه وقال: ويلك! أما تستحى أن تعصِىَ الله؟ قال: هو واللهِ ما قلتُ لك.

وٱفترقا. فلما كان بعد ذلك بأيام، لقيه. فأعرض ٱبن عمر بوجهه، فقال: بالقبرِ ومَن فيه، إلّا ما سمعتَ كلامى! (٣) فتحوّبَ عبد الله، فوقف وأعرض عنه بوجهه. فقال: علمتَ يا أبا عبدالرحمن أنى لقيتُ قائل ذلك الشعر فنلته؟ (١) فصَعِق ٱبن عمر ولُبِطَ به. فلما رأىٰ ما حلَّ به، دنا من أُذُنه فقال: إنها ٱمرأتى! فقام ٱبن عمر فقبّل ما بين عينيه.

فضحك عبدُ الملك حتّى فحص برجله وقال: قاتلك الله يا رَوْحُ! ما أطيبَ حديثَك! ومدّ إليه يديه فقام رَوْحٌ فأكبّ عليه وقبّل أطرافه وقال: يا أمير المؤمنين، ألذنبِ فأعتذر

(١) أنظر الحاشية ٢ ص ٧٩ من هذا الكتاب.

(٢) الأفكل الرعدة. وفى المسعودى: "أفكلٌ ورِعدة"، من باب عطف التفسير.

(٣) أقسم عليه بالروضة الشريفة و بالمدفون فيها وهو النبىّ صلى الله عليه وسلم. فتحوّب أى وجد فى عدم الوقوف إثما، فوقف ولكن معرضا عنه بوجهه.

أم لملالةٍ فأرجو عاقبتها. قال: لا والله! ماذاك من شئ نكرهه. ثم عاد له أحسن حالاً[(١)]*

ونحو هذا يُحكى عن جرير بن الخَطَفى[(٢)]، حين دخل على عبد الملك، وقد أوفده إليه الحجّاج بن يوسف. فدخل محمد بن الحجاج وقال لجرير: كنْ فى آخر مَن يدخل. فلمّا دخل جرير، قال محمد: ياأمير المؤمنين هذا جريرُ بن الخطفى، مادحُك وشاعرُك! قال: بل مادحُ الحجّاج وشاعرُه. قال جرير: فقلتُ: إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يأذنَ لى فى إنشاد مديحه؟ قال هاتِ بالحجاج! قال: فقلت: بل بك ياأميرَ المؤمنين! قال: هاتِ فى الحجاج! فأنشدته قولى فى الحجاج:

صَبَرْتَ النفسَ يا ٱبن أبى عُقَيْلٍ * مُحافَظَةً، فكيف ترى الثوابا؟
ولو لم تَرْضَ ربَّك، لم يُنَزِّلْ * مع النصرِ الملائكةَ الغِضابا.
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ، * رأى الحجّاجَ أثقبَها شِهابا.

فقال: صدقتَ، هو كذلك! ثم قال للأخْطَل[(٣)]، وهو خلفى وأنا لا أراه: قُمْ فهاتِ

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ . وقد نقل صاحب "محاسن الملوك" هذه الحكاية بالحرف الواحد تقريبا (ص ٧٦ – ٧٧). أما المسعودىّ فقد أوردها بألفاظ أخرى وزيادة ونقص فى المعنى (ج ٥ ص ٢٨٤ – ٢٨٦)، وكذلك النويرىّ فى "نهاية الأرب فى فنون الأدب" (فى الباب الثالث من القسم الثالث من الفنّ الثانى فى المجون والنوادر والفكاهات والمُلَح). ولكن عباراتهم كلهم فيها خالية من حسن الديباجة وجمال الترصيف الذى تراه فى عبارة الجاحظ.

(٢) سماه فى "الصحاح" الخَيْطَفى. واللفظان معناهما واحد، وهو السريع. وهما مأخوذان من الخطف وهو الأستلاب. وهو لقب جدّه، لبيت قاله فى شعره. ولكن الأسم المخفف الذى آستعمله الجاحظ هو الأكثر شيوعا، وقد ورد فى شعر الأخطل. (أنظر "تاج العروس"، "كتاب الأشتقاق" لأبن دُرَيْد (ص ١٤١)، "ديوان الأخطل" الذى نشره الأب الفاضل أنطوّن صالحانى (ص ٢٢٤)؛ وغيرها من دواوين الأدب)

(٣) سبب تسمية الأخطل أنّ آثنين تحا كما إليه فأقسم أنهما لئيان، هما وأمهما وهو نفسه أيضا. فقيل له إن هذا لخَطَلٌ من قولك. فسمّى الأخطل. (أمالى القالى ج ٢ ص ٢٣٤)

(١٢١) مديحنا! فقام فأنشده فأجاد وأبلغ. فقال: أنت شاعرنا وأنت مادحنا؛ قم فاركبه! قال: فألقى النصرانى ثوبه، وقال: جب[١]! يا ابن المراغة[٢]. قال: وساء ذلك من حضر من المضرية، وقالوا: يا أمير المؤمنين، لا يركب الحنيف المسلم، ولا يظهر عليه. فاستحيا عبد الملك، وقال: دعه! قال: فانصرفت أخزى خلق الله حالا، لما رأيت من إعراض أمير المؤمنين عنى، وإقباله على عدوى. حتى إذا كان يوم الرواح للوداع، دخلت لأودعه، فكنت آخر من دخل عليه. فقال له محمد بن الحجاج: يا أمير المؤمنين، هذا جرير، وله مديح فى أمير المؤمنين. فقال: لا، هذا شاعر الحجاج! قلت: وشاعرك يا أمير المؤمنين! قال: لا. فلما رأيت سوء رأيه، أنشأت أقول:

أتصحو أم فؤادك غير صاح؟ ...

فقال: ذاك فؤادك!

ثم أنشدته حتى بلغت البيت الذى سره، وهو قولى:

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح؟

فاستوى جالسا، وكان متكئا، فقال: بلى نحن كذلك، أعد! فأعدت. فأسفر لونه

---

(١) أمره بوضع يديه على ركبتيه أو على الأرض ليتمكن من ركوبه. و"جب" فعل أمر من التجبية بمعنى الانحناء. قال فى "لسان العرب" فى مادة ج ب ى ما نصه: "وجبى الرجل وضع يديه على ركبتيه فى الصلاة أو على الارض. وهو أيضا انكبابه على وجهه." والعامة فى مصر تقول الآن فى مثل هذا المقام: "طاطى البصلة" ويعنون بالبصلة الرأس. وذلك فى حال ما يريد أحدهم ركوب الآخر.

(٢) هذا هو اسم أم جرير. وقيل إن الفرزدق والأخطل سمياها كذلك فى هجاء كل منهما له. وقيل إن ذلك تعيير له ببنى كليب لأنهم أصحاب حمير. ووفود جرير على عبد الملك مذكور فى كثير من كتب الأدب مثل "الأغانى" و"العقد الفريد" (ج ١ ص ١٥١). ولكن رواية الجاحظ هى أوفى وأحسن ما رأيت.

١٢٢ وذهب ما كان فى قلبه، ثم ٱلتفتَ إلى محمد [بن الحجاج] فقال: تُرى أُمَّ حَزْرَة (١) تُرويها مائةٌ من الإبل؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! إن كانت من فرائضِ كَلْبٍ (٢) فلم تُروِها، فلا أرواها (٣) الله! قال: فأمر لى بمائة فريضة. ومددتُ يدى ـ وبين يديه صِحَافٌ أربعٌ من فضة قد أُهْدِيَتْ إليه ـ فقلتُ: المِحْلَبَ، يا أمير المؤمنين! فأخذتُ منها واحدةً، فقال: خذها، لا بُورِكَ لك فيها! قلتُ: كلُّ ما أخذتُ من أمير المؤمنين مباركٌ لى فيه (٤).

* وهكذا فعل بالأمس عبد الملك بن مهلهل الهَمْدانى (٥)، وكان سليمان بن أبى جعفر (٦) قد جفاه. فأتاه يوما فى قائم الظهيرة، والهجيرةُ تَقِدُ (٧). فٱستأذن، فقال له الحاجب: ليس هذا بوقت إذنٍ على الأمير. فقال له: أَعْلِمْهُ بمكانى (٨). فدخل عليه فأعلمه، فقال له: مُرْهُ يُسلِّمْ قائمًا ويخفِّفْ! فخرج الحاجب فأذِن له وأمره بالتخفيف. فدخل فسلَّم قائما ثم قال: أصلح الله الأمير! إنى ٱنصرفتُ بالأمس نحو منزلى، و [قد]

---

(١) حزرة هى بنت جرير. وكان يُكْنى بها. قال فى "تاج العروس" ما نصُّه: "وأبو حزرة كنية سيدنا جرير رضى الله عنه". ولا أدرى لماذا لقَّبه بالسيادة ثم ترضَّى عنه (؟ !) ويظهر أنه فهم أنها كنية جرير بن عبد الله البجلى الصحابى، وليس كذلك.

(٢) صـ: كلاب.

(٣) صـ: رواها.

(٤) روى صاحب "الأغانى" هذه القصة بٱختلاف فيه زيادة وفيه نقصٌ (جزء ٧ ص ٦٦ و ٦٧). وٱنظر القصة بعينها مروية بتفاصيل وافية فى "ذيل أمالى القالى" (ص ٤٣ ـ ٤٦) ورواها بٱختصار ألفاظ الجاحظ فى "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٥) صـ: عبد الملك بن هلال الهماى، وقد صُححت حسبا فى المسعودىّ طبع باريس وبولاق

(٦) هو سليمان بن أبى جعفر المنصور، وكان من قوّاد موسى الهادى. (مروج الذهب ج ٦ ص ٢٦٦)

(٧) أى كانت شدة الحَرّ تتوقّد. وفى مروج الذهب: وٱحتدام الهجير.

(٨) صـ: "أعلمه موضعى". وقد ٱخترتُ رواية المسعودىّ.

أمسيتُ، فبينا أنا فى الطريق، إذا بمؤذّن قد ثوّب[1] بصلاة المغرب على مسجد معلّق[2]. فصعدتُ ثم صعدتُ ثم صعدتُ . . . قال سليمان: فبلغتَ السماءَ، فكان ماذا؟ قال: فتقدّم إنسانٌ، إما كُرَيْجِىٌّ وإما سُنَيْدِىٌّ وإما طُمطانىٌّ[3]. فأمّ القوم فقرأ بكلامٍ لم أفهمْهُ [ولغةٍ ما أعرفها]، فقال: "ويلٌ لكل هره زَمَاً مالا وعدّده" يريد "ويلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الذى جَمَعَ مالًا وعدّده". قال: وإذا خلفه رجلٌ سكرانُ مايعقِلُ سُكْرًا، فلمّا سمع قراءته ضرب بيديْه ورِجليْه وجعل يقول "إيرعكى! إيرعكى دركلى! إيرعكى دركلى فى حِرِمٍ قاريك!"[4] فضحك سليمان ثم تمرّغ على فراشه، وقال: أُدنُ منى يا [أبا] محمد، فأنت أطيب أُمّة محمد! ثم دعا له بخِلعة وقال: "الزَمِ البابَ وآغدُ فى كل يومٍ." وعاد إلى أحسن حالاته عنده[5] *

وهذه أخلاق الملوك لمن فهمها[6]. وليس بعَجَب أن تتلوّن أخلاقُهم، إذ كنا نرى أخلاق القرينِ المساوى والشريكِ والإلف تتلوّن ولا تَستوِى، ولعلّه يجد عن إلفه

(١ — ٢) ثوّب: دعا إلى الصلاة. [وفى المسعودى طبع باريس وبولاق: "فدنوتُ ثم صعد إلى مسجد معلق". وظاهرٌ أن رواية صـ أوقعُ وأقعدُ وأتمّ].

(٣) فى المسعودى طبع باريس "إما كردى وإما طمطانى" وفى طبع بولاق: "إما كردى أو طمطانى"

(٤) أُنظر الروايات الأخرى فى المسعودى طبع باريس وبولاق. وكلها محرّفة من النساخين كما هو ظاهر وقد نبه على ذلك مترجم المسعودى. [وأنظر حاشية ٤ صفحة ٧٥ من هذا الكتاب]

(٥) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ. والحكاية أوردها المسعودى بالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ دون أن يشير إليه (راجع "مروج الذهب" طبع باريس ج ٥ ص ٢٨٦ — ٢٨٨ ، وطبع بولاق ج ٢ ص ١٠٣)

(٦) صـ: إن فهمتها.

وقرينه وشكله مَنْدوحَةٌ [١] . فكيف بِمَن مَلَكَ الشرق والغرب ، والأسود والأبيض ، والحرّ والعبد ، والشريف والوضيع ، والعزيز والذليل ؟

⁂

ثمرات التأديب بالجفوة

وعلى أنه ربما كانت جَفْوَةُ المَلك أصلحَ فى تأديب الصاحب من اتّصاله بالأنس ، وإن كان ذلك لايقع بموافقة المجفُوّ . لأن فيها فراغَ المجفُوّ [٢] لنفسه وتخلّصه لامره ولِمَا كان لا يمكنه الفَراغ له من مُهِمّ أمره . وفيها أيضا أنه إن كان المجفُوُّ من أهل السَّمَر وأصحاب الفُكاهات ، فبالْحَرَى أن يستفيد بتلك الجفوة علما طريفا مُحْدَثاً له بالكتب ودراستها أو بالمشاهدة والملاقاة ، ورُبّما كان لا يمكنه قبل ذلك ، وهو فى شغله . ومنها أن جفوة المَلك ربما أدّبتِ الصاحب الأدبَ الكبيرَ . وذاك انه [١١٣] كلُّ مَن أَنْفَسَ [٣] المَلكُ مجلسَه وطال معه قعودُهُ وبه أُنسُه ، تمنّى الفراغ وطلبت منه نفسُه التخلُّصَ والراحةَ والخَلْوَةَ لإرادة نفسه . كما أنه مَن كثُر فَراغُه وقلَّ أُناسه ، جُفِيَ واطُّرِحَ ، وطَلَبَ الشغلَ والأُنسَ وما أشبه ذلك .

فبهذه الأخلاق رُكِّبَتْ الفِطَرُ وجُبِلَتْ النفوس .

فإذا جاءه الفراغ الذى كان يطلبه ويتمنّاه من الجهة التى لم يقدِّرها ، طلبت نفسه الموضع الذى يملّه والشُّغل الذى كان يَهرُبُ منه .

---

(١) س : الأحمر .

(٢) س : وتخلص أمره عليه . ص : وخاص أمره عليه . وقد صححتُ بحسب السياق .

(٣) بمعنى أن الملك يجد مجالسه وجلوسه معه نفيسا . وفى س ، ص : "نفس" . | ولا معنى لها . ولذلك صححتُ المتن بما وصل اليه اجتهادى . |

ومنها أنه كان فى عِزٍّ ومَنَعةٍ وأمْرٍ ونهْيٍ، وكان مرغوبا إليه مرهوبا منه، ثم [لما] حدثتْ جفوة الملك، أنكر ما كان يعرِف، وعصاه مَن كان له مطيعا، وجفاه مَن كان به برًّا.

١٢٤ ومنها أن جفوة الملك تُحْدِثُ رقة(١) على العامّة ورأفة بهم، وتُحْدِثُ للمجفو حُسْنَ نِيَّةٍ.

ومنها أن الرضا، إذا كان يعقب الجفوة، وَجَبَ على المجفو شكر الله تعالى على ما أَلْهَمَ الملك فيه فتصدّق وأعطى وصام وصلّى.

فكلُّ شىءٍ من أمر الملك حَسَنٌ فى الرضا والسُّخط، والأخذ والمنع، والبذل والإعطاء، والسرّاء والضرّاء. غير أنه يجب على الحكيم المميِّز أن يَجْهَد بكلّ وُسع طاقته أن يكون من الملك بالمنزلة بين المنزلتيْن. فإنها أحرى المنازل بدوام النعمة، وآستقامة الحال، وقلة التنافس ومصارعة(٢) أهل الحسد والوُشاة.

⁂

صفات المقربين

وليس(٣) من أخلاق الملك أن يُدْنِىَ مَن عَظُم قدرُه وآتّسع عِلْمُه وطاب مُرَكَّبه، أو ظهرتْ أمانته أو كَمُلَتْ آدابه.

(١) أى رحمة.

(٢) فى س : "مسارعة". وفى ص : "مشاغبة".

(٣) كذا فى س، ص. نعم إن بقية الكلام ربما تنفى النفى. ولكن قوله بعد ذلك إن الملك يحتاج إلى هذه الطبقة ضرورة يدلّ على أن تقريبهم ليس من طباع الملوك ولكن من حاجتهم إليهم. و يؤكد ذلك ختام كلامه بأن التقريب للقرناء والمحدّثين كائنا من كانوا ومن حيث كانوا.

وهذه الصفاتُ هى جنسٌ آخَرُ يحتاج المَلِك إلىٰ أصحابه ضرورةً: لحاجته من القضاة إلىٰ الفقه والأمانة، وحاجتِه من الطبيب إلىٰ الحِذْق بالصناعة والرَّكانة[1]، وحاجته من الكاتب إلىٰ تحبير الألفاظ ومعرفة مخارج الكلام والإيجاز فى الكتب، وما أشبه ذلك. فأما القُرَناء والمحدِّثون[2] وأصحاب الملاهى ومَن أشبههم، فكلُّ مَن دنا منهم من المَلِك وعَلِقَ به: كائنًا مَن كان ومِن حيثُ كان. (١١٥)

وكذا وجدنا فى كُتُب الأعاجم وملوكها.

كلمة أنوشروان، وأمثولة كليلة ودمنة

وفيما يُذكر عن أنُوشِرْوان أنه قال: "صاحبك مَن علق بثوبك."

وكذا وجدنا فى أمثال "كَلِيلَة ودِمْنَة" أنّ الملك "مِثل الكَرْم الذى لايتعلّق بأكرم الشجر، إنما يتعلق بما دنا منه[3]". وقد نجد مِصداقَ ذلك عِيانًا فى كلِّ دهرٍ وأخبارِ كلِّ زمانٍ.

---

(١) الرَّكانة، على ما فى "تاج العروس" هى السكون إلى الشئ والأطمئنان به. وربما كان الأصوب "الزكانة" وهى الظنّ الذى يكون بمنزلة اليقين.

(٢) صـ: فأما الغرباء والمحدّثون.

(٣) نقلتُ هذه العبارة عن أقدم نسخة معروفة للآن من كتاب "كليلة ودمنة" وهى التى طبعها الاب الفاضل لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٥ (صفحة ٥٧) وأصلحتُ لفظة "بمن" بلفظة "بما". وقد وردتْ هذه العبارة فى النسخة التى طبعها العلامة البارون دوساسى الفرنسىّ سنة ١٨١٦ هكذا: "مثل شجر الكرم الذى لايعلق إلا بأكرم الشجر" (ص ٨٥). وهى كذلك فى النسخة المطبوعة فى بولاق عنها سنة ١٢٨٥ هـ. وهذه الرواية مبتورة وسخيفة جدا، ورواية النسخة القديمة متينة ومعقولة، تؤيدها رواية الجاحظ وإن كان الذى نسخها قد مسخها. فهى فى سـ: "كالشجرة ليس يتعلق بأكبر الأشجار، ولكن بالأقرب منها." وفى صـ: "كالشجرة ليس يتعلق بأكرم الاشجار، إنما يتعلق بما قرب منها"

سخاء الملك ورحمته

ومن أخلاق المَلك السخاءُ والحياءُ.(١)

فهما قرينا كلّ مَلك كان على وجه الأرض. ولو قال قائل إنهما رُكِّبَا فى الملوك كتركيب الأعضاء والجوارح، كان له أن يقولَ. إذ كنا لم نشاهد ولم يبلُغْنا عمن مضَى من الملوك، ملوك العجم ومَن كان قبلهم، وملوكِ الطوائف وغيرِهم، القِحَةُ والبُخْلُ.

فأما السخاء فلو لم يكن أحدَ طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتسابٍ، إن كان الملك من أهل التمييز. وذلك أنه يُفيدُ(٢) أكثر مما يُنفِق. فإذا كانت هذه صفةَ كلّ مَلك، فما عليه من اتّخاذ الصنائع وعَمِّ(٣) المِنَنِ والإحسان إلى مَن نَأَىٰ عنه أو دنا منه من أوليائه، والرحمةِ للفقير والمسكين، والعائدةِ على أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من أجناس الرحْمة.(٤)

(١١٦) وحقيق للملك (إذ كان الراعى) أنْ يرحَمَ رعيته، (وإذ كان الإمام) أنْ يرِقَّ على المُؤتَمّ به، (وإذ كان المولىٰ) أنْ يَرْحَمَ عبده.

فقد تخطِئُ العامة وكثيرٌ من الخاصّة فى الملوك حتّى يُسَمُّونَهم بغير أسمائهم ويَصِفُونهم بغير صفاتهم ويَنْحَلونهم البخل والإمساك،(٥) إذا رأَوْا المَلك علىٰ سَنَنٍ من

(١) صـ : الملك الكرم والسخاء. ورواية سـ أصح. لأن الكلام التالى منقسم إلى موضوع السخاء وإلى موضوع الحياء. ولذلك اعتمدتُها فى المتن.

(٢) أفاده واستفاده وتفيَّده بمعنًى واحد. (عن القاموس)

(٣) صـ : وتعميم.

(٤) زاد فى سـ هنا: "للفقير والمسكين والعائدة على أهل الحاجة". وقد سبقت هذه الجملة فى الموضع المناسب لها فى السطر السابق، فلا حاجة لتكرارها.

(٥) صـ : الابخال.

القصْد وعَدْلٍ من حدّ الإنفاق، ويَغْفُلُون عمّا أدّبَ اللهُ تعالى به نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله عزّ وجلّ: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، وبمدحه الصالحين من عباده بالقصْد فى ذات أيديهم، بعلمهم أن أرضى الأحوال عنده مَادَخَل فى باب الاقتصاد، بقوله: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا."

الردّ على من وصف المنصور بالبخل

وقد ذكر بعضُ مَن لا يعلَم (فى كتابٍ أَلَّفَه فى البخلاء من الملوك)[1] أن هشام بن عبد الملك بن مرْوان ومرْوان بن محمد وأبا جعفر المنصور وغيرَه[2]، منهم. ولولا أنا

(١) هو غير الكتاب الذى ألفه الجاحظ فى البخلاء عامّة، وقد طبعه فى ليدن سنة ١٩٠٠ المستشرق الهولندى فان ڤولتن Van Volten، ثم قلده المتهافتون على سرقة المطبوعات فى مصر. وقد روى الجاحظ فيه (ص ١٦٣) أن هشاما هذا "دخل حائطا [بستانا] له فيه فاكهة وأشجار وثمار ومعه أصحابه. فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة. فقال هشام: ياغلام! اِقلع هذا، وآغرس مكانه الزيتون". فذلك يدلّ على أنه أراد تحقيق دعوة أصحابه، لأن الزيتون هو الشجرة المباركة. ويدلّ أيضا على بخله، حتى إذا جاء حائطه مرّة أخرى لم يجد أصحابه سبيلا إلى الإتيان على فاكهته وثمراته. روى صاحب "شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٨١) هذه الحكاية بما يدل على بخل هشام، وختمها بقول هشام لقيِّم البستان: "اِقلع شجره وآغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل أحد منه شيأ". ولم يذكر الجاحظ شيئا من هذا القبيل عن المنصور فى كتابه فى البخلاء.

(٢) من الغريب أن صاحب "محاسن الملوك" نقل كثيرا عن الجاحظ بالحرف الواحد أو بالآختصار ولكنه لم يسمّه ولم يشر الى كتابه، فكان مثله كمثل المسعوديّ ونفر كثير من المؤرّخين والمتأدّبين. ولكنه حينما جاء إلى ذكر المنصور وتبخيله ذكر آسم الجاحظ، فقال فى صفحة ١٠٢ ما نصه: "قال الجاحظ: ربما وصف الأغبياء المنصور بالبخل، وليس الأمر كذلك. فإنه لم يسمع عن أحد من الخلفاء والملوك أنه وهب لرجل واحد ألف ألف غيره. وفرّق على أهل بيته فى ليلة واحدة ألف ألف." ثم روى القصة الآتية عن زيد مولى عيسى بن نهيك بآختصار وختمها بهذه العبارة: "قال الجاحظ: فهل يجوز أن يعدّ من فعل هذا الفعل بخيلا؟"

آحتجْنا[١] إلىٰ الإخبارعن جَهل هذا ، لم يكُنْ لذِكره معنًى ولا للتشاغُل بالردّ عليه . وكيف يكون المنصور ممن دخل فى جملة هذا القول ، ولا يُعلم أن أحدا من خُلفاء الإسلام ١١٧ ولا ملوك الأُمم وصَلَ بألفِ ألفٍ لرجلٍ واحدٍ غيرَهُ[٢] ! ولقد فرّق علىٰ جماعةٍ من أهلِ بيته عشرة آلافِ ألفِ درهم . ذكر ذلك الْهَيْثَمُ بن عَدِىّ والمدائنىُّ . وحدّثنى بعض أصحابنا عن أبيه عن زيد[٣] مولىٰ عيسىٰ بن نَهِيك[٤] قال : دعانى المنصور بعد موت مولاى

(١) صـ : ولو احتجنا .

(٢) المنصور هو أوّل خليفة أعطىٰ ألف ألف لكل رجل من عمومته الأربعة (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١) ومما يدخل فى مكارم المنصور أن الشعراء دخلوا عليه فأنشدوه من وراء حجاب ، فآستحسن أقوال بعضهم ، فأمر برفع الحجاب وظهرلهم وأمر لأحدهم بعشرة آلاف دينار وأعطى الباقين ألفين ألفين (ذيل الأمالى للقالى ص ٤١) .

ودخل عليه رجل من أهل الشام فأعجبه كلامه فقال : ياربيع لاينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم ، فحُملتْ معه (ذيل الأمالى للقالى ص ٢٢٨) .

ودخل عليه فتى من بنى حزم فذكر له مافعله بنو أمية بقومه وأنشده شعرا للأحوص كان سببا فى حرمانهم من أموالهم منذ ستين سنة . فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم كتب إلى عماله بردّ ضياع آل حزم عليهم وإعطائهم غلّاتها فى كل سنة من ضياع بنى أمية ، وتقسيم أموالهم بينهم على كتاب الله على التناسخ ، ومن مات منهم وُفّر على ورثته . فآنصرف الفتى بما لم ينصرف به أحد من الناس . (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١)

(٣) سماه فى محاسن الملوك "يزيد" .

(٤) كان الأمير عثمان بن نهيك على حرس المنصور . فلما مات سنة ١٤٠ فى فتنة الراوندية ، آستعمل الخليفة أخاه عيسى هذا على حرسه . وكان ذلك بالهاشمية . وهنالك آبن نهيك آخر آستعمله المهدى وأمره بضرب بشار بن برد حتى قتله . وأما إبراهيم بن عثمان بن نهيك فقد قتله الرشيد لأنه كان يبكى على قتل جعفر البرمكى =

فقال: يازيد! قلتُ: لَبَّيْكَ ياأميرالمؤمنين! قال: كم خلَّفَ أبو يزيدَ من المال؟ قلتُ: ألفَ دينار أو نحوَها. قال: فأينَ هي؟ قلتُ: أنفقتها الحُرةُ(١) فى مأتمه. قال: فاستعظم ذلك، وقال: أنفقتْ فى مأتمه ألف دينار! ماأعْجَبَ هذا! ثم قال: كم خلَّفَ من البنات؟ قلتُ: سِتًّا. فأطرق مَلِيًّا ثم رفع رأسه وقال: اُغْدُ إلى باب المَهدِىّ. فغدوتُ فقيل لى: معك بغال؟ فقلتُ: لم أُومَرْ بإحضار بغلٍ ولا غيرِه، ولا أدْرى لِمَ دُعِيتُ. قال: فأُعْطِيتُ ثمانين ومائةَ ألفِ دينارٍ، وأُمِرْتُ أن أدفع لكلِّ واحدةٍ من بناتِ عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلتُ. ثم دعانى المنصور فقال: قَبَضْتَ ما أمرنا به (١١٨) لبنات أبي يزيدَ؟ قلتُ: نعم ياأميرالمؤمنين! قال: اُغْدُ علىّ بأكفائهنّ حتى أُزوّجهن

= وعلى ماوقع للبرامكة. فكان إذا أخذه الشراب، يقول لغلامه: هاتِ سيفى! فيسلُّه ويصيح: واجعفراه! ثم يقول: لآخُذَنَّ ثأرك، ولأقتُلَنَّ قاتلك! فنمّ عليه ابنه عثمان للفضل بن الربيع فأخبر الرشيد، فكان ذلك سبب قتله. (ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨٤ و"شذرات الذهب" ج ١ ص ٢٣٠ و"النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٥٢٤) وروى صاحب "المحاسن والمساوى" رواية أخرى فى وشاية الولد بأبيه للرشيد (ص ٥٩٢).

وأما لفظ "لبيك" فهو "مشتق من الباكة وهى الجُرأة والإقدام يقال: انتهك فلان فلانا إذا نال من عِرضه وشتمه. ومنه: انتهاك المحارم، ونهكته الحُمّى إذا أضرّت به، وأنهكه عقوبة إذا أوجعه ضربا." (الاشتقاق لابن دُرَيد ص ١٢٨)

(١) هذا اللقب كان يُعطى عادة فى أيام الدولة الأموية والعباسية لنساء الأُمراء والأشراف والسادات والأكابر. فلما تغلبت الدولة التركية فى العراق، وفى مصر خصوصا، صار لقب نساء الملوك "خونده" "خاتون"، "آدر (جمع دار)" وهذا اللقب الأخير كان خاصًّا بمصر فى زمان المماليك. وفى عصرنا هذا نقول: "حَرَم" و"هانم" وهما لقبان يطلقان على نساء الأكابر. (انظر ص ١٢١ من كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" المطبوع فى باريس)

منهم. قال: فغدوتُ عليه بثلاثة من وَلَد العَكِّيّ(١) وثلاثة من آل نَهِيك من بنى عمّهنّ. فزوّج كلَّ واحدة منهنّ على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يُجعل صداقُهنّ من ماله. وأمرنى أن أشترىَ بما أمر لهنّ ضياعًا(٢) يكون معاشهنّ منها.

فهل سَمِع هذا الجاهلُ الخائنُ(٣) بمثل هذه المكارم لعربىّ أو عجمىّ(٤)؟ ولو أردنا أن نذكر محاسن المنصور على التفصيل والتقصّى لطال بها الكتابُ وكثُرَتْ فيه الأخبار.

وقلّما ٱستعملتِ العامّةُ وكثيرٌ من الخاصّة التمييزَ، إيثارًا للتقليد. إذ كان أقلَّ فى الشُّغْل وأدلَّ على الجهل وأخفَّ فى المؤونة. وحسبُك من جهل العامّة أنها تُفضّل السمين على النحيف، وإن كان السمينُ مأفونًا(٥) والنحيفُ ذا فضائل، وتُفضّل الطويل على القصير، لا للطُّول ولكن لشئ آخَر لا ندرى ماهو، وتُفضّل راكبَ الدابّة على راكب البغل وراكبَ البَغْل على راكب الحِمار، ٱقتصارًا على التقليد إذ كان أسهلَ فى المأتَى وأهونَ فى الٱختيار.

(١١٩) الأدب فى اعتلال الملك ونظام التشريفات

ومن حقّ الملك — إذا ٱعتلّ — أن لا تَطلُبَ خاصّته الدخولَ عليه فى ليلٍ ولا نهارٍ، حتّى يكونَ هو الذى يأمر بالإذن لِمَن حَضَر، وأنْ لا يَرْفَعَ إليه الحاجبُ أسماءهم

(١) الظاهر أن العَكّىّ المذكور هنا هو مقاتل بن حَكيم العَكّىّ الذى ٱستخلفه المنصور على حرّان، وقد حاصره بها عبدالله بن علىّ عم المنصور ثم قتله. فهو إذن من أولياء المنصور. (أُنظر الطبرىّ سلسلة ٣ ص ٩٣، ٩٤)

(٢) روى الطبرىّ هذه الحكاية حرفا حرفا. (سلسلة ٣ ص ٤٢٠)

(٣) لعل الصواب: المائن، بمعنى الكاذب.

(٤) صـ: آثرنا.

(٥) المأفون الضعيف الرأى والعقل. وفى صـ: مؤوفا [أى ذا آفة وعاهة].

مبتدئا حتّى يأْذَنَ له . فإذا أَذِنَ له بالدخول ، فمن حقه أنْ لاتدخُلَ عليه الطبقةُ العاليةُ مع التى دونها ، ولا يدخُلُ عليه من هذه الطبقة جماعةٌ ، ومن غيرها جماعةٌ . ولكنْ على الحاجب أن يُحضِرَ الطبقاتِ الثلاثَ كلَّها أو مَن حضر منها ، ثم يأْذَنُ للعُلْيا جُمْلةً . فإذا دخلتْ ، قامت بحيثُ مراتبُها[(١)] ، فلم تسلِّمْ عليه فتُحْوِجَهُ إلىٰ ردّ السلام ؛ فإذا عَلِمتْ أنه قد لاحظها ، دعتْ له دُعاءً يسيرًا مُوجَزًا ، ثم خرجتْ . ودخلتْ التى تليها ، فقامت علىٰ مراتبها أقلَّ من قيام الأُولىٰ ، ودعت دعاءً أقلَّ من دعاء الأُولىٰ . ثم دخلتْ بعدهما الثالثة ، فكان حظُّها أن يراها فقط . وليس من عادة الملوك وُقُوفُ هذه الطبقة الثالثة تتأمَّلُ الملك وتدعو له وتنظر إليه . وإنّما مراتبها أنْ يراها فقط .

(١٢٠) ومن حقِّ المَلك أنْ لا ينصرف أحدٌ من هذه الطبقات إلىٰ رَحْلِهِ إلّا فى اليوم الذى كان فيه ينصرف فى صحة المَلك . وبالْحَرِىّ ينبغى أنْ لايبرح[(٢)] فِناء سيِّده ومالكه ، انتظارًا لإفاقته من عِلّته وتَحَفِّيًا[(٣)] عن ساعات مرضه .

✢

جوائز البطانة وصلاتهم

ومن الحقّ علىٰ المَلك تعهُّدُ بِطانته وخاصّته بجوائزهم وصِلاتهم . إن كان ذلك يكون مُشاهرةً أو مُساناةً .

ومن أخلاق المَلك أن يُوكِّلَ بادّكاره صِلاتِهم ، ولايُحْوِجَ أحدًا منهم إلىٰ رفع رُقعةٍ أو إذْكارٍ أو تعريضٍ . فإن هذا ليس من أخلاق المتيقِّظ من الملوك .

(١) صـ : بجنب .

(٢) راجع الحاشية ١ صفحة ٢٢ من هذا الكتاب عن لفظ "برح" .

(٣) صـ : وتحصى .

ستة ملوك ساسان فى الجوائز

وكانت ملوك آل ساسان يفعلون فى هذا فعلا بَقِىَ لهم ذِكْرُهُ إلىٰ هذه الغاية وإلىٰ انقضاء مدّة العالَم.

فكان الملك منهم يُقـدّر للرجُل من خاصّته وبِطانته تقديراً وَسَطًا بين الإسراف والاقتصاد فى مُؤَنِه كُلِّها، وحوائجه خاصِّها وعامّها. فإذا كان التقـديرُ ـ علىٰ الجهة التى وصفنا ـ عشرةَ آلاف درهم فى الشهر، وكانت للرجُل ضيعةٌ، أمر أن يُدفَعَ إليه فى كل ثلاثين ليلة عشرةُ آلاف درهم، لأَنْزاله [١] ونفقاته وحوائجه. ويقول له الملكُ: "قد عَلِمنا أنّ الضيعة التى أفدتَها [٢] هى ممـا تقدّم من صِلاتنا لك وقد تسلّفنا شكرَ تلك النعمة منك، وليس من العدل أن تكونَ فى خدمتنا، وتكونُ نفقتك من شئ أَفَدْتَهُ [٣] (١٣١) بشكرٍ قد تقـدّم وحُرْمة قد تأكّدتْ. فليكن ما أثمرتْ لك ضيعتُـك ظِهْرِيًّا لنوائب الزمان وتحرُّم الأيّام وانقلاب الدُّوَل وحوادث الموت [٤]. ولتكن مُؤَنُك وكُلَفُك [٥] على خاصّ أموالنـا."

وكذلك الطبقات على هذا النظام والإحكام. فيمضى علىٰ أحدِهم عشرون سنة لايفتح فاه بطلب درهم ولا غيره، منبسطا [٦] لزمانه مبتهجا بِنِعَم مَلِكه مسرورا بما يكفى عن التّذكار وشكوىٰ الحال [٧].

(١) الأَنْزال (جمع نُزُل): القوم النازلون على الإنسان، أو ماهُيِّئ للضيف أن ينزل عليه، كما فى تاج العروس.

(٢) صـ: أخذتها.

(٣) صـ: أخذته.

(٤) سـ: وحوادث الأيام والموت. صـ: وحوادث المؤن.

(٥) صـ: وكُلُكَ.

(٦) فى صـ: "مستنشطا". وليس لها معنى فى اللغة يوافق هـذا المقام، فلذلك أصلحناها بما اقتضاه الحال. وهى من الكلمات التى تفرّد بها صـ.

(٧) صـ: بمـا كفى من التذكار وشكو الحال.

✦

هدايا المهرجان والنيروز من الملك وله

ومن حقّ الملك هدايا المَهْرَجان(١) والنَّيْرُوز(٢).

والعلّة فى ذلك أنهما فَصْلَا السنة.

فالمهرجان دخولُ الشتاء وفصلِ البرْد، والنيروز إذْنٌ بدخول فصل الحرّ. إلا أن فى النيروز أحوالاً ليستْ فى المهرجان. فمنها آستقبال السنة وآفتتاح الخراج وتوليةُ العمّال والآستبدال وضرب الدراهم والدنانير وتذكية بيوت النيران وصبّ الماء وتقريب القربان(٣) وإشادة البنيان(٤) وما أشبه ذلك.

فهذه فضيلة النيروز على المهرجان.

ومن حقّ الملك أن يُهدَى إليه الخاصّةُ والعامّةُ. (١٣٢)

والسُّنّةُ فى ذلك عندهم(٥) أن يُهدى الرجل ما يُحِبُّ من مِلكه، إذا كان فى الطبقة العالية. فإن كان يُحِبُّ المِسك، أهدى مسكاً لا غيره؛ وإن كان يحب العنبر،

(١) كلمتان فارسيتان معناهما محبة الروح.

(٢) كلمتان فارسيتان معناهما اليوم الجديد أى رأس السنة.

(٣) صـ : والأخذ بالاسفند. [والذى فى المعجم الفارسى العربى الإنكليزى لرتشاردسُن أن الإسْفَنْد هو آسم اليوم الثالث من الخمسة الأيام التى يضيفها الفرس لآخر الشهر الثانى عشر من السنة. ولما كان الشهر عندهم ثلاثين يوما فهم يضمُّون خمسة أيام على آخر الشهر من السنة ليجعلوها معادلة للسنة الشمسية. وربما كان الجاحظ يشير إلى حفلة خاصة بالفُرس فى ذلك اليوم بتقريب القربان].

(٤) كل هذه رسوم فارسية نقلها الجاحظ عن آيينهم، بغير ملاحظة لما أخذ المسلمون أو تركوا منها.

(٥) هذا وما يليه يؤيد ما أشرنا إليه فى الحاشية السابقة

أهدىٰ عنبرا ؛ وإن كان صاحب بِزّةٍ ولِبْسةٍ(١)، أهدىٰ كُسْوَةً وثيابا ؛ وإن كان الرجُل من الشُّجَعاء والفُرسان، فالسُّنّةُ أنْ يُهدىَ فَرَسا أو رمحا أو سيفا ؛ وإن كان راميا، فالسُّنّة أن يُهدىَ نُشّابا ؛ وإن كان من أصحاب الأموال(٢)، فالسُّنّةُ أن يُهدىَ ذهبًا أو فضة ؛ وإن كان من عُمّال المَلك، وكانت عليه موانيذ(٣) للسنة الماضية، جمعها وجعلها فى بِدَرِ(٤) حريرٍ صينىٍّ وشريحات فضة وخيوط إبْرِيسَم وخواتيم عنبر ثم وجّهها.

(١) صـ : صاحب كسوة وثياب.

(٢) صـ : "أصحاب العمال". [ولعلها أصحاب الأعمال].

(٣) وردت هذه الكلمة مهملة فى سـ، صـ هكذا (مواىىد)، فوجدناها فى شفاء الغليل (بعد مراجعة غيره من كتب اللغة) هكذا : "موانيد" وفسرها بقوله "بقايا فى شعر الفرزدق. مُعَرَّبٌ." (ص ٢٠٨) ولكن الناسخ أو الطابع جعلها بالتاء المثناة الفوقية بدلا من النون. وهى واردة على صحتها فى كتاب "المُعَرَّب من الكلام الأعجمى" للإمام الجواليقى (طبع العلامة الألمانى سخاو بمدينة ليبسك سنة ١٨٦٧ فى صفحة ١٤٣) وقد آستشهد عليها، بقول الفرزدق.

"خَرَاجُ مَوَانِيذَ عَلَيْهِمْ كثيرة * تُشَدُّلَهَا أَيْدِيهِمُ بالعواتِقِ".

وقد رأيتُ هذا البيت فى قصيدة طويلة فى مدح عمر بن هُبَيْرَةَ الفزارى، ضمن ديوان الفرزدق الذى طبعه باللغة العربية وترجمه إلى الفرنسيّة العلامة المستشرق المسيو بوشيه (R. Boucher) فى باريس سنة ١٨٧٠. (أُنظر صفحة ٢٣٨ من القسم العربى و ٧١٧ من القسم الفرنسى). وقد ظنّ هذا العالم أن الكلمة ربما كان الأصحّ فى كتابتها الدال المهملة بدلا من المعجمة، وظنّ أنها تعريب كلمة "مانده" الفارسيّة. وأقول إن العرب يجعلون الدال ذالا عند التعريب (مثل أُستاذ، تلميذ، فالوذج، فولاذ، بغداذ، كلواذ، مرو الروذ الخ). وأما الأصل الفارسىّ فهو "مانده" من مصدر "مانيدن" بمعنى البقاء، وجمعوا الكلمة بعد تعريبها على "موانيذ" بجعل الدال ذالا جريا على عادتهم فى التعريب.

(٤) صـ : بيت.

وكذلك، إنما كان يفعل من العمّال مَن أراد أن يتزيَّن بفضل نفقاته أو بفضل عُمالته أو أداء أمانتـه.

وكان يُهدى الشاعرُ الشعرَ، والخطيبُ الخُطْبَةَ، والنديم التُّحفة والطُّرفة والباكورة من الخَضْراوات.

(١٣٣) وعلى خاصّة نساء المَلِك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يُؤْثِرْنَهُ ويُفَضِّلْنَهُ(١) كما قدمنا فى الرجال. غير أنه يجب على المرأة من نساء الملك ــ إن كانت عنـدها جاريةٌ تَعْلَمُ أن الملك يَهواها ويُسَرُّ بها ــ أن تُهديَها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زِينتها وأحسن هيآتها. فإذا فعلتْ ذلك، فمن حقِّها على المَلك أن يُقَدِّمَها على نسائه ويَخُصَّها بالمنزلة ويَزيدَها فى الكرامة، ويَعْلَمَ أنها قد آثرته على نفسها وبذلتْ له ما لا تجود النفس به وخصّته بما ليس فى وُسع النساء ــ إلا القليل منهنّ ــ الجودُ به.

ومن حق البِطانة والخاصّـة على المَلك فى هذه الهدايا أن تُعْرَض عليه وتقوّم قيمةَ عَدْلٍ.

فإذا كانت قيمة الهدية عشرةَ آلافٍ، أُثبِتَتْ فى ديوان الخاصّة. فإن كان صاحبها ممن يرغبُ فى الفضل ويذهب إلى الربح ثم نابته نائبة من مُصيبة يُصاب بها أو بناء يتخذه(٢) أو مأدبة يأدِبها(٣) أو عُرس يكون من تزويج ابنٍ أو إهداءِ ابنةٍ إلى بَعْلها، نُظِرَ إلى ما له فى الديوان (وقـد وُكِّلَ بذلك رجُلٌ يرعى هذا وما أشبهَهُ ويتعهّدُه). فإذا كانت قيمة الهديّة عشرةَ آلافٍ، أُضْعِفَتْ له ليستعينَ بها على نائبته.

---

(١) صـ: يؤثرنه ويفضلنه.

(٢) سـ: يجدّده.

(٣) فى سـ: يجدّدها. وليست فى صـ.

(١٢٤) وإن كان الرجُلُ ممن أهدىٰ نُشَّابة أو درهما أو تُفَّاحة أو أُتْرُجَّة، فإن تلك الهدية إنما قدّمها لتُثْبَتَ له فى الديوان، ويُخبَّرَ الملكُ إنْ نابتْه نائبةٌ. فعلىٰ الملك إعانته عليها، إذا كان من أساورته وبِطانته أو محدِّثيه. فإذا رُفع للملك أن له فى الديوان نُشَّابةً أو درهمًا أو أُتْرُجَّةً أو تُفَّاحةً، أَمَرَ المَلِك أن تؤخذ أُتْرُجَّةٌ فتُملأَ دنانيرَ منظومةً ويوجَّهَ بها إليـه. وكان لا يُعطى صاحبَ التُّفَّاحة إلا كما يُعطى صاحبَ الأُتْرُجَّة. وأما صاحب النُّشَّابة فكانت تخرج نُشَّابتُه من الخِزانة وعليها آسمه، فتُنْصَبُ ويوضعُ بإزائها من كِسوةِ المَلِك ومن سائر الكِساء. فإذا آرتفعتْ حتّى تُوازِىَ نَصْلَ النُّشَّابة، دُعِىَ صاحِبُها فدُفِعَتْ إليه تلك الكِسوة.

وكان من تقـدّمتْ له هديّةٌ فى النيروز والمهرجان (صَـغُرَتْ أم كَبُرَتْ، كَثُرَتْ أم قلّتْ)، ثم لم يَخْرُجْ له من الملك صِلةٌ عند نائبةٍ تنوبه أو حقٍّ يلزمه، فعليه أن يأتىَ ديوان الملك ويُذَكِّرَ بنفسه، وأنْ لا يغفلَ عن إحياء السُّنَّة ولزوم الشريعة. وإن غَفَلَ عن أمره بعارِضٍ يحدُثُ، فإنْ تَرَكَ ذلك علىٰ عَمْدٍ، فمن سُـنَّةِ الملك أن يَحرِمَه أرزاقه لستّةِ أشهرٍ، وأن يدفعها إلىٰ عَدُوٍّ، إن كان له. إذ أتىٰ شيأ فيه شَيْنٌ علىٰ المَلِك وضَعَةٌ فى المملكة.

(١٢٥) وكان أردشـير بن بابك وبهرام جور وأنوشروان يأمرون بإخراج ما فى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من الكُسَى فتُفرَّقُ كلُّها علىٰ بِطانة الملك وخاصّته، ثم علىٰ بِطانة البِطانة، ثم علىٰ سائر الناس، علىٰ مراتبهم.

وكانوا يقولون: إن المَلِك يَستغنى عن كِسوة الصيف فى الشتاء، وعن كِسوة الشتاء فى الصـيف؛ وليس من أخلاق الملوك أن تُخبَّأَ كِسوتُها فى خَزائنها، فتُساوِى العامّةَ فى فعلهـا.

فكان يلبس فى يوم المهرجان الجديد من الخزّ والوشْي والمُلْحَم. ثم تفرّق كسوة الصيف علىٰ ماذكرنا.

فإذا كان يوم النيروز، لبس خفيف الثياب و رقيقها[(١)]، وأمر بكسوة الشتاء كلها ففُرِّقتْ.

أمير مسلم اقتدى بالفرس فى تفريق كسوته

ولا نعلم أنّ أحدًا بعدَهم آقتفىٰ آثارهم، إلّا عبدَ الله بن طاهرٍ، فإنى سمعت من محمد آبن الحسن بن مُصْعَبٍ[(٢)] يذكر أنه كان يفعل ذلك فى النيروز والمهرجان، حتّٰى لايترك فى خزائنه ثوبًا واحدًا إلّا كساه. وهذا من أحسن ماحُكِيَ لنا من فضائله.

✣

ومن أخلاق الملوك اللَّهْوُ.

لهو الملوك

(١٣٦)

غير أن أسعدهم مَن جعل للهوه وقتًا واحدًا، وأخذ نفسه بذلك. فإنه إذا فعل ذلك، آستطاب اللهوَ والهزلَ والمفاكهةَ. و إذا أدْمَنَ ذلك، خرج به اللهوُ من بابه حتّٰى يجعله جِدًّا لاهَزْلَ فيه، وحقًّا لا باطلَ معه، وخُلُقًا لا يمكنه الآنصرافُ عنه.

وليس هذا صفة الملك السعيد.

ترك الإدمان فى الملاذّ

ومَن أدمَنَ شيأً من ملاذّ الدنيا، لم يَجِدْ له من اللذة وُجودَ القَرِمِ النَّهِم المُشتاق[(٣)].

وهذا قد نراه عِيانًا. وذلك أن ألذّ الطعام وأطْيَبُهُ ما كان علىٰ جوعٍ شديدٍ؛ وألذّ الجماع وأطيبه، إذا آشتدّ الشَّبَقُ وطالت العُزْبة[(٤)]؛ وألذّ النوم وأهنأه ما كان بِعقِب التعَب والسهَر.

(١) صـ : ثياب سابور.

(٢) راجع حاشية ٢ من ص ٧٤ من هذا الكتاب وقد أورد آسم الأب هنا بلفظ "الحسن" على صحته.

(٣) صـ : اللذة وجودة الطعم وجودة النوم.

(٤) صـ : الغربة.

وعلىٰ هذا جميعُ ملاذّ الدنيا.

فالملوك الماضية إنما جعلتْ للملاذّ وقتاً واحدًا من اليوم والليلة، لهذه الفضيلة التى فيها.

فعلىٰ الملك السعيد أن يقسم يومه أقساما. فأوّلُه لذكر الله تعالىٰ وتعظيمه وتهليله، وصدرُه لرعاياه وإصلاح أمرها، ووَسَطُه لأكله ومنامه، وطَرَفُه لِلهْوِهِ وشغله. وأنْ لا يُثابر علىٰ إدمان الشغل فى كلّ يوم. وإن طالت هذه الأقسام بمواضعها، فلا يجد للهو لذته، ولا للنعيم موضعه الذى هو به.

❖

(١٢٧) سيرة الملوك والخلفاء فى الشرب

وكانت الملوك الماضية من الأكاسرة تشرب فى كلّ ثلاثة أيامٍ يومًا، إلّا بَهْرام جور والأَرْدَوان الأحمر(١) وسابور. فإنهم كانوا يُدْمِنون الشُّرْب فى كلّ يوم.

وكان ملوك العرب (كالنُّعمان) وملوك الحِيرة وملوك الطوائف، أكثرُها يشْرَبُ فى كل يومٍ وليلةٍ مرّةً(٢).

وكان من ملوك الإسلام، مَن يُدْمِنُ علىٰ شُربه، يزيد بن معاوية. وكان لا يُمْسى إلّا سكرانَ، ولا يُصبِح إلّا مخموراً.

وكان عبد الملك بن مَرْوان(٣) يسكَر فى كلّ شهر مرّةً حتّى لا يَعْقِل فى السماء هو

(١) لعلّ الصواب: الاصغر. (أُنظر حاشية ٦ صفحة ٢٩، وصفحة ١١٨ من هذا الكتاب).

(٢) صـ: فى كل جمعة يوما وليلة

(٣) صـ: عبد الله.

أو فى المـاء،[١] ويقول: "إنما أقصد فى هذا إلىٰ إشراق العقل، وتقوية مُنَّة الحفظ، وتصفية موضع الفكر.[٢]" غير أنه كان إذا بلغ آخر هذا السُّكْر،[٣] أفرغ ما كان فى بدنه حتّى لايبقىٰ فى أعضائه منه شئ. فيُصْبِحُ خفيفَ البـدَن، ذَكِىَّ العقل والذهن، نشيطَ النفس، قوىَّ المُنَّة.

وكان الوليد بن عبد الملك يشرَبُ يوماً ويدَعُ يوماً.

وكان سليمان [بن عبد الملك] يشرب فى كلّ ثلاثِ ليالٍ ليلةً.

ولم يشرَبْ عمر بن عبد العزيز منـذُ أفضتْ إليه الخلافةُ إلىٰ أن فارق الدنيا، ولا سَمِع غِناءً.

*[٤] وكان هشام يسكر فى كلّ جمعة.

وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يُدمنان اللهو والشرب.*[٤] فأما يزيد بن الوليد، (١٢٨)
فكان دهرَه بين حالَيْن، بين سُكْرٍ وخُمارٍ، ولا يُوجَد أبدًا إلّا ومعه إحدىٰ هاتَيْنِ.

وكان مرْوان بن محمد يشرَب ليلةَ الثلاثاء وليلة السبت.

وكان أبو العباس [السفّاح] يشرَب عَشِيّةَ الثلاثاء وحدَها،[٥] دون السبت.

---

(١) صـ : الأرض.

(٢) صـ : وتقوية وتصفية.

(٣) صـ : آخر حد السكر.

(٤) هاتان الجملتان المحصورتان بين نجمتين ** منقولتان عن صـ.

(٥) صـ : وحدها فى كل جمعة.

*وكان المهدىّ والهادى يشربان يومًا، ويدَعَان يومًا.[١]

وكان الرشيد يشرب فى كل جمعة مرتين. وربما قدَّم أيامه وأخّرها. على أنه لم يَرَه أحدٌ قطُّ يشرب ظاهرًا. إلّا أنه كان يقعد هذين اليومين لندمائه.[٢]

وكان المأمون فى أوَّل أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة. ثم أدمن الشرب عند خروجه إلى الشام فى سنة خمس عشرة [ومائتين] إلى أن تُوُفّىَ.

وكان المعتصم لايشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة.

وكان الواثق ربما أدمن الشرب وتابَعَه. غير أنه لم يكن يشرب فى ليلة الجمعة ولا يومها.*

✣

لبس الملوك

وأخلاق الملوك تختلف فى اللّبسة والطِّيب.

فمن الملوك مَن كان لا يَلْبَسُ القميص إلّا يومًا واحدًا أو ساعةً واحدةً. فإذا نزعه لم يَعُدْ إلى لُبْسِه.

ومنهم مَن كان يَلْبَسُ القميص والجُبَّة أيامًا، فإذا ذهب رَوْنَقه رمى[٣] به فلم يَلْبَسْه بعدُ.

فأما أردشير بن بابك ويَزْدِجرْد وبَهْرام وكسرى أَبْرَوِيز وكسرى أَنُوشِروان

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن صـ .

(٢) وانظر حاشية ٥ ص ٣٧ من هذا الكتاب.

(٣) صـ : رونقه و بعض مائه رمى . [ولعله : و بعض بهائه رمى]

وقُبَاذ، فإنهم كانوا يَلْبَسُون القميص ويُغسَل لهم ثم يَلْبسونه ويُغسَل لهم . فإذا غُسِل ثلاث عَرَكاتٍ[١] لم يُغسَلْ بعدَها، وجُعِل فى الخلَع التى تُخلَعُ علىٰ الولَد والقرابات والعمّ وٱبن العمّ والأخ وٱبن الأخ . ولم يكونوا يخلعون ما قد لَبِسوه إلّا علىٰ القرابات من أهل بيتِ المملكة خاصّةً، لا يُجاوزونهم إلىٰ غيرهم . فأما الخلَع التى تُقطَع وتُتّخذ للطبقات وسائر الناس، فتِيك صِنْفٌ آخَرُ.

(١٢٩) وكان ملوك العرب منهم مَن يَلْبَسُ القميص مرارًا ويُغسل له غَسَلاتٍ: معاويةُ وعبدُ الملك وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومَرْوانُ بن محمدٍ وأبو العباس وأبو جعفر والمأمونُ.

فأما يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد والمهدىّ والهادى والرشيد والمعتصم والواثق فإنهم كانوا لا يَلْبَسون القميص إلا لَبْسَةً واحدةً، إلا أن يكون الثوب نادرا مُعْجَبًا غريبًا.

فأما الجِباب والأردِيَة، فلم تزل الملوك تَلْبَسُها السَّنةَ أو أكثر أيام السَّنة. ومنهم مَن كان يَلْبَس الجُبَّة والمِطرَف[٢] السنينَ الكثيرةَ . وليس الجباب والأردية كالقميص والسراويل . لأن القميصَ والسراويل هما الشِّعار، وسائرَ الثياب الدِّثارُ. ولذلك كره من كره إعارة لُبْسِها[٣]

---

(١) أى مرّات . والعركة المرة الواحدة . وفى صـ : مرات .

(٢) هو رداء من خز مربّع له أعلامٌ . ولم يذكره دوزى Dozy فى "معجم أسماء الثياب عند العرب".

(٣) سـ : إعادة .

✣

تطيب الملوك

وأخلاق الملوك فى العِطْر ومَسّ الطِّيب وتغلُّل الغالية[(١)] تختلفُ.

فمن الملوك مَن إذا مَسّ الطِّيبَ وتغلّلَ[(٢)] بالغالية لم يَعُدْ إلىٰ مَسّ طِيبٍ ما دام عَبَقُها فى ثوبه.

ومن الملوك مَن كان إذا مَسَّ الطِّيبَ وتغلل[(٢)] بالغالية فتضوّعتْ منه وعَلِقتْ بثيابه، أمر بصبّ ماء الورد[(٣)] علىٰ رأسه حتّٰى يسيل. فإذا كان من غَدٍ، فعل مثلَ ذلك. (١٣٠)

فأما مَن كان لا يَمَسُّ طِيبا مادام يجد عَبَقَ الطِّيب فى ثيابه: فأردشير بن بابك وقباذُ [بن فيروز] بن يزدجرد وكسرىٰ أبرويز وكسرىٰ أنوشروان؛ ومن ملوك العرب: معاويةُ وعبدُالملك والوليدُ وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومروانُ [بن محمد]؛ ومن خلفاء بنى العباس: أبو العباس وأبو جعفر والمأمونُ.

وكان المعتصم قلّما يَمَسُّ الطِّيبَ. وكان يذهب فى ذلك إلىٰ تقوية بَدَنِهِ وإعانته علىٰ شدّة البطش والأَيْد. وأما فى أيام حروبه، فكان مَن دنا منه وجد رائحة صدإ السلاح والحديد من جسمه.

(١) فى حاشية صـ: "أبو نصر: سألتُ الأصمعىَّ هل يجوز تغلّلتُ من الغالية؟ قال: إن أردتَ أنك أدخلتَها فى لِحيتك أو شاربك، فجائزٌ. وكذلك غلّلتُ بها لِحيتى؛ شُدِّد للكثرة. صحاح.

(٢) فى تاج العروس: غلَّ الدُّهْنَ فى رأسه أدخله فى أُصول شعره، وغلَّ شعره بالطيب أدخله فيه".
[وآنظر صفحة ٦٧ من هذا الكتاب والحاشية ٢ منها].

(٣) صـ: الماورد. [وقد آستعمل الكُتّاب هذا التركيب المزجى ونسبوا إليه فقالوا: الماوردىّ].

✣

زيارة الملوك تكريما لرجالهم، وأنواعها

ومن أخلاق الملوك الزيارةُ لمن خُصَّ بالتكرمة منهم وآثروه المنزلة ورفع المرتبة.

وزيارة الملك على أربعة أقسام: فمنها الزيارة للطاعمة والمنادمة، ومنها الزيارة للعيادة، ومنها الزيارة للتعزية فى المصيبة(١)، ومنها الزيارة للتعظيم فقط.

وأكبر هذه الأقسام وأرفعها ذكراً الزيارةُ للتعظيم.

(١٣١) لأن هذه الأقسام الثلاثة أكثر ما تقع وتتفق بسؤال المزور المَلِكَ وتَلَطُّفِه(٢) فى ذلك.

---

(١) من هذا القبيل ما تفضّل به مولانا الخديو المعظّم الحاجّ عبّاس حلمى الثانى على المأسوف عليه بطرس غالى باشا رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية سابقا، بعد أن اغتاله يدٌ أثيمة فى ١٠ صفر سنة ١٣٢٨ (٢٠ فبراير سنة ١٩١٠). فقد يمّم المستشفى (حفظه الله) بموكبه الجليل فى يوم إصابته، ثم تنازل بالتوجه إلى دار الفقيد بالفجّالة فى القاهرة، عقب مماته فى ١٢ صفر (٢٢ فبراير) وواسى بنفسه أولاد القتيل وقرابته. فخفف بذلك مُصابهم الجَلَل، وأعرب عن جميل عنايته بجميع صنوف رعيته.

ولقد اتّفق مثل هذا الصنيع الجميل، فى حادث من هذا القبيل، لأحد السابقين من ملوك النيل، وهو السلطان الملك الناصر حسن صاحب الجامع الأشهر القريب من القلعة. وذلك أنه فى يوم الاثنين ١١ شعبان سنة ٧٧٨ هـ حاول أحد المماليك اغتيال رئيس الحكومة وصاحب الحلّ والعقد فى ديار مصر، وأعنى به الأتابكىّ سيفَ الدين شيخو العُمرىّ (وهو أوّل من تلقّب باسم أمير كبير، وكانت وظيفته إذ ذاك تعادل رياسة مجلس النظار فى أيامنا هذه)، فضربه وهو فى الإيوان فى يوم الموكب بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات. فوقع الأتابكىّ إلى الأرض مغشيّاً عليه. فحملوه إلى بيته وبه بعض رمق. وهنالك ضمّدوا جراحاته. فنزل السلطان من القلعة فى اليوم التالى وذهب بموكبه إلى داره وترجّل عن فرسه وواسى رئيس حكومته. ولكنّ الأتابكىّ مات فى يوم الجمعة ١٦ ذى القعدة من السنة المذكورة. فاحتفل السلطان بجنازته وحضرها بنفسه وصلّى عليه قبل دفنه. (راجع ابن إياس ج ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥)

(٢) فى س، ص: تلقفه.

وربما رَفع الملكُ مرتبةَ الوزيرِ وخصّه وقدّمه على سائر بطانته،[1] فيكون من حِيَل الوزير أن يتعالل فيعوده الملكُ، فيُظْهِرَ للعامّة منزلته عنده وتكرمته إيّاه وإيثاره له.

وأيضا، فقلَّ مَلِكٌ سأله وزيرُه أو صاحبُ جيشه أو أحدُ عظمائه زيارتَه إلّا أجابه إلى ذلك، و[لا] سيّما[2] إذا علم أنّ غرضَه في ذلك الزيادةُ في المرتبة والتنويهُ بالذكر.

فإذا كانت الزيارةُ من الملك على أحد هذه الأقسام الثلاثة، فهي منزلةٌ كان صاحبُها يحاولها فبلغها، وأُمْنِيَّةٌ[3] طلبها فأدركها.

فأما الزيارة للتعظيم، فإنها لا تقع بسؤالٍ ولا بإرادةِ المزور. إذ كان ليس من أخلاق وزيرٍ ولا شريفٍ أن يقول للملك: زُرْني لتعظِّمَني، ولترفعَ في الناس من ذِكري وقدْري.

فإذا كان ذلك من الملك ابتداءً، فقد علمنا أن تلك أرفعُ مراتب الوزراء، وأفضلُ درجات الأشراف.[4]

(١) س: وقرّبه.

(٢) [أُنظر الحاشية ٣ ص ٤٥ من هذا الكتاب].

(٣) ص: يأملها.

(٤) يدخل في هذا الباب ما تكرم به أيضا الخديو المعظم الحاجّ عبّاس حلمي الثاني على عبده وصنيعته، وغرس نعمته، وخادم دولته، محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية الحالي. فقد زاره بمنزله في رمل الإسكندرية في ١٥ رمضان سنة ١٣٢٩ (٨ سبتمبر سنة ١٩١١). وقد جمعتْ هذه الزيارة مزيّتين في آنٍ واحد: مزية التكريم ومزية العيادة اللتين أشار إليهما الجاحظ. ولقد كانت هذه الزيارة على غير انتظار البتّة. وكنتُ حاضرًا ليلتها في دار الوزير، وهو لا يعلم بذلك. لأنه قبل تشريف المليك بهنيهة، كان بملابس نومه. فما هو إلا أن فاجأنا الخبر بالتلفون، مبشرا بهذه الزيارة الجليلة. وقد كانت بعد ذلك بدقائق.

وذلك لعمري يشابه كثيرا من الأيادي البيضاء التي أسداها الخلفاء والسلاطين في مصر إلى رجالات دولتهم. أكتفي بذكر مثال واحد يضارع هذه الأكرومة. وذلك أن السلطان قايتباي الشهير بمآثره الجليلة في خدمة العلم والأدب والفنون الجميلة نزل من قصره بالقلعة في شهر رمضان سنة ٨٧٣ هـ لزيارة الأمير يشبك الدوادار الكبير، بمناسبة التوعك الذي حصل في جسده. وكان هذا الأمير قد جمع في يده أكبر وظائف الدولة على ذلك العهد، وهي: الاستادارية، والدوادارية، والوزارة، وكشوفية الكشاف. وقد عظم أمره جدا حتى قال فيه ابن إياس: "ما أظنّ أن هذه الوظائف قد جُمعت لأحد من الأمراء قبله." (أُنظر "بدائع الزهور في وقائع الدهور" ج ٢ ص ١٠٧—١٠٨)

وكان أردشير وأنوشروان إذا زارا وزيراً من وزرائهما أوعظيما من عظمائهما للتعظيم لالغيره، أرّخت الفرس تلك الزيارة، وخرجت بذلك التاريخ كُتُبُهُم إلى الآفاق والأطراف.

(١٣٢) وكانت سُنّة مَن زاره الملك للتعظيم أن تُوغَرَ[١] ضياعهُ وتُوسَم خيلُه ودوابُّه لئلا تُسخَّر، ولا تُمتَهَنُ[٢]. ويأتيه خليفةُ صاحب الشُّرْطَة في كلِّ يوم مع ثلاثمائة راكبٍ ومائة راجلٍ، يكون ببابه إلى غروب الشمس. فإن ركبَ كانت الرجّالة[٣] مُشاةً أمامَهُ، والركبان من خلفه، ولا يُحبس أحدٌ من حامّته[٤] وخاصّته بجناية جناها، ولا يُحكم على أحدٍ من عبيده بحُكمٍ، وإن وجب على أحدٍ من بِطانته حدٌّ، وُجِّهَ به إليه ليرى فيه رأيه، ويُؤخَّرُ عليه وظيفةُ ماعليه من خراج أرضه حتّى يكون هو الحامل له، وتُقدَّم هداياه في النيروز والمهرجان على كلِّ هديّة وتُعرَض على الملك، ويكون أوّلَ مَن يأذَنُ له الحاجبُ، ويكون من الملك إذا ركبَ عن يمينه منزويًا، وتكون مرتبته إذا قعد عن يمينه، وإذا خرج من دار المملكة، لم يقعُدْ بعدَه أحدٌ.

(١) في سـ : "توعر" وفي صـ : "يوغر". يقال أوغر الملكُ الرجُلَ الأرضَ : جعلها له من غير خراجٍ، أو هو أن يؤدِّيَ الخراج إلى السلطان الأكبر فراراً من العُمّال (قاموس). وهذا المعنى الثاني هو الذي أراده الجاحظ، لقوله بعد ذلك بخمسة أسطر : "ويؤخر عليه وظيفة ماعليه من خراج أرضه حتى يكون هو الحامل له".

(٢) صـ : ولا تُهن.

(٣) صـ : الرجال.

(٤) سـ : وعامته.

* وكانت ملوك آل ساسان لاتزور أحدًا لعلّةٍ من هذه العلل التى قدّمنا ذكرها، فينصرف بخلعةٍ أو طيبٍ أو تحفةٍ أو هديّةٍ من جاريةٍ أو غلام. غير أنه كان إذا نزل الملك، وطّأ لرِجْله فرسًا رائعا بسرجٍ مُذْهَبٍ وأداةٍ تامّةٍ، فقُدِّم إليه إذا أراد الانصراف.[1][2]

فكان الأمر كذلك، حتّى ملك بهرام بن يَزْدجِرْدَ. فكان ينادم الأساورة من أبناء أهل الشرف، فيخلع عليه فى كلّ ساعةٍ خلعة مجدّدة، ويشتهى الزامرةَ والمغنّية والرقاصة فيأخذها. وكان أوّلَ مَن أطلق يدَه فى ذلك، لغَلَبة اللهْو عليه و إيثارِه هواه.[3]

فأما مَن كان من ملوكهم قَبْلَهُ، فعلى الأمر الذى ذكرنا والحكاية التى أدّينا.[4] *

✤

استقبال الناس فى الأعياد

ومن أخلاق الملك القعود للعامّة يومًا فى المهرجان، ويومًا فى النيروز. ولا يُحْجَبُ عنه أحدٌ فى هذيْن اليوميْن من صغيرٍ ولا كبير، ولا جاهلٍ ولا شريف.[5]

وكان المَلك يأمر بالنداء قبل قعوده بأيامٍ، ليتأهّبَ الناس لذلك. فيُهيّئُ الرجُلُ القِصّةَ، ويهيّئُ الآخَرُ الحُجّةَ فى مظلمته، ويصالحُ الآخَرُ صاحبَه إذا علم أن خصمه (١٣٣)

---

(١) لعلّه: فتنصرف. وبقية الكلام يدلّ على أن الضمير هنا يرجع للملوك ولعل الفاعل مقدّر ويكون المعنى: فينصرف الملك منهم.

(٢) أى: وطأ المزور لرِجْل الملك الزائر.

(٣) أى الأسوار المزور.

(٤) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن ص.

(٥) وهذا أيضا من منقولات الجاحظ عن آيين الفرس.

يتظلَّم منه إلى المَلك. فيأمُرُ الموبَذ أن يُوكِّل رجالا من ثقات أصحابه فيقفون بباب العامّة، فلا يُمْنَع أحدٌ من الدخول على المَلك. وينادى مُناديه: "مَن حَبَس رجُلًا عن رفع مظلمته، فقد عصى الله وخالف سُنَّة الملك؛ ومَن عصى الله، فقد أَذِنَ بحربٍ منه ومن الملك."

التظلم من الملك إلى القاضى

ثم يُؤْذَنُ للناس وتُؤْخَذُ رِقاعُهم، فينظرُ فيها. فإن كان فيها شئ يُتَظَلَّمُ فيه من المَلك، بُدِئ به أوّلًا، وقُدِّم على كلّ مظلمة. ويُحضِرُ المَلكُ الموبَذَ الكبيرَ والدَّبِيرَبذ(١) ورأس سَدَنة بيوت النار، ثم يقوم المنادى فينادى: "ليعتزلْ كلُّ مَن تظلَّمَ من الملك!" فيمتازون. ويقوم المَلك مع خصومه حتّى يجثُو بين يدَى الموبَذ فيقول له: "أيها المُوبَذ، إنه ما من ذنب أعظمَ عند الله من ذنب الملوك! وإنما خوّلها الله تعالى رعاياها لتدفع عنها الظلم وتَذُبَّ عن بيضة المُلك جَوْرَ الجائرين وظُلْمَ الظالمين. فإذا كانت هى الظالمة الجائرة، فحُقَّ لمِنْ دونها هدمُ بيوت النيران، وسلْبُ ما فى النواويس من الأكفان. ومجلسى هذا منك — وأنا عبدٌ ذليلٌ — يشبه مجلسك من الله غدًا. فإنْ آثرتَ الله آثرك، وإن آثرت الملك عذّبك.(٢)" فيقول له المُوبَذ: "إن الله إذا أراد سعادة عباده، آختار لهم خير أهل أرضه. فإذا أراد أن يعرّفهم قدْره عنده، أجرى على لسانه ما أجرى على لسانك." ثم ينظر فى أمره وأمر خَصمه بالحقّ والعدل. فإن صحّ على الملك،

(١٣٤)

(١) سـ، صـ: الدبربد. [وانظر صفحة ٧٧ من هذا الكتاب وحاشية ٢ منها، وصفحة ١٧٣ منه أيضا].

(٢) فى "محاسن الملوك" أن الخصم هو الذى يقول ذلك الكلام للقاضى، لا الملك. (ص ٣٩)

شئٌ أخذه به، وإلّا حبس مَن ٱدّعىٰ عليه باطلًا، ونكّل به. ونُودى عليه: "هذا جزاء

---

(١) فى تواريخ الإسلام غرر كثيرة من هذا القبيل. فالخلفاء وآل بيتهم والملوك ووزراؤهم كانوا يساوون أقلّ الخصوم فى مجلس القاضى ويجرى عليهم الحكم الشرعىّ كما يجرى علىٰ سائر الناس. فقد تحاكم علىٌّ بن أبى طالب أمام عُمر بن الخطاب (مستطرف ج ١ ص ١١٨)، ثم تحاكم وهو خليفة مع ذمىّ أمام القاضى شريح (ابن خلكان فى ترجمة شريح)؛ وتحاكم هشام الأموىّ مع صاحب حرسه أمام القاضى فى دار الخلافة (ابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٣٩)؛ وخاصم رجل من حلوان مصر الخليفة عمر بن عبدالعزيز وتوجها معا الى مجلس القاضى فساوى بينهما فى كل شىء وقضى للرجل عليه (المحاسن والمساوى ص ٥٢٥، وفيها وفيما يليها وقائع أخرى من هذا القبيل لعمر بن الخطاب)؛ وتحاكم المأمون بين يدى القاضى يحيي بن أكثم "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٤ و"المحاسن والمساوى" ص ٥٣٢ "والمستطرف" ج ١ ص ١١٩؛ وتحاكم إبراهيم بن المهدىّ مع بختيشوع الطبيب عند القاضى أحمد بن أبى دؤاد "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٣؛ وتحاكم الوزير ٱبن الزيات فى مجلس القضاء، وفى دار الوزارة "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٣ و ١٢٤؛ وتحاكم الأشعث عند شريح القاضى "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٤. والأمر أشهر من أن يذكر، والوقائع أكثر من أن تحصر.

وأبدع من ذلك كله ماجرىٰ بالقاهرة فى أيام الأيوبيين فقد روىٰ السيوطىّ أنه فى سنة ٦٣٩ للهجرة تولى عبد العزيز المعروف بعز الدين بن عبد السلام المشهور بسلطان العلماء قضاء مصر والوجه القبلىّ. وكان قدم فى هذه السنة من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح إسماعيل ٱستعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك الدعاء له فى الخطبة، وساعده فى ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكىّ. فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين (وهو فى الطريق) قاصدًا يتلطف به فى العود إلى دمشق. فٱجتمع به ولاينه، وقال له: ماتريد منك شيأ إلا أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير. فقال الشيخ له: يامسكين! "ما أرضاه يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده! ياقوم، أنتم فى واد وأنا فى واد! والحمدلله الذى عافانا مما ٱبتلاكم به!" فلما وصل إلى مصر، تلقاه سلطانها الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه وولّاه قضاء مصر. فٱتفق أن أستاذ داره فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ (وهو الذى كان إليه أمر المملكة) عمد إلى مسجد بمصر، فعمل على ظهره =

من أراد شَين المَلك، وقَدَحَ فى المملكة(١)!"

= بناء طبلخاناه، وبقيتْ تضرب هنالك . فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين، حكم بهدم ذلك البناء، وأسقط فخر الدين، وعزل نفسه من القضاء. ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان. وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يُتأثَّر به فى الخارج . فاتفق أن جهز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد . فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدى الخليفة وأدّى الرسالة له، خرج إليه وسأله : هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان؟ فقال : لا، ولكن حَمَّلَنيها عن السلطان فخرُ الدين ابن شيخ الشيوخ، أستاذ داره . فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته . فرجع الرسول إلى السلطان حتّى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها . ولما تولّى الشيخ عز الدين القضاء، تصدّى لبيع أُمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرِّق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين . فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم، واحتدم الأمر، والشيخ مصمِّم لا يُصحح لهم بيعًا ولا شراءً ولا نكاحًا . وتعطلت مصالحهم لذلك وكان من جملتهم نائبُ السلطنة، فاستشاط غضباً . فاجتمعوا وأرسلوا إليه . فقال : نعقد لكم مجلساً، وننادى عليكم لبيت مال المسلمين ! فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع . فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة، فلم يفد فيه . فانزعج النائب، وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ! والله لأضربنَّه بسيفى هذا ! فركب بنفسه فى جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيفُ مسلولٌ فى يده . فطرق الباب . فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال . فما اكترث لذلك . وقال : يا ولدى أبوك أقلّ من أن يُقتل فى سبيل الله ! ثم خرج . فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب وسقط السيف منها، وأُرعدت مفاصله . فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال : ياسيدى، إيش تعمل ! قال : أُنادى عليكم وأبيعكم ! قال : ففيم تصرف ثمننا؟ قال : فى مصالح المسلمين ! قال : مَن يقبضه؟ قال : أنا ! فتمّ ما أراد ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى فى ثمنهم ولم يبعهم إلاّ بالثمن الوافى، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير. ("حسن المحاضرة" ج ٢ ص ٩٨ و ٩٩ من النسخة المطبوعة على الحجر بالقاهرة) . وقد روى السبكى هذه الحكاية بتفصيل فى ترجمة الشيخ عبد العزيز فى "طبقات الشافعية" (ج ٥ ص ٨٠ — ١٠٧)

(١) صحـ : أراد شرّ المملكة والقدح فيها بالباطل . [اقتطع صاحب "محاسن الملوك" هنا سياق الكلام، وأضاف حاشية نبه على أنها ليست من الخبر، وهذا نصها : "وذكر أن أحد خلفاء العلويين الفاطميين فعل مثل فعل هــذا وجلس بين يدى قاضى القضاة مُحاكماً لخصم ولم يتحرك له القاضى عند حركته للقعود بين يديه وحكم القاضى بالحق بينــه وبين خصمه فلما بتّ الحكم وقضى به، وثب مقبلاً للأرض، جالسا دون مجلس الخليفــة . فقال : والله ! لو تحرك لى أولًا وخرج عن حكم الحقّ، لضربتُ عنقه"]

فإذا فرغ الملك من مظالمه فى نفسه، قام فحمد الله ومجّده طويلًا، ثم وضع التاج على رأسه وجلس على سرير المُلك، والتفت إلى قرابته وحامّته وخاصّته وقال: "إنى لم أبدأ بنفسى فأنصِفُ منها إلّا لئلّا يطمع طامعٌ فى حَيْفى. فمَن كان قِبَلَه حقٌّ فليخرُجْ إلى خصمه منه، إمّا بصلحٍ وإمّا بغيره."

فكان أقربُ الناس إلى الملك [فى الحقّ] (١) كأبعدهم، وأقواهم كأضعفهم.

فلم يَزَل الناس على هذا مِن عهد أردشير بن بابك ثم هلُمَّ جرًّا حتى ملكهم يزدجرد الأثيم، وهو المجس البازكر (٢). فغيّر سنن آل ساسان وعاث فى الأرض وظلم الرعايا وأظهر (١٣٥) الجَبْريّة والفساد، وقال: "ليس للرعيّة أن تنتصف من الراعى، ولا للسُّوقة أن تتظلّم من الملوك، ولا للوضيع أن يساوى (٣) الرفيع فى حقٍّ ولا باطلٍ."

العقوبة الربانية للملك الظالم

فذكرت الأعاجم فى كُتُبها وسِيَر ملوكها أنه بينا هو قاعد فى الإيوان ـ والناسُ على طبقاتهم ومراتبهم ـ إذ دخل من باب الإيوان فرسٌ مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ، لم يُرَ قطُّ شىءٌ أحسنَ منه منظرًا، ولا أكمل أداةً، فأهوى نحو يزدجرد البازكر (٤). فقامت إليه الأساورة

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه الآداب كلها فى تظلم الناس من الملك إلى القاضى وبالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ. (ص ٣٩ ـ ٤١)

(٢) هكذا فى س. والمشهور أنه يسمى يزدجرد المليم الأثيم، ويزدجرد الأثيم كما هو فى صفحة ١١٨ من هذا الكتاب. (أنظر غرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبى صفحة ٥٣٩ ـ ٥٤٩). ولم ترد هذه الكلمات الثلاث فى صـ.

(٣) س: يسادى.

(٤) صـ: يزدجرد الأثيم

لتدفعه عنه. فجعل لايدنو منـه أحدٌ إلّا رَمَحَه[١] فأرداه[٢]. وهو فى خلال ذلك يقصِد إلىٰ المَلِك. فقام إليه يَزْدَجِرْدُ وقال للأساورة: دَعُوهُ، فإنه إلىّ يقصد.

فدنا منه حتّىٰ أخذ بمَعْرَفتِهِ[٣]، فذَلَّ له الفَرَسُ وتطَامَنَ حتّىٰ ركبه. فلما جال[٤] فى متنه، خَطَا به خُطًا، ثم ردّه إلىٰ قرار مجلسه، فنزل عنه وجعل يمسحه بيده[٥]، مُقبِلاً ومُدبِراً. حتّىٰ إذا وجد الفَرَسُ منـه مُمْكِنًا وغَفْـلةً، رَمَحَـهُ فأصاب حبّةَ قلبِـه، فقتله. فقالت الفُرْسُ: هـذا مَلَكٌ من الملائكة، جعلـه الله فى صورة فَرَس، فبعثه لقتل يزدجرد، لمّا ظلم الرعيّة وعاث فى الأرض.[٦] (١٣٦)

ما صنعه بهرام جور لأخذ ملك أبيه

وكان بَهْرام جُور بن يزدجرد فى حِجر النُّعمان بن المُنذِر، مَلِك الحِيرة. وضعه أبوه عنده ليتأدّب بآداب العرب و يعرِف أيامَها وأخبارَها ولغاتِها. فبلغه خبرُ أبيه، وأنّ الفُرْسَ ملّكتْ عليها رجُلاً ليس من أبنـاء ملوكها. فاستنهضَ النُّعمانَ بن المُنذِر واستنجده. وقال: „ إنّ لى عليك حقًّا، إذ كنتُ أحَدَ أولادك. و إنّ أبى قد مات وملّكتِ

(١) أى رفسه برجله أو برجليه . يقال ذلك للفرس والبغل والحمار وكل ذى حافر، وربما استعير لذى الخف. (تاج العروس)

(٢) أى فأهلكه. وفى صـ : فأداره.

(٣) صـ : بعرفه.

(٤) صـ : حال.

(٥) صـ : بثوبه.

(٦) قارن ذلك بما أورده الثعالبىّ (فى غُرر أخبار الفُرس) عن هـذه القضية وتفاصيلها مع اختلاف. (صفحة ٥٥١ ــ ٥٥٣)

الفُرْس رَجُلًا من غير بيت المُلك. فإنْ أنت خَذَلْتنى، ذهب مُلك آل ساسان.» فقال له النُّعمان: «ما أنا وآل ساسان، وهُمُ الملوكُ وأنا رعيةٌ؟ ولكنّى أُخْرُجُ معك فى جيشى لتقوىٰ نِيَّتُك وتَصِحَّ عَزْمَتُك (١). ثم أنت أولىٰ بقومك، وهم أولىٰ بك.» قال: فهذا أريد.

فخرج النعمان مع بَهْرام حتّى صار بالمدائن، وبلغ الفُرْسَ قدومُهما (٢). فخرجوا إلىٰ بَهرام، فقالوا: ما تريد؟ فقال: مُلْكَ أبى وإرْثَ آل ساسان. قالوا: إن أباك سامنا العذابَ أيّامَ مدّته، فانفرد الله بقتله. فلا حاجة لنا فى أحدٍ من عَقِبِه. فقال بَهْرام: إنّ جَوْرَ أبى وظلْمَه لا يُلْزِمُنى لائمةً (٣)، ولا يُكْسِبُنى ذمًّا (٤). وأنتم لم تَخْبُرونى، فيجب علىّ حَمْدٌ أو ذمٌّ. قالوا: فإنّا قد أقمنا رجلًا نرضاه. فقال: إنّ هذا فسادٌ فى صُلب المملكة أنْ تُمَلِّكوا مَن ليس من أهلها. فإذ فعلتم، فامتحنونى وهذا الرجُلَ مِحْنَةً توجب المملكة. قالوا: وما هى؟ قال: تعمِدون إلىٰ أسدَيْن ضارِيَيْن فتجمعونهما فى موضعٍ واحدٍ، وتضعون تاج المملكة بينهما، وتقولون لهذا الذى ملّكتموه أمرَكم يأخُذُهُ من بينهما. فإنْ فعل فهو أحقُّ بالملك وأَوْلىٰ. وإن أبىٰ أن يفعل، وفعلتُ أنا ذلك، كنتُ أحقَّ بالملك منه. قالوا: نعرِضُ عليه هذا. (١٣٧)

(١) صـ: مُنْيَتك.

(٢) روىٰ الثعالبى هذه القصة بعبارة أكثر اختصارًا من الجاحظ. (غرر أخبار الفرس ص ٥٤٨)

(٣) صـ: لا يلزمنى لائمته.

(٤) صـ: مذمته.

فقالوا ذلك له، فقال: ما أقدِرُ علىٰ هـذا، ولكنْ قولوا له فليفعلْ. فإن أخذ التاج من بين الأسدَيْن فهو أحقُّ بالملك وأَوْلىٰ.

فأخذوا التاج وعمدوا(١) إلىٰ أسدَيْن فأجاعوهما ثم وضعوا التاج بينهما وقالوا لبهرام: شأنُك! فنزلَ بهرام عن فرسه وأخذ الطَّبَرْزِينَ(٢) ومضىٰ نحوهما. ثم بدا له فجعل الطبرزين فى مِنْطَقَتِه. ودنا من الأسـدَيْن فأهويا نحوَه، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به حتّى قتلهما جميعا. وشدّ علىٰ التاج فأخذه من موضعه فجعله علىٰ رأسه. (١٣٨)

فملكته الفُرْسُ أمرهم، وآنصرف النعمان إلى الحِيرة. وسار بَهْرَام سِيرةً حَسَـنَةً

(١) صـ: وغدوا.

(٢) جمعه طبرزينات [أُنظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٦]. وهـذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسـية (تبر، تبر) ومعناها القأْس. وهى آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان، وكانوا يعلّقونها فى السرج ليستخدمها القارس فى وقت النزال والبراز. وقد عرَّب المشارقة وأهل الأندلس هـذا اللفظ الفارسىّ فيما بعدُ فجعلوه "طبرزين". قال فى "المُعجب فى تلخيص أخبار المغرب" للمرّاكشىّ (ص ٩٠) مانصه "فخرج المعتمد وبيـده الطبرزين ... فعَلَاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربهُ بهِ حتى بَرَدَ". وقال فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٩٣). "وكان معه طبرزين فضرب به كسرىٰ ... ثم ضربه بالطبرزين حتى مات". (وآنظر أيضا تاج العروس، وبرهان قاطع، وشفاء الغليل، وتكملة المعجمات العربية لدوزى.)

كذلك كان الشأن عند كتّاب المشارقة. ولكنهم عادوا فاقتصروا على التعبير بالطبر. قال فى صبح الأعشىٰ (ج ١ ص ٣٦٥) مانصه: "الطبر. وهو باللغـة الفارسية الفَأْس. ولذلك يسمى السُّكَّرُ الصُّلْب بالطَّبَرْزَدْ يعنى الذى يُكسر بالفأس. وإلىٰ الطبر تنسب الطبردارية. وهم الذين يحملون الأطبار حول السلطان . . .". وقد بقيت هذه الآلة مستعملة إلىٰ مابعـد اختراع المدافع ثم آنعدمت بالكلية. وكانت مستعملة بمصر إلى زمن الفتح العثمانى. وقد رأيتُ منها رواميز كثيرة محفوظة بدار التحف العسكرية بالقسطنطينية. وأشار إليها آبن إياس فى "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" مرات عديدة منها قوله: "وضربه بطبر كان معه على وجهه فسقط إلى الأرض مغشياً عليه" (ج ١ ص ٢٤٧)؛ وقوله: "فخرج عليهم التركمان بالقسىّ والنُّشاب والسيوف والاطبار" (ج ٢ ص ١١٠)؛ وقوله: "فلما خرجوا بهم قطعوهم بالاطبار قطعا قطعا." (ج ٣ ص ٢٦٩)

وعَدَلَ فيهم، حتّى كان أحبَّ إليهم من جميع ملوك آل ساسان.[1]

إلا أن اللهو واللعب كان أغلبَ أحواله عليه.

✧

استقصاء الملك لأحوال رعيته

ومن أخلاق الملك السعيد البحثُ عن سرائر خاصّته وحامّته، وإذكاءُ العيون عليهم خاصّةً وعلى الرعيّة عامّةً.

وإنما سُمِّيَ المَلِك راعياً ليفحص عن دقائق أمور الرعيّة وخَفِيِّ نيّاتهم. ومتى غَفَلَ المَلِك عن فحص أسرار رعيّته والبحثِ عن أخبارها، فليس له من اسم الراعي إلا رَسْمُه، ومن المُلك إلا ذِكْرُه.

فأما الملك السعيد، فمن أخلاقه البحثُ عن كل خَفِيٍّ ودَفِينٍ[2] حتّى يعرفَه مَعْرِفةَ نفسِه عند نفسه،[3] وأنْ لا يكون شيءٌ أهمَّ ولا أكبرَ في سياسته ونظام مُلكه من الفحص عمّا قدّمنا ذكره.

الملوك والخلفاء الذين اشتهروا بذلك

ولم يُرَ مَلِكٌ قطُّ كان أعجبَ في هذا الأمر من أردشير بن بابك. ويقال إنه كان يُصبِحُ فيعلَمُ كلَّ شيء بات عليه مَن كان في قَصَبَة دار مملكته من خيرٍ أو شرٍّ، ويُمْسي فيعلَمُ كلَّ شيء أصبحوا عليه. فكان متى شاء قال لأرفعِهم وأوضعِهم: كان

(١٣٩)

(١) روى ابن ظَفَر هذه الحكاية والتي قبلها بتطويل كبير وتفصيل كثير. (أُنظر "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" المطبوع على الحجر بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ من صفحة ١٠٠ إلى صفحة ١٠٤؛ وأنظر ترجمته إلى الإنكليزية للعلامة ميشل أمارى الطليانى Michel Amari، طبع لوندره سنة ١٨٥٢ ج٢ ص ١٥٤–١٦٥).

(٢) صـ: ودقيق.

(٣) صـ: معرفة نفسه.

عندك فى هذه الليلة كَيْتَ وكَيْتِ[1]. ثم يحدّثه بكلّ ما كان فيه إلىٰ أن أصبح.

فيقال إن بعضهم كان يقول إنه كان يأتيه مَلَكٌ من السماء فيُخْبِرُه[2]. وما كان ذلك إلا لتيقُّظه وكثرة تعهُّده لأمور رعيته[3].

ثم كان فيمن نأىٰ من أهل مملكته علىٰ مثل هذه الحال.

فيقال إن الأُمم كلَّها، أوّلَها وآخرَها، وقديمَها وحديثَها، لم تَخَفْ أحدًا من ملوكها خَوْفَها أردشير بن بابك من ملوك الأعاجم ومَن كان قبلهم، وعمرَ بن الخطّاب من خلفاء الإسلام[4].

فإنّ عُمَرَ كان عِلْمُه بِمَن نأىٰ عنه من عُمّاله ورعيّته كعلمه بِمَن بات معه فى مِهادٍ واحدٍ، وعلىٰ وِسادٍ واحدٍ. فلم يكن له فى قُطْرٍ من الأقطار ولا ناحيةٍ من النواحى عاملٌ ولا أميرُ جيشٍ إلا وعليه له عَيْنٌ لا يفارقه ماوجده. فكانت ألفاظُ مَن بالمشرق والمغرب عنده فى كلّ مُمْسًى ومُصْبَحٍ. وأنت ترىٰ ذلك فى كُتُبِه إلىٰ عُمّاله وعُمّالهم

(١) بفتح التاء، وبكسرها أى كذا وكذا.

(٢) أنظر التفصيل الذى أورده الأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ١ ص ١٠٨).

(٣) ورد هذا الخبر فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣. وكان كسرىٰ أنو شروان أشدّ الناس تطلّعا فى خفايا الأُمور وأعظم خلق الله تعالىٰ فى زمانه تفحّصا وبحثا عن أسرار الصدور. وكان يبثّ العيونَ علىٰ الرعايا، والجواسيسَ فى البلاد ليقف على حقائق الأحوال ويطّلع علىٰ غوامض القضايا. فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان. ويقول: متى غفل الملك عن تعرّف ذلك، فليس له من الملك إلا آسمه وسقطت من القلوب هيبته. (مستطرف ج ٢ ص ١١٤)

(٤) روىٰ ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣

حتّى كان العامل منهم لَيَتَّهِمُ أقربَ الخلق إليه وأخصَّهم به . فساس الرعيــة سياسةَ أردشير بن بابك فى الفحص عن أسرارها خاصّة(١)(٢) . (١٤٠)

ثم ٱقتفىٰ مُعاوِيَةُ فِعلَه وطَلَبَ أَثَرَهُ، فٱنتظم له أَمْرُه وطالتْ له مُدَّتُه(٢)(٣) .

وكذا كان زِيادُ ٱبن أبيه يَحتذى فِعلَ مُعاوية كٱحتذاء مُعاوية فعل عُمَر . وفيما يُحكىٰ عنه أنّ رجُلا كلّمه فى حاجةٍ له، فتعرّف إليه ــ وهو يظُنُّ أنه لايعرِفه ــ فقال : أصلح الله الأمير! أنا فُلانُ بن فُلانٍ . فتبسّم زِيادٌ وقال : تتعرّف إلىّ، وأنا أعْرَف بك منك بأبيك؟ والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وجدَّك وأُمَّك وجدّتك، وأعرف هذا البُرْد الذى عليك، وهو لفلانِ بن فلانٍ . فَبُهِتَ الرجُل وأُرْعِبَ حتّى أُرْعِد(٤)[وكاد يُغشىٰ عليه](٢) .

وعلىٰ هذا كان عبد الملك بن مَرْوان، والحجّاج بن يوسف(٢)(٥) .

ثم لم يكن بعد هؤلاء أحدٌ فى مثل هذه السياسة حتّى مَلَكَ المنصور . فكان أَكْثَرُ الأمور عنده معرفةَ أحوالِ الناس، حتّى عَرَف الولىَّ من العدوّ والمُداجى من المُسالِمِ(٦) . فساس الرعيَّة ولِبِسها(٧)، وهو من معرفتها علىٰ مثل وَضَح النهار(٨) .

---

(١) وٱنظر ماوقع له مع النفر الذين كانوا يشربون المزرخفية ومع المرأة التى جاءها المخاض، فى "المستطرف" ج ١ ص ١٠٨ وج ٢ ص ١١٤ و ١١٥)

(٢) روىٰ ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤ .

(٣) أنظر ماجاء فى المستطرف (ج ٢ ص ١١٥)

(٤) روىٰ صاحب "المستطرف" الحكاية التى أوردها الجاحظ (ج ٢ ص ١١٥ وج ١ ص ١٠٨)

(٥) "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥)

(٦) روىٰ ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤ .

(٧) لبسها أى تملّى بها دهرا طويلا .

(٨) أُنظر التفصيل الذى أورده فى "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥ ــ ١١٧)

[١٤١] ثم دَرَسَتْ هذه السياسةُ حتّى مَلَكَ الرَّشيدُ. فكان أشدَّ الملوك بحثا عن أسرار رعيَّته وأكثرهم بها عنايةً وأحزمَهم فيها أمرًا.

وعلى نحو هذا كان المأمونُ أيامَهُ. والدليل على ما قلنا فيه ماشاهدنا من رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء وأصحاب الحديث، وهو بالشأم. خبّر(١) فيها عن عيب واحدٍ واحدٍ، وعن حالته وأموره التى خَفِيَتْ ـ أو أكثرُها ـ عن القريب والبعيد(٢).

ثم ما عَلِمْتُ(٣) أنَّ أحدًا ممن كان دون السلطان الأعظم فى دهرنا هـذا، كان أشدَّ على الأسرار بحثًا وأكثَرَ لها فحصًا حتّى بلغ من هذا الجنس أقصى حدّه وآخِرَ نهايته وأبعدَ مداهُ، وجَعَـلَهُ أكثرَ شُـغْله فى ليـله ونهاره، إلّا إسحاق بن إبراهيم(٤). فحدّثنى(٥) موسى بن صالح بن شيخ(٦)، قال: كلّمتُه فى آمرأةٍ من بعض أهلنا وسألتهُ النظر لهـا.

(١) صـ : حصر.

(٢) كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة، يتفقّد بهن أحوال الناس من الأشقياء، ومَن يُحبُّه ويُبغضه ومَن يُفسد حُرَم المسـلمين، وكان لايجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه كلها. وكان يدور ليلا ونهارا مستترا. (محاضرات الأوائل)

(٣) صـ : علمنا. [وأهمل هذه الكلمة فى "المحاسن والمساوى" وآستعمل صيغة مطلقة فقال: ولم يكن أحد ممن كان الخ. ولكنه نسى ذلك فعاد وقال حدثنى موسى بن صالح وهى من كلام الجاحظ كما تراه بعد كلمات.]

(٤) هو المصعبى أمير بغداد.

(٥) روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٦) هو موسى بن صالح بن شيخ (بالشين المعجمة والياء المثناة التحتية والخاء المعجمة) ابن عُميرة الأسدىّ. كان من ندماء الأمير إسحاق بن إبراهيم المُصعَبىّ أمير بغداد.

وآنظر أيضا القصة التى رواها صاحب "الأغانى" فى ج ٥ ص ٨٤ و ٨٥ وفيها إشارة إليـه؛ وكذلك الحكاية التى رواها المسعودىّ عن هذا النديم فى "مروج الذهب" (ج ٧ ص ٢١١ و ٢١٢). وكانت وفاته فى سـنة ٢٥٧ فى خلافة المعتمد على الله، وقد نيّف على التسعين. وقُبض آبنه بعـد أن عمّر ٩٩ سنة. ("مروج الذهب" ج ٨ ص ٢١٠)

فقال : يا أبا محمد ! مِن قصّة هذه المرأة ومِن حالها ومن فعلها [١] . قال : فوالله ! لم يَزَلْ يصِفُها ويصِفُ أحوالَهَا حتّى بُهِتُّ [٢] .

[وحدَّث أبو البرق الشاعر قال : كان يُجرى علىّ أرزاقا فدخلتُ عليه ، فقال بعد أن أنشدته : "كم عيالُك ؟ تحتاج فى كلّ شهر من الدقيق إلىٰ كذا ومن الحطب إلىٰ كذا ." فأخبرنى بشىءٍ من أمر منزلى ممّا جهلت بعضه وعلمه كلّه [٣] .]

وحدَّثنى [٤] بعضُ مَن كان فى ناحيته ، قال : رَفَعْتُ إليه رُقْعَةً أسألُه فيها إجراءَ أرزاق . فقال : كم عيالُكَ ؟ فزِدْتُ فى العدد . فقال : كَذَبْتَ ! فَبُهِتُّ وقلتُ فى نفسى : يانَفْسُ من أين عَلِمَ أنى كذبتُ ! فأقمتُ سنةً لا أجترئُ علىٰ كلامه . ثم رفعتُ إليه رُقْعَةً أخرىٰ فى إجراء أرزاق . فقال : كم عيالُكَ ؟ فقلتُ : أربعةٌ . فقال : صدقتَ . فوقَّع فى حاشية رقعتى : يُجْرىٰ علىٰ عياله كذا وكذا . (١٤٢)

ولولا أنْ يطولَ كتابنا فى إسحاق وذكره ، لحكينا عنه أخبارًا كثيرةً . وهى من هذا الجنس ، وفيما ذكرناه كفاية .

التمييز بين الأولياء والأعداء

فعلىٰ الملك أن يُمَيِّزَ بين أوليائه وأعدائه بالفحص عن أسرارهم ودقيق أخبارهم ، حتّى إنْ أمكنَه أن يعرِف مبيتَ أحدِهم ومَقِيلَه وما أحدث فيهما ، فَعَلَ .

(١) يعنى : من قصتها كيت وكيت . وقد ترك المؤلف الخبر لأنه معلوم . وهذه عادة شائعة بين أكابر الكتّاب .

(٢) هذه الكلمة مضبوطة فى س : بَهَتَ . [وهو خطأ ظاهر من الناسخ . وقد روى الأبشيهى هذه القصة ونسبها للمأمون . (المستطرف ج ١ ص ١٠٨)] . وروى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥ .

(٣) هذه الزيادة من "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥ .

(٤) رجع صاحب "المحاسن والمساوى" هنا إلى صيغة المطلق فقال : حدث بعض من كان الخ . وذكر القصة بتمامها وبحروفها . (ص ١٥٥)

فإنّ الرعيَّة لا تَسْكُنُ قلوبها جَلالةُ مُلكها ــ ولو عبدتْه الجنُّ والإنْس ودانتْ له ملوكُ الأُمم كلُّها ــ حتّى يكون أشدَّ إشرافاً(١) عليها وأكثر بحثاً عن سرائرها، من أُمِّ الفريد(٢) عن حركته وسكونه.

❖

بماذا تطول مدة الملك

وأيضًا فإنه يُقال فى بعض كُتُبِ(٣) الأوائل فى مواعظ الملوك وآدابها:

"إن المَلك تطول مدّته إذا كانت فيه أربع خصال:

إحداها، أنه لا يرضى لرعيَّته إلّا ما يرضاه لنفسه؛

والأُخرى، أنْ لا يسوِّفَ عَملًا يخاف عاقبته؛

والأُخرى، أن يجعلَ وليَّ عهده مَن ترضاه وتختاره رعاياه لا مَن تهواه نفسُه؛ (١٤٣)

والرابعة أن يَفْحَصَ عن أسرار الرعية، فَحْصَ المُرْضع عن منام رضيعها."

وقد نجد مِصداقَ هذا القول ونشهدُ به. وذلك أنا لم نر مدّةً طالتْ لمَلِكٍ عربيٍّ ولا عجميٍّ قطُّ إلّا لمن فَحَصَ عن الأسرار، وبَحَثَ عن خفيِّ الأخبار، حتّى يكونَ فى أمر رعيَّته على مِثْلِ وَضَحِ النَّهار.

(١) فى س: إشراف.

(٢) فى س: "سرائرها فى الفريد". [ولما لم يكن للجملة معنًى أرتضيه فقد صححتُها على ماهو فى المتن ليكون المعنى "أن الملك يجب أن تكون عنايتـه بهذه الأمور أكثر من عناية الأُمّ بحركة ولدها الوحيـد الفريد وبسكونه." وبذلك يستقيم المعنى وينسجم الكلام. [يؤيد هذا التخريج قول الجاحظ بعد ذلك بستة سطور: "والرابعة أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضع عن منام رضيعها."]

(٣) فى س: الكتب.

✣

واجبات الملوك عند الأحداث الخطيرة

ومن أخلاق الملك، إذا دَهِمَهُ أمرٌ جليلٌ من فَتْقِ ثَغرٍ أو قَتْلِ صاحبِ جيشٍ أوظهورِ عَدُوٍّ يدعو إلىٰ خلاف المِلَّة أو قوةِ مناوئٍ، أنْ يترك الساعات التى فيها لَهْوُه ويجعلها وسائرَ الساعات فى تدبير مكايدة عدوِّه وتجهيز جنوده وجيوشه، وأنْ يصرف فى ذلك شُغْلَه وفِكْرَه وفراغه (علىٰ مثل ما فعل مَن مضىٰ من ملوك الأعاجم وغيرها) ولا يجعل للتسويف والتمنِّى وحُسن الظنِّ بالأيام نصيبًا.

فإنّ هذا عَجْزٌ من الملك ووَهْنٌ يدخل علىٰ المُلك.

سنة الأعاجم إذا دهمتهم الكوارث والعظائم

وكانت ملوك الأعاجم، إذا حَزَبها مِثلُ هذا، أمرتْ بالموائد التى كانت توضع فى كل يوم أن تُرفَع وظائفُها، وآقتصرتْ علىٰ مائدةٍ لطيفةٍ تقرُبُ من الملك ويحضرها ثلاثةٌ: أحدهم مُوبَذان مُوبَذ والديبربذ (١) ورأْس الأساورة. فلا يُوضع عليها إلا الخبزُ والمِلحُ والخَلُّ والبَقْلُ. فيأخذ منه شيأً هو ومَن معه. ثم يأتيه الخبَّاز (٢) بالبزماورد (٣) فى طبق. فيأكلُ

(١) فى سـ: والدمويذ. وفى صـ: الربر. [وآنظر الحاشية ٢ صفحة ٧٧ وصفحة ١٦٠ من هذا الكتاب].

(٢) الخبّاز (هنا وفى كتب المسعودىّ وفى كتاب الأغانى) معناه خادم المائدة، لا بمعنىٰ الذى يصنع الخبز. وذلك هو الذى نسميه الآن بالسفرهجى.

(٣) قال عاصم افندى فى ترجمة المعجم الفارسى "برهان قاطع" إلىٰ اللغة التركية ما معناه "بَزْمَاوَرْد هو طعام يسمَّى لقمة القاضى، ونواله السِّتّ، ولقمة الخليفة. وهو مصنوع من اللحم المقلىّ بالزبد والبيض. ويقال فيه أيضا برماورد بالراء المهملة". وقال الشهاب الخفاجىّ فى "شفاء الغليل" ما نصه: "زماورد، والعامة تقول بزماورد. كلمة فارسية آستعملها العرب للرقاق الملفوف باللحم. كذا فى حواشى الكشاف. وفى القاموس: الزماورد بالضم طعام من البيض واللحم. وفى كتب الأدب: طعام يقال له لقمة القاضى ولقمة الخليفة. ويسمّى =

منه لُقْمة[(١)]. ثم يَرفَعُ المائدة ويتشاغلُ بتدبير حَرْبه وتجهيز عساكره[(٢)]. ولا تزال هذه حاله حتى يأتيه عن ذلك الفتق ما يرتقه، وعن ذلك العدو ما يُحِبُّ. فإذا أتاه، أمَرَ أنْ يُتَّخَذ له طعامٌ مثلُ طعامه الأول، وأمَرَ الخاصّة والعامّة بالحضور. وقامت الخطباء أولا بالتهنئة له والتحميد لله تعالى بالفتح عليه والنصر له. ثم قام المُوبَذ فتكلّم، ثم الوزراء بنحوٍ من كلامِ الخطباء. ثم مدّ الناس أيديهم إلى الأطعمة على مراتبهم. فإذا فرغوا، بُسِط للعامّة فى ظهر الإيوان، وللخاصّة فى صَحْنِه بحضرة الملك. وقَعَد صاحبُ الشُّرْطة للعامّة، كقعود الملك للخاصّة. ثم دعا بالمغنِّين وأصحاب الملاهى.

وكانوا يقولون: إنّ حقّ شكرِ النعمة أن يُرى أثرُها.

= بخراسان نواله، ويسمى زجس المائدة وميسر ومهيأ.'' والذى فى شرح القاموس فى مادة (ورد) يماثل هذا الكلام، ولكنه قال فى مادة (زمرد) إن الزماورد دواء معروف، ووعد بشرحه فى مادة (ورد) ولم يفعل. ويتلخص من هذا البيان أن الباء أصلية فى بنية الكلمة كما يشهد به صاحب ''برهان قاطع'' وكما يدل عليه استعمال الجاحظ. وربما رأى العرب التخفيف فحذفوا الباء من أول الكلمة. ولكن ذلك لا يجوز معه القول بأن زماورد من كلام العامة. ويكون هذا الطعام عبارة عما نسميه الآن (الكفتة). وأما لقمة القاضى فهى الآن فى مصر عبارة عن صنف من الحلوى يُتّخذ من الدقيق معجونا بالسمن والسكر ثم يُقلَى ذلك المخلوط على أقراص مستديرة لها صومعةٌ رُبّما تكون فوقها قطعة من القشدة. ورأيتُ فى ''كتاب مبادئ اللغة'' لابن الخطيب الإسكافى المتوفّى سنة ٤٢١ ما نصه: ''البزماورد هو المُهنّأ والمُيسّر. وقال بعض المتأخرين:

أكَلَ المُيسّرَ من رأسين، ياسَكَنى، * لا يُستطاع ولا سيفانِ فى غِمد.''

وقد ذكر صاحب ''الأغانى'' هذا الطعام. (ج ٤ ص ١٥٤)

(١) فى س: لُقَمًا.

(٢) روى ذلك صاحب ''محاسن الملوك'' باختصار ووقف عند هذا المكان، ثم زاد أن ملوك الفرس كانوا يقولون: ''أسعدُ الملوك مَن غلَبَ عدوّه بالحيلة.'' (ص ١٠٥)

[وكانت الخلفاء والأُمراء إذا دهمهم أمْرٌ ـ فَزعوا إلى المنابر وحَرضوا الناس على الطاعة ولزوم الجماعة.(١)]

(١٤٥) ما فعله معاوية أيام صفين

وفيما يُذكَرُ عن معاوية أنه قال: ماذُقْتُ أيامَ صِفّينَ لَحْمًا ولا شحما ولا حُلْوًا ولا حامضا، ما كان إلا الخُبْزُ والجُبْنُ وخَشِنُ المِلْح [إلى أن تمَّ لى ما أردته(٢)].

ما فعله عبد الملك عند خروج ابن الأشعث عليه

ويُحكَى عن عبد الملك بن مَرْوان أنّ صاحب إفريقيَّة أهدَى إليه جارِيةً تامَّةَ المحاسن، شهيَّةَ المُتأمَّلِ. قال: فلما أنْ دخلتْ على عبد الملك بن مَرْوان، نظر إليها وفى يده قضيبُ خَيْزُرانٍ. فصعَّد ببصره إليها وصوّبه، ثم رمَى بالقضيب. وقال: رُدّيه علَىَّ. فوَلَّتْ. فنظر إليهـا مُقبِلةً ومُدبِرةً. فقال: أنتِ والله أُمْنِيَّةُ المُتَمنّى. قالت: فما يمنعُك ياأميرَ المؤمنين، إذْ كانت هذه صِفتى عندك؟ قال: بيتٌ قاله الأَخْطَلُ:

قومٌ إذا حاربوا، شدّوا مآزِرَهُم ... دون النساء، ولو باتتْ بأطهار(٣)

وكان هذا فى خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأَشْعَث. ثم أمر بها أن تُصانَ وتُخْدَم. فلما فُتِحَ عليه، كانت أوّلَ جاريةٍ دَعا بها(٣).

ما فعله مروان ابن محمد عند ظهور العباسيين

ويُحكَى عن مَرْوان بن محمد الجَعْدِىّ(٤) أنه أقام ثلاثين شهرًا لم يطأ جاريةً إلى أنْ قُتِلَ. وكان إذا ٱستهدفتْ إليه الجاريةُ قال: إليْكِ عَنّى! فوالله لا دنوتُ من أُنْثَى

(١) هذه الزيادة عن "محاسن الملوك" (ص ١١٠).

(٢) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذا الخبر باختصار قليل وأضاف عليه الجملة التى زدناها فى المتن. (ص ١٠٥ ـ ١٠٦)

(٣) أورد هذا صاحب "محاسن الملوك" فى صفحة ١٠٦

(٤) آخر خلفاء بنى أُمية [وٱنظر حاشية ٣ صفحة ١٠٦ من هذا الكتاب].

(١٤٦) ولا حَلَلْتُ لها عَقْدَ حُجْزَتي، وخُراسانُ تَرجُفُ بنَصْرٍ[١]، وأبو مُجْرِمٍ[٣] قد أخَذَ منه بالمُخَنَّق[٤]!

(١) ترجف بنصر أي تضطرب به. وهو نصر بن سيّار الذي ولّاه هشام بن عبد الملك إقليم خُراسان فلم يزل واليا عليه حتى وقعت الفتنة بظهور العباسيين وطلبهم الخلافة على يد صاحب الدعوة أبي مسلم الخراساني. وكتب نصر إلى مَرْوان الجَعْدي آخر الخلفاء الأمويين يستنجده بالأبيات المشهورة، وهي:

أرى خَلَلَ الرَّماد ومِيضَ نارٍ * ويوشك أن يكون له ضِرامُ
فإنّ النارَ بالعُودَين تُذْكَى * وإنّ الحربَ أوّلُها الكلامُ
فإنْ لم تطفئوها تَجْنِ حربًا * مشمِّرةً يشيب لها الغلامُ
أقول من التعجب: لَيتَ شِعري! * أأيقاظٌ أُميّةُ أم نيامُ؟
فإن يَكُ قومنا أضحَوا نياما، * فقل: قوموا، فقد حان القيامُ!
ففِرّي عن رحالك ثم قولي: * على الإسلام والعربِ السلامُ!

وأخباره معروفة، تراها في "مروج الذهب" و"معارف" ابن قتيبة و"وفيات الأعيان" و"فتوح البلدان" وأبي الفداء، و"الأغاني" وابن خلدون و"معجم البلدان".

(٣) في س: "أبو مخزوم". وهو تحريف من الناسخ. والإشارة هنا إلى أبي مُسلم الخراساني الذي كان قد ضيّق الخناق على نصر بن سيّار المذكور في الحاشية السابقة. وقد لقبه مروان بأبي مجرم بدلا من أبي مسلم بمعنى أبي الذنب والإجرام. وقد بقي له هذا النبز في الدولة العباسية. فإن المنصور خاطبه بعد أن قتله بقوله:

زعمتَ أن الدَّين لا يُقتضَى؟ * فاستوفِ بالكيل، أبا مُجْرِمِ!
اشرَبْ بكأسٍ كنتَ تَسقي بها، * أمَرَّ في الحلق من العلقمِ!

وقال أبو دُلامة: أبا مُجْرِمٍ، ما غيّر الله نعمةً * على عبده حتى يغيّرها العبدُ!
أفي دولة المنصور حاولتَ غَدْرةً؟ * ألا إنّ أهل الغدر آباؤك الكُرْدُ!
أبا مسلمٍ خوّفتني القتلَ فانتحى * عليك بما خوّفتني الأسدُ الوَرْدُ!

وانظر ابن خلكان في ترجمته، و"شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٩٨ و ١٩٩) [وانظر ص ٨٢ من هذا الكتاب]. وانظر "البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥٥".

(٤) لخص ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٦). وقد أورد المسعودي هذه الحكاية، فقال: "وأقام مَرْوانُ أكثر أيامه لا يدنو من النساء الى أن قُتِل. وتراءت له جارية من جواريه، فقال لها: والله لادنوتُ منك، ولا حَلَلْتُ لك عُقْدَةً، وخُراسان ترجف وتضطرم بنصر بن سيّار، وأبو مُجْرِم قد أخذ منه بالمخنق". ("مروج الذهب" ج ٦ ص ٦٣ و ٦٤ طبع أوروبا؛ ج ٢ ص ١٥٩ طبع بولاق)

مكايدة الملوك في الحروب

ومن أخلاق الملوك المكايدةُ في حروبها .

ولذلك كان يقال ينبغي للمَلك السعيد أن يجعل المحاربة آخِرَ حِيَلِه . فإن النفقة في كلّ شيء إنما هي من الأموال ، والنفقةُ في الحروب إنما هي من الأنفُس . فإنْ كان للحَيَل محمودُ عاقبةٍ ، فذلك بسعادة المَلك ، إذ رَبِحَ مَالَه وحقَنَ دماء جيوشه . وإن أعْيَت الحِيَلُ والمكايدُ ، كانت المحاربةُ من وراء ذلك .

. فأسعدُ الملوك مَن غَلَبَ عَدُوَّه بالحيلة والمكر والخديعة .

وقد روَيْنا عن نبيّنا (صلى الله عليه وسلم) ما يُحقِّقُ هذا ويُؤكّده بقوله : "الحَرْبُ خِدْعَةٌ" .

وليس لأحدٍ من الخدَع ما لملوك الأعاجم . والأخبارُ في ذلك عنهم كثيرة . ولكنَّا نقتصرُ من ذلك على حديثٍ أو حديثَيْنِ .

خدعة بهرام جور

فمن ذلك ما يُذكَر عن بَهرَام جور أنه لمّا ملك بعد أبيه يَزْدَجِرْد ، بلغه أنّ ناحيةً من نواحي أطرافه قد أُخِذَتْ ، وغَلَبَ عليها العدوُّ . فاستخفَّ بها وأظْهَرَ الاستهانةَ به حتّى قَوِيَ أمرُ ذلك العدوّ واشتدّت شوكتُه . فكان إذا أُخْبِرَ بحاله ، استخفَّ بأمره (١٤٧) وصغَّر من شأنه . حتّى قيل إنه قد زَحَفَ إليك ووجّهَ جيوشه إلى قرار دارك . فقال : دَعُوهُ فليس أمرُه بشيءٍ . فلمّا رأى وزراؤه تهاوُنه وتراخيَه عن أمرِ عدوّه واستهانته به ، اجتمعوا إليه فقالوا : إنّ تَرَاخِيَ المَلك عن عدوّه ليس من سياسة المُلك ولا تدبيرِ المملكة ، وقد قَرُبَ هذا العدوّ من قرار دار المَلك ، وأمرُه كلَّ يوم في عُلُوّ . فقال بَهرام : دعوه ، فأنا أعلمُ بضعفه وصِغَر شأنه منكم . وأقبلَ على اللهو واللعِب ، وترَكَ

مايجبُ عليه من الصَّمْد[1] لعدوّه والقصْد له[2] . فلمّا دنا عدوُّه منه وأشرفَ عليه وخاف الوزراء ورؤساء أهل المملكة اجتياحَهُ، اجتمعوا فتآمروا بينهم على توبيخ الملك وتعنيفه وإعلامه ماقد أشرفوا عليه من البَوار والهَلَكة . وبلغه الخبر . فأمر مائتَيْ جاريةٍ من جواريه ، فلَبِسْنَ الثيابَ المُصبَّغَةَ المختلفةَ الألوان ، ووضعْنَ على رؤوسهنَّ أكاليلَ الرَّيحان ، ورَكِبْنَ القصَبَ . وفعل بهرام كما فعلن . فلَبِسَ من ثيابهنَّ المصبوغة ، ورَكِبَ (١٤٨) قَصَبَةً . وأَذِنَ للوزراء ، فدخلوا عليه . فلما رآهم ، صاح بالجوارى . فمرَرْنَ يخطِرْنَ ، وبَهرامُ خَلْفَهنّ يُغَنّى ، وهُنَّ يغنّينَ معه ، ويَصحَكْنَ ويَلْعَبْنَ . فلمّا رأى ذلك وزراؤه يئسوا منه واجتمعوا على خلعه . وبلغه الخَبَرُ . فدعا جاريةً من خاصّ جواريه ، وقال : لكِ الويلُ إنْ عَلِمَ أحدٌ من اهل المملكة ما أُريدُ أن أفعلَ ! ثم أمرها أن تَحْلِقَ رأسَه ، فَحَلَقَتْه . ودعا بِمُدَرَّعةِ صوفٍ فتدرّعها ، وخرج فى جَوْفِ الليْل ومعه قوسُهُ ونُشّابهُ . وتقدَّمَ إلى الجارية أن تُخْفِىَ أمرَه وتُظْهِرَ أنّه عليلٌ إلى رُجوعه إليها . ومضى وَحْدَه حتّى انتهى إلى طلائع العدو . فكَمَنَ فى مَغارٍ على ظهر الطريق . فجعل لا يَمُرُّ به طائرٌ فى السماءِ ولا وحشٌ فى البرِّ ، إلّا وضع سَهْمَه منه حيثُ أَحَبَّ . وجعل يجمع كلّ ماصاد من ذلك ، فجمعه بين يديه حتّى صار كالشىءِ العظيم . قال : فمرّ به صاحبُ طليعة العدوّ ، فنظر إلى أمرٍ بُهِتَ له . فأخذه وقال : ويلك ! ماأنتَ ومَن أنتَ ومِن أين أنت ؟ قال : إنْ أعطيتَنى الأمانَ ، أخبرتُك ! قال : فلَكَ الأمانُ ! قال : أنا غلامٌ سائسٌ ، وإنّ مَوْلاىَ غَضِبَ علىّ ـ وكان لى مُحْسِنًا ـ فأوجعنى ضربًا ونزع ثيابى وحلق رأسى وألبسنى هذه المُدَرَّعَة وأجاعنى . وإنّى طلبتُ غَفْلته ، فخرجتُ أطلبُ شيئًا أَصيدُه (١٤٩)

(١) الصمْد هو القصْد كما فسره المؤلف بعده بواو العطف .

(٢) فى س "وحاق" وقد اعتمدتُ رواية ص .

فآكُلُه . فلما أعجبنى كثرةُ ماصِدْتُ ، أردتُ أن أرمىَ بكلِّ ما معى من هذه السهام ، ثم أنصرِفَ .

فأخذه فحَمَلَهُ إلى الملك فأخْبَرَه بقِصَّته . فقال له الملك : اِرْمِ بين يدىَّ ! فرمى بين يديه . فكان لايضع سهمَه فى طائرٍ ولا غيرِه إلاّ أصابه حيثُ أراد . فبُهِتَ المَلكُ ، وطال تعجُّبه . فقال : ويلك ! فى هذه المملكة مَنْ يرمى رِمايتَك ؟ فضحك بَهْرام ، وقال : أيها الملك ! أنا أخسُّهم رِمايةً وأحقرُهم قَدْرًا . وعندى جنسٌ آخَرُ من الثَّقافة (١) . قال : وما هو ؟ قال : أُدْعُ لى بإبَرٍ . فدعا له بها . فأخذ إبرةً فرمى بها على عشرةِ أذرعٍ ، ثم أتبعها بأخرى فشكَّها ، ثم أتبعها بأخرى فشكَّها كذلك ، حتّى جعَلَها سلسلةً قد تعلَّق بعضُها ببعضٍ .

فبُهِتَ المَلِك ومُلِئَ قلبُه رُعْبًا . فقال له : ويلك ! مَلِكُكم هذا جاهلٌ ! أما يعلَمُ أنى قد قَرُبْتُ من قرار داره ؟ فضَحِك بَهْرام ، وقال : إنْ أعطانى الملك الأمانَ ، نصحتُه . قال : قد أعطيتُك الأمان . قالَ : إنّ مِلكنا إنما تركك آستهانةً بأمرك ، وتصغيرًا لشأنك ، وعِلمًا بأنك لاتخرُج من قَبْضَتِه . وذلك أنّى أخسُّ مَنْ فى دار مملكته وأخملُهم ذِكرًا . (١٥٠٠) فإذا كنتُ ـ وأنا بهذه الحال ـ أقتلُ بألفِ سَهمٍ ألفَ رجُلٍ ، فما ظنُّك بالملك ، وله مائةُ ألفِ عبْدٍ فى قرار داره ، أصغرُهم شأنًا أكبرُ منِّى ؟ فقال له الملك : صَدَقْتَنى فيما قُلْتَ ! ولقد خُبِّرْتُ عن بَهرام من تصغيرِه لشأْنى وآستخفافِه بأمرى ماطابَقَ خَبَرَك . وما تركنى أبْلُغُ هذا الموضِعَ من مُلْكِه إلاّ لِما ذَكرتَ .

فأمَرَ عظيمَ جيشِه أن يرتَحِلَ من ساعته . ونادى فى الناس بالرحيل . ثم خرج لايلوى على شىءٍ ، وأطلق بَهْرامَ . فآنصرف بعد ثالثةٍ حتّى دخلَ داره ليلاً . فلمّا أصبح ،

(١) الحذق والخفة والفطنة .

قَعَد للناس ودخل عليه الوزراءُ والعظماءُ. فقال: ماعندكم من خَبَرِ عدوّنا هذا؟ فأخبروه بانصرافه عنهم. فقال: قد كنتُ أقول لكم إنه صغيرُ الشأنِ، ضعيفُ المُنّة[١].

ولم يعلم أحدٌ منهم ما كانت العلّة في آنصرافه[٢].

مكايد أبرويز

وكان كسرى أَبْرَوِيز، بعد بَهرام جور، صاحب مكايد وخِدَعٍ في الحروب ونِكاية في العدوّ[٣].

(١٥١) وكان قد وجّه شَهْرَبَرَاز[٤] لمحاربة مَلك الروم، وكان[٥] مقدَّما عنده في الرأي والنَّجدة

(١) أي القوّة.

(٢) نقل هذه الحكاية بالحرف صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٣٤ — ٣٨)، ولخصها صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٧).

(٣) الحكاية الآتية نقلها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" المنسوب للجاحظ، وفيها تحريف كثير وسَقَطٌ متواتر وآضطرابٌ في التعبير (ص ٢٢ — ٢٦).

(٤) في س: شهر يزاد. وهو تصحيف من الناسخ، وفي ص: شهر يار وقد صحف ناسخو آبن الأثير هذا الأسم فجعلوه شهر براز وشهر يزار، كما صحفوه في نسخ "مروج الذهب" فجعلوه مثل ص شهر يار (وقد صححه العلامة باربيه دومينار في ترجمته فجعله شهر بار ليكون مطابقا للأسم الوارد في تواريخ الروم). وأما الصحيح فهو الذي آعتمدناه. (أنظر جميع المؤرخين وخصوصا الثعالبيّ في "غرر أخبار ملوك الفرس" (ص ٧٠١ حيث أورد هذه القصة). وآنظر آبن الأثير. (ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٩) وقد أورد قصة أخرى في سبب آنتقاض شهر براز وفي الخديعة التي آستعملها أبرويز لصدّ ملك الروم عنه. (وآنظر "التنبيه والإشراف" ص ١٥٦ و ١٥٧).

وقد أورد هذه القصة برواية أخرى في "المحاسن والمساوى" ص ١٣٦—١٣٧. وسمى القائد "شهر براز" على الوجه الصحيح الذي آعتمدناه في المتن.

(٥) في س: فكان.

والبَسالةِ ويُمنِ النَّقيبة. فكان شهر براز قد ضيّق على ملك [الروم] قَرار داره (١) وأخذ بِمُخَنَّقِهِ حتّى همّ بِمُهادنته ومَلَّ محاربتَه وطَلَبَ الكَفَّ عنه. فأبى ذلك عليه شهر براز. وآستعدّ له مَلك الروم بأفضل عُدّة وأتمّ آلة وأحدّ شوكة، وتأهّب للقائه فى البحر. فجاءه فى جمع لا تُحصى عِدّته. قد أعدّ فى البحر كلّ ما يحتاج إليه من مالٍ وسلاحٍ وكُراعٍ وآلةٍ وطعامٍ وغيرِ ذلك، والسُّفُنُ مَشحونةٌ مُوقَرَةٌ. فبينا هو كذلك إذ عصفَتْ ريحٌ فى تلك الليالى فقلعتْ أوتادَ تلك السُّفن كلّها وحملَتْها إلى جانب شهر براز، فصارتْ فى مِلكه. وأصبح مَلك الرُّوم، قد ذهبَ أكثرُ ما كان يملِكُ من الأموال والخزائن والعُدد والسِّلاح. فوجّه شهر براز بتلك الخزائن والاموال إلى أبرويز. فلمّا رأى أبرويز ما وجّه به شهر براز، كَبُر فى عينه وعظُم فى قلبه. وقال: ما نَفْسٌ أحقّ بِطَيِّب الثناء ورفيع الدعاء والشكر على الفعل الظاهر من شهر براز! جاد لنا بما لا تَسْخُو به النفوس ولا تَطِيب به القلوب! فجمع وزراءه وأمر بتلك الأموال والخزائن فوُضِعَتْ (١٥٢) نُصْبَ عينيه، ثم قال لوزرائه: هل تعلمون أحدًا أعظَمَ خَطَرًا وأمانةً، وأحرى بالشكر من شهر براز؟ فقامت الوزراء فتكلّم كلُّ واحدٍ منهم، بعد أن حمد الله وشكره ومجّده، وأثنى على المَلك وهنّأه، ثم ذكر ما خصَّ الله به المَلك من يُمن نقيبة شهر براز وعفافه وطهارته ونُبله وعظيم عنايته. حتّى إذا فرغوا، أمر بإحصاء تلك الأموال والخزائن. ثم قام أبرويز فدخل إلى نسائه. وكان للملك غلامٌ يقال له رُسْتَهْ، وكان سَيِّءَ الرأى فى شهر براز. فقال: أيها الملك! قد ملأ قلبَك قليلٌ من كثيرٍ، وصغيرٌ من كبيرٍ، وتافهٌ من عظيمٍ، خانَكَ فيه شهر براز وآثر به نفسَه. ولئن كان المَلك، مع رأيه الثاقب وحَزمه الكامل، يَظُنُّ أن شهر براز أدّى الأمانة، لقد بَعُدَ ظَنُّه من الحقّ وخَسَّ

(١) فى سـ: فزار داره.

نَصيبه[١]. فوقع [في] نفس أبرويز ما قال رُسْتَة، فقال له : ما أَظُنُّك إلّا صادقاً. فما (١٥٣) الرأْىُ عندك؟ قال: تَكتُبُ إليه بالقدوم وتُوهِمُه أنّ بك حاجةً إلىٰ مناظرته ومشاورته فى أمرٍ لم تَجُـز الكتابة به. فإنه إذا قَدِمَ، لم يُخَلِّفْ ما يملِكُ وراءه، إذ كان لا يدرى أيرجِعُ إلىٰ ما هناك أم لا. فيكون كلُّ ما يَقْـدَمُ به نُصْبَ عينيك.

فكتب أبرويز إلىٰ شهر براز يأمره بالقدوم عليه لمناظرته ومشاورته فى أمرٍ يدِقُّ عن الكتاب والمُراسلة.

فلما مضىٰ الرسول، أردفه برسولٍ آخر. وكتب إليه: "إنى قد كنتُ كتبتُ إليك آمُرك بالقُـدوم لأُناظرَك فى مُهِمٍّ من أمرى. ثم علِمْتُ أنّ مُقامَك هناك أقدَحُ فى عدوّك وأنكىٰ له وأصلَحُ للملك وأوْفَرُ علىٰ المملكة. فأقِمْ وكُنْ من عدوّك علىٰ حَذَر، ومن غِرّته علىٰ تيقُّظ. فإنه مَن ذهب مالُه، حَمَـل نفسَـه علىٰ التلف أو الفَلْج[٢]. والسلام!"

وقال للرسول الثـانى: إنْ قَدِمتَ فرأيتَـه قد تأهّبَ للخروج إلىّ وظهـر ذلك فى عسكره، فادْفَعْ إليه هـذا الكتابَ . وكتبَ : "أما بعـدُ، فإنى كتبتُ إليك وقد آستبطأتُ جواب قُدومك وحَركَتك. وعلمتُ أنّ ذلك لأمرٍ تُصلِحه من أمرِ نفسك (١٥٤) أو مكيدةِ عدوّك. فإذا أتاك كتابى هذا فخلِّفْ أخاك علىٰ عمَلك وأَغِذَّ السيرَ ولا تُعرِّجْ علىٰ مُهِمٍّ ولا غيرِه. إن شاء الله!" . وإن لم تره آستعدّ للخروج ولا تأهّبَ له، فادْفع إليه الكتابَ الأول.

(١) فى سـ : "نفسه". ولعل الصواب: "نصيبه". قال فى القاموس : "خسَّ نصيبَه جعلـه خسيسا دنيئا حقيرا." . ولم ترد هذه الكلمة ولا التى قبلها فى صـ.

(٢) فى سـ : الفتح، وفى صـ : الحتف . وقد صححتُ بما فى المتن ليكون المعنى ان الذى يذهب ماله يركب أخشن المراكب فإما أن يتلف و إما أن يظفر و ينجح . لأنه يكون فى حالة يأس تحمله على المخاطرة بنفسه أو يفوز.

فقدِمَ الرسولُ الثانى، وليس لشهر براز فى الخروج عزمٌ ولا خاطرٌ، ولا هَمٌّ به. فدفع إليه الكتاب الأوّل. فقال شهر براز: أوّلُ كلِّ قَتْلةٍ حِيلةٌ. وكان خليفة شهر براز بباب المَلك قد كتب إليه ما كان من قول رُسْتَهْ للمَلك وما كان من جواب المَلك له. ثم نازعت أبرويزَ نفسُه ودعاه شرهُهُ إلى إعادة الكتاب إلى شهر براز بالقدوم عليه.

فلمّا قرأ شهر براز كتابه الثالث قال: كان الأمرُ قبل اليومِ باطنًا، فأمّا اليومَ فقد ظهر.

فلمّا علم أبرويز أنّ نيّة شهر براز قد فَسَدت وأنه لايقدَمُ عليه (١)، كتب إلى أخى شهر براز: "إنى قد ولَّيتُك أمرَ ذلك الجيش ومحاربةَ ملك الروم. فإنْ سَلَّمَ لك شهر براز ما ولَّيتُك، وإلّا فحارِبْهُ!"

فلمّا أتاه كتابُهُ أظهره وبعث إلى شهر براز يخبره أن الملك قد ولّاه موضعه، وأَمَرَهُ بمحاربته إن أبى أن يُسَلِّمَ إليه ما ولّاه. فقال له شهر براز: أنا أعلم بأبرويز منك. هو صاحب حِيَل ومكايد، وقد فَسَدتْ نيته لى ولك. فإن قتلَنى اليومَ، قتلَك غدا، وإنْ قتلكَ اليومَ، كان على قتلى غدًا أقوى (٢). (١٥٥)

ثم إنَّ شهر براز صالحَ مَلك الروم، لمّا خاف أبرويز. وتوثّق كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه. واجتمعا على محاربة أبرويز. فقال له شهر براز: دَعْنى أتولَّى محاربته، فإنّى

(١) هذه رواية صـ . وأما سـ فروايتها: يقدر

(٢) رواية ابن الأثير فى هذا الموضوع أحسن وأمتن. ومحصلها أن شهر براز لما امتنع عن إجابة كسرى، بعد طلبه ثلاث مرات، أمر الملكُ بعزله وبتولية أخيه فرّخان الذى كان معه، وأمره بقتله. فلما أراد فرخان أن يقتله، قال له شهر براز: أمهِلنى حتى أكتب وصيتى. ثم أحضر درجا وأخرج ثلاثة كتب من كسرى يأمره فيها بقتله، وأطلعه عليها، وقال له: أنا راجعتُ فيك أربع مرّات ولم أقتلك، وأنت تقتلنى فى مرة واحدة. فاعتذر فرخان إليه وأعاده إلى الإمارة. واتفقا على موافقة ملك الروم على كسرى. (ج ٢ ص ٣٤٨)

أبصرُ بمكايده وعَوْراته(١) . فأبى عليـه ملكُ الروم، وقال: بل أقِمْ فى دار مملكتى حتّى أتوتّى أنا محاربته بنفسى. فقال شهر براز: أمّا إذ أبَيْتَ علىّ فإنى مصوِّرٌ لك صورةً، فٱعمَلْ بما فيها وٱمتثِلْها.

ثم صوّر له كلَّ منزلٍ ينزِلُه بينه وبين أبرويز فى طريقه كلّه، وأىَّ المنازل ينبغى له أن يقيم فيه، وأيّها يجعلها طريقا وسيرًا ماضيا حتّى اذ أقامه من طريقه كله على مثل وَضَحِ النهار، قال له: فإذا صرتَ بالنَّهْرَوَانِ، فأقِمْ دُونه ولا تقطعْهُ إليه، وٱجعله منزلك وجهِّزْ جيوشَك وعساكرك إليه.

فمضى ملك الروم نحوه. وبلغ أبرويزَ الخبرُ فضاق به ذَرْعه، وٱرْتَجَّ(٢) عليـه أمْرُه. فكان أكثرُ جنوده قد تفرّقوا لطلب المعاش، لقطعِـهِ عنهم ما كان يجب لهم من إقطاعاتهم وأرزاقهم. فبقِىَ فى جُنْدٍ كالميِّت أكثرُهم هَزْلَى أضِرَّاءُ(٣). (١٥٦)

وكان ملك الروم يعمل على ما صوّره له شهر براز فى طريقه كلّه، حتّى إذا أشرفَ على النَّهْروانِ، عَسْكَرَ هناك وٱستعدّ للقاء أبرويز. وقد بلَغَهُ قلّةُ جموعه وتفرّق جنوده وسُوءُ حال مَن بَقِىَ معه. وكان فى أربعمائة ألفٍ، قد ضاقت بهم الفِجاج والمَسالك. فطَمِعَ فى قتل أبرويز ولم يَشُكَّ فى الظَّفَر به.

فدعا أبرويز رجُلا من النصارى، كان جدُّه قد أنعمَ على جدّ النصرانىّ وٱستنقذه من القتل أيامَ قتل مانِى، وكان من أصحابه الذين استجابوا له. فقال له أبرويز: قد عَلِمْتَ ماتقدّم من أيادينا عندكم، أهلَ البيت قديمًا وحديثًا. قال: أجَلْ أيها الملكُ! وإنّى لشاكرٌ ذلك لك ولآبائك. قال: فخُذْ هذه العصا وٱمضِ بها إلى شهر براز، فأْتِه فى قرار

---

(١) حـ : وغدراته.

(٢) أى ٱضطرب.

(٣) أى مهزولون مَرْضى. [والذى فى حـ : هزلا وضرا].

مَلك الروم، فادفعها إليه من يدك إلىٰ يده. وعَمَد إلىٰ عصًا مثقوبة، فأدخَلَ فيها كتابًا
صغيرًا منه الىٰ شهر براز: "أما بعدُ فإني كتبتُ إليك كتابي هذا وآستودعتهُ العصا.
فإذا جاءك، فحرِّق دار مملكة الروم، وآقتُلِ المُقاتلة، وآسْبِ الذُّرِّيَّة، وآنْهَبِ الأموال،
(١٥٧) ولا تتركَنَّ عينًا تَطرِفُ ولا أُذُنا تسمَعُ ولا قَلبًا يعي، إلّا كان لك فيه حُكْمٌ. وآعلم أني
واثبٌ بملك الروم يوم كذا وكذا. فليكن هذا وقتَك الذي تعمل فيه ما أمَرْتُك."

قال: وأمَر للنصرانيّ بمالٍ وجهَّزه، وقال: لا تُعرِّجَنَّ علىٰ شيْءٍ ولا تُقيمَنّ يومًا واحدًا. وإيّاك ثم إيّاك أنْ تدفع العصا إلّا إلىٰ شهر براز، من يدك إلىٰ يده!

ثم ودّعه ومضىٰ النّصرانيُّ. فلما عَبَر النَّهروانَ، آتفق أنْ كانَ عُبورُه مع وقتِ ضَربِ النواقيس. فسمع قَرْعَ عشرةِ آلافِ ناقوسٍ أو أكثر. فآنهملتْ عيناه وقال: بِئْس الرجُلُ أنا، إنْ أعَنْتُ علىٰ دِينِ النصرانيّة وأطعْتُ أمرَ هذا الجبّار الظالم!

فأتىٰ باب مَلك الروم، فآستأذن عليه، فأذِنَ له. فأخبَره بقصّة أبرويز حرفًا حرفًا. ثُمّ دفع إليه العصا، فأخذها ونظر فيها. ثم آستخرجَ الكتاب منها فقُرِئَ عليه. فنخر، وقال: خدعني شهر براز! ولئن وقعتْ عيني عليه، لأقتُلَنّه!

وأمَر فقُوِّضَتْ أبنيَتُه من ساعته، ونادىٰ في الناس بالرحيل. وخرج ما يَلْوِي علىٰ أحدٍ.

(١٥٨) ووجه أبرويزُ عينًا له يجيئه بخبره. فآنصرف إليه فأخبره أنّ الملك قد مضىٰ ما يلتفتُ لَفْتةً. فضحك أبرويز، وقال: إنّ كلمة واحدة هزَمَتْ أربعمائة ألف لجليلٌ قَدْرُها ورفيعٌ ذِكْرُها![1]

(١) والعرب تقول: أنفذُ من الرميَة، كلمةٌ خفيّة. ("العقد الفريد" ج ١ ص ١٦٥)

خاتمة الكتاب

وإذ قد انتهينا إلىٰ هذا الموضع من كتابنا هذا، وأخبرنا بأخلاق الملوك فى أنفسها، وما يجب علىٰ رعاياها لها، بقدر وسع طاقتنا، فلنختم كتابنا هذا بذكر من بعثنا على نظمه، وكان مفتاحا لتأليفه وجمعه.

ولنقل إنا لم نر فى صدر هذه الدولة المباركة العباسيّة ولا فى تاريخها وأيامها إلىٰ هذه الغاية فتى اجتمعت له فضائلُ الملوك وآدابُها ومكارمُها ومناقبُها، حازَ الولاءَ من هاشمٍ والخِصّيصَى(١) من خُلفاء بنى العباس الطَّيِّبين، والتَّبَنِّى من المُعتصِم بالله وإخوته الأبرار من أئمة المؤمنين وورثة خاتم النبيِّين، عدا الأميرَ الفتحَ بنَ خاقانَ مولىٰ أميرِ المؤمنين.

فلْتهنِئْهُ هذه النِّعْمَةُ المُهداة! وباركَ له واهبها، وزاده إليها الدأبَ عليها حتّى يبلغ به أرفعَ يفاعِها وأسنىٰ ذِرْوتها وأعلىٰ درجاتها، فى طُولٍ من العُمر وسلامةٍ من عوادى الزمان وغِيَرِه ونكباته وعثراته! فإنه رحيم كريم!

فى آخر النسخة السلطانية ما نصّـــه:

تمّ الكتاب المبارك بحمد الله تعالىٰ وعونه وحسن توفيقه. والحمد لله وحده!

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا!

حسبنا الله ونعم الوكيل!

---

(١) أى الاختصاص بالتفضيل.

تكميل للروايات

و

تصحيحات مطبعيـــــة

تكميلٌ

لبعض الروايات والملحوظات الانتقاديّة التى وضعتُها فى حواشى هذا الكتاب .

والقصد من هذا التكميل أن تزداد فوائده لمن يعنيهم استيفاء بحثٍ خاصّ أو التوسُّع فى مطلبٍ ممَّا جرىٰ به قلمُ الجاحظ .

صفحة ١١ (حاشية ١)

١ ـــ ورد اسم "ميسرة" فى كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٢٨) ولكن الجاحظ نعته فيه بلقب "التّيّاس" ووصف مقداراً أكله ، وما ذا كان يصنع إذا أجهدته الكلفة . كذلك ابن أبى الحديد (ج ٤ ص ٣٢٤ ـــ ٣٢٦) تكلّم عن هذا الأكول وأعطاه لقباً آخر وهو "الرأس" بدلا من "التّرّاس" أو "البرّاش" . ولاشك أن هذه الألفاظ كلها محرّفة عن لقب واحد من مادّة واحدة ، ولو اعتبرنا كتابتها نجدها كلها متقاربة فى الشكل والصورة . وهذه التحريفات مصدرها إهمال النّساخين المناسخين .

٢ ـــ أولع الجاحظ بذكر "قاسم التّمّار" وبدعابته والعبث به فى كتبه . وقد وصفه بطول العنق ، وأشار إلىٰ بعض نوادره وأحواله ، هو وابنه ؛ الذى كان شرّ شبيه بأبيه .

ويستفاد من كلام الجاحظ أنه كان معاصرا له .

أنظر كتاب "التربيع والتدوير" (ص ٨٩ و ١٠١) ؛ وكتاب "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣ وخصوصا ص ١٦١)؛ وكتاب "الحيوان" (ج ٥ ص ٦١)؛ وكتاب "البخلاء" (ص ٢١٥ و ٢١٦ بأكلهما)؛ و"المحاسن والأضداد" (ص ٩ حيث سماه : القاسم التمار).

٣ ـــ ذكر الجاحظ "أبا همام السنوط" فى كتاب "البخلاء" (ص ٢٢٨)، وسماه السنوط ، ووصفه بالأكال . وقد ذكره أيضا فى كتاب "الحيوان" (ج ١ ص ٥٥).

٤ — مما يجب بيانه فى موضوع المشهورين بكثرة الأكل فى الإسلام أن ابن أبى الحديد نص (فى شرح نهج البلاغة، ج ٤ ص ٣٢٤ — ٣٢٦) على أن الذى منهم هو "أبو الحسن بن أبى بكر الحسن بن على ابن العلاف" أى ابن الشاعر الشهير بابن العلاف . وقد ورد ذكر هذا الابن عرضا فى "وفيات الأعيان" لابن خلكان فقال عنه : "وهو الأكول المقدّم فى الأكل ، فى مجالس الرؤساء والملوك" . ثم قال عنه فى موضع آخر : "وهو المشهور بكثرة الأكل" (ج ١ ص ١٩٤ ، ٥٣١ طبعة بولاق سنة ١٢٧٥ أى فى ترجمة أبيه الحسن بن العلاف ، ثم فى ترجمة علىّ بن الفرات) .

٥ — ذكر ابن أبى الحديد أيضا "هلال بن أشعر" وهو نفس الذى سميناه "هلال بن الأسعر" . لأن صحة اسمه بالسين المهملة . (أنظر "تاج العروس" فى مادة — س ع ر — وفى مادة — ر ز م — وأنظر ترجمته فى "الوافى بالوفيات") . وهو هو الذى سميناه فى حاشية صفحة ١١ من التاج : "هلال ابن مسعر" والغلط عن الكتب التى نقلنا عنها وأشرنا إليها فى تلك الحاشية .

٦ — أضاف ابن أبى الحديد لنا اسما جديدا يجب ضمه إلى إخوانه وهو "عنبسة بن زياد" إن لم يكن هو و"عبيد الله بن زياد بن أبيه" رجلا واحدا . فإن تحريف "عبيد" إلى "عنبسة" ليس ببعيد .

٧ — أضاف ابن أبى الحديد لنا اسما جديدا آخر ، وهو "أبو خارجة" الذى روى لنا الجاحظ أخباره وقال عنه إنه يضرب به المثل . (أنظر "الحيوان" ج ٥ ص ١٤٧) .

٨ — هذا وأنا أعتقد أن "مزودا" الذى ذكرته فى ضمن أسماء الأكلة فى تلك الحاشية إنما هو "مُزَرِّد" وهو لقب ضرار بن الشماخ . والتحريف راجع إلى تلك الكتب التى نقلتُ اسمه عنها . وأنظر "تاج العروس" فى مادة — زرد — وإن كان لم يخبرنا بأنه من الأكلة .

٩ — وقد نقل ابن أبى الحديد عن كتاب "الأكلة" للمدائنى — الذى ذكرناه فى آخر تلك الحاشية — أحوالا وأخبارا تراها فى الجزء الرابع من "شرح نهج البلاغة" (ص ٣٢٤ — ٣٢٦) .

صفحة ١٢ (حاشية ١)

عرَّفنا الجاحظ بإبراهيم بن السندى بن شاهك ، فقال فى رسالة "مناقب التُّرك وعامة جُنْد الخلافة" إنه "كان عالما بالدولة شديدا لحُبّ لأبناء الدعوة .. ... وكان فخم المعانى ، فخم الألفاظ . لو قلتُ : لسانه كان أردّ على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير ، لكان ذلك قولا ومذهبا" .

وعرّف به الجاحظ أيضا فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٢٩) بقوله :

كان رجلا لانظير له ، وكان خطيبا ، وكان ناسبا ، وكان فقيها ، وكان عروضيا وحافظا للحديث ، راوية للشعر ، شاعرا . وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى . وكان كاتب القلم ، كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رُؤْبة ، ويعمل فى الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور . وكان منجما ، طبيبا . وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالما بالدولة وبرجال الدعوة . وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوما ، وأصبرهم على السهر .

صفحة ١٦ (حاشية ١)

أضف على البيانات التى أوردتُها فيها عن استعمال لفظة "الاستكفاء" بمعنى التولية وتقليد المناصب قولَ الجاحظ نفسه :

قال يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه على خراسان : إن أباك كفى أخاه عظيما ، وقد استكفيتُك صغيرا . فلا تتكلنّ على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك . وإياك منى ، قبل أن أقول : إياى منك . فإن الظن إذا أخلف منك ، أخلف منى فيك . وأنت فى أدنى حظك ، فاطلب أقصاه . وقد أتعبك أبوك ، فلا تريحنّ نفسك . وكن لنفسك ، تكن لك . واذكر فى يومك أحاديث غدك ، تسعد . إن شاء الله ! (البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٩ ثم ص ٢٠٤).

صفحة ١٦ (حاشية ٢)

أضف علىٰ هـذه الحاشية أن ابن أبى الحديد روىٰ فى "شرح نهج البلاغة" (ج ٤ ص ٣٨٠) قصة الرجل الذى أراد سابور أن يمتحنه قبل أن يولّيهُ قضاء القضاة .

صفحة ١٩ (حاشية ٢)

أضف علىٰ ما أوردتُه من البيانات بخصوص الآيين أن الجاحظ نفسه قد استعمل هذا اللفظ ثلاث مرات فى كتاب "البخلاء" طبع ليدن فقال :

١ — الآيين فيما نحن فيه أن تكون إذا كنتُ أنا الجالس وأنت المارّ أن تبدأ أنت فتسلّمَ فأقول أنا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام . (ص ٢٧) .

٢ — وإن كنتُ آكُلُ ، فهاهنا آيين آخر . وهو أنْ أبدأ أنا فأقول هلُمّ ! وتجيب أنت فتقول : هنيئا ! فيكون كلامٌ بكلام . فأمّا كلامٌ بفعالٍ ، وقولٌ بأكلٍ ، فهذا ليس من الإنصاف . (ص ٢٨) .

٣ — إحضار الجدى إنما هو شىء من آيين الموائد الرفيعة . وإنما جُعل كالعاقبة والخاتمة ، وكالعلامة لليسر والفراغ . وإنه لم يُحْضَر للتمزيق والتخريب . (ص ١٠٣) .

هـذا وقد ذكر ياقوت فى الجزء الثانى من معجم الأُدباء (ص ٥٩) نقلا عن الفهرست أن أحمد بن محمد ابن نصر الجيهانىّ ألّف "كتاب آيين" و"كتاب الزيادات فى كتاب آيين فى المقالات" .

صفحة ٢٠

الحكاية الواردة فى متن هـذه الصفحة قد أوردها الجاحظ بنصها وفصها مع زيادة كلمتين فقط (فى "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٣٢) . ثم أوردها أيضا فى كتاب "البخلاء" (ص ١٩٣) .

وعنه نقلها ابن عبد ربه فى "العقد الفريد" بدليل نقله أيضا للكلام الذى عقّب به الجاحظ فى موضع آخر من باب الاستطراد .

صفحة ٢٠ (حاشية ١)

أضف إلى ما كتبته عن بلال بن أبي بُردة ماذكره لنا الجاحظ من أنه خطب بالبصرة يوما، فرأى الناس قد استحسنوا كلامه، فقال لهم: "لايمنعكم سوء ماتعلمون منا أن تقبلوا أحسن ماتسمعون منا".

(البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٨)

وقد ذكره الجاحظ فى مواضع كثيرة من كتاب "البخلاء" (ص ٧٥ و ١٦٣ وخصوصا ص ١٦٩) حيث أورد له كلمة ضافية فى المقارنة بين البخل والكرم، وتفضيل الكرم.

صفحة ٢٠ (حاشية ٢)

كان الجارود بن أبي سبرة – ويكنى أبا مفضل – من أبين الناس وأحسنهم حديثا. وكان راوية علامة، شاعرا مفلقا. وكان من رجال الشيعة. ولما استنطقه الحجاج قال: ماظننتُ أن بالعراق مثل هذا. وكان يقول: ما أمكنني والٍ من أذنه إلا غلبت عليه، ماخلا هذا اليهودى (يعنى بلال بن أبي بردة). وكان عليه متحاملا. فلما بلغه أنه (أى الحجاج) وهقه (أى بلالا) حتى رقت ساقه وجعل الوتر فى خصيبه أنشأ يقول:

لقد قرَّعيني أن ساقَه رقتا ☆ وأن قوى الأوتار فى البيضة اليسرى
بخلت وراجعت الخيانة والخنا ☆ فيسرك الله المقدّس للعسرى
فما جذع سوء خرّب السوس جوفه ☆ يعالجه النجار يبرى كما تبرى

وإنما ذكر الخصية اليسرى، لأن العامة تقول إن الولد منها يكون.

(البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٦ و ١٢٧)

صفحة ٢٤ (حاشية ١)

الشائع عند العرب استعمالهم "الأساورة" بصيغة الجمع . ولكنهم كانوا يستعملون المفرد أيضا . والامثلة كثيرة ، نختار منها ما أورده الجاحظ فى كتاب "الحيوان" (ج ٦ ص ١١٤) حيث قال "بصُرت بفهد على قاب غلوة ، فسعيتُ إليه ، وأنا أسوارٌ كما تعلمون . فوالله ! ما أخطأتُ حاقَ لِهزِمهِ حتّى رزق الله عليه الظفر" .

صفحة ٤٣ (سطر ٨)

مما يجب تعليقه على ماوراه الجاحظ بخصوص تهاون الأمين إبّان محاصرة الجيوش له فى بغداد ، أن صاحب "بذائع البدائه" روى القصة الآتية (فى صفحة ٦٨) وهى :

خرج كوثر ، خادم الأمين ، لينظر الحرب أيام محاصرة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعيَن لبغداد ، فأصابه سهم غَرَب ، بجرحه . فدخل على الأمين يبكى لألَمِ الجراحة . فلم يتمالك الأمين أنْ جعل يمسح عنه الدمَ ويقول :

ضربوا قُرّةَ عينى ، * ومن أجلى ضرَبوهُ !
أخذ اللهُ لقلبى * مِن أُناس أوجعُوه ...

ثم أُرْتِج عليه . فاستدعى الفضل بن الربيع وأمره بإحضار شاعر يُجيزُ البيتين . فاستدعى لذلك عبد الله بن محمد بن أيوب التيميّ وأنشدهما له فقال :

مالِمَنْ أهوى شبيهٌ ، * فبه الدُّنيا تَتِيهُ !
وَصْلهُ حُلوٌ ، ولكِنْ * هجْره مرٌّ كريهُ !
مَن رأى الناسُ له الفضـ * ـل عليهم ، حسدوه !
مثل ماقد حسد القا * ئمَ بالملك أخوه .

فأمر الأمين له بوقر ثلاثة أبغل دراهم .

صفحة ٤٣ (حاشـــية ٣)

أضف على ماأوردته فى هـــذه الحاشـــية شرحًا للفظة "بأو" ما أورده الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣٧) وهو :

قال جعدة بن هبيرة :

أبى من بنى مخزومَ، إنْ كنتَ سائلًا، ❊ ومن هاشمٍ أُمّى، لخــيرِ قبيلِ!
فمن ذا الذى "يَبْأَى" علىّ بخـاله، ❊ وخالى علىٌّ، ذو الندى، وعقيــلُ؟

صفحة ٤٤ (حاشـــية ١)

الشجرة المعروفة عند العرب باسم "السرحة" تكلم عنها علماء النبات من الإفرنج مثل العلامة "فورسكال" قديمًا، والأستاذ "شوينفُرث" الموجود الآن .

فقال الأوّل : Cadaba farinosa ; foliis ovatis, oblongis, farinosis. Descr. Folia alterna, semipollicaria, farinoso-tomentosa, plana, integra, obtusa, alterna. Pedunculi racemi ramorum terminales. Rami recentes tomentoso-farinosi. Nectarium album, parvum lingua tubo angustiore revoluta. Petala 4, undulata. Stamina inserta pedicello germinis in fra medium.

Arab. Asal. aliis Korrah vel Særah سرح Usus antitoxicus: dum rami recentes & minores masticantur ; vel pulveris forma eduntur.

(P. Forskal, *Descriptiones plantarum flora Ægyptiaco-Arabicæ* : pp. 68)

وقال الثانى مانصه : Sserahh. Saerah سرح 140 Cadaba c) farinosa Forsk. (Schweinfürth G., *Arabische Pflanzennamen aus Ægypten, Algerien und Jemen* : p.p. 117)

ولكن شرح هذين العالمين ينطبق على نجم أى شجيرة، مع أن المفهوم من كتب اللغة العربية أنها شجرة كبيرة .

صفحة ٤٧ (حاشية ٤)

أضف على ما بها من المعلومات أن الجاحظ أورد البيانات الخاصة بأبى أُحَيحة وعمامته (فى "البيان والتبيين" ج ٢ ص ٧٧) فقال مانصه : "وكان أبو أُحيحة سعيد بن العاص(*) إذا اعتمّ بمكة لم يعتمّ معه أحدٌ. هكذا فى الشعر. ولعلّ ذلك أن يكون مقصورا فى بنى عبد شمس. وقال أبو قيس بن الأسلت :

وكان أبو أُحيحةَ، قد علمتم، * بمكّةَ غيرَ مهتضَمٍ ذميمِ.
إذا شدّ العِصابةَ ذاتَ يومٍ * وقام إلى المجالس والخُصومِ،
فقد حُرِمتْ على من كان يمشى * بمكّة غيرَ مُدّخلٍ سقيمِ.
وكان البَخْتَرِىَّ(١) غداةَ جمعٍ * يدافعهم بلُقمانَ الحكيمِ.
هو البيتُ الذى بُنِيَتْ عليه * قُرَيشُ السّرِّ فى الزمن القديمِ.
وسَطْتَ(٢) ذوائبَ القرعَينِ منهمْ، * فأنت لُبابُ سرِّهمِ الصميمِ!"

صفحة ٤٨ (حاشية ٦)

أضف ما أفادناه صاحب كتاب "الفهرست" عن أبى حسّان الزيادىّ أنه . كان "قاضيا فاضلا، أديبا ناسبا، جوادا كريما يعمل الكتب وتُعمل له، وكانت له خزانة حسنة كبيرة ... ومات ... سنة ٢٤٣، وله سبع وثمانون سنة وأشهر. وله من الكتب : كتاب مغازى عروة بن الزبير، كتاب طبقات الشعراء، كتاب ألقاب الشعراء، كتاب الآباء والأمهات". (عن كتاب "الفهرست" ص ١١٠).

(*) يغلط كثير من ناسخى الكتب وطابعيها فيقولون "العاصى" فى هذا الرجل وفى عمرو بن العاص وغيرهما من أبناء هذا البيت. والحقيقة أنه من "العوص" لا من "العصيان". ولذلك يقال لهم "الأعياص" (راجع "الأشتقاق" لأبن دريد و"لسان العرب" وغيرهما من كتب الأنساب واللغة والأدب).

(١) البَخْتَرِىُّ الحسن المشى والجسم. (أنظر اللسان ج ٥ مادة ـ ب خ ت ر ـ).

(٢) أى توسّطتَ فكنتَ أنت الواسطة بين القرعين.

هذا ، وقد أوهمتني عبارة أبي المحاسن عند كلامه على السنة الثانية من ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر أن المتوكل ولّى أبا حسان الزيادي" هذا قضاء الشرقية ، أن المقصود هو إقليم الشرقية بديار مصر . ذلك خاطر سبق إلى وهمي ، وأنا أبرأ إلى الله منه . لأن الشرقية التي تولّى قضاءها أبو حسان الزيادي" هي أحد شِقّي بغداد . وقد وصفها اليعقوبي" (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب) فقال : "وإنما سُمّيت الشرقية لأنها قُدّرت مدينةً للمهدي" قبل أن يعزم [أبو جعفر المنصور] على أن يكون نزول المهدي" في الجانب الشرقي من دِجلة . فسمّيت الشرقية ؛ وبها المسجد الكبير ، وكان يُجَمّع فيه يوم الجمعة ، وفيه منبر . وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقيّة" . (أُنظر كتاب البلدان لليعقوبي" طبع لَيْدن سنة ١٨٦٠ صفحة ١٧) .

صفحة ٥٢ (حاشية ٢)

أضف على هذه الحاشية أن الجاحظ قد شرح لنا "التابع" بقوله : فالمتابع ، لا يثنيه زجر وليست له غاية دون التالف . (كتاب "البخلاء" ص ١٨٣) .

صفحة ٥٣ (سطر ١٤)

أورده الجاحظ "في البيان والتبيين" أيضا (ج ١ ص ١٦٦) .

صفحة ٥٤ (سطر ١ – ٢ من المتن)

روى الجاحظ مقولة الشعبي" في "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٦٦) . ولكن طابعه أورد "تنابذا" بدلا من "تناقدا" التي في طبعتنا تقلاعن ص . والظاهر أن هذه الثانية أفضل ، لأن السياق يدل عليها .

صفحة ٥٤ (سطر ٣ ــ ٧ من المتن)

روى الجاحظ أيضا فى "البيان والتبيين" الحديثَ الذى كان بين المأمون و بين سعيد بن سَلْمٍ بشأن آستحسان الخليفة له فيما يبديه من "حسن الإفهام وحسن الفهم". (أُنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٦٦ ، وفيها آختلاف طفيف فى بعض الألفاظ مما لا عبرة به).

صفحة ٥٤ (حاشية ١)

أضف إلى الرواية التى أشرنا إليها أن الجاحظ روى كلمة عمرو بن العاص أيضا فى "البيان والتبيين" برواية ثانية فيها آختلاف فى اللفظ لا المعنى ، وهى مغايرة لرواية المبرد التى أشرنا إليها فى تلك الحاشية. (أُنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٦٦).

صفحة ٥٦ (حاشية ٤)

فى "المخصص" لآبن سِيدَهْ شرح "السهم العائر، والسهم الغَرَب" (ج ٦ ص ٧٦). [وآنظر عن "السهم الغَرَب" ما أوردته فى صفحة ١٩٤ عن تكيل صفحة ٤٣ س ١٠].

صفحة ٥٨ (حاشية ١)

أضف على الخلاصة التى كتبتُها على أبى بكر الهُذَلىّ ما قاله الجاحظ عنه فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٣٦) أنه كان قاصًا وعالما بيّنًا وعالما بالأخبار والآثار . وقد سماه (ج ٢ ص ١٢٠) "سلمى" ونقل عنه هذه الكلمة : "إذا جمع الطعامُ أربعا ، فقد كمل : إذا كان حلالا ، وكثرت عليه الأيدى ، وسُمِّىَ الله على أوّله ، وحُمِدَ على آخره" . وأضف على ذلك ما قاله الجاحظ فى ذلك الكتاب أيضا (ج ١ ص ١٣٦) من أنه كان خطيبا قاصًا وعالما بالاخبار والآثار ، وأنه لما ناظر أهل الكوفة قال : "لنا الساج والعاج

والديباج والخراج والنهر العجّاج". وقد روى الجاحظ هذه الكلمة فى كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٧٢) على هذا المثال : "نحن أكثر منكم عاجا وساجا وديباجا وخراجا". ونسبها للأحنف بن قيس فيا فخر به على أهل الكوفة ، ثم قال الجاحظ : ويقال إنها من كلام خالد بن صفوان أو من كلام أبى بكر الهذلىّ. وقد أورد الجاحظ هذه الكلمة فى كتاب "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٨٤) ولكنه اقتصر على نسبتها للهذلىّ هذا ، دون غيره .

صفحة ٦٠ (حاشية ١)

أضف على الخلاصة التى كتبتُها عن رَوْح بن زِنْباع ما رواه الجاحظ من أن معاوية همّ به فقال له رَوْح : "لا تُشْمِتَنّ بى عدوّا أنت وقمته (*) ، ولا تَسُوأَنّ بى صديقا أنت سررته ، ولا تَهْدِمَنّ منّى ركنا أنت بنيته ! هَلّا أتى حلمك على جهلى وإساءتى؟ " (البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٧) . وانظر خطبته التى استمال بها الناس لمبايعة مَرْوان بن الحَكَم بالخلافة (فى الكتاب المذكور ص ١٤٧) . وانظر فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٨٠) كلمة عبد الملك بن مَرْوان التى نقلناها عن "العقد الفريد" فى تلك الحاشية . فلا بد أن يكون ابن عبد ربّه قد أخذها عن الجاحظ .

صفحة ٦٠ (حاشية ٣)

أضف على ما ذكرتُه عن أسماء بن خارجة الفزارىّ أن الحجاج بن يوسُف الثقفىّ لما بلغه موته ، قال : "هل سمعتم بالذى عاش ما شاء ثم مات حين شاء ؟ " (البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٣ ، ١٧٧) .

(*) وَقَمْتَه أى قهرته وأذللته . [حاشية عن طابع "البيان والتبيين"] .

صفحة ٦١ (حاشية ١)

أضف عليها ما أورده الجاحظ فى كتاب "الحيوان" حيث قال :

١ — العقرب تقع فى يد السنور، فيلعب بها ساعة من الليل، وهى فى ذلك مسترخية "مستخذية" لا تضربه (ج ٤ ص ٧٢).

٢ — ولولا أن الأبغث [هو هو البُغاث] علىٰ حال يعلم أن الصقر... قد أُعطى فى سلاحه وكفّه فضل قوّة، لما "استخذىٰ" له ولما أطمعه فيه بهربه (ج ٦ ص ١٠٣).

٣ — ولولا أن الهرّ يمعن فى الهرب غاية الإمعان ثم لحقته [الهرة]، لقطعته وهو "مستخذٍ" (ج ٧ ص ٤٧).

(صفحة ٦٢ — ٦٥)

أورد فى كتاب "المحاسن والأضداد" المنسوب إلىٰ الجاحظ مارواه الجاحظ عن امتحان أنوشروان لمن خانه فى حرمه. والعبارتان يكاد لفظهما يكون واحدا. علىٰ أنّ النصّ الوارد فى روايتنا قد استوفىٰ نصيبه من التصحيح والتحقيق (أُنظر كتاب المحاسن والأضداد طبع العلّامة فانفلوتن ص ٢٧٧ — ٢٨٠).

صفحة ٦٥ (حاشية ٣)

أوّلا — ورد اسم خالد بن يزيد فى أثناء الكلام. وقد رأيتُ من الواجب زيادة التعريف به لأنه من السابقين إلىٰ إدخال علوم الفلسفة فى اللغة العربية. فقد روىٰ لنا عنه صاحب "كتاب الفهرست" بعض الشىء. ووصفه بأنه "حكيم بنى أُمية". ولكن المعلومات التى أوردها عنه تدلّ علىٰ أنه كان منقطعا إلىٰ الكيمياء. أما الجاحظ فقد أظهر لنا فضله الكبير فى خدمة الأدب والعلم، فقال: إنه "كان خطيبا شاعرا، وفصيحا جامعا، جيّد الرأى كثير الأدب. وكان أوّل من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء." (البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٦).

وأنا أريد على ذلك أن هذا الأمير كان مرشحا للخلافة، فلما حُرِمها انقطع لخدمة العلم والأدب، فأبقى لنفسه فخرا باقيا على مدى الأبد.

وليت امراء الشرق فى هذا العصر يقتدون به، لينفعوا أنفسهم ووطنهم وأمتهم!!!

ثانيا — أنظر أيضا مكاتبات عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (فى "البيان والتبيين" ج ٢ ص ١٨٥)، وتلقيب سعيد بلطيم الشيطان (ج ١ ص ١٥٢ و ١٨٤)، وأسبابا لطيفة فى تسميته بالأشدق (ج ١ ص ١٩١).

ثالثا — ذكرتُ فى هذه الحاشية قولَ ابن الزبير "إن أبا ذِبّان قتل لطيم الشيطان". وأعلم أن "أبا ذِبّان" هو كما فى "لسان العرب" (لقبٌ غلب على عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى، لفسادٍ كان فى فمه. والعرب تكنى الأبخر "أبا ذُبّاب" وبعضهم يكنيه "أبا ذِبّان". قال الشاعر مشيرا إلى هشام ابن عبد الملك بن مروان:

لعلّ ابنَ مالت بى الريحُ ميلةً * على ابن أبى الذِّبّان، أن يتندّما).

وقال الجاحظ فى كتاب "الحيوان" (ج ٣ ص ١١٨): "يقال لكل أبخر: أبو ذِبّان. وكانت — فيما زعموا — كنية عبد الملك بن مروان. وأنشد قول ابن خرابة (١):

أمسى أبو ذِبّان مخلوع الرَّسَنْ * خلع عنان قارح من الرسن،
وقد صفت بيعتنا لابن الحسن".

هذا، وقد أورد الجاحظ فى كتاب الحيوان معلومات عن "لطيم الشيطان" (ج ٦ ص ٥٥)، كما أن ياقوت ذكر فى "معجم الأدباء" أن لوط بن مخنف له كتاب فى مقتل عمرو بن سعيد بن العاص، المعروف بالأشدق ولطيم الشيطان. (ج ٦ ص ٢٢١).

(١) هكذا بالنسخة المطبوعة، والتحريف فيها كثير. وصحة اسم هذا الشاعر هو "أبو حُزابة" (بالحاء المهملة ثم الزاى المعجمة) فإنه من الذين خرجوا مع ابن الأشعث على الخليفة عبد الملك بن مروان (أنظر "الأغانى" ج ١٩ ص ١٥٢؛ وأنظر "المشتبه" للذهبي طبع ليدن، ص ١٦٠).

وقد روى الجاحظ فى كتاب "الحيوان" (ج ٦ ص ١٠٣) أن بعض بنى مَرْوان قال فى قتل عبدِ الملك عَمْرَو بن سعيد :

كأنّ بنى مَرْوان إذ يقتلونه * بغاث من الطير اجتمعن على صقر!

[أى إن هذا من العجب] .

صفحة ٦٧ (حاشية ٣)

أضف على البيانات التى أوردتُها عن "البان" أن أحد الشعراء المتأخرين قد وصفه بما يدلنا على هيئته وشكله ، فقال :

لله بستانٌ حَلَلْنا دَوْحَهُ * فى جَنّةٍ قد فَتّحتْ أبوابَها!

والبانُ تحسبه سنانيرًا رأتْ * قاضى القضاة ، فنفّشتْ أذنابَها!

(بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ١٢٩)

صفحة ٧٥ (حاشية ٢)

أضف على الشواهد التى أوردتُها ما قاله صاحب "لسان العرب" فى مادة ــ ر ه ن ــ وهذا نصه :

الرهينة الرهن ، والهاء للمبالغة ، كالشتيمة والشَّتْم ، ثم استُعملا بمعنى المرهون .

صفحة ٧٨ (حاشية ١)

أضف على هذه الحاشية أن الجاحظ نفسه تكفل بشرح "تَحَصُّن الفرس" ، فقال فى كتاب "الحيوان" (ج ٢ ص ٥٠) مانصه : "فما تقول فى فرس تَحَصَّن تحت صاحبه ــ وهو فى وسط موكبه ــ وغبارُ الموكب قد حال بين استبانة بعضهم لبعض ، وليس فى الموكب حِجْر ولا رَمَكَة ، فيلتفت صاحب الحِصان فيرى حِجْرًا أو رَمَكَةً على قاب عِرْض أو عِرْضين أو غلوة أو غلوتين؟ حدّثنى : كيف شمّ هذا الفرس تلك الفرس الأنثى؟".

ففى ذلك تأييد تامّ لما توهمتُه بطريق التخمين عند شرحى كلمته هناك . وكأنى كنتُ أنظر بنور الله إلى هذا الشرح حينما أوردتُ حكاية قايتباى ، سلطان مصر .

صفحة ٨١ (حاشية ٤)

روىٰ الجاحظ أيضا مسايرة سعيد بن سَلْمٍ للخليفة الهادى بنفس ألفاظها التى أوردها فى "التاج" وقال: إن الخليفة نَعَتَهُ بـ "الخائن" (البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥).

فأنت ترىٰ أن جميع الروايات قد تطابقت علىٰ هذا النعت، دون غيره.

صفحة ٨٩ (حاشية ١)

أورد الجاحظ فى كتاب "الحيوان" أيضا ما قاله طُوَيْس المغنّىّ لبعض ولد عثمان بن عفّان (أعنى هو سعيد ابن عثمان بن عفان) ثم عقّب عليه بقوله: ولو قال شهدتُ زفاف أُمّك الطيِّبة إلىٰ أبيك المبارك، لم يحسُنْ ذلك. [وانظر مقدّمة هذا الكلام فى الجزء الرابع ص ١٩].

صفحة ٩٥ — ٩٧

أورد فى كتاب "المحاسن والأضداد" المنسوب إلىٰ الجاحظ مارواه الجاحظ عن امتحان أبرويز لرجاله فى حفظ الحُرَم. والعبارتان تكادان تكونان بلفظ واحد، غير أن التى عندنا قد أخذت حظّها من العناية فى التصحيح.

(أُنظر "المحاسن والأضداد" طبع العلامة فان فلوتن بمدينة ليدن صفحة ٢٧٧ — ٢٨٠).

صفحة ٩٩ (حاشية ١)

أحلْتُ القارئ علىٰ بعض المواطن التى يرىٰ فيها تفاصيلَ شافيةً عن بيت النار المعروف باسم "النوبهار". وأزيد علىٰ ذلك أن ابن فضل الله العُمَرىّ تكلّم عنه فى "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" (ج ١ ص ١٦٦، ج ٢ ص ١٥٥ و ١٥٦ من النسخة المحفوظة بدار الكتب الخديوية التى نقلتها بالفتوغرافية عن نسخة السلطان المؤيّد شيخ، الموجودة الآن بخزانة طوب قبو بالقسطنطينية).

صفحة ١٠٢ (سطر ٨) وصفحة ١٠٣ (سطر ٦)

للجاحظ شرح لطيف على قولهم : " المغبون لا محمود ولا مأجور " . (أنظره في كتاب " البخلاء " ص ٢٧ و٢٠٣) .

صفحة ١٠٧ (حاشية ٣)

أوردتُ في آخر هذه الحاشية التي اتصلتْ بصفحة ١٠٨ معلومات عن الجعد بن درهم بحسب ما وصل إليه اجتهادي بعد مراجعة كثير من الكتب ، وذكرت المصنفات التي عثرتُ فيها على شيء من هذا القبيل . ثم رأيتُ ترجمته في " سرح العيون " لابن نباته (ص ١٥٩) فأحببتُ لفتَ النظر إلى ذلك ، وإن كان في الحقيقة لايحتوى على شيء يذكر أكثر مما أتيتُ عليه .

صفحة ١٠٨ (حاشية ٢)

أوردتُ في المتن اسم "سليم بن مُجالد" اعتمادًا على رواية صـ ، وأشرت في الحاشية إلى أن صاحب "المحاسن والمساوى" قد أورد القصة . ولكن فاتني أن أقول إنه سماه "سليمان بن مُجالد" . وأنا أضيف الآن أن ابن أبي الحديد روى هذه القصةَ أيضا في " شرح نهج البلاغة " وسماه مثل صاحب " المحاسن والمساوى" أى "سليمان" وقال إنه "مولى بنى زهرة وكانت له من السّفّاح منزلة عظيمة" (وأورد تفصيلات أرقى . أنظرها في ج ٢ ص ٢٠٧) .

وقد أورده في النسخة الحلبية لكتاب "التاج" صحيحا : "سليمان بن مجالد" .

صفحة ١٠٩ (حاشية ١)

أضف على هذه الحاشية أن الجاحظ نفسه روى بعض المكاتبات التي دارتْ بين معاوية وبين قيس ابن سعد بن عبادة أمير مصر من قِبَل على بن أبي طالب (في " البيان والتبيين " ج ١ ص ٨٢) ، وكذلك ابن أبي الحديد (في "شرح نهج البلاغة" ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤) .

صفحة ١٠٩ (حاشية ٣)

أضف على هذه الحاشية : "ومن خطبة أبي حمزة الخارجي : وأما بنو أمية ، ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية . يأخذون بالظنة ، و يقضون بالهوى ، و يقتلون على الغضب ، و يحكمون بالشفاعة ، و يأخذون الفريضة من غير موضعها و يضعونها فى غير أهلها ." (عن "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٩٥) .

وقال أيضا : آثر الإمامة على ملك الجبرية . (من كتاب فضائل الترك ، ص ٤١)

صفحة ١١٠ (حاشية ٣)

أضف على الخلاصة التى أوردتها عن صباح بن خاقان رأى الجاحظ فيه أنه "كان ذا علم و بيان ، ومعرفة وشدة عارضة ، وكثرة رواية مع سخاء ، واحتمال وصبر على الحق ونصرة للصديق وقيام بحق الجار" . ("البيان والتبيين" ج ١ ص ٣٦) .

صفحة ١١٦ (حاشية ١)

أضف على المعلومات التى أوردتها عن "ابن دأب" ما رواه الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٢٤، ١٢٥)

صفحة ١١٨ – ١٢٠

أضف إلى الحواشى التى كتبتها عن علامات الأنصراف ما أورده الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٦٠).

صفحة ١١٩ (حاشية ٤)

أضف إلى شرحى لكلمة "مخصرة" قول ابن سِيدَهْ: "المِخْصرة ما يُشير به الملك إذا خطب" (عن المخصص ج ١١ ص ١٨). وأما الجاحظ نفسه فقد وفّى هذا الموضوع حقه فى "كتاب العصا" الذى أدمجه فى كتاب "البيان والتبيين" وقال فيه (ج ١ ص ١٣٩) ما نصه: "كانت المخاصر لا تفارق أيدى الملوك فى مجالسها، ولذلك قال الشاعر:

فى كَفّه خَيْزُرانٌ ريحها عَبِقٌ * بِكَفّ أَرْوَعَ(١) فى عِرْنِينِه شَمَمُ".

وأنظر بقية الأبيات هناك. وقد أورد الجاحظ هذا البيت فى "الحيوان" (ج ٣ ص ١٥٢) وعلق عليه بقوله: لأن الملك لا يختصر إلا بعودٍ لَدْنٍ ناعِم.

وأنظر أيضا كتاب "العصا" لأسامة بن منقذ، وقد طبعه العلامة هرتويغ درنبرغ Hartwig Derenbourg فى ضمن كتابه على أسامة بن مُنْقذ Ousâma Ibn Mounkidh, *un émir syrien aux premiers siècles des croisades.*

صفحة ١٢١ (حاشية ٢)

ذكرتُ فى هذه الحاشية شاعر قريش "عروة بن أُذينة". ومما يجب التنبيه إليه أن هناك رجلا آخر اسمه "عروة بن أُدَيَّة". وقد غلط صاحب القاموس فوصفه بأنه "شاعر". وترتب على ذلك أن الشارح وقع فى التخليط مع أن شيخه عرف الصواب فنص على (أن الصحيح أنه "ابن أذينة" تصغير أذن). ولكن الشارح ردّ على ذلك بأن الصاغانىّ نسب هذا القول إلى العامة. (أنظر "تاج العروس" ج ١٠ ص ٣).

والتحقيق أن "عروة بن أُدَيَّة" منسوب إلى جدته "أُدَيَّة". وأما أبوه فهو حُدَيْر أحد بنى ربيعة بن حنظلة. وقد قتله زياد بن أبيه فى أيام معاوية (أنظر "الكامل" للمبرد طبعة ليبسك ص ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٩٢، ٥٩٣).

أما "عروة بن أذينة الشاعر"، شاعر قريش، فقد عاش إلى أيام الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان. ونسبه وأخباره وأشعاره كثيرة جدا تراها فى "الأغانى" خصوصا فى الجزء ٢١ ص ١٦٢ — ١٧١ (وأنظر فهرسه أيضا).

---

(١) الأَرْوَع: الذى يروعك ويعجبك لحسنه أو شجاعته.

صفحة ١٢٣ (حاشية ١)

أضف على ما أوردته عن استعمال "السُّكَّينة" أن صاحب بدائع البدائه (ص ٢٢٧) قد أنشد لابن قلاقس الإسكندرىّ مرتجلا :

أتانا الفقيــه ببطِّيخــةٍ * وسكِّينةٍ قد أُجيدتْ صقالا ،

فقطَّع بالبرق بدرَ الدُّجى * وناول كلَّ هلالٍ هلالاً .

صفحة ١٢٤ (س ١ من المتن ، ثم ح ١)

اتفقت النسخ على التعبير بلفظ "الحوىّ" عن المكان الذى قد ينام فيه الملك . وكنتُ آثرتُ استعمال "الحاوى" لأنه من اصطلاحات الفلاسفة . والآن أرى أن الرجوع إلى اللفظ الأوّل أفضلُ . لانه وارد فى جميع النسخ الثلاث ، ولأن اللغة لا تمنع من ذلك .

صفحة ١٢٩ (س ٢)

شرح الجاحظ الملال وشهوة الاستبدال فى كتاب "البيان والتبيين" . (ج ٢ ص ١٥٨) .

صفحة ١٣١ (حاشية ٥)

ترى تعريفا لطيفا عن ابن أبى عتيق فى الجزء الثانى من كتاب "الحيوان" (ص ٢٨) .

صفحة ١٤٣ (سطر ٦ وما يليه)

قارن ما كتبه الجاحظ فى "التاج" عن رأى الناس فى المشهور المتداول بما أورد فى كتاب "الحيوان" (ج ٢ ص ٣٦) مما يدخل تحت هذه البابة ويندرج فى ذلك المعنى .

صفحة ١٥٥ (حاشية ١ و ٢)

أضف على هاتين الحاشيتين أن الجاحظ يقول إن الموسوس غلفاء بن الحارث "كان يتغلّف" و يغلف أصحابه بالغالية، فسُمّي "غلفاء" بذلك "البيان والتبين" (ج ٢ ص ١٦١).

قال فى الصحاح " وتَغَلَّف الرجُل بالغالية وغَلَّف بها لحيته غَلْفا، ومعديكرب بن الحرث بن عمرو أخو شُرَحْبيل بن الحارث يُلَقَّبُ بالغلفاء لأنه أوّل من غَلَّف بالمسك، زعموا" . ونحوه فى "اللسان" (ج ١١ مادة غ ل ف).

صفحة ١٦١ (حاشية ١)

يضاف على السطر الثالث منها أن ابن أبى الحديد روى محاكمة علىّ بن أبى طالب مع خصمه أمام عمر بن الخطاب "شرح نهج البلاغة" (ج ٤ ص ١٣٣).

هذا، وقد صنف أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكرىّ كتابا خاصا فى هذا الموضوع سمّاه "كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة". [ذكره ياقوت الحموىّ فى ص ١٣٧ من القسم الأول من الجزء الثالث من "معجم الأدباء"].

وقد سهوتُ عن ذكر شىء مما وقع من هذا القبيل بالأندلس، مع علم الخاص والعام بغرامى بهذا القطر وبمن كانوا فيه. فرأيت أن أتلافى الآن ذلك الإهمال بالإحالة على ما حصل من قاضى قضاة قرطبة محمد بن بشير (المصرى الأصل) مع الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ومع عمه ووزيره (وانظر التفصيل الوافى فى نفح الطيب، ج ١ ص ٣٩٥ طبعة بولاق، ج ١ ص ٥٥٥ طبعة ليدن؛ وفى كتاب بغية الملتمس للضبى طبع مدريد، ص ٥١؛ وفى كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، طبع مدريد، ص ٩٠؛ وفى كتاب المدارك للقاضى عياض، الذى أشار إليه صاحب نفح الطيب). ومثل ذلك ما وقع أيضا لمنذر بن سعيد البلوطى مع الخليفة الأكبر عبد الرحمن الناصر (وأخبار هذا القاضى مشهورة تجد المعجب والمطرب منها فى الكتب المذكورة — بمراجعة فهارسها) وانظر على الخصوص نفح الطيب طبع أوروبا (ج ١ ص ٤٧٠) وما يليها.

صفحة ١٦٦ (سطر ٣ – ٧)

أُنظر ما رواه الجاحظ فى كتاب "الحيوان" عن مهارة بهرام وفروسيته فى صيد الحمار الوحشىّ . (ج ١ ص ٩٤) .

صفحة ١٦٩ (حاشية ٢)

أضف على المعلومات التى أوردتُها عن "الطبر" و"الطبرزين" :

١ً – أن ابن جرير الطبرىّ الشهير ذهب إلى أبى حاتم السجستانىّ ليأخذ عنه حديثا فى القياس . فأفاده أبو حاتم ، ثم سأله عن بلده ، فقال : طبرستان . ولما سأله عن سبب هذه التسمية ، قال : لا أدرى . فقال أبو حاتم : إن المسلمين بعد أن فتحوا هذا الإقليم شرعوا فى بناء المدينة ، "وكانت أرضا ذات شجر ، فالتمسوا ما يُقطعون به الشجر . فجاؤوهم بهذا الطبر الذى يقطع به الشجر ، فسُمِّىَ الموضع به" . (أُنظر "معجم الأدباء" لياقوت ج ٦ ص ٤٢٨) . وقد ذكر الجاحظ "الطبرزين" و"الطبرزينات" فى كتاب "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٧٦) وفى كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٥٣) .

٢ً – أن أهل مصر توسعوا فى القرن الثامن للهجرة فأطلقوا لفظة "طَبَر" على السلاح جملةً . يدل على ذلك قول تاج الدين أبى نصر عبدالوهاب السبكى فى كتاب "معيد النعم ومبيد النقم" (ص ٥٠ من طبعة لوندرة سنة ١٩٠٨) : الطبردار وهو الذى يحمل السلاح بين يدى السلطان لأجل حفظ نفسه .

صفحة ١٧٣ (حاشية ٢)

يظهر من كلام الجاحظ نفسه أن الخباز عندهم كان هو الطاهى والطباخ ، وأنه هو الذى كان يقدّم الطعام لمخدوميه .

قارن ما ذكره فى صفحة ١٧٣ من كتاب "التاج" بما ذكره قبل ذلك فى صفحة ٢٠ . وأعتبر كلامه فى "الحيوان" (ج ٤ ص ٢٦) حيث قال : إن "العرب تقول للرجل الصانع ... ... خبّازا ، إذا كان يطبخ ويعجن" . وقد قال فى الجزء الخامس منه (ص ١٣٦) : "ولذلك صار الخبّازون الحُذّاق قد تركوا

الضأن، لأن المعزيين شحمه ولحمه فيصلح أن يسمن مرات، فيكون أربح لأصحاب العرس". وانظر فى الجزء السادس منه (ص ١٦٦ – ١٦٧) قصة الطباخ السندى الذى اشتراه ثمامة [بن أشرس] ثم قال عنه الجاحظ: "إنه أحسن الناس خبزا وأطبخهم قدرا".

وورد فى كتاب "البخلاء" للجاحظ:

١ – إنك لتغالى بالخباز والطباخ والشواء والخباص [أى الذى يصنع الخبيصة] (ص ٧٠).

٢ – قرب خباز أسد بن عبدالله – وهو على خراسان – شواء قد نضجه نضجا، وكان يعجبه ما رطب من الشواء، فقال لخبازه: أتظن أن صنيعك يخفى على؟ (ص ١٦٠).

٣ – جاء الخبازون فرفعوا الطعام (ص ١٦٤).

فكل هذه النصوص تؤيد ماقلناه من أن الخباز عندهم كان هو القائم بخدمة الآكلين، وأنه كان فوق ذلك قد يصنع بعض ألوان الطعام.

صفحة ١٧٣ (حاشية ٣)

ذكر الجاحظ البزماورد فى كتاب "الحيوان" فقال: والدجاج أكثر اللحوم تصرفا، لأنها تطيب شواء، ثم حارا وباردا، ثم تطيب فى البزماورد (ج ١ ص ٩١). ثم قال فى موضع آخر: إن "أهل خراسان يعجبون باتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير، ويعافون أذناب الجراد الأعرابى السمين." (ج ٤ ص ١٥). ثم أورد فى الجزء السادس منه (ص ٢٨) أن الفضل بن يحيى استظرف بزماورد الزنابير حينما كان واليا على خراسان. فلما عاد إلى بغداد كان يشتهيها، فتطلب له من كل مكان. وحكى حكاية رجل بدوى تناول الطعام على مائدة الأمير، وقد عيره الندماء بأكل الجراد الاعرابى. ثم مالبث الرجل أن رأى القوم أحضروا على المائدة صحفة ملآنة من فراخ الزنابير ليتخذوا منها بزماوردا للأمير. فخرج البدوى وهجاهم بأبيات، تراها هناك.

صفحة ١٧٦ (حاشية ٢)

أنظر أيضا التفصيل الذى أورده الجاحظ عن قتل المنصور لأبى مسلم الخراسانى فى "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٥٥) .

صفحة ١٨٤ (سطر ١٥)

مانى الثنوى هو القائل بالنور والظلام . والطالب يرى ترجمته فى "سرح العيون" (ص ١٥٥) . والقائلون بمذهبه يسمون "مانية" و"مانوية" . وآسمه عند الفرنسيين Manès .Manichée وآسم أصحابه Manichéens . وكان مولده باليمن حينما كانت تابعة للفرس .

تصحيحاتٌ

لأغلاط مطبعية طفيفة وردتْ فى المتن وبعض الحواشى، رأيتُ وجوب استدراكها ليكون الكتاب آية فى الكمال بقدر الإمكان .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	١٤	أبو الحسن بن بكر	أبو الحسن بن أبى بكر
٢٠	٨	ويتّسِع ، ويقصر ويجتهد	وتتّسعُ ، ويقصرُ ويجتهد
٢٤	١٠	بمخاطبة	علىٰ مخاطبة
٣٣	١٤	بَهرام جُورٍ	بَهرام جُور
٤٠	١١	وجاوًا	وجاؤوا
٤٧	٨	حتى	حين
٤٧	١٩	ص ٢٠ من طبعتنا	ص ٢٥ من طبعتنا
٤٨	٢١	قضاء مديرية الشرقية بمصر	قضاء الشرقية ببغداد
٧٠	١٤	حِمالات...	حَمالات
٧٨	١٤	تَثب ... تكون	يثب ... يكون
٧٨	١٥	قدّامها	قدّامه
٩٨	١٦	خلوا ، تذاكروا	خَلَوا ، تذاكَرا
٩٩	١٥	الأطلاع	الأطّلاع
١٠٣	٩	للسَفَلة	للسُّفلة
١١١	١	الرويدية	الزبيدية (١)
١١٦	١٢	يقرؤن	يقرؤون
١٢١	٩	بمخارج	بمخارج
١٢٥ } ١٢٦	١٢ } ٢،١	أراد مرد	آزادمرد (٢)
١٣١	٣	غَزَل	هَزل (٣)

(١) هذا التصحيح عن النسخة الحلبية . ولعله قريب من الصواب . ويكون الواجب تصحيح رواية س ، ص بمقتضاه ، أى نجعل بدل " الرويدية " لفظة " الزويدية " بطريق التصغير والتحقير لكلمة " الزيدية " (كما فعل فى صفحة ١٣٥ س ٣) .

(٢) هذا التصحيح عن الحلبية أيضا . والفُرس يسمون بهذا الاسم ، ومعناه " الرجلُ الحرُّ " .

(٣) هذا التصحيح عن الحلبية أيضا . وهو وجيه جدًّا ومتحتمٌ يقضى به السياق .

استدراك (١)

للمهمّ من الاختلافات فى رواية النسخة الحلبية ، وخصوصا للزيادات التى انفردت بها دون نسختى س ، ص .

(الكلمات الزائدة فى الحلبية أدمجناها فى الرواية بحرف كبير ، تمييزا لها وتنبيها على موقعها)

ص ٢ س ٩ "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات" [والآية التى فى آخر سورة "الأنعام" (آية ١٦٥ سورة ٦ من مصحف الحافظ عثمان) ليس فيها لفظ "فى" والذى أوجب الخلط على ناسخ الحلبية قوله تعالى فى سورة "فاطر" : "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره" . (آية ٣٩ سورة ٣٥) وهى غير الآية التى يريدها الجاحظ ، وليس فيها محل الشاهد الذى توخاه] .

ص ٤ س ٤ "أى لِيَّاه" بدلا من "قال كِنَّياه" . [وما اعتمدناه هو الصواب كما تراه فى تفسير الرازى وغيره] .

ص ٥ جميع الوارد فى هذه الصفحة ناقص فى س وهو موجود فى الحلبية مثل ما هو فى ص مع بعض اختلاف وقع من الناسخ الحلبىّ .

ص ٧ س ١ اقتصر صاحب الحلبية على ترجمة الباب بقوله "فى الدخول على الملوك" ثم ابتدأ الكلام بقوله : "قال رحمه الله : مما يجب للملك إن كان الرجل من الأشراف والطبقة العالية أن يقف" . [وعندى أن ذلك الترتيب أفضل من روايتنا ولذلك اعتمدته فى فذلكة المضامين] .

ص ١٣ س ١ "عبد الرحيم" [مثل س] بدلا من "عبد الرحمن" [الذى اعتمدناه عن ص] .

ص ١٣ س ١ "الملك" بدلا من "إسحاق" . [فكأن ناسخ الحلبية اتفق مع ناسخ س إلا فى وضعه لفظة "الملك" فى موضع البياض الذى تركه صاحب س ، وانظر حاشية ٣ من ص ١٣] .

---

(١) أنظر صفحة ٦٢ من التصدير .

ص ١٧ س ٤ "يعنى" بدلا من "يقتدى". [وربما كانت رواية الحلبية أحسن].

ص ١٧ س ١٠ "كان" بدلا من "الحاقّ". [ولا بأس برواية الحلبية أيضا].

ص ٢١ س ٤ "واذوات" بدلا من "وأدوات". [وكلا الروايتين لامعنىً له وآنظر حاشية ١].

ص ٢٢ س ٦ فى الحلبية: "وإن كان الملك يشرب الخمرة والعياذ بالله ليس للرجل الواقف فى خدمته أن يختار" بدلا من "وليس له أن يختار" ... ... [وفى رواية الحلبية تمطيط لا يتفق مع المعهود من أسلوب الجاحظ].

ص ٢٣ س ٣ "حذ يليها" بدلا من "جديليها". [وروايتنا هى الصواب وآنظر الحاشية رقم ٢].

ص ٢٤ س ١١ "عن أصلها وفصلها" بدلا من "عن فصيلتها". [وروايتنا توافق المعهود من أسلوب الجاحظ].

ص ٢٥ س ١ "وحصر كل طبقة منها قسمها" بدلا من "وخص كل طبقة علىٰ قسمتها". [فقد وافق حزرنا ما فى الحلبية عند ما صححنا "خص" بكلمة "حصر" التى عينها لنا السياق. وآنظر حاشية ١ فى تلك الصفحة].

ص ٢٨ س ١٠ "خرتوماش" بدلا من "خرم باش". (ورواية الحلبية مغلوطة، وآنظر الحاشية رقم ٢).

ص ٢٨ س ١٢ « « « (« « « « « « «).

ص ٢٩ س ٨ "تنقل" بدلا من "شغل". [ورواية الحلبية تتفق مع رواية سـ].

ص ٣٠ س ١٥ "بقوانين" بدلا من "بآيين". [فرواية الحلبية تتفق مع رواية سـ].

ص ٣١ س ١ فى الحلبية: "إبراهيم الموصلى" ... ... [وآنظر الحاشية التى وضعتها فى أسفل تلك الصفحة].

ص ٣٤ س ٧ "واحدا من مغنيه و بطانته فى عشر سنين" ... ...

ص ٣٥ س ٧ "قليل العطاء سيئ النظر" بدلا من "قليل الإغضاء سيئ الظن". [وعندى أن روايتنا أفضـــل].

ص ٣٥ س ٩ "لا تعطى" بدلا من "لا يعطينى". [وعندى أن روايتنا أفضل].

ص ٤٥ س ٧ "و[لا] سيما" فقد توافقنا مع الحلية فى إضافة أداة النفى . ولكن الحلية عادت فأهملت أداة النفى فى موضع آخر . فأوردت "سيما" فى الموضع الذى أشرنا إليه فى صفحة ١٥٧ من طبعتنا . وهذا الموضع قد آتفقت فيه النسخ الثلاث على إهمال أداة النفى [وآنظر الحاشية رقم ٣ ص ٤٥ والحاشية ، ثم س ٤ ص ١٥٧] .

ص ٤٦ س ٨ لا يمسوا طيبا يتطيب به الملك دونهم ... ... [وهـذه الزيادة فى الحلية جميلة لتخصيصها نوع الطيب الذى يستعمله الملك] .

ص ٤٧ س ٢ "مثله وإلا لم يكن بين الملوك والسوقة فرق" .

ص ٤٨ س ١ و٢ "وإبراهيم بن المهدى وقد دخل عليه آبن أبى دؤاد" بدلا من "وهذا إبراهيم بن المهدى بالأمس دخل على آبن أبى دؤاد" . [فآتفق سـ وصـ على أن الداخل هو إبراهيم آبن المهدى بخلاف ماجاء فى الحلية . وعندى أن روايتهما هى أقرب إلى الصواب لأن إبراهيم من بيت الخلافة ، بل إنه أتى عليه حين من الدهر تبوأ فيه مقعدها وقام بأمرها . ولا شك أنه تخوف دسيسة من آبن أبى دؤاد حينا آنتقد عليه لبسة هى خاصة بالخليفة] .

ص ٤٩ س ٩ "فى الشرب إذا كان الملك يسكر وأن" ... ...

ص ٤٩ س ١١ "تجاوز حدّ العدل على الخاصة" بدلا من "تجاوز حق العدل على الخاصة" ... ... [ورواية الحلية أحسن وأمتن] .

ص ٥٠ س ١٠ "هـذه الخصال منه" بدلا من "هاتان منه" ... ... [وعندى أن رواية الحلية أكثر حسنا وأتم بيانا] .

ص ٥٠ س ١٣ "ولايته اللهم إلا أن" ... ... [وعندى أن هذه الزيادة فى الحلية فى غاية الجمال] .

ص ٥١ س ٩ "ومن أخلاق الملك السعيد الكامل العقل والأدب أن لا يعاقب" ... ...

ص ٥١ س ١١ "الأمة" بدلا من "الملة" . [وعندى أن كلمة "الأمة" مصحفة عن "الأئمة" الواردة فى سـ . وقد آستحسنت "الملة" الواردة فى صـ من أجل المجانسة مع الشريعة الواردة فى جميع النسخ] .

ص ٥٢ س ١ ‘‘غيره’’ بدلا من ‘‘السوقة’’ ...... ‘‘العالم’’ بدلا من ‘‘الحاكم’’ . [وهاتان الروايتان أحسن مما اعتمدناه عن سـ وصـ] .

ص ٥٣ س ١٢و١٣ ‘‘والحديث عنها أقوم منهم إلى فوائد’’ بدلا من ‘‘والحديث عنهم أقوم وأشهى منها إلى فوائد’’ . [ولا شك أن رواية الحلبية محرفة وصوابها ‘‘أقوم وأنهم إلى فوائد’’ . وانظر الحاشية رقم ٢] .

ص ٥٨ س ٣ ‘‘فارتاع من حضر’’ بدلا من ‘‘فارتاع ومن حضره’’ .

ص ٦١ س ٩ ‘‘يبق’’ بدلا من ‘‘يتق’’ .

ص ٦٤ س ١٠ ‘‘الجواميس’’ بدلا من ‘‘الجواسيس’’ . [ومثل هذه السخافات كثير فى الحلبية] .

ص ٧٢ س ١٠ ‘‘(باب فى الخلال التى تساوى الندماء فيها الملوك : قال صاحب الكتاب رحمه الله تعالى : ينبغى أن يكون لندماء الملك وبطانته’’ . [وهو تقسيم وجيه لطيف ، ويجب اعتماده فى طبعتنا] .

ص ٨١ س ٧ ‘‘عبد الله بن حسين’’ بدلا من ‘‘عبد الله بن حسن’’ .

ص ٨٧ س ٢ ‘‘باسم غير اسمه أو اسم أبيه’’ بدلا من ‘‘باسم أبيه’’ . [ورواية الحلبية أكمل] .

ص ٩٥ س ٢ ‘‘أن لا’’ بدلا من ‘‘أن [لا] ’’ . [فكانت زيادتنا لحرف النفى موافقة لما فى الحلبية] .

ص ٩٥ س ١٥ ‘‘التباله’’ بدلا من ‘‘التأله’’ . [وهذا التصحيف فيه تبالهٌ من الناسخ] .

ص ٩٦ س ٣ ‘‘فامتحن بعض الملوك’’ .. ... [وهذه الزيادة سخيفة ، وهى توجد فى سـ أيضا . والرواية المتعبة هى الواردة فى صـ ، وهى التى اعتمدناها فى الطبع] .

ص ٩٦ س ١٧ ‘‘إلى نسائه اللواتى’’ بدلا من ‘‘إلى بستانه الذى’’ .

ص ٩٨ س ٢ ‘‘التباله’’ بدلا من ‘‘التأله’’ ...... [وهو تبالهٌ ثانٍ من ناسخ الحلبية] .

ص ٩٩ س ٩ ‘‘بيه لعلة صلح بخلافها ومن فسدت نيته لغير علة’’ ...... [ورواية الحلبية وجيهة جدا وواجبة ، فينبغى اعتمادها فى طبعتنا] .

ص ١٠١ س ١٣ "دراهم" بدلا من "دنانير".

ص ١٠٣ س ١ "أكثروا التغافل" بدلا من "السرو التغافل". [وروايتنا هى الصحيحة].

ص ١٠٤ س ٢ ولا كرامة لك ......

ص ١٠٦ س ٥ ثم قال : نعم هذا ......

ص ١٠٦ س ٥ "وجاؤوا بالرأس فوضع بين يديه . فقال لمن حضره : فيكم من يعرف هذا الرأس؟ فقام ......" [وهذه الزيادة يقتضيها السياق . فلتثمد فى طبعتنا].

ص ١٠٧ س ١ رحمه الله : وعاد إلى مجلسه فقعد فوثب ...... [« « « «].

ص ١٠٨ س ٧ "فقال : أما والله" ......

ص ١٢٠ س ١٠ "والحظوة والسلطان" بدلا من "والحظوة عند السلطان". [ولعل رواية الحلبية أفضل . ويكون السلطان فيها بمعنى السلطة ، وأما فى رواية س ، ص فمعناه الملك الأعظم].

ص ١٢٢ س ١٥ "فيتواطآن على كذب" بدلا من "فيتواطآ".

ص ١٢٤ س ٧ "ليس منها فراش إلا ومن ورائه من بعيد على الأنفراد لا يُشَكّ أنه" بدلا من "ليس منها فراش إلا ومن رآه من بعيد على الأنفراد لا يشك أنه" ......

ص ١٣٠ س ٧ "أما ترى" بدلا من "ألا ترى". [ورواية الحلبية حسنة جدا].

ص ١٣٤ س ٦ "هلال الهمذانى" بدلا من "مهلهل الهمذانى". [وروايتنا هى الصواب].

ص ١٣٤ س ١٠ "وقد" بدلا من "و [قد]". [فتصحيحنا جاء موافقا لما فى الحلبية].

ص ١٣٥ س ٣ "كردى" بدلا من "كريحى". [ورواية الحلبيـة أقرب للصواب وإنما ينقصها التصغير للتحقير].

ص ١٣٥ س ١١ "ولعله لا يجد" ...... [وزيادة أداة النفى هنا وجيهة ومتحتمة].

ص ١٣٦ س ١٠ "كل من قرب من نفس الملك" بدلا من "كل من أنفس الملك". [ورواية الحلبية جيدة والأصح اعتمادها . ويكون المعنى : كل من جعله الملك نفيسا عنده].

ص ١٤١ س ٥ "عيسى بن برمك" بدلا من "عيسى بن نهيك". [ورواية الحلبية مغلوطة فى هذا المقام ولكنها صحيحة فى بقية الكلام لأنها عادت فسمته عيسى بن نهيك].

ص ١٤٣ س ٩ "لشيء هو فيه لم ندر" بدلا من "لشيء آخر لا ندرى" ... ...

ص ١٤٤ س ١٤ "مشاهدة أو مشافهة" بدلا من "مشاهرة أو مساناة". [وسخافة الحلبية ظاهرة].

ص ١٤٥ س ١٠ "حوادث الدهر والموت" بدلا من "حوادث المنون".

ص ١٤٧ س ٤ "موائد" بدلا من "موابذ".

ص ١٤٨ س ١٥ "يُجدِّده ... ... يجددها" بدلا من "يخذه ... ... يأدبها".

ص ١٥٠ س ١٤ "وجود النَّهِم المشاق" بدلا من " وجود القرم النهم المشتاق".

ص ١٥٠ س ١٥ "لذة الطعام وطيبته" بدلا من "لذة الطعام وأطيبه". [ورواية الحلبية أطيب].

ص ١٥١ س ١٢ "جمعة يوما وليلة" بدلا من "يوم وليلة مرة". [ورواية الحلبية أحسن].

ص ١٥٣ س ٦ "الجمعة وربما لم يشرب فى بعض البواقى من أيام الجمعة. فأما هذان اليومان فلم يكن ليشرب فيهما بتة" ... ... [ورواية الحلبية أجود وأكمل].

ص ١٥٣ س ١٣ "فإذا ذهب رونقه وبعض مائه رمى" ... ... [ولعل الصواب "وبعض مائه" كما فى نسخة ص. والماء هنا بمعنى الرونق والبهاء كما يقال فى الجواهر الكريمة والأحجار النفيسة. وحينئذ فلا يكون هنالك وجه لما أوردناه فى حاشية تلك الصفحة من الظن باحتمال أن "مائه" محرفة عن "بهائه"].

ص ١٥٤ س ١١ نادرا معجزا معجبا غريبا ... ... [ولا معنىً لوضع "معجزا" فى هذا المقام بل هى زيادة من الناسخ تدل على عجزه].

ص ١٥٥ س ٢ "اختلاف الملوك" بدلا من "أخلاق الملوك".

ص ١٥٥ س ٣ "فمن الملوك من كان إذا" ... ... [وزيادة "كان" واجبة].

ص ١٥٩ س ٤ "من أبناء الملوك وأهل الشرف" ... ...

ص ١٥٩ س ٧ "من ملوكهم قبله وبعده" .....

ص ١٦٢ س ١ في المملكة بالباطل .....

ص ١٦٣ س ٧ "النحس الكبير" بدلا من "النحس الدارنكر". [ورواية الحلية ربما لا تزيل الإبهام].

ص ١٦٥ س ٣ "لتقوى منتك" بدلا من "لتقوى نيتك".

ص ١٦٦ س ٣ "فأخذ التاج" بدلا من "فأخذوا التاج".

ص ١٧١ س ٢ "وحدثني أبو الترب الشاعر: كان يُجرِى علىّ أرزاقا فدخلت عليه"
"يوما. فقال، بعد أن أنشدته وسألني عن عيالى: تحتاج عيالك في كل"
"شهر من الدقيق إلى كذا ومن الحطب إلى كذا ومن كذا إلى كذا".
"فأخبرنى بشىء من أمر منزلى جهلت بعضه وعلمت كله".
[وقد وضعت هذه الزيادة في طبعتى نقلا عن "المحاسن والمساوى" للبيهق. وليس بين رواية الحلية وبين رواية البيهق خلاف كبير إلا في اسم الشاعر ولست أدرى صحته أهو أبو البرق أم أبو الترب؟ وأما العبارة التي أوردتها في طبعتى فهى أصح وأوجه].

ص ١٧١ س ١٢ "وفيما ذكرناه كفاية والله أعلم بالصواب". [وهنا وقفت الحلية مبتورة].

التعريف بكتاب

"تنبيـــــه الملوك والمكايد"

المنســـوب للجاحظ

ذكرتُ هذا الكتاب فى "التصدير" وأكثرتُ من الإشارة إليه فى الحواشى التى حلّيت بها "التـاج".

فلا بدّ أن يكون القارئ قد تشوّف إلىٰ الإلمـام بشىء عنه . فلذلك رأيت أن التعريف به قد تكون فيه فائدة .

عثرتُ علىٰ النسـخة الأصلية - وهى الوحيـدة فيما أعلم - بخزانة الكوپريلى بالقسطنطينية تحت رقم ١٠١٥ [١] .

وقد وضع بعضهم فوق حرف البـاء من لفظة "كتاب" عبارة بخط حادث هذا نصُّها. "تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ". ثم جاء رجل آخر فأيد هذه الرواية إذ كتب تحت العنوان سطرا ثالثا بخط جديد أيضا يغاير خط النسخة من أوّلها إلىٰ آخرها، وهى "للجاحظ رحمة الله عليه".

ظننتُ أنى ظَفِرْتُ بدُرّة يتيمة من تلك الدُّرر التى تفرّد بها الجاحظ . فأنشأتُ أتصفّح الكتاب ، ولكننى ماقرأتُ منه سطرين حتّى نقضتُ الحكم ورجعتُ عن الضّلال الذى أوقعنى فيه ذانك الجاهلان المجهولان .

---

(١) نقلت بالتصوير الشمسى نسخة من هذا الكتاب ، هى الآن محفوظة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .

بل هذه مقدمة الكتاب بنصها وفصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى افتتح بالحمد كتابا ، وفتح للعبد إذا وافى إليه بابا ، قسم بين خليقته فطوّروا أطوارا وتحزّبوا أحزابا . أنفذ فيهم سَهْمَه ، وأمضى فيهم حكمه ، وجعل لكل شىء أسبابا . فهم دائرون فى دائرة إرادته لا يستطيعون عنها انقلابا . داهشون فى بدائع حكمته ، ومشيئته وإرادته ، يُعز من يشاء ، ويُذل من يشاء ، ويرزق من يشاء ، ولم يزل كريما وهّابا . نحمده على ما أولى وأنعم ، ونصلى على نبيه المبعوث إلى العرب والعجم ، صلى الله عليه وعلى آله وشرّف وكرّم ! (أما بعد) فهذا كتابٌ يشتمل على ذكر تنبيه الملوك والمكايد ، ليَحْصُلَ عند مطالعته الاحترازُ من كل صديق ورفيق وما تحت ثيابه من البُغض والتحاسُد . فنعوذ بالله من ذلك ، ونستعينُ بالله ، ونتوكل على الله ، ومَن يَتوكّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُه إنّ اللهَ بالغُ أمرِه ، قد جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شىءٍ قدرًا " .

فهذه المقدمة وحدها تنادى بلسان الحال أن الجاحظ لا يمكن أن يكون هو المؤلف لهذا الكتاب .

تعالى الجاحظ أن يجرىَ قلمُه بمثل هـذا السجع المرصّع أو بمثل هذه العبارات المنمّقة ! فهو أعلى كَعْبا وأرسخ قدما من أن يتنازل لافتتاح أحد كتبه بمثـل هذا الكلام . هذا الحكم يؤيده الكتاب نفسه . ففى تضاعيفه أحوال كثيرة عن خلفاء وملوك ورجالات لم يخلقهم الله إلا بعد وفاة الجاحظ بسنين وأعوام . مات الجاحظ فى سنة ٢٥٥ للهجرة ، فكيف يصح فى الأذهان أنه يسرد فى صفحة ٣٠٥ بعض الحوادث التى وقعت فى سنة ٢٦٨ ؟ ثم كيف يعود فى صفحة ٤٣٠ فيفصل الوقائع التى حصلت فى سنة ٣٥٨ ؟ ويا بُعْدَ ما بين ابن طولون وكافور الأخشيدى والمتنبى وبين الجاحظ ! ومع ذلك فقد تضمن الكتاب لُمَعًا من أخبار هؤلاء الرجالات ! ! !

حينئذ لم يبق لدينا أدنىٰ شبهة فى أن المؤلف كان متأخرا عن الجاحظ بزمان مديد .

وكيف لا وقد أفاض فى شرح المكايد والحوادث التى وقعت بعد وفاة الجاحظ ، شرحا يدل علىٰ أنّ المؤلف كان محيطا بأحوال عصره ، واقفا علىٰ ماجَرَيات دهره ؟

نعم إن المؤلف سطا علىٰ كثيرٍ من الحوادث التى رواها الجاحظ فى كتاب "التاج" فأوردها فى النصف الأول من كتابه ، وقد وضعنا جدولا للسرقات (١) تراه فى غير هذا المكان .

ولكن هذا السطو الجزئىّ هل يكون مبررا للسطو الكلىّ ، فيجعل لبعض المتأخرين المتأخرين مساغا فى نسبة الكتاب برمته إلىٰ الجاحظ ؟ كلا لعمرى !

هذا . والكتاب فى حدّ نفسه وفى بابه مفيد ، وجامع للغرض الذى توخاه المؤلف ، وجدير بأن يظهر فى عالَم المطبوعات العربية . وهو يقع فى ٤٣٨ صفحة فى كل صفحة ١٥ سطرا . ولكنه يحتاج لعناية فى التصحيح والتهذيب .

أما موضوعات هذا المؤلَّف فتنحصر فى أربعة أقسام :

(١) مكايد الفُرْس وملوكهم (من صفحة ٣ — ٤٩) .

(٢) « الهند (« ٤٩ — ٥٤) .

(٣) « الروم (« ٥٥ — ٦٣) .

وما بقى من الكتاب ، قَصَرَهُ علىٰ أخبار العرب فى مكايدها سواء كان فى أيام الجاهلية أم فى صدر الإسلام أم بعده . وأسهب الكلام فى المكايد التى وقعت من خلفاء

(١) أُنظر جدول السرقات فى صفحة ٦٩ من التصدير الذى وضعناه فى أوّل هذا الكتاب .

الإسلام أو من رجالاتهم فى أيام الخلفاء الراشدين وبنى أُمَيَّـةَ والعباسيين، ثم فى زمن أحمد بن طولون وكافور الأخشيدى . وقد ختم كتابه بقوله فى صفحة ٤٣٠ :

"فهذا ما قُصِد إيداعه فى هذا الكتاب ! وليعلم أن كل ما يصنع من هذه المكايد نصْرا لكلمة الدين وإقامةً لعمود الملك فهو حسنٌ عقلا وشرعا : لأن فى المكايد سلامة الأولياء من المخاطرة بالمُهَج، ولهذا صار أهلُ الفتوح ما بلغ بالمكايد فيـه الغرض المقصود . فإن قُصَيَّ بن كلاب إنمـا غلبت علىٰ أهل مكة حيث آنتزعها بالمكيدة التى آستعملها . وكذلك أردشير مؤسس ملك آبن ساسان المرتجع له من أيدى الذين آقتسموه من ملوك الطوائف، إنمـا وصل إلىٰ ما وصل إليه من جمع المملكة كلها له بمـا آستعمله من المكايد . قال النبى صلى الله عليه وعلىٰ آله أجمعين "الحربُ خِدْعة" . وقد أكد عليه السلام من ذلك بأفعاله التى كان يستعملها فى محاربة أعداء الدين من التورية عن مقصده عند مسيره فى غزواته، وخصوصا ما آستعمله فى فتح مكة" .

ثم قال فى صفحة ٤٣٨ :

فقد بان أن الشرع والعقل يحمدان المكايد إذا صرفت علىٰ الوجه الذى يعز به الدين وينتفع به المسلمون . وآرتفع بهذا وجه اللوم فى جميع هذه المكايد فى هذا الكتاب .

نجز الكتاب "تنبيـه الملوك" .

والحمد لله وحده، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، فى "سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة" .

أما المؤلف فى ذاته فلم أتوصل إلىٰ معرفته مع إنعام النظر فى كتابه . وغاية ما توفقنا إليه أنه عرفنـا بنفسه عن نفسه تعريفا مبهما مجهولا نستنتج منه أنه من الشيعة، كما أنه آكتفىٰ بتسمية نفسه مرتين بآسم "جامع الأخبار" .

روىٰ "جامع الأخبار"(١) أنه سهر ليـلة عاشوراء بخندق الموالى القصرية وأطال التفكير فيما عرض لأهل النبوة ومعدن الرسالة والإمامة من آستيلاء أعدائهم عليهم

(١) فى صفحتى ٣٢١، ٣٢٢ .

حتّىٰ تلاعبت به الظنون فى وجه الحكمة والعدل فى ذلك . فآستولىٰ عليه النوم ورأىٰ الإمام عليا فى صفة الساخط عليه لآعتراضه . وما زال المؤلف يستعطفه حتّىٰ حَظِىَ بنعمة الرِّضوان . ثم آستيقظ وكان بجانبه قاضى "الناحية المذكورة" فآستعلم منه عن سبب آنزعاجه وقلقه فشرح له الأمر . فقبّل القاضى يَدَه ، لأنها لمست يدَ الإمامِ علىّ .

ففى ذلك دليـل علىٰ أن المؤلف كان موجودا بالقاهرة فى أيام الفاطميين ، وأنه كان من الشيعة .

ثم عاد المؤلف (فى صفحة ٣٥١) إلىٰ تسمية نفسه بجامع الأخبار فقال :

" هذا الكتاب يبين فضل المجلس العالى السيدىّ الصالحىّ خلّد الله ملكه الذى يتزه بأن يخدع بمثل هذه المحاولات ولهذا يقول فى بعض قصائده .

ولا خَدَعتنا منــه قَطُّ ملاحم * تُسَدِّى بأصناف المُحال وتُلْحَم .
فأضعفُها ماكان فيه رواية * وأسقمها الخَطُّ الذى هو أقدمُ " .

فهذا القول ، أعنى "المجلس العالىّ السيّدى" لا ينصرف بحسب الآصطلاح الرسمىّ المقرر فى ديوان الإنشاء إلا لصاحب الوزارة الكبرىٰ فى أيام المماليك أو الأيُّوبيين أو الفواطم ، كما يشهد بذلك آبن فضـل الله فى "التعريف بالمصطلح الشريف" والقلقشندىّ فى "صبح الأعشىٰ" .

أما المماليك ، فلا شأْن لهم هنا . لأن دولتهم إنما كان مبدؤها فى سـنة ٦٥٥ أى بعد ١٥ سنة من تاريخ نسخ هذا المخطوط فى سنة ٦٤٠ .

وأما الأيُّوبيون ، فقد قضوا قضاءً مبرمًا علىٰ مذهب الشيعة بديار مصر . فلا يمكن أن يكتب أحد المؤلفين فى أيامهم شيئا مثـل العبارة الأولىٰ التى نقلناها عن وجود

صاحبنا بين القصرين . وفضلا عن ذلك ، فإن صلاح الدين هدم القصرين ، وعبارة مؤلفنا تدلنا على تمام العمران بهذه الخطة حيث كان لها قاض خاص بها فى أيامه .

فلم يبق لدينا أدنى شبهة فى أن التأليف إنما ظهر فى أيام الفواطم باسم أحد وزرائهم الأكابر .

فلننظر مَن هو هذا الوزير حتى نتمكن من تعيين تاريخ التأليف بغاية ما يمكن من التقريب والتحقيق .

أشار المؤلف إلى هذا الرجل باسم "الصالحى" وأنشد له شعرا . فهذا النعت لا ينصرف إلا إلى الصالح طلائع بن رُزِّيك ، خصوصا وقد شهد آبن خلكان بأنه ممن كانوا ينظمون الشعر الجيد ، وأورد لنا غررا من أقواله ، وعرّفنا بأنه رأى ديوانه فى جزأين .

فهذا الوزير تولى الأحكام على عهد الفائز الفاطمى ، وآستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة ، وكانت ولايته فى ١٩ ربيع الأول سنة ٥٤٩ . وبعد وفاة الفائز ، آستمر الصالح على وزارته وزادت حُرمته وتزوج العاضد الفاطمى آبنته . ثم دسّ العاضد عليه مَنْ قتله . فكانت وفاته فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ (١) .

وحينئذ يتعين القول بأن مؤلف كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" قد أخرج كتابه للناس فى أخريات الدولة الفاطمية بمصر ، وأن تأليفه كان فى أواخر النصف الثانى من القرن السادس للهجرة .

---

(١) أنظر ترجمته فى آبن خلكان ، فى حرف الطاء .

التعريف بكتاب
"محاسن الملوك"
لبعض الفضلاء

هذا تعريف وجيز عن ذلك الكتاب الذى أشرتُ إليه كثيرا فى "التصدير" وفى الحواشى . كتبتُه ليكون القارئ محيطا بجميع العيون والمستندات التى لها علاقة بكتاب "التاج" .

عثرتُ على النسخة الأصلية لكتاب "محاسن الملوك" فى خزانة طوب قپو بالقسطنطينية، تحت رقم ٣٠٥٢ . وهو عبارة عن القسم الأول من مجموعة تشتمل أيضا على كتاب آخر يتعلق برسل الملوك وسفرائهم(١) .

فأما "محاسن الملوك" فيقع فى ١٢١ صفحة، وفى كل صفحة منها ١٥ سطرًا . وعلى طرّته أنه "جمعه بعض الفضلاء" . وقد ابتدأه مؤلفه بعد البسملة بقوله :

"الحمد لله المتطوّل بالعوارف، المميّز بالمعارف، وجاعل الملوك قائمين فى الأرض بالوظائف التى على الخلائف، الآمر بإعظام السلطان لقيامه بأعباء الإيالة، وآنتضائه للخلق بالكفالة؛ وتقلده ما تنتظم به أحوال العالم فى المعاش الذى هو وسيلة معادهم، وسبب إحرازهم لأصل الخير وآزدياده . أحمده على نعمه . . . ."

ثم نوّه بالملك الذى ألف له هذا الكتاب وسماه "مولانا السلطان الملك العزيز" . وقد نعت المؤلف نفسه "بالمملوك" . ثم ختم الكتاب بالدعوات لهذا السلطان . وكثّر فى غضونها التنويه به إذ قال : "ولا زال مولانا العزيز" .

(١) وقد نقلت نسخة من كل من هذين الكتابين بالتصوير الشمسى وأحضرتهما إلى دار الكتب الخديوية بالقاهرة .

وقد تصفحنا الكتاب فلم نجد أثرا آخر يدلنا على المؤلف أو عصره . فبحثنا عمن هو "السلطان الملك العزيز" هذا .

فرأينا أن هذا الأسم لم يكن إلا لثلاثة من ملوك الإسلام : اثنان منهما من بنى أيوب ، والثالث من سلاطين المماليك .

فهذا الثالث هو الملك العزيز بن برسباى . تولى سلطنة مصر فى سنة ٨٤١ هجرية ، ولكنه لم يجلس على سريرها سوى ٣ شهور فقط . فلا يكون حينئذ هو المعنى بالتفخيم والتعظيم الذى أورده المؤلف ، خصوصا أن الكتاب منسوخ فى سنة ٧٩٥ هجرية ، أى قبل أن يأتى هذا السلطان إلى الوجود بنصف قرن تقريبا .

أما السلطان الثانى المسمى "بالملك العزيز" فهو ابن الملك الظاهر غياث الدين غازى الأيوبى . تملك حلب فى سنة ٦١٣ ، بعد وفاة أبيه غياث الدين .

وكان هذا السلطان صغيرا فانتزع عمه الأفضل المُلْكَ منه فى سنة ٦٣٤ . ثم صارت حلب لعمه العادل . وتُوفِّى الملك العزيز هذا فى سنة خلعه ، أى ٦٣٤ . فتكون مدة حكمه ٢١ سنة . وقد كان يكون القول بأن الكتاب مؤلَّف له وباسمه وجيها وصحيحا ، لولا شهادة التاريخ بأنه تولى الملك وهو فى سن الطفولة مما جعل عمه ينتزع العرش منه . وفوق ذلك فإن الأوصاف الملوكانية والنعوت السلطانية الواردة فى أول الكتاب وآخره لا تطلق مطلقا على صاحب حلب ، ولا يمكن أن تنطبق على غير سلطان مصر ، فإنه هو الذى كان متفردا بلقب "السلطان الملك" . وأما مَنْ عداه من أولياء الأمر فى الأصقاع الأخرى مثل حلب وحماة وغيرهما فإنما كان لقبهم الوحيد هو "الملك فلان" أو "فلان صاحب حلب أو صاحب حماة" لا غير ، دون إضافة لقب "السلطان"

على آسمهم مهما كانت الأحوال . تشهد بذلك الكتب المؤلفة لهم والتاريخ يؤيد هذه الشهادة التى تستفاد بالصراحة و بالبداهة من آصطلاح القوم فى تلك الأيام، على ما تراه فى " التعريف بالمصطلح الشريف " لأبن فضل الله العمرى ، وفى "صبح الأعشى" للقلقشندى .

لذلك لم يبق لنا سوى القول بأن الكتاب مؤلَّف بآسم ثالث الملوك المعروفين "بالملك العزيز" وهو الملك العزيز آبن السلطان صلاح الدين الأيوبى . ذلك الذى جلس على عرش مصر بالنيابة عن أبيه فى حياته ، ثم آستقل بملكها من سنة ٥٨٩ الى سنة وفاته وهى سنة ٥٩٥ ، أى إن مدّة حكمه كانت ست سنين .

وقد جرت عادة المؤلفين فى الأيام المتقدمة أن يُسَمِّىَ الواحدُ منهم نفسه "المملوك" إذا خدم بتأليفه أحد الأكابر وخصوصا أحد الملوك أو السلاطين . وهذا الآصطلاح كان متفشيا بمصر خصوصا فى عصر المماليك ، وعلى الأخص فى أيام الأيوبيين من قبلهم .

والمتصفح لهذا الكتاب يرى من أسلوبه ومن عباراته أنه مَصُوغ على الطريقة المألوفة فى أيام الأيوبيين بمصر . ولا يمكن القول ـ كما قد يستفاد من عبارة الختام ـ بأن تأليف هذا الكتاب كان فى " شهر المحرم أوّل سنة ٧٩٥ " . لأن هذه السنة لم يكن فيها رجل من الملوك فى العالم الإسلامى يسمّى "بالملك العزيز". فوجب حينئذ الجزم بأن هذه السنة هى سنة آنتساخ الكتاب، لا سنة تأليفه . ويكون قد مضى قرنان بين وقت تأليفه و بين وقت آنتساخه .

أما الكتاب ، فهـذه موضوعاته :

أدب الوقوف على باب السلطان .

أدب الداخل على السلطان .

الأدب فى تنجز وعد السلطان .

الأدب فى تعهد السلطان خَدَمَه .

أدب من يجالس السلطان .

الأدب فى الأنصراف عن مجلس السلطان .

أدب من يخاطب السلطان .

أدب من سأله السلطان عن آسمه .

أدب مؤاكلة السلطان .

أدب السلطان فى إقامة الحدود والتعزير .

الأدب فى عزاء الملك .

أدب التعزية بالملوك .

الأدب فى مسامرة الملوك .

أدب مناصحة السلطان .

الأدب فى آستعطاف الملوك .

أدب من أسدى إليه الملك يدا .

أدب من رفع الملك قدره .

الأدب فى ممازحة الملك .

أدب الصلاة مع السلطان .

الأدب فى مسايرة السلطان .

أدب حِجَاب الملك وحُجّابه .

الأدب فى الرسول .

أدب الملك فى منامه .

الأدب فى آتخاذ الكاتب .

الأدب فى آستعمال الملك الأناة وترك العجلة .

سخاء الملوك .

أدب الملوك إذا دهمهم أمر .

وفى كل هذه الأبواب آستطرادات تتعلق بالموضوع ، تعلقا قريبا أو بعيدا .

وقد سطا المؤلف على كتاب "التاج" فأخذ منه كل ما يتعلق بهذه الموضوعات تقريبا[1] واختصر بعض فصوله اختصارا كليا أو جزئيا، وأضاف إليه بعض معلومات ليحلل سرقته أولا ، وليجعل لنفسه ثانيا حقا فى إسناد التأليف إليه وفى خدمة سلطان العصر به .

(١) أنظر جدول السرقات فى صفحة ٦٩ من "التصدير" الذى وضعناه فى أول هذا الكتاب .

فهارس أبجدية

لكتاب "التـــاج"

الفهرس الأبجدى الأول(١)

بأسماء الكتب التى آستخدمتُها للمراجعة وتحرير الحواشى

﴿ ا ﴾

الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبى الريحان البيرونى، طبع العلامة سخاو المستشرق الألمانى بمدينة ليبسيك سنة ١٨٧٨

آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٤٨

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى المعروف بالبشارى، طبع العلامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٧ [وهو الثالث من المكتبة الجغرافية العربية]

إرشاد الألباء إلى طبقات الادباء = معجم الأدباء

أساس البلاغة للزمخشرى، طبع القاهرة سنة ١٢٩٩

أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، طبع القاهرة سنة ١٢٨٠

الاشتقاق لابن دُريد، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٥٤

الأصنام لابن الكلبى (نسخة مخطوطة بخزانة كتبى وجار طبعها بتحقيق فى مطبعة بولاق فى هذا العام)

إعجاز القرآن للقاضى أبى بكر الباقلانى، طبع القاهرة سنة ١٣١٥

الأعلاق النفيسة لأحمد بن عمر بن رُسْتَه، طبع العلامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٩١ [وهو السابع من المكتبة الجغرافية العربية]

المحاسن والأضداد للجاحظ طبع العلامة فان فلوتن بمدينة ليدن سنة ١٨٩٨

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، فى ٢٠ جزءا طبع بولاق سنة ١٢٨٥هـ، والجزء الحادى والعشرون منه طبع الأستاذ رودلف برونو بمدينة ليدن سنة ١٣٠٥هـ

فهارس **الأغانى** للعلامة جويدى وزملائه . طبع ليدن سنة ١٨٩٥ — ١٩٠٠

الأمالى (وذيله) لأبى علىّ القالى . طبع بولاق سنة ١٣٢٤هـ

الأنساب للسمعانى، طبع العلامة مرجوليوث بمدينة لوندره سنة ١٩١٣

(١) هذه الفهارس الأبجدية كلها لم يرد فيها شىء من المسميات الواردة فى التصدير . فتنبه لذلك .

﴿ خ ﴾

خاتمة الأشمونى (كتاب فى النحو) طبع القاهرة، مرارا

خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق سنة ١٢٩٩ هـ

الخطط للمقريزى، طبع بولاق سنة ١٢٧٠ هـ وطبع فييت بالقاهرة سنة ١٩١١

﴿ د ﴾

ديوان حسان بن ثابت طبع تونس سنة ١٢٨١ هـ، وطبع القاهرة سنة ١٣٢١

ديوان الفرزدق، طبع العلامة بوشير ومعه ترجمته له إلى اللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٧٢ ــ ٧٥

﴿ ذ ﴾

ذيل الأمالى للقالى = الأمالى

﴿ ز ﴾

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهرى، طبع بولس راويس بمدينة باريس سنة ١٨٩٤

﴿ س ﴾

سُلوان المطاع فى عدوان الأتباع لأبن ظفر الصقلى طبع الحجر فى القاهرة سنة ١٢٠٨ هـ [وترجمته الإنكليزية بمعرفة العلامة ميشل أمارى الطليانى، طبع لوندرة سنة ١٨٥٢]

سيرة ابن هشام، طبع المرحوم الزبير رحمت باشا ببولاق سنة ١٢٩٥؛ وطبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٥٦ ــ ١٨٦٠ م

﴿ ش ﴾

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لأبى الفلاح عبد الحىّ بن أحمد بن محمد العسكرى المعروف بابن العماد الحنبلىّ [مخطوط بدار الكتب الخديوية نمرة ١١١٢ تاريخ]

شرح القاموس = تاج العروس

شرح نهج البلاغة = نهج البلاغة

شفاء الغليل للخفاجىّ، طبع القاهرة سنة ١٢٨٢ هـ

﴿ ص ﴾

صبح الأعشى للقلقشندى (الجزء الأول، طبع بولاق سنة ١٩٠٥)

الصحاح للجوهرىّ، طبع بولاق سنة ١٢٨٢

صحيح البخارىّ، طبع السلطان عبد الحميد الثانى ببولاق سنة ١٣١١ ــ ١٣ فى تسعة أجزاء

﴿ ط ﴾

طبقات الشافعية للسبكى، طبع القاهرة سنة ١٣٢٤

الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع العلامة سخاو وزملائه بمدينة ليدن من سنة ١٣٢١ هـ [ولا يزال العمل فيه جاريا إلى الآن.]

﴿ ل ﴾

لسان العرب لابن المُكَرَّم المعروف أيضا بابن منظور، طبع بولاق سنة ١٣٠٠ – ١٣٠٨ هـ

لف القماط فى تصحيح ما استعمله العامة من المعرب والدخيل والمولَّد والأغلاط، للسيد حسن صدّيق خان صاحب مملكة بهوبال بالهند (وعليه هوامش للسيد نور الحسن) طبع، حجر بالهند سنة ١٢٩٦

﴿ م ﴾

مبادئ اللغة لابن الخطيب الإسكافى طبع القاهرة حديثا سنة ١٣٢٥ هـ

المحاسن والأضداد، المنسوب للجاحظ، طبع العلّامة فان فلوتن بمدينة ليدن سنة ١٨٩٨

محاسن الملوك لبعض الفضلاء [نسخة محفوظة بدار الكتب الخديوية نقلا بالفتوغرافية عن الأصل المحفوظ بخزانة طوبقبو بالقسطنطينية]

المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقى، طبع العلّامة فريدريك شوالى بمدينة جيسن سنة ١٣٢٠ هـ – ١٩٠٢ م

محاضرات الأدباء للراغب الإصفهانى، طبع محمد عارف باشا رئيس جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ

محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر لعلى دده، طبع القاهرة سنة ١٣٠٠

المخصص لابن سيده، طبع بولاق سنة ١٣١٦ – ١٣٢١

مسالك الممالك لإبراهيم الإصطخرى المعروف بالفارسى، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٠ [وهو الأول من المكتبة الجغرافية العربية]

كتاب **المسالك والممالك** لابن حوقل، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٣ [وهو الثانى من المكتبة الجغرافية العربية]

المسالك والممالك عن ابن خرداذبه، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ – ١٨٨٩ م [وهو السادس من المكتبة الجغرافية العربية]

المشتبه فى الأسماء للذهبى، طبع العلّامة ده يونغ بمدينة ليدن سنة ١٨٨١

مطالع البدور فى منازل السرور لعلاء الدين على البهائى الغزولى، طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ – ١٣٠٠

المعارف لابن قتيبة، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٢٦٧ هـ – ١٨٥٠ م

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشى طبع العلّامة دوزى بمدينة ليدن سنة ١٨٨١

معجم الأدباء لياقوت الحموى طبع العلّامة مرجوليوث بالقاهرة، من سنة ١٩٠٧ [ولا يزال العمل جاريا للآن]

معجم الثياب عند العرب للعلامة دوزى طبع مدينة أمستردام سنة ١٨٤٥

المعجم الفارسىّ العربىّ الانكليزىّ لرِشاردصُن ، طبع لونده سنة ١٨٢٩

المعرّب من الكلام الأعجمىّ لجواليق طبع العلّامة سخاو بمدينة ليبسك سنة ١٨٦٧

مُعيد النِّعَم ومُبيد النِّقَم للسبكى ، طبع لونده

مفاتيح العلوم للخوارزمىّ ، طبع العلّامة فان فولتن بمدينة ليدن سنة ١٨٩٠

مفردات ابن البيطار [الترجمة الفرنسية للعلّامة لوسيان لوكلير] طبع باريس سنة ١٨٧٧ — ١٨٨٣ م

المفضّليات ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٤

مقدّمة ابن خلدون ، طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ

الملاهى للضبّىّ [نسخة مخطوطة بدار الكتب الخديوية نقلا بالفتوغرافيا عن الأصل المحفوظ بخزانة طوب قبو بالقسطنطينية]

مناقب الشافعىّ لأبى عبد الله محمد بن عمر الرازىّ ، طبع حجر بالقاهرة فى ١٧ شوّال سنة ١٢٧٩

﴿ ن ﴾

نقائض جرير والفرزدق طبع العلامة بيفن بمدينة ليدن سنة ١٩٠٥

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لأبى المحاسن تغرى بردى ، طبع العلامة جونبولّ بمدينة ليدن سنة ١٨٥١ — ١٨٦١

النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، طبع القاهرة سنة ١٣١١

نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، [عن النسخ المنقولة بالفتوغرافيا المحفوظة بدار الكتب الخديوية]

نهج البلاغة (شرحه لابن أبى الحديد ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٩)

﴿ و ﴾

الوسيط فى تراجم أُدباء شنقيط للمرحوم الشيخ أحمد الأمين الشنقيطى ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)

وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبع بولاق سنة ١٢٧٥ هـ

الفهرس الأبجدى الثانى
بأسماء المصنفات المذكورة فى متن الكتاب أو فى حواشيه وتكميله

الفهرس الأبجدى الثالث

بأسماء الرجال المذكورين فى "التاج" وحواشيه وتكميل الروايات

(تنبيه : الرقم الكبير يدل على الصفحة من متن الكتاب، والرقم الصغير يدل على الصفحة من حاشية الكتاب ومن تكميل الروايات، والشرطة ـ تحت الرقم الكبير أو الصغير تدل على تكرار الاسم. وهكذا الشأن فى الفهارس التالية)

(ا)

﴿ ب ﴾

﴿ ث ﴾

﴿ ج ﴾

﴿ ح ﴾

خ

د

ذ

ر

﴿ ش ﴾

﴿ص﴾

﴿ض﴾

﴿ط﴾

﴿ع﴾

﴿ غ ﴾

﴿ ف ﴾

(م)

ن

ه

و

ى

الفهرس الأبجدىّ الرابع
بأسماء الأُمم والقبائل والشعوب والبيوت ونحوها

الفهرس الأبجدى الخامس والأخير

بأسماء البلاد والمدن والمواضع والأماكن ونحوها

تم الكتاب

والحمد لله أولا وآخرا

pour ce merveilleux artiste dont il reproduit d'ailleurs plusieurs passages. Il aurait voulu ainsi, en écrivant ses *Mœurs des rois*, enrichir la littérature arabe d'un *Kitâb el Tâdj*, qui ferait en quelque sorte le pendant du monument des Sassanides.

Voilà la raison qui m a déterminé à donner les deux titres à mon édition, imitant en cela l'exemple du Codex de Sainte Sophie.

***

A la présente édition, j'ai ajouté des index alphabétiques, aussi soigneusement faits que possible, afin de provoquer chez les orientaux l'habitude de recourir à cet instrument de travail d'une importance capitale, toutes les fois qu'ils essayeront d'éditer un ouvrage arabe d'une certaine valeur.

AHMED ZÉKI PACHA.

Le Caire, Avril 1914.

P.S. — Je dois renvoyer les lecteurs arabisants à mes prolégomènes arabes placés d'autre part en tête de la présente édition.

On y trouvera des renseignements détaillés et des notes critiques sur le livre et son auteur, sur les deux manuscrits conservés à Stamboul et sur celui d'Alep, ainsi qu'une dissertation documentée sur les deux titres de cet ouvrage.

Je crois avoir réussi à prouver que Djâhiz est incontestablement l'auteur du livre que je présente aux érudits de l'Orient et de l'orientalisme.

A. Z.

le copiste indiquait son nom, la bibliothèque pour laquelle il l'avait exécuté, dans la ville d'Alep, en l'an 885 de l'Hégire.

Si le texte d'Alep nous renseigne sur sa date, en revanche il ne porte aucun titre.

On verra dans mes prolégomènes arabes tout le parti que j'ai tiré, quoique tardivement, de ce manuscrit qui venait de tomber entre mes mains d'une façon si inattendue.

Qu'il me suffise ici de remercier M. Sherman qui a eu l'amabilité de mettre son manuscrit à mon entière disposition. J'ai pris les *fac-similés* de la première et de la dernière page, et je les ai ajoutés à ceux que je m'étais déjà procurés d'après les deux manuscrits de Stamboul, les deux seuls connus et dont l'un a été découvert par moi à Top-Kapou.

***

Les nombreux renseignements que nous trouvons dans le présent volume sont, à n'en pas douter, reproduits par Djâhiz d'après des traités persans consacrés à l'étiquette et au protocole royal. Quelquefois même, comme nous l'avons fait ressortir, Djâhiz nous induit simplement en erreur en reproduisant, comme existant à son époque, un cérémonial qui était à coup sûr tombé en désuétude. Il fait souvent allusion au آيين "Ayïn" des Persans, au "Ayïn" des Cosroés, à leur "Ayïn" au "Ayïn" tout court, livre de l'étiquette sassanide que l'auteur arabe met à contribution.

Nous savons d'autre part qu'il y avait chez les Persans un *Kitâb el Tâdj* qui a été traduit en arabe par Ibn el Moqaffa'. Il est très vraisemblable de supposer que cette version a été mise à profit par Djâhiz qui avait une véritable admiration

que le livre de Top-Kapou n'est pas mentionné dans le soi-disant *catalogue* et que le texte de Djâhiz se trouve dans un volume contenant tout d'abord deux traités d'Ibn el Moqaffa'. Il est encore à remarquer que ce titre d'*El Tâdj* n'est donné par aucun des auteurs qui ont parlé des œuvres de Djâhiz. Tous, comme lui-même d'ailleurs, font mention seulement d'un livre intitulé : "*Mœurs des rois.*"

Par un hasard heureux, il m'a été donné d'utiliser encore une troisième copie, mais seulement à la dernière minute.

Depuis assez longtemps déjà, le texte de Djâhiz avait été imprimé, et lorsque dans les premiers jours de décembre 1913 mes prolégomènes arabes et les additions et index étaient enfin presque sous presse, j'eus la bonne fortune de recevoir au Caire la visite de M. Sherman. Il venait d'acquérir à Constantinople la belle collection des manuscrits orientaux de Khâlis Bey, un des favoris de l'ex-Sultan Abdul Hamîd II. Il me pria d'examiner cette collection et de lui faire le catalogue de la partie arabe. Quelle ne fut pas ma surprise et surtout ma satisfaction lorsque j'y rencontrai une nouvelle copie insoupçonnée de *Kitâb el Tâdj !*

Dépourvu de la moindre indication au sujet du titre même de l'ouvrage, rempli d'autre part d'une foule d'erreurs, souvent grossières, présentant enfin plus d'une lacune, et amputé pour ainsi dire vers sa fin, par le copiste, qui a sauté une quinzaine de feuilles environ, le manuscrit que j'avais sous les yeux présentait cependant pour moi, un intérêt tout particulier.

A l'encontre des codex que j'ai mis à contribution pour ma présente édition le manuscrit contenait un colophon où

*
* *

J'ai pris pour base de cette édition le manuscrit conservé à la Bibliothèque de Top-Kapou, que je désigne par la lettre س; il porte le titre de *Kitâb el Tâdj* (كتاب التاج).

La seconde copie de cette œuvre, conservée à la Bibliothèque de Sainte Sophie, a pour titre أخلاق الملوك "*Mœurs des rois.*" J'en ai obtenu dans la suite une copie photographique qui a servi à la révision de mon édition, où elle est indiquée par la lettre ص. Les deux textes, malgré leurs nombreux défauts, se sont complétés, grâce surtout à des recherches patientes et laborieuses que j'ai entreprises dans une foule de documents imprimés et manuscrits.

Le texte de Top-Kapou portait uniquement le titre de كتاب التاج *Kitâb el Tâdj*; celui de Sainte Sophie portait écrit de la main originaire le titre de كتاب أخلاق الملوك *Mœurs des rois,* avec le mot التاج ajouté par une main moderne sur la lettre ب du titre. Nul renseignement sur la provenance ou sur la date, de l'une ou de l'autre copie, ni au commencement ni à la fin. Sauf pourtant que le copiste de Sainte Sophie a ajouté à la fin de son manuscrit cette mention: وكان بالأصل سقامة "L'original qui a servi à cette reproduction était en mauvais état."

La copie de Top-Kapou portait donc formellement le titre *Kitâb el Tâdj* qui était reproduit incidemment en tête de la seconde. Dans quelles conditions cette suscription, évidemment moderne, a-t-elle été écrite sur le manuscrit de Sainte Sophie ? Mystère. L'auteur de cette indication l'aurait-il prise dans le manuscrit de Top-Kapou ? Rien n'autorise cette hypothèse, puisque nous ne possédons aucun indice à cet égard. D'ailleurs cela est peu probable, étant donné

les Abbassides et nous dépeint les stratagèmes qu'ils employaient pour reconquérir la faveur du monarque ou des grands dignitaires de l'Empire. Il nous décrit le protocole qui régit les rapports des Princes avec le Souverain. Une légende est accréditée en Orient qui dépeint le khalife El Mansour sous les traits d'un avare. Djâhiz combat cette légende avec énergie et produit pour soutenir sa thèse des preuves qu'emploieront ensuite Tabarî et d'autres.

Cérémonial employé lorsque le khalife est malade ; façon dont les persans et arabes se comportent avant et après l'Islam, dans les festivals et les réunions intimes ; visites des souverains aux grands dignitaires ; attitude des khalifes pendant les grandes crises qui ébranlent leurs trônes, etc., etc., tout cela est passé en revue par notre auteur.

Le *Livre de la Couronne* est peut-être l'ouvrage où il y a le plus d'ordre relatif, parmi les productions que nous devons à la plume féconde de Djâhiz. Le souci constant qu'il a de ne pas lasser le lecteur l'entraîne ordinairement en effet à traiter, à tout propos et quelquefois hors de propos, les sujets les plus disparates, les plus variés, comme les plus opposés et même les plus contradictoires.

Il explique d'ailleurs lui-même sa méthode dans son grand traité littéraire et indique les moyens de fixer l'attention du lecteur. "Si le livre, dit-il, est de longue haleine, l'auteur, pour captiver et tenir en éveil l'attention du lecteur, doit recourir à divers subterfuges, pour être toujours en faveur auprès de lui. Il est, par exemple, nécessaire de varier les sujets, sans toutefois dépasser les limites du cadre qu'il s'est imposé. Il faut en un mot le renseigner et l'instruire." (1)

---

(1) Cf. entre autres, BAYÂN, t. II, p. 154, et HAYAWÂN, t. V, pp. 50, 51, 64 et 65.

orientaux, les Abbassides suivaient les règles établies par les Sassanides. Cela s'explique d'ailleurs par la contribution armée que les Persans apportèrent pour mettre les Abbassides sur le trône. Les plus grands personnages de l'Empire, du reste, étaient d'origine persane. Mais Djâhiz n'oublie pas néanmoins de nous renseigner sur l'étiquette purement arabe.

Je me permets d'attirer l'attention du lecteur sur *l'interview* (dans le sens actuel du mot) que Djâhiz prit à l'un de ses plus illustres contemporains, Ishâq Ibn Ibrâhîm el Mawsilî. Cette *interview* rappelle les informations de nos plus grands *reporters* modernes. Elle nous initie à la vie intime des khalifes omayyades et abbassides. Nous assistons à leurs divertissements, alors qu'ils boivent en écoutant des chansons. Djâhiz mélange à sa narration ses appréciations personnelles ; il y ajoute des notes complémentaires, d'où résulte une confusion avec les paroles mêmes de l'interviewé que le système de ponctuation nous a permis de dégager et de rendre claires (voir pages 31 à 43 du texte arabe).

Djâhiz nous rapporte tranquillement quelques-unes des particularités de l'étiquette sassanide, alors que ces particularités étaient devenues incompatibles avec l'Islam. Entraîné par son sujet, il oublie même d'attirer le moins du monde l'attention du lecteur sur ce fait.

Il nous renseigne sur la toilette et le costume des souverains ainsi que sur l'usage des parfums qui leur étaient exclusivement réservés. Il nous raconte plusieurs anecdotes et cite des mots historiques. Il nous apprend qu'il ne faut jamais appeler le souverain par son nom, sauf dans la poésie. Il nous donne les raisons de la disgrâce dont furent frappés quelques courtisans sous

bution une foule d'auteurs pour arrêter le texte de façon aussi rigoureuse que possible. Partout où il était nécessaire, pour obvier au défaut de lecture, provoqué par le système graphique de l'alphabet arabe, j'ai mis les points-voyelles pour fixer la prononciation de tel ou tel mot qui présentait une difficulté quelconque. De même pour l'intelligence du texte, j'ai utilisé le nouveau système de ponctuation, adapté par moi à la grammaire arabe, ce qui facilite la lecture en la simplifiant.

Les divisions en paragraphes, destinées à éviter les confusions, ainsi que les manchettes qui jouent un rôle utile pour indiquer les changements de sujet, feront de mon édition, un travail à peu près complet et soigneusement présenté.

Les notes critiques et documentaires, auxquelles s'ajoutent souvent de nombreuses références, permettront au lecteur de trouver facilement tous les détails complémentaires qu'il pourrait souhaiter.

***

J'avais pensé faire une analyse en français du présent ouvrage, mais cela pourrait être un excellent exercice pour un jeune orientaliste qui se trouvera parfaitement en mesure de le faire, grâce aux indications bibliographiques et aux notes explicatives que j'ai semées à profusion à travers tout l'ouvrage.

Je me contenterai donc de dire un mot sur le sujet traité par Djâhiz.

Dans ce livre, l'auteur a voulu nous faire un tableau complet de l'étiquette en usage à la Cour de Bagdad sous les Abbassides, ainsi que du cérémonial adopté par les Omayyades à Damas.

De même que nous voyons aujourd'hui employer l'étiquette européenne, française ou anglaise, à la Cour des Souverains

plus ou moins honnêtes qui lui ont été faits, depuis Ṯabarî lui-même qui ne le nomme pas une seule fois dans sa vaste compilation historique.

Mass'oudî reproduit souvent des passages entiers du Kitâb El Tâdj, sans indiquer l'auteur ni l'ouvrage. Lorsqu'il est amené à citer une appréciation personnelle de Djâhiz, l'auteur des "Prairies d'Or" se contente d'écrire : *des personnes érudites qui s'occupent de littérature ont dit....*

Cependant Mass'oudî consacre à Djâhiz un article élogieux où il rend hommage à sa profonde érudition et à son talent encyclopédique.

Je ne crois pas utile de citer tous les auteurs postérieurs qui sont dans le même cas, car ils sont légion. Je me suis efforcé d'ailleurs, dans les annotations du présent ouvrage, de relever, dans la mesure du possible, tous les emprunts qui lui ont été faits. Du reste, un tableau de ces emprunts a été ajouté à mes prolégomènes arabes, en tête du présent volume.

La fécondité de Djâhiz est connue de tous ceux qui ont étudié la littérature arabe. L'orientaliste hollandais Van Vloten avait annoncé son intention de dresser la liste des œuvres de Djâhiz, lorsqu'il fut surpris par la mort. Je me suis donné la tâche ardue et délicate de consacrer à ce sujet une monographie détaillée et documentée, qui paraîtra bientôt, je l'espère.

***

Quant au livre même que je publie aujourd'hui, étant donné qu'il fait partie des ouvrages qui inaugurent la série de l'œuvre de la **Renaissance des Lettres Arabes**, j'ai essayé d'en faire une véritable édition nationale. J'ai mis à contri-

sentés, ces ouvrages, fussent-ils médiocres à son sens, étaient cependant accueillis avec enthousiasme.

Notre subtil auteur n'ignorait pas les avantages de ce que nous appelons la vogue. Djâhiz mettait à profit cette pensée juste et que devait exprimer malicieusement La Bruyère en écrivant: "Il n'est pas si aisé de se faire un nom par un ouvrage parfait, que d'en faire valoir un médiocre par le nom qu'on s'est déjà acquis."

Djâhiz se plaint d'ailleurs — et cela ne manque pas de piquant — d'avoir été obligé de recourir à cette supercherie. Il déplore que ses ouvrages les plus soignés n'aient eu vis-à-vis des jaloux et des détracteurs d'autre tort que *d'être signés d'un auteur contemporain.*

Le même subterfuge fut employé par des auteurs postérieurs qui voulurent à leur tour exploiter la célébrité que Djâhiz s'était acquise, mais la ruse eut alors moins de succès.

Djâhiz est, d'autre part, le littérateur qui a été le plus pillé par ses successeurs.

De nombreux plagiaires se font un devoir de s'approprier non seulement ses idées mais encore ses expressions et les formules qui caractérisent son style d'une manière si typique. Leur seule préoccupation en cette occurrence, c'est d'éviter soigneusement de le nommer, sauf à de très rares exceptions. C'est à la faveur d'une inadvertance heureuse qu'ils nomment parfois Djâhiz. Quand ils rapportent ses paroles, au lieu de citer son nom, ils écrivent d'habitude : *on* a vu, *on* a rapporté, *on* a assisté. Ils ont organisé à son endroit une véritable conspiration du silence.

Je me suis attaché pour le cadre restreint du livre que je présente aujourd'hui au public à faire ressortir les emprunts

ou par qui que ce soit. Ils se recommandent d'eux-mêmes. Réunissant avec un scrupule parfait tous les arguments qui peuvent être invoqués pour soutenir telle ou telle théorie, ils se distinguent en dehors de la solidité du fond par la noblesse du style et par la clarté et la simplicité de l'exposition. Ils sont aussi bien à la portée du vulgaire que de l'aristocratie ; les intelligences les plus simples peuvent en profiter comme les esprits les plus cultivés." (1)

On peut se renseigner complètement sur la doctrine de Djâhiz en consultant le vaste traité littéraire de son disciple, Ibn Abi el Hadîd qui le désigne chaque fois qu'il parle de lui, et il en parle souvent, sous le nom de "Notre maître Abou Osman (شيخنا أبو عثمان)."

La méthode littéraire de Djâhiz, adoptée par plusieurs littérateurs arabes, à pour caractère essentiel le souci constant de tenir en éveil l'attention du lecteur, de ne jamais laisser languir l'intérêt de l'ouvrage. Celui de ses disciples qui l'admirait le plus, au point qu'on peut dire qu'il avait pour Djâhiz un véritable culte, Abou Hayyân Tawhîdî, a, selon moi, réussi à l'égaler et même à le surpasser quelquefois. Je suis heureux de posséder de ce dernier deux grands ouvrages (2), photographiés d'après les originaux conservés à Stamboul.

Comme on l'a remarqué (entre autres Mr. Van Vloten), Djâhiz, pour répandre ses idées et pour s'assurer l'accueil bienveillant du public a eu recours à un ingénieux subterfuge : il nous avoue franchement qu'il avait publié quelques traités sous le nom du grand écrivain Ibn el Moqaffa'. Ainsi pré-

(1) Cf. Bayân. t. II, p. 157.

(2) Le Kitâb الامتاع والمؤانسة de la Bibliothèque de Top-Kapou, et le Kitâb البصائر والذخائر de la Bibliothèque de Fâtih.

ou de l'autre cause. Djâhiz sait mettre en valeur et en évidence les mérites des deux tribus concurrentes.

Aussi, ses contemporains n'ont-ils pas manqué de lui reprocher cette dualité d'opinion. Mais ces attaques ne l'effrayaient nullement et il trouve la réponse judicieuse à ces critiques en déclarant "qu'il se borne à exposer les arguments de deux camps opposés, les faisant parler par sa bouche, en *reporter* fidèle, qui rapporte consciencieusement les opinions les plus diverses pour mieux les faire connaître au grand public. Quant à ses idées personnelles, ajoute-t-il, elles sont notoirement connues."(1)

Et nous savons qu'il les défend avec tout le talent dont il peut disposer.

Le brillant khalife El Mâmoun, qui n'était pas un esprit médiocre, se fit apporter les livres de Djâhiz sur *l'Imamat* (pouvoir spirituel souverain) et les donna à un de ses hommes de confiance, Yazîdî, dont il appréciait le sain jugement, pour qu'il lui en fît un compte-rendu succinct mais exact. Vivement intéressé par ce que lui en dit ce critique éclairé, El Mâmoun voulut les lire lui-même et convoqua Djâhiz qu'il félicita en ces termes : "Des personnes dont l'esprit judicieux nous est connu et en qui nous avons la plus grande confiance, nous ont informé que vos livres étaient des ouvrages de valeur. Nous avons pensé néanmoins que la critique pouvait en être trop élogieuse, aussi avons-nous voulu les lire nous-mêmes. Nous avons constaté avec plaisir que vos œuvres méritaient ces éloges et que l'appréciation flatteuse qu'on nous en avait donnée n'était pas exagérée. Examinant ces livres avec le soin le plus méticuleux, nous avons reconnu leur grand intérêt. Ils n'ont pas besoin d'être prônés ou défendus par leur auteur

(1) Voir l'introduction de son grand ouvrage, *Kitâb el Hayawân*

convaincre ses contradicteurs les images les plus vives et les termes les plus osés, selon ses habitudes littéraires.

Quelqu'un lui demandait un jour comment le Coran avait pu être *créé*, et Djâhiz de répondre: "Comme un homme, comme une femme, comme une vache, en un mot comme tout être quelconque mâle ou femelle."

Cette réponse, qui traduit sa pensée de la manière la plus claire, la plus crue, fut interprétée par ses adversaires de façon malveillante et leur parti-pris en dénatura le sens.

N'imaginèrent-ils pas en effet d'en conclure et de répandre *urbi et orbi* que Djâhiz professait que le Coran pouvait devenir tantôt un homme, tantôt une femme, etc. ?

L'école motazilite de Bassora, dont Djâhiz était un des plus grands représentants, consacrait la préséance d'Abou Bakr, le premier khalife rachidite, à l'encontre notamment de l'école chéïte qui soutenait et soutient encore que la succession de Mahomet au pouvoir pontifical devait être dévolue à son gendre, Aly, le quatrième khalife rachidite. Malgré sa conviction, Djâhiz écrivit cependant un livre à l'intention de cette dernière école, livre dans lequel notre auteur réussit peut-être mieux que les partisans les plus déterminés de Aly à mettre en lumière les mérites de ce khalife et à faire ressortir les titres qui le désignaient en première ligne pour recueillir directement la succession du Prophète

Quand éclata la grande querelle entre Omayyades et Abbassides, Djâhiz, en brillant avocat, sut exposer avec une égale éloquence et même avec une égale désinvolture, les titres des uns et des autres dans deux traités différents.

S'agit-il de faire ressortir les titres nobiliaires de telle ou telle tribu ? Mieux que n'importe quel partisan convaincu de l'une

ainsi à tout ce que lui inspire sa verve parfois outrancière, et même son extravagance.

Sa plume se complaît à nous retracer des tableaux de mœurs, des scènes de la vie publique ou privée, des incidents, des anecdotes, et il sait, à l'exclusion de la plupart des classiques arabes, trouver la formule la mieux appropriée, le mot juste, l'expression typique. Son amour de la couleur exacte est si vif qu'il ne recule pas au besoin devant l'emploi de termes crus ou grossiers et d'expressions réalistes ou même triviales. Il est en effet le seul parmi les littérateurs arabes, qui sacrifie sans hésiter la noblesse du style à la précision. C'est un réaliste épris de descriptions, et dont la verve inépuisable sait user avec hardiesse de tout ce qui peut servir à donner la note vraie à ses relations. Presque tous les autres classiques s'ingénient au contraire à éviter la moindre vulgarité dans leurs récits même les plus osés, et dans les gauloiseries arabes, s'il est possible de s'exprimer ainsi. En un mot, Djâhiz n'a jamais sacrifié, comme tant d'autres, le fond pour la forme convenue.

***

L'influence de Djâhiz s'est manifestée spécialement à deux points de vue différents. Il a fait double école : une école doctrinale de la secte motazilite et une école purement littéraire ; l'une et l'autre portent son nom.

Nombreux sont les adeptes de sa doctrine religieuse très hardie et qui confine à la libre pensée.

Il professait que le Coran est un objet *créé* (مخلوق), combattant ainsi la théorie qui a prévalu par la suite dans l'Islam orthodoxe, et qui soutient que le texte sacré est *incréé* (قديم = غير مخلوق).

Il défend très vigoureusement ses idées et emploie pour

PREFACE

Djâḫiẕ n'a pas besoin d'être présenté au public. C'est un des rares auteurs parmi les classiques arabes dont les œuvres, très populaires en Orient, jouissent d'une faveur particulière auprès des orientalistes européens, qui y trouvent le même intérêt que les Arabes.

Il est dans la littérature arabe, ce que sont dans la littérature française Voltaire et Renan. Qu'il traite les sujets les plus arides, qu'il aborde les questions les plus ardues, il réussit toujours à captiver le lecteur et à retenir son attention. Il parle de toutes choses avec un égal bonheur et sait dire chaque fois tout ce qu'il a à dire. Le lecteur le suit avec plaisir partout où sa fantaisie l'entraîne, sans eprouver en sa compagnie le moindre ennui, la moindre lassitude. L'intérêt ne languit pas un moment dans ses ecrits ; c'est un penseur doublé d'un artiste charmant. Son esprit léger, et souvent ironique, lui inspire les boutades malicieuses qui émaillent ses productions.

Il traite avec un rare talent d'exposition les questions les plus délicates et les plus subtiles qui ont divisé les musulmans aux premières heures de l'Islam, touchant le pouvoir spirituel suprême, le Khalifat. Il plaide avec succès une cause et soutient l'opinion contraire avec la même force de persuasion.

Ces tours de force sont, pourrait-on dire, la spécialité de Djâḫiẕ, qui presque dans toutes ses œuvres s'ingénie à vanter les mérites d'un personnage ou d'une idée pour employer, immédiatement après, toute son érudition à en peindre les défauts. Quoiqu'il en soit, il sait toujours charmer le lecteur et l'intéresse

DJÂḤIẒ.

LE LIVRE DE LA COURONNE

(KITAB EL TÂDJ.)